رواية

ثلاثة عشر

ستيف كافاناغ

ترجمة: أحمد م. أحمد

ثلاثــة عشر

الكتاب: ثلاثة عشر

المؤلف: ستيف كافاناغ

ترجمة: : أحمد م. أحمد

التصنيف: رواية

الناشر: دار مدارك للنشر

الطبعة الأولى: فبراير (شباط) ٢٠٢٠م

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ٧ - ٧٦٦ - ٤٢٩ - ٦١٤ - ٩ ٧٨ : ISBN

ترجمات مزون

"مزون" ... خطوة إنتاج مواد مترجمة تقدمها مدارك
بجهود الزملاء، ضمن خطوات العاشر، الذي اختار أن يكون
الدعم والجهد، هدية لأمه؛ مزنة رحمها الله، حيث كانت تتأمل
كالسحابة، وتفيض كالمطر، وتحب العلم بشغف.

تركي الدخيل
٢٠١٨/٩/٢٥

« بحسب معرفتك، هل ثمّة ما يعيقك عن الانضمام إلى هيئة المحلفين هذه؟»

لم يكن القتل هو الجزء الصعب، كان بداية اللعبة وحسب.

كان «جوشوا كين» يستعدّ، طوال حياته، من أجل هذه اللحظة. لقد فعلها من قبل، لكن هذه المرة، كانت العملية الأكبر.

إنها محاكمة جريمة القتل الأولى في المقاطعة. لقد ارتكب كين جريمة القتل ليحظى بأفضل موقع في الهيئة.

لكن ثمة شخصاً يتبعه كظلّه، شخصٌ يشكّ بأن القاتل ليس هو الرجل الذي تتم محاكمته.

يعرف كين أن الوقت ينفد، يريد فقط أن يصدر حكم الإدانة دون أن يُكتشف أمره.

لأن الطريقة الوحيدة لضمان الإدانة هي الحصول على مقعد في هيئة المحلّفين.

إلى نوح

يعود الاقتباس التالي أساساً إلى «بودلير»، لكنه سُرِقَ مرّات عدة منذ ذلك الحين. مع الشكر الجزيل لـ «كريسماكوير» لسماحه لي بأن أسرق الاقتباس عنه.

«**أكبر خديعة للشيطان هي أنه أقنع العالم بأنه غير موجود**».

من سيناريو فيلم «المشتبه بهم المعتادون» لكاتبه «كريستوفر ماكوير».

تمهيد

عند الساعة الخامسة وعشر دقائق، من بعد ظهر يوم رطب من أيام شهر ديسمبر، كان جوشوا كين مستلقياً على لوح من الورق المقوّى خارج مبنى محكمة الجرائم في «مانهاتن»، ويفكّر بقتل رجل. ليس أي رجل. كان يفكّر بشخص محدد بذاته. صحيح أن كين، في بعض المرات التي يجتاز فيها نفقاً، أو يراقب بعض المارّة، كان يفكّر بقتل أي شخص نيويوركي صادف أنه وقع في مرمى بصره. قد يكون سكرتيراً أشقر يقرأ رواية رومانسية في محطة القطار، أو موظّف بنك في شارع «وول ستريت» يهزّ مظلته بعد أن تجاهلوا نداءاته للتغيير، أو حتى طفلاً يُمسك بيد أمه وهما يجتازان ممرّ المشاة.

بماذا سيشعر إذا قتلهم؟ ما الذي سيقولونه قبل أن يلفظوا النفس الأخير؟ هل ستتغير نظرة عيونهم لحظة خروجهم من هذا العالم؟ شعر كين بدفقة لذّة جعلت الدفء يسري في جسده بينما كان يستكشف تلك الأفكار.

نظر إلى ساعته

الخامسة وإحدى عشرة دقيقة.

غمرت الظلال الحادّة الشاهقة الشارع مع ذوبان ضوء النهار في الشفق. حدّق في السماء ورحّب بخبوّ الضوء، كما لو أن أحدهم يُلبس المصباح حجاباً. كانت الإنارة الباهتة مناسبة لغايته. وهذه السماء التي تزداد قتامة، أعادت إليه أفكاره بالقتل.

بينما كان في الشارع، على مدى الأسابيع الستة الماضية، لم يراوده إلا القليل من الأفكار. ولساعات طويلة، حدّث نفسه عما إذا كان ينبغي لهذا الرجل أن يموت. وبغضّ النظر عن حياة هذا الرجل أو موته، تم التخطيط لكل شيء بعناية فائقة.

غامر كين قليلاً، كانت تلك طريقة ذكية، إذا كان من المفترض أن تبقى خارج إطار الشبهة، عليك أن تكون حذراً، لقد خبِرَ ذلك منذ زمن. إن الإبقاء على حياة الرجل ينطوي على مخاطرة كبيرة. ماذا إذا تقاطعت مساراتهما يوماً ما في المستقبل؟ هل سيعرف كين؟ هل سيتمكن من ربط الأحداث معاً؟

وماذا يحصل إذا قتله كين؟ يوجد دائماً مخاطر كثيرة في هذا النوع من المهام.

لكن تلك كانت مخاطر من النوع الذي يعرفه: مخاطر كان قد تجنّبها مرات كثيرة فيما مضى.

اقتربت شاحنة بريد من الرصيف وتوقفت قبالة كين. بدا السائق الذي ترجّل منها في أواخر الأربعينات من عمره، كان يرتدي ملابس موظّف البريد الرسمية. دقيق كالساعة. وبينما مشى الموظّف أمامه، وأصبح ضمن مدخل الخدمة في مبنى المحكمة، تجاهل كين المستلقي في الشارع. لا يوجد أدنى تغيير في هيئة متشرّد، لا في هذا اليوم، ولا في الأسابيع الستة المنصرمة. ما من تغيير على الإطلاق. وبينما كان عامل البريد يمشي أمامه، بدقّته كالساعة، تساءل كين ما إذا كان عليه أن يقتله.

لديه اثنتا عشرة دقيقة ليتخذ قراره.

«إلتون» كان اسم ساعي البريد؛ رجل متزوّج ولديه ولدان في سن المراهقة. يتناول إلتون أطعمة الحرفيين اللذيذة مرّة في الأسبوع، عندما تظنّ زوجته أنه يمارس رياضة الجري في الشارع، يقرأ روايات، بسعر دولار واحد للرواية، يشتريها من المتجر الصغير في «تريبيكا»، ويلبس حذاء من الفراء عندما يُخرج النفايات أيام الخميس. كيف سيكون الشعور لدى مراقبته وهو يموت؟

يستمتع جوشوا كين بمراقبة الآخرين عندما تتغيّر مشاعرهم. كانت مشاعر الخسارة والحزن والخوف بالنسبة إليه مشاعر ثملٍ وبهجة يفضّلها على أية مادة مخدرة قد تظهر على سطح هذا الكوكب.

جوشوا كين ليس كالآخرين. ليس هناك من يشبهه. نظر إلى ساعته، إنها الخامسة وعشرون دقيقة.

حان وقت التصرّف.

حكّ لحيته التي أصبحت كثّة الآن. متسائلاً ما إذا كان قد أُضيفَ شيء من القذارة والجمال إلى لونها، نهض عن وسادته الكرتونية متململاً وشدّ ظهره. فتسببت هذه الحركة بنفاذ رائحته إلى أنفه. لم يغيّر سرواله ولا جوربيه منذ ستة أسابيع، ولم يستحمّ أيضاً. لقد جعلته الرائحة يكمم أنفه.

يحتاج شيئاً ما لتخليص عقله من رجسه الخاص. عند قدميه، ثمة قبّعة كروية عفِنة مقلوبة احتوت قطعاً نقدية تبلغ دولارات عدة.

يتولّد شعور بالرضا عندما تصل المهمّة إلى نهايتها. عندما تدرك أن رؤيتك تحققت تماماً كما تخيّلتها. ومع ذلك، يعتقد كين أن من المثير جداً تقديم عنصر الحظ. لا يعرف «إلتون» مطلقاً أن قدره سيتحدد في هذه اللحظة، وليس من خلال كين نفسه، بل من خلال رمي قطعة نقود. تناول قطعة نقدية من فئة ربع دولار، نقر عليها بإصبعه، ثم قذفها في الهواء، أمسكها ثانية، وتركها تستقرّ على قفا يده. وبينما كانت قطعة النقود تغزل في رطوبة أنفاسه الباردة، قرر أن ظهور الصورة يعني موت «إلتون».

نظر إلى قطعة النقود اللامعة الجديدة فوق القذارة المتأصلة في بشرته وابتسم.

على بعد عشرة أقدام من مكان وقوف شاحنة البريد، تقف عربة شطائر «هوتدوغ». يُلبي البائع طلباً لرجل طويل لا يرتدي معطفاً. ربما خرج للتو بكفالة، وكان يحتفل بوجبة طعام حقيقية. أخذ البائع دولارين من الرجل، ولفت انتباهه إلى العلامة الموجودة في أسفل العربة. إلى جانب صور نقانق «كيلباسا» المشوية، يظهر إعلان لمحامٍ، ورقم الهاتف في الأسفل.

هل كنت قيد الاعتقال؟

أو متهم بجريمة قتل؟

اتصل بـ «إدي فلاين».

قضم الرجل شطيرة «الهوتدوغ»، وهزّ رأسه مبتعداً بينما كان «إلتون» يخرج من مبنى المحكمة حاملاً ثلاثة طرود بريدية ضمن ثلاث حقائب قماشية رمادية.

ثلاث حقائب. إنها تُثبت الأمر.

اليوم هو اليوم المناسب.

عادة، يخرج «إلتون» بحقيبتي بريد، أو حتى حقيبة واحدة. لكنه يخرج بثلاث حقائب كل ستة أسابيع. هذه الحقيبة الإضافية هي ما كان كين ينتظره.

فتح «إلتون» بابي الشاحنة الخلفيين، ورمى فيها أول حقيبة. وصل كين ببطء ويده اليمنى ممدودة.

لحقت الحقيبة الثانية بالأولى إلى الشاحنة.

حالما أمسك الحقيبة الثالثة، اندفع كين باتجاه «إلتون».

«مرحباً أيها الصديق، هل لديك فكّة؟»

«لا،» أجاب «إلتون»، وألقى الحقيبة الأخيرة في الشاحنة. أغلق الباب الخلفيّ الأيمن، ثم أمسك الخلفي الأيسر وصفقه بعنف وكأن السيارة ليست له. التوقيت كان أساسياً. مدّ كين يده بسرعة متسوّلاً بعض المال. وقعت يد كين ضمن مسار باب الشاحنة، وتسبب زخم الباب القوي في انغلاقه على يد كين.

لقد اختار، بدقّة بالغة، التوقيت المناسب لذلك. أصغى إلى صوت توقّف المعدن عندما سحق يده. ومع سحب الذراع، أطلق صرخة مدوّية، وجثا على ركبتيه، مراقباً «إلتون» وهو يرفع يديه كلتيهما إلى أعلى رأسه، وقد جحظت عيناه، وتضخّم فمه من هول الصدمة. نظراً للسرعة التي أغلق بها «إلتون» الباب، والوزن الثقيل للمعدن، راوده الشكّ بأنه كسر ذراع كين. كسر عشوائي قذر. عدّة شظايا. وصدمة كبيرة.

لكن كين كان استثنائياً، لطالما أخبرته أمه بذلك. صرخ مجدداً. أحسّ كين بأن من المهم جداً أن يقدّم عرضاً جيداً: أقلّ ما يمكن فعله هو أن يتظاهر بأنه يتألّم.

«يا إلهي، انظر إلى يديك. لم أنتبه إلى يدك عندما أطبقت الباب... أنت... آسف جداً»، قال «إلتون» متأتئاً.

ركع قرب كين، واعتذر مجدداً.

«أعتقد أنها مكسورة»، قال كين وهو يُدرك تماماً أنها بخير. لقد استبدل معظم عظامه سابقاً بصفائح وقضبان وبراغي. والعظام الصغيرة الباقية، أصبحت الآن قاسية جداً.

«اللعنة، اللعنة، اللعنة...»، قال «إلتون» وهو يتلفّت حوله في الشارع، ولا يعرف ما عليه أن يفعله تماماً.

«لم يكن ذلك خطئي»، قال إلتون، «لكنني سأطلب المسعفين».

«لا. لن يعالجوني. سوف يأخذوني إلى مركز الطوارئ، ويضعوني على نقّالة طوال الليل ثم يُخرجونني. ليس لدي تأمين طبي. هناك مركز طبي. على بعد عشرة شوارع على الأكثر. إنهم يعالجون المشرّدين. خذني إلى هناك»، قال كين.

«لا يمكنني أن أقلّك»، قال «إلتون».

«ماذا؟» قال كين.

«ليس مسموحاً لي نقل الآخرين في شاحنتي. إذا رآك أحدهم إلى جانبي، فقد أخسر عملي».

تنفّس كين الصعداء للجهود التي يبذلها «إلتون» لكي يلتزم بقوانين عمل خدمة البريد. فقد كان يعتمد على ذلك.

«سأجلس في الخلف. لن يراني أحد بهذه الطريقة»، أجاب كين.

حدّق «إلتون» بمؤخرة الشاحنة، والباب الجانبي المفتوح.

«لا أعرف...»

«لن أسرق أي شيء، لا أستطيع أن أحرّك ذراعي بسبب الألم»، قال كين، وأتبع كلامه بأنين عالٍ بينما كان يخفف من ألم ذراعه.

بعد لحظات من التردد، قال «إلتون»: «حسناً، لكن لا تقترب من حقائب البريد، اتفقنا؟»

«اتفقنا»، أجاب كين.

تأوّه عندما رفعه «إلتون» عن الطريق، وصرخ عندما شعر أن يديه اقتربتا كثيراً، من ذراعه المصاب، لكنه بعد بُرهة، جلس على الأرضية المعدنية في القسم الخلفي من الشاحنة، وركّز انتباهه على التكيف مع اهتزازات الشاحنة بينما كانت تتجه شرقاً. كان القسم الخلفي للشاحنة مفصولاً عن مقصورة السائق، وبالتالي لم يستطع «إلتون» أن يراه، وربما لم يستطع أن يسمعه، لكن كين كان يتابع التصرّف وكأنه يسمع. كان مصدر الضوء الوحيد قادماً من حجرتين زجاجيتين مفلطحتين في السقف.

لم يكد محيط مبنى المحكمة يختفي عن ناظريه حتى أخرج قطّاعة صناديق من معطفه وقصّ الرباط الموجود أعلى الحقائب الثلاث.

الحقيبة الأولى كانت بلا فائدة. مغلّفات مرتبة. وكانت الثانية مثلها أيضاً.

الجاذبية كلها في الحقيبة الثالثة.

كانت المغلّفات في هذه الحقيبة، مختلفة ومتماثلة. كلٌ منها مختوم بالشمع الأحمر في الأسفل، وهناك حروف بيضاء بارزة فوق العلامة الحمراء: «**افتح هذه الرسالة الآن، إنها دعوة مهمة من المحكمة**».

لم يفتح كين أي مغلف. لكنه افترش الأرض بجميع المغلّفات الموجودة في هذه الحقيبة. ما إن انتهى من ذلك حتى تناول جميع المغلّفات الموجّهة إلى نساء، وأعادها إلى الحقيبة. وبعد نصف دقيقة، كان لديه ستون، وربما سبعون، مغلّفاً أمامه. فالتقط صورة لخمسة مغلّفات في كل مرة، مستخدماً كاميرا رقمية أعاد حشرها في ملابسه بعد أن انتهى. وبذلك أصبح بإمكانه أن يقوم بتكبير الصور لاحقاً، ليركّز على الأسماء والعناوين المكتوبة على كل مغلّف.

انتهت المهمة، وأعاد كين جميع الرسائل إلى الحقيبة، وأعاد ربطها بشريط سبق أن أحضره معه لهذه الغاية. لم تكن تلك الأربطة صعبة المنال، وكانت من ذات النوع المستخدم في مكاتب المحكمة ومكاتب البريد.

مع وجود فائض من الوقت، مدد كين ساقيه على الأرض، وبدأ يشاهد صور المغلّفات على شاشة كاميرته. وفي مكان ما هناك، وجد شخصاً مميزاً؛ لقد عرفه. يستطيع أن يشعر به. الإثارة جعلت قلبه يخفق؛ كانت أشبه بتيار كهربائي يسري من أسفل قدمه ويصعد مباشرة إلى صدره.

بعد تكرار منتظم لحركة الوقوف والانطلاق، العائد للازدحام المروري في مانهاتن، تطلّب الأمر منه بضع لحظات ليعرف أن الشاحنة توقّفت الآن بشكل نهائي. أخفى الكاميرا، وفُتِحَ الباب الخلفي. فأمسك الذراع الذي يزعم أنه مُصاب، ثم أدخل «إلتون» جسده في الشاحنة، وقدّم يد المساعدة. مع ضمّه ذراعه الأولى إلى جسده، خرج كين من الشاحنة مستخدماً اليد الأخرى، ممسكاً بيد «إلتون» الممتدة. نهض كين. سيكون الأمر سهلاً جداً، وسريعاً جداً. كل ما كان عليه فعله هو تثبيت قدمه، والسحب. القليل من الجهد فقط، ويتم سحب الحارس إلى الشاحنة. ثم يمكن له، بحركة بسيطة من مقصّ

الصناديق، أن يخترق الجهة الخلفية لعنق «إلتون»، ثم يتابع إلى الشريان السُباتي عبر خط النحر.

ساعد «إلتون» كين على الخروج من الشاحنة وكأنه شخص مصنوع من الزجاج، ثم ساعده في السير إلى المركز الطبّي.

لم تستقرّ القطعة النقدية التي قذفها في الهواء على «الصورة»: «إلتون» لن يُمسّ بأذى.

قدّم كين شكره لمن أنقذه، وراقبه وهو يرحل. وبعد بضع دقائق، غادر كين المركز الطبي، وسار في الشارع ليتفحّص ما إذا كانت الشاحنة قد عادت من جديد، ليتأكّد من أنه بخير.

لم يرَ الشاحنة في أي مكان.

بعدها بفترة طويلة من الليلة ذاتها، ارتدى «إلتون» زيّه الرياضي، وذهب حاملاً وجبة «ديلي» المفضلة لديه، مع نصف شطيرة «روبن»، تحت إحدى ذراعيه، وكيساً ورقياً أسمر من أكياس البقالة تحت الذراع الأخرى. وفجأة، شخص طويل أنيق حليق الذقن، وقف أمام «إلتون» مباشرة، معترضاً طريقه، مجبراً إياه على التوقّف في الظلام، تحت عمود إنارة مكسور.

كان «جوشوا كين» يستمتع بتلك الليلة المُنعشة، وبتلك الملابس الأنيقة والرقبة النظيفة.

«قذفت قطعة النقود مجدداً»، قال له.

أطلق كين النار على «إلتون» في وجهه، وسار بخفّة في الزقاق المظلم واختفى. هذا الأداء السريع والسهل لم يمنح كين أية متعة. ففي الحالة المثالية، كان يودّ أن يمضي بضعة أيام مع «إلتون»، لكنه لم يستطع توفير ما يكفي من الوقت.

لديه الكثير من العمل المؤجل.

بعد ستة أسابيع

الاثنين

الفصل الأول

لا يوجد صحافيون في قاعة المحكمة خلفي. ولا حضور من عامة الناس. ولا أفراد عائلة يعنيهم الأمر. الأشخاص الموجودون هم أنا، موكّلتي، الادعاء، القاضي، وكاتب الاختزال، وكاتبة. أوه، هناك أيضاً رجل الأمن الذي يجلس في الزاوية، ويراقب خلسة لعبة «اليانكي» على شاشة هاتفه.

كنت في شارع «سنتر ستريت ١٠٠»، مبنى محكمة الجنايات في مانهاتن، في قاعة محكمة صغيرة في الدور الثامن.

لا وجود لأحد هناك غيرنا، لأنه ما من أحد يهتم بالأمر. في الواقع، لم يهتمّ محامي الادعاء بالقضية كثيراً، وحتى القاضي ذاته فقد اهتمامه بها بعد أن قرأ قرار الاتهام: حيازة مخدرات وأدوات تعاطيها. كان محامي الادعاء محكوماً مدى حياته بالعمل في مكتب المحامي العام، وكان اسمه «نورمان فولكس». وأمام «نورمان» ستة أشهر قبل أن يجمع راتبه التقاعدي ويرحل. كان زرّ قميصه العلوي مفتوحاً، وبدا كما لو أنه أحضر سترته منذ أيام رئاسة «رونالد ريغان»، واللحية التي حلقها منذ يومين كانت الشيء الوحيد الذي يدلّ على نظافة مظهره.

«كليفلاند باركس» المبجّل، رئيس المحكمة، كان ذا وجه يشبه بالوناً منكمشاً، ويريح رأسه على يده، وينحني على مقعد القاضي.

«إلى متى ننتظر يا سيد «فولكس»؟» سأل القاضي «باركس».

نظر «نورمان» إلى ساعته مستهجناً وقال: «أعتذر يا حضرة القاضي، سيكون هنا في أية لحظة».

عبثت الكاتبة بالأوراق الموجودة أمامها. ثم عمّ السكون الغرفة مجدداً.

«دعني أكرر، من أجل التوثيق فقط يا سيد «فولكس»، أنت محامي دفاع ذو خبرة طويلة، وأفترض أنك تعرف أن لا شيء يزعجني أكثر من التأخير»، قال القاضي. ص١٠

أومأ «نورمان» موافقاً. أعتذر مجدداً، ودسّ رأسه في ياقة قميصه قليلاً عندما بدأ وجه القاضي «باركس» يمتقع. كلما ازدادت فترة جلوس القاضي «باركس» هناك، ازداد احمرار وجهه. كانت تلك مؤشرات حيويته. لم يرفع صوته، ولم يهزّ إصبعه مهدداً - جلس فقط وهو يستشيط غضباً. كراهيته للتأخير كانت معروفة تماماً.

موكّلتي «جين ماري»، التي بلغت الخامسة والخمسين من عمرها، كانت مومساً فيما مضى، وقد انحنت نحوي وهمست: ماذا سيحصل إذا لم يظهر الشرطي، يا إيدي؟»

أجبت: «سوف يظهر».

عرفت أن الشرطي سيظهر. لكنني عرفت أيضاً أنه سيتأخر.

لقد تأكدت من ذلك.

يمكن لهذا أن ينجح فقط مع «نورمان» بوصفه محامي ادعاء. لقد تقدّمت بطلب إلغاء التهم الموجهة ضدّك منذ يومين، وذلك قُبيل الساعة الخامسة تماماً، لحظة إنها الموظف لعمله والمغادرة. لقد منحتني، سنوات خبرتي الطويلة، فكرة جيدة عن الطريقة التي يتعامل بها المكتب مع الطلبات وجلسات الاستماع. مع تراكم الطلبات المقدّمة إلى المكتب، ربما لن نتمكن من أخذ موعد لجلسة استماع قبل اليوم، وسيعاني المكتب كثيراً لإيجاد قاعة محكمة فارغة. تصدر المذكّرات عادة بعد الظهر، حوالي الساعة الثانية، لكن لن يعرف محامي الادعاء، ولا محامي الدفاع القاعة التي سنكون فيها إلا قبل ساعتين. هذا ليس مهماً. سيكون لدى «نورمان» قضايا يعمل عليها صباحاً في محكمة الاستدعاء، وكذلك أنا. وقد جرت العادة أن نسأل موظّف السجلات عن القاعة التي سنكون فيها، فيتفحّص جهاز الكومبيوتر، ويخبرنا في أي قاعة سيتم الاستماع لمذكّرتنا في ذلك اليوم. عندما نعرف من الموظّف المسؤول، ونتأكد من الموقع، يُفترض بمحامي الادعاء أن يلتقط هاتفه الخلوي، ويتصل بالشاهد ليخبره عن المكان الذي ينبغي أن يكون فيه. لكن ليس «نورمان». إنه لا يحمل هاتفاً خلوياً، ولا يؤمن بهذه الاختراعات. هو يعتقد بأنها تُصدر نوعاً من الأمواج الراديوية المؤذية. لقد تأكدت من وجود «نورمان» في محكمة الاستدعاء باكراً هذا الصباح، وتأكدت من إخباره بمكان

جلسة الاستماع بعد ظهر هذا اليوم. كان «نورمان» يعتمد على أن شاهده سيفعل ما كان عليه فعله لو لم أخبره برقم قاعة المحكمة. إذ ينبغي على الشاهد أن يحصل على موقع مكان الجلسة من لوحة الإعلان.

لوحة الإعلانات موجودة في القاعة (١٠٠٠) من مبنى المحكمة - مكتب الموظف المسؤول عن السجلات. داخل المكتب، ومع الأرتال الطويلة للمنتظرين من أجل دفع الغرامات، تظهر لوحة بيضاء عليها قائمة بالمحاكمات والمذكّرات التي ستُعقد في ذلك اليوم. تُعلّق هذه اللوحة لكي تُخبر الشهود، والشرطة، والمحامي العام، وطلاب القانون، والزوار والمحامين، بموقع عقد المحاكمات في المبنى في أي وقت كان. وقبل ساعة من موعد المذكّرة، دخلت إلى الغرفة (١٠٠٠)، وأوليت ظهري لموظّف السجلات، ووجدت مذكّرتي على اللوحة، فشطبت رقم الغرفة ووضعت رقماً آخر. إنها خدعة بسيطة. ليست مثل العمليات الطويلة الخطيرة التي قمت بها عندما كنت أمارس فنّ الخدع. منذ أن أصبحت محامياً، سمحت لنفسي أن أرجع إلى عاداتي القديمةأحياناً.

نظراً للمدة الطويلة التي تقضيها منتظراً المصعد في هذا المكان، عرفتُ أن ما فعلته كان كفيلاً بأن يؤخّر شاهد «نورمان» عشر دقائق أو أكثر.

دخل المحقق «مايك غرانجر» إلى قاعة المحكمة متأخراً عشرين دقيقة. في البداية، لم ألتفت عندما سمعتُ صوت الباب يُفتح خلفي. أصغيت فقط لوقع خطوات «غرانجر» على بلاط الأرضية، متطابقاً تقريباً مع السرعة التي تنقر فيها أصابع القاضي «باركس» على المنصّة أمامه. لكن عندما سمعت وقع خطوات أكثر من شخص، التفتُ إلى جهة الصوت.

خلف «غرانجر»، دخل رجل في منتصف العمر يرتدي ملابس باهظة الثمن، وجلس في القاعة في الخلف. يمكنك فوراً أن تلاحظ شعره الناعم المنسدل، ونسق الأسنان البيضاء التي تظهر عادة في الإعلانات، والبشرة الشاحبة لشخص يعمل عملاً مكتبياً. كان «رودي كارب» أحد أولئك المحامين الذين خاضوا لأشهر طويلة القضايا التي تُعرض في الأخبار المسائية، كان يظهر على شاشة التلفاز، وتملأ صوره أغلفة المجلات، ولديه كل المهارات اللازمة في قاعات المحاكم ليكون فيها. كان محامياً رسمياً للنجوم.

لم أقابل هذا الرجل. فنحن لا نتبع الحلقة الاجتماعية ذاتها. يُدعى رودي للعشاء في البيت الأبيض مرتين سنوياً. ونشرب أنا والقاضي «هاري فورد» الويسكي الرخيص مرة في الشهر. في لحظة ما، كنت أترك الخمر يستولي

على أفضل ما لدي. لكن ليس الآن. مرة في الشهر. ليس أكثر من كآسين. وأترك الأمر تحت السيطرة.

لوّح رودي بيده. ثم التفتُ ورأيت القاضي يحدّق بـ «المحقق غرانجر». وعندما عدتُ إلى وضعيتي الأولى، لوّح رودي بيده مجدداً. حينها فقط أدركت أنه كان يلوّح لي. لوّحت له بيدي، والتفتُ مجدداً محاولاً استعادة تركيزي. أنا عاجز عن الفهم، لا يمكن أن أخمّن ما الذي جعله يُتابع قضيّتي.

«أمر جيد أنك انضممت إلينا أيها المحقق»، قال القاضي «باركس».

بدا «مايك غرانجر» شرطي نيويورك المخضرم في كل جزء من تفاصيله. دخل مختالاً - نزع سلاحه الشخصي، وبصق العلكة التي كان يمضغها في حافظة الفطيرة التي كانت بيده، ثم تركها تحت طاولة النائب العام. لا أسلحة في قاعة المحكمة. يُطبّق القانون حيث يُفترض بك أن تخضع للتفتيش عن الأسلحة الشخصية أمام الحرّاس الأمنيين. عادة ما يسمح الضباط لعناصر الشرطة المخضرمين بالمرور، لكن حتى أولئك المخضرمون يعرفون جيداً أنه لا ينبغي عليهم أن يتقلّدوا أسلحتهم عندما يقفون للشهادة.

حاول «غرانجر» أن يبرر تأخره. قاطعه القاضي «باركس» مع إيماءة بالرأس. وفّر ذلك للوقوف على منصة الشهود.

سمعتُ «جين ماري» تتنهد. ظهرت جذورها السوداء من خلال الصبغة المبيّضة، وارتعشت أصابعها حالما قرّبتها من فمها.

«لا تقلقي. أخبرتك أنك لن تعودي إلى السجن»، قلت لها.

ارتدت زياً أسود جديداً من أجل المحاكمة. نظرت إليها بتركيز - منحتها مزيداً من الثقة.

بينما كنت أحاول طمأنة «جيني»، اقتحم «نورمان» المشهد بدعوة «غرانجر» إلى المنصّة. أدّى القسم المطلوب، ثم بدأ «نورمان» بسرد تفاصيل اعتقال «جين».

في تلك الليلة، كان يجتاز الشارع السابع والثلاثين، منطقة «ليكسنغتون»، فرأى «جين» تقف قرب صالة تدليك، حاملة حقيبة بيدها. يعرف «غرانجر» أن لديها سجلَ مخالفات سابقاً. توقّف واقترب منها، ثم قدّم نفسه وأظهر

شارته. ثم قال لها في تلك اللحظة إنه رأى «أدوات تعاطي المخدرات» تظهر من أعلى الحقيبة الورقية السمراء التي تحملها.

«ما هي تلك الأدوات التي كانت بحوزتها؟» سأل نورمان.

«قشّة، يستخدمها المدمنون عادة لاستنشاق المخدّرات. لقد رأيتها، واضحة كضوء النهار، تبرز من أعلى حقيبتها»، قال غرانجر.

لم يستغرب القاضي «باركس»، لكن عينيه جحظتا على الرغم من ذلك. صدّق ذلك أو لا تصدق: في الأشهر الستة الأخيرة، اعتقلت شرطة نيويورك نصف دزينة من الشباب الأمريكيين الأفارقة، بسبب حيازتهم معدّات تعاطي المخدرات أي لأنه كان بحوزتهم «قشة» تُستخدم لشرب الصودا، وهي تُلصق عادة في أعلى العبوة.

«وما الذي فعلته حينها؟» قال نورمان.

«بالنسبة إلي، أعتبر رؤية معدات المخدرات مع أحدهم سبباً وجيهاً. ولدى ماري سوابق في جُنح المخدرات، لذا قمت بتفتيش حقيبتها، ووجدت المخدرات داخلها. خمس عبوات صغيرة من الماريوانا في أسفل الكيس الذي تحمله. ولذلك قمت باعتقالها».

بدا الأمر وكأن جين كانت في طريقها إلى السجن. إنها الجنحة الثانية خلال سنة واحدة. وليس هناك وقف تنفيذ للعقوبة بعد المرة الثالثة. ربما تبقى في السجن من سنتين إلى ثلاث سنوات. وتذكرت في الواقع أنها أمضت عقوبة سجن قصيرة بسبب هذه الجنحة. بعد اعتقالها، حيث أمضت ثلاثة أسابيع في السجن قبل أن تستطيع الحصول على كفالة لإخراجها.

سألتُ جين عن موضوع الاعتقال. وأخبرتني الحقيقة؛ إنها تخبرني الحقيقة دوماً. لقد دار المحقق غرانجر حولها بحثاً عن شيء بعض التسلية في الجهة الخلفية من سيارته. أخبرته جين أنها انتهت من هذه الأعمال. عندئذٍ خرج «غرانجر» من سيارته، أمسك حقيبتها، وعندما رأى «التبغ» بداخلها، غيّر نبرة صوته؛ أخبرها أنه يريد خمس عشرة بالمئة من دخلها، من الآن فصاعداً، أو سيقوم باعتقالها على الفور.

أخبرته أنها دفعت مُسبقاً، نسبة عشر بالمئة، لاثنين من عناصر الدوريات في الدائرة السابعة عشرة، ويبدو لها أنهما لم يقوما بما يلزم. كان هذان الشرطيان يعرفانها، وكان لديهما ما يكفي من الوقت للبحث عن طريقة أخرى. على

الرغم من خلفيتها، كانت جين مواطنة. والمنتج الذي كان لديها، كان مادة الماريوانا الأمريكية المزروعة في الوطن، من المزارع التي رخّصتها الحكومة في واشنطن. كان معظم زبائن جين من المعمرين - يستخدمونها من أجل آلام المفاصل، أو للراحة من مشاكل «زرقة العين - الغلاكوما». كان هناك زبائن منتظمون وليس هناك مشكلة. وهكذا طلبت جين من غرانجر أن يبتعد عنها، وبالتالي قام باعتقالها وتلفيق قصة لها.

لن أستطيع بالتأكيد إثبات أي شيء من ذلك في المحكمة. ولم يخطر بذهني حتى أن أقوم بمحاولة.

ما إن جلس «نورمان» حتى وقفتُ وتنحنحت، ورتبت ربطة عنقي. انتصبت في وقفتي جاعلاً الفتحة بين قدميّ مطابقة لعرض أكتافي، ثم شربت بعض الماء وثبتُّ نفسي. بدوت وكأنني مرتاح تماماً، ومستعدّ لمتابعة الأمر مع «غرانجر» ساعات عدة على الأقل. أمسكت ورقة من الملف الموجود على مقعدي، وسألت «غرانجر» سؤالي الأول.

«أيها المحقق، قلت في شهادتك إن المتهمة كانت تحمل كيساً من أكياس المحلات التجارية في يدها اليمنى. نحن نعرف هذا الكيس الورقي الأسمر الكبير. من الصعب حمله بيد واحدة. أعتقد أنها كانت تمسكه من القبضة الموجودة أعلاه».

رمقني «غرانجر» بنظرة توحي بأنني أهدر وقته الثمين بأسئلة غبية تافهة. هزّ رأسه، ولاح طيف ابتسامة على زاوية فمه.

أجاب: «نعم، كانت تحمل حقيبة ذات قبضتين». ثم نظر باتجاه منصّة الادعاء بثقة، ليعلمهم بأنه يعرف: أستطيع أن أخمّن أن «نورمان» و»غرانجر» قد ناقشا الاستخدام القانوني للقشّة مطوّلاً أثناء التحضير لجلسة اليوم. كان «غرانجر» مستعداً جداً لذلك. كان يتوقّع مناقشة طويلة معي حول تلك القشّة، وما إذا كانت تُستخدم فقط من أجل الصودا- وكذا وكذا.

جلست دون أن أضيف أية كلمة أخرى. كان سؤالي الأول هو سؤالي الأخير.

استطعت أن أرى غرانجر يُحدّق بي مرتاباً كما لو أنني سرقت شيئاً من جيبه، لكنه لم يكن واثقاً. وبدا «نورمان» وكأن لا رغبة لديه بإضافة أية أسئلة للشاهد. نزل المحقق غرانجر عن منصة الشهود، وطلبت من «نورمان، أن يعطيني أدلّته الثلاثة.

«حضرة القاضي، الدليل الأول في هذه القضية هو الحقيبة. هذه الحقيبة»، قلت ذلك وأنا أرفع الحقيبة المختومة التي تحوي كيساً ورقياً تظهر على جانبه إشارة «ماكدونالد». وانحنيت قليلاً لأمسك كيس «ماكدونالد» الخاص بي من أجل المقارنة.

قلت: «هذه الأكياس من القياس ذاته تماماً. ويبلغ عمق الكيس عشرين إنشاً. لقد جلبتُ إفطاري بهذا الكيس».

وضعت الكيسين، وأمسكت الدليل الثاني.

«هذه هي محتويات الكيس التي تم ضبطها مع موكلتي ليلة اعتقالها، الدليل الثاني».

يوجد داخل هذا الكيس المغلق خمس لفافات من الماريوانا. وجميعها لا تكفي لملء صحن من الحبوب.

«الدليل الثالث هو قشة الصودا النظامية التابعة لشركة ماكدونالد. «هذه القشة بطول ثمانية إنشات»، قلت ذلك وأنا أرفعها. «هذه قشة مطابقة للقشة التي أخذتها هذا الصباح». رفعت قشّتي ثم وضعتها على الطاولة.

وضعت الأعشاب داخل كيس ماكدونالد خاصتي، ورفعته أمام القاضي. ثم أخذت القشة، رفعتها بشكل عمودي، ورميتها داخل الكيس بإحدى يديَّ بينما كنت أمسك مقبض الكيس باليد الأخرى.

اختفت القشة داخل الكيس.

أعطيت الكيس للقاضي. نظر إليه، وأخرج القشة ورماها مرة ثانية في الكيس. كرر ذلك عدة مرات، حتى إنه أوقف القشة داخل الكيس فوق عبوات الماريوانا. بقيت القشة على بعد خمسة إنشات من حافة الكيس؛ عرفت ذلك لأنني جرّبت الأمر ذاته بنفسي.

«حضرة القاضي، ملتفتاً إلى كاتب الاختزال في المحكمة، لاحظت من شهادة المحقق غرانجر، بإشارته إلى القشّة أنه قال: «**رأيتها واضحة كضوء النهار، تبرز من أعلى الكيس الذي تحمله**». يعترف الدفاع أن من الممكن أن تظهر القشّة إذا كان القسم العلوي من الكيس ملفوفاً ومنزلقاً نحو الأسفل. لقد أكّد المحقق غرانجر في شهادته أن موكلتي كانت تحمل الكيس من المقبض. حضرة القاضي، هذه القشّة الأخيرة - إن جاز التعبير».

رفع القاضي «باركس» يده. لقد سمع مني ما فيه الكفاية. دار على كرسيه ووجّه انتباهه إلى «نورمان».

«سيد فولكس» لقد تفحصتُ هذا الكيس، والقشة والمواد الأخرى الموجودة في أسفله. أنا لست مقتنعاً أن بإمكان المحقق أن يرى القشّة تبرز من أعلى هذا الكيس. وعلى هذا الأساس، لم يكن التفتيش الذي قام به مبرراً، وبناءً عليه، تُعتبر جميع الأدلة التي تم جمعها غير مقبولة. بما في ذلك القشّة. إنني، وعلى أقل تقدير، أشعر بالقلق حيال التوجّه الأخير لبعض عناصر الشرطة في تصنيفهم لقشّة الصودا، والأشياء العادية الأخرى المشابهة، على أنها أدوات لتعاطي المخدرات. وعلى أية حال، ليس لديك أي دليل يدعم استمرار الاعتقال، أنا ألغي جميع التهم الموجّهة ضد المتهمة. أنا واثق أن لديك الكثير لتقوله يا سيد «فولكس» لكن دون فائدة - أخشى أنك تأخرت كثيراً.

عانقتني جين، وكادت تخنقني بهذه الطريقة. ربتُّ على ذراعها بلطف، وانسحبت. ربما لن ترغب بمعانقتي بعد أن أعطيها الفاتورة. نهض القاضي وفريقه، وغادروا قاعة المحكمة.

غضب «غرانجر»، ووجّه سبابته نحوي متوعداً قُبيل مغادرته. لم أنزعج أبداً، كنت معتاداً على هذا الأمر.

«متى أتوقّع منك أن تستأنف القضية»، وجّهت الكلام لـ «نورمان».

«ليس في هذه الحياة»، أجاب نورمان، «غرانجر لا يعتقل عاملات من درجات متدنية كموكلتك. ربما كان هناك شيء آخر خلف هذا الاعتقال، وهو شيء لا يمكن لي ولك أن نعرفه».

حمل «نورمان» أغراضه، وتبع موكلتي إلى خارج القاعة، ولم يبق في القاعة معي سوى «رودي كارب». بدا وكأنه يستحسن ما قمت به، وتجلّى ذلك بابتسامة حقيقية لاحت على محياه.

وقف «رودي كارب» وقال: «تهانينا، كان ذلك مؤثراً. أحتاج خمس دقائق من وقتك».

«من أجل ماذا؟»

«أريد أن أعرف ما إذا كنت ترغب بالحصول على المنصب الثاني في أكبر محاكمة لجريمة قتل عرفتها هذه المدينة».

الجزء الثاني

راقب كين الرجلَ ذا القميص المزركش وهو يفتح الباب الأمامي لشقته، ويقف صامتاً بحالة من الذهول. رآه وقد سيطر الارتباك عليه تماماً، وتساءلَ عما يشغل تفكيره الآن. كان واثقاً أن الرجل ذا القميص المزركش، في اللحظة الأولى، اعتقد أنه يرى انعكاس صورته في المرآة؛ وكأن مهرّجاً قرع جرس باب بيته، ووضع مرآة بطوله تماماً على باب المنزل. لكن عندما أدرك الرجل أنه لا وجود لأية مرآة، فرك جبينه بيده، وتراجع خطوة إلى الخلف، وحاول أن يفكّر بشكل منطقي بالهيئة التي تنتصب أمامه. كان كين الأكثر شبهاً به هو من جاء إليه. كان ينظر إليه، ويتطابق معه بالشكل، ويحاكيه تماماً. نظر كين إلى الرجل من رأسه إلى أخمص قدميه، وغمرته البهجة لنجاح عمله. كان كين يرتدي القميص ذاته، وقد صبغ شعره باللون ذاته، ومع الحلاقة والتعديل والمكياج، تدبّر أمره ليطابق نسق شعره المرتد إلى الخلف، بالشكل الذي كان لدى جبهة الرجل تماماً. النظارة السوداء نسخة طبق الأصل، وعلى السروال الرمادي اللطخة الجرداء ذاتها الموجودة أسفل الساق اليسرى، على ارتفاع خمس بوصات من الأسفل، وبوصتين من الدرزة الداخلية. كما كان الحذاء هو ذاته أيضاً.

حوّل كين نظراته إلى وجه الرجل، واستغرقت المدة ثلاث ثوان قبل أن يدرك الرجل أن الأمر لم يكن مزحة، وأنه لا يحدّق في انعكاس لصورته. ومع ذلك، نظر الرجل إلى يديه ليتأكد من خلوّهما من أي شيء. كانت يد كين اليمنى، الممدودة على جانبه إلى الأسفل تُمسك مسدّساً كاتماً للصوت.

استغلّ كين تشوش الضحيّة ودفع الرجل بقوة في صدره وأجبره على التراجع. ثم اقتحم الشقّة ودفع الباب خلفه وسمع صوت انطباق الباب على إطاره.

«إلى الحمام، الآن، أنت في ورطة»، قال كين.

رفع الرجل يديه إلى الأعلى، وتحرّكت شفتاه بمحاولة منهما لإصدار أي صوت، كما لو أنهما تصارعان لإيجاد أية كلمة. تراجع داخل الصالة، ثم باتجاه الحمام حتى ارتطم فخذاه بحوض الاستحمام البورسلاني. اهتزّت يداه بينما كان يرفعهما عالياً، وراقبت عيناه كل بوصة في جسد كين، اضطراب تغلّب عليه ذعره.

في الحمام، لم يستطع كين منع نفسه من ملاحظة الفروق الدقيقة في المظهر. بالنظر عن قرب، بدا وكأنه بحاجة إلى خمسة عشر أو عشرين باوندا ليصبح بقياسه تماماً. لون الشعر قريب جداً، لكنه ليس مطابقاً. والندبة الصغيرة الموجودة فوق شفته العليا على الوجنة اليسرى، لم يكن كين يراها في الصور التي التقطها له منذ خمسة أسابيع، ولم يلحظها أيضاً في الصورة الموجودة على رخصة قيادة السيارة. ربما تشكّلت هذه الندبة بعد أن التقط الصورة الموجودة على الرخصة. لكن كين يعرف كيف يقوم بالتعديل، لقد درس تقنيات الماكياج الخاصة بهوليود؛ تستطيع مادة «اللاتكس» سريعة الجفاف أن تصنع أية ندبة.. أومأ كين برأسه. شيء واحد كان مطابقاً تماماً؛ لون العينين؛ كان ذلك التطابق مثالياً للتواصل. فكّر بأنه قد يحتاج إلى إضافة بقع داكنة حول العينين، ربما يساعد ذلك على تفتيح لون بشرته بنسبة بسيطة. كان الأنف هو المشكلة.

لكنها مشكلة يمكنه تعديلها.

«ليس بشكل مثالي، لكنه لن يكون سيئاً»، قال لنفسه.

«ما الذي يحدث هنا؟» قال الرجل.

أخرج كين من جيبه ورقة مطويّة وقذفها عند قدمي الرجل.

«أمسكْ الورقة، واقرأ بصوت مرتفع». قال كين.

انحنى الرجل على ساقيه المرتعدتين، والتقط الورقة، فتحها وقرأ. عندما نظر الرجل إلى كين مجدداً، رآه يحمل آلة تسجيل صغيرة.

«بصوت عالٍ»، قال كين.

«خ، خخ، خذ أي شيء تررر تريده، لكن لا تؤذِني»، قال الرجل، وهو يخفي وجهه بيديه.

«هيه أنت، أصغ إلي؛ حياتك في خطر. ليس لدينا ما يكفي من الوقت. ثمّة من هو آت لقتلك. أسترخ، أنا شرطي. وأنا هنا لأقف مكانك، وأحميك. لماذا تراني أرتدي ملابس مطابقة لملابسك؟» قال كين.

اختلس النظر من بين أصابعه، وتطلّع نحو كين مجدداً، ضاقت عيناه وبدأ يهزّ رأسه.

«من الذي يريد قتلي؟»

«لا وقت لديّ لأشرح الأمر، لكن لا بدّ لذلك القادم، عندما يراني، أن يصدّق أنني أنت. سوف نُخرجك من هنا لتكون بأمان. أريدك أولاً أن تفعل شيئاً من أجلي. انظر، أبدو مثلك تماماً لكن صوتي لا يشبه صوتك. اقرأ هذه الورقة بصوت عالٍ حتى أستطيع أن أسمع صوتك. أريد أن أتعلّم إيقاع كلامك، أريد أن أعرف كيف يبدو صوتك».

اهتزّت الورقة بين يديه ما إن بدأ القراءة بصوت عالٍ، كان متردداً في البداية، ويتعثّر بنطق الكلمات الأولى ويتخطاها.

«توقف، استرخِ. أنت بأمان. سيكون كل شيء على ما يرام. أعد المحاولة، وابدأ من البداية». قال كين.

التقط الرجل أنفاسه وحاول مجدداً.

«الديناصور الأرجواني الجائع التهمَ الثعلب اللطيف الرائع، وسرطان البحر الثرثار، والحوت المجنون، ثم بدأ الصياح والوقوقة»، قال ذلك بينما علت محياه نظرات الدهشة.

«ما هذا؟ يسأل الرجل.

ضغط كين زر إيقاف التسجيل، ووجّه سلاحه إلى رأس الرجل.

«إنها جملة تشمل جميع الحروف، وطريقة نطقك الواضحة لها. آسف جداً. لقد كذبت عليك؛ أنا من يريد قتلك. صدّقني، كنت أرغب بأن نمضي المزيد من الوقت معاً. كان ذلك سيجعل الأمور أسهل»، قال كين.

طلقة واحدة من السلاح الكاتم للصوت أحدثت ثقباً في أعلى فم الرجل. كان السلاح كاتماً للصوت من عيار «٢٢». لم تخرج الطلقة من الرأس. وليس هناك دماء وبقايا من الدماغ ليقوم بتنظيفها، ولا وجود لطلقة تتطلّب منك الحفر في الجدار. عملية جميلة ونظيفة. سقط جسد الرجل في حوض الاستحمام.

ألقى كين السلاح في المغسلة، وخرج من الحمام وفتح الباب الأمامي. تفحّص المدخل، انتظر قليلاً، لا أحد ضمن مرمى نظره. إذاً ما من أحد سمع شيئاً.

من الباب الأمامي، مروراً بالصالة، ثمة غرفة تخزين صغيرة. فتح كين الباب وتناول الحقيبة الرياضية ودلو «الأسيد» الذي كان قد تركه هناك، ثم عاد إلى الشقة، واتجه نحو الحمام. لو كان بإمكانه قتل الرجل ونقل جثّته، لكان أنجز عمله في مكان آخر، وبكفاءة أعلى. تفرضُ الظروف أحياناً أشياء أخرى. إنه لا يستطيع أن يغامر بتحريك الجثّة، حتى ولو كان على دفعات. خلال الأسابيع الخمسة من المراقبة المستمرّة، لم يغادر هذا الرجل شقّته إلا في اثنتي عشرة مناسبة. وهو لا يعرف أحداً في المبنى، وليس لديه أصدقاء ولا عائلة، ولا عمل، والأهم من ذلك أن ليس لديه ضيوف. كان كين واثقاً من ذلك. كان الكل معروفاً في المبنى وفي المنطقة المحيطة. لقد قال «مرحباً» للجيران في الردهة، وأمضى جزءاً من النهار مع موظفي المتاجر، وأشياء من هذا القبيل. معارف عابرون، لكنه تواصلٌ مع ذلك. وبالتالي يريد كين أن يشبهه، أن يبدو مثله، ويحافظ على روتين حياته قدر الإمكان.

مع استثناء واضح. توشك حياة هذا الرجل الاعتيادية أن تتغيّر بطريقة استثنائية جداً.

قبل أن يبدأ العمل على جثّة الرجل، يحتاج كين للقيام ببعض التفاصيل الخاصة بجسده. تطلّب الأمر منه دقيقة لتفحّص الوجه مجدداً عن قرب.

الأنف.

يميل أنف الرجل إلى الجهة اليسرى، وهو أكثر ثخانة من أنف كين. لا بدّ أنه تعرّض لكسر منذ سنوات، ولم يعمل على إعادته إلى الوضعية الصحيحة، إما لأنه لا يملك تأميناً طبياً، أو المال الكافي لإجراء عملية، أو لم يكن لديه الرغبة بإصلاحه كما ينبغي.

بسرعة كبيرة، خلع ملابسه وطواها بعناية، ووضعها في غرفة المعيشة. ثم أخذ منشفة من الحمام، وغمرها بالماء الساخن تحت الصنبور في الحوض، ثم عصرها. وفعل الشيء ذاته مع غطاء الوجه.

طوى منشفة الحمام الرطبة حتى أصبحت لفافة مشدودة تصل سماكتها إلى ثلاثة إنشات. ثم ثنا غطاء الوجه فوق الجانب الأيمن من وجهه، وتأكد من تغطية أنفه. كانت المنشفة المطوية طويلة بما يكفي ليربطها كين حول رأسه.

وقف في الحمام، وأمسك مقبض الباب بيده اليمنى، وسحب الباب إليه حتى لامست حافة الباب أرنبة أنفه. امتص غطاء الوجه حدّة حرف الباب، وبالتالي لايؤثّر على جلده. مال برأسه إلى اليسار قليلاً ووضع يده اليسرى على خدّه

الأيسر. شعر بعضلات عنقه تتصلّب، دفع بعكس اتجاه يده اليسرى، وبعكس اتجاه عضلات عنقه. وهذا يعني أن رأسه لن ينحرف نحو اليسار تحت هذا الضغط.

عدّ كين من واحد إلى ثلاثة، ودفع الباب عنه، وأطبقه مجدداً على أرنبة أنفه. كان رأسه ثابتاً لكن أنفه لم يكن كذلك؛ يستطيع أن يخمّن ذلك من انسحاق العظم. كان الصوت هو كل ما يمكنه أن يهتدي إليه، لأنه لم يكن يشعر بأي شيء آخر.

المنشفة التي كانت تغطي وجهه أبعدت الأذى عن رأسه، وأحدثت كسراً على طول الأنف. ستؤدي هذه الإصابة إلى نزف في العين يحتاج علاجه إلى جراحة.

أبعد المنشفة عن رأسه، ونزع غطاء الوجه، وألقى به في حوض الاستحمام على ساقي الرجل. نظر في المرآة. ونظر إلى أنف الرجل.

ليس تماماً.

قام بتثبيت الأنف من الجانبين كليهما ومال نحو اليسار. سمع صوت فرقعة؛ إنه صوت عظم يتكسّر. يبدو الصوت كما لو أنك وضعت حبوب وجبة الإفطار في منديل، وعرّضتها للضغط. نظر في المرآة مجدداً.

جيد جداً. سيكون الورم مفيداً أيضاً. يستطيع كين أن يغطي الكدمات التي ستظهر بوضوح حول أنفه وعينيه باستخدام الماكياج.

ارتدى ملابس واقية من المواد الكيميائية كان قد أحضرها معه في حقيبة الرياضة، إضافة إلى مواد أخرى. وعرّى الجثّة الموجودة في حوض الاستحمام بشكل كامل. تناثرت نفخة من البودرة البيضاء في الهواء عندما فتح غطاء دلو الغسيل؛ إنه المسحوق المركّز. تدفّق الماء الساخن بسرعة في الحوض، وسرعان ما وصلت الحرارة إلى درجة لا يمكن احتمالها. وبدأت بشرة الرجل تزداد حمرة بفعل الحرارة. طفت خيوط من الدم في الماء الساخن وتراقصت كسحابة دخان. ملأ كين ثلاثة مقادير من المسحوق المركّز في الدلو وسكبها في الحوض.

أغلق صنبور الماء الساخن عندما بلغ مستوى ثلاثة أرباع الحوض. ثم أخرج شريحة مطاطية كبيرة غطّى بها الحوض، وقام بتثبيتها بلفات كثيرة من بكرة الشريط اللاصق.

لقد عرف جميع طرق التخلّص من الجثث دون أن يترك خلفه أي أثر. ولاحظ أن هذه الطريقة مميزة جداً. تقوم العملية على أساس التحلل القلوي. إنها عملية الحرق النظيف (صديق البيئة)، الذي يُذيب الجلد والعضلات والأنسجة، وحتى الأسنان على المستوى الخلوي. إن مزج هذا المسحوق المركّز مع كمية مناسبة من الماء الساخن تُذيب جسد الإنسان في أقل من ست عشرة ساعة. ولن يبقى بعدها سوى حوض مليء بسائل بني اللون مائلاً إلى الاخضرار، وهو ما يستطيع التخلّص منه عبر مصرف حوض الاستحمام.

ستبقى الأسنان والعظام البيضاء الهشّة، وهي بدورها ستُسحق بكعب القدم أو الحذاء لتُصبح غباراً. يعرف كين أن المكان الأمثل للتخلّص من هذه البودرة هو في وضعها في صندوق ضخم من بودرة الصابون. من السهل مزج العظام مع الصابون، ولن يفكّر أي شخص حتى بالنظر إلى هذا المزيج.

لم يبق سوى موضوع واحد بحاجة إلى معالجة، إنها الرصاصة، ويستطيع كين أن يرميها في النهر.

طريقة جميلة ونظيفة، إنها الطريقة التي يحبها.

مع شعوره بالرضا عن عمله إلى حد كبير، أومأ برأسه وخرج إلى الممر القصير في الشقّة. ثمة طاولة إلى جانب الباب الخارجي المغلق، وعليها عدد من الرسائل المفتوحة. في أعلى الكومة يظهر الشريط الأحمر المميز شامخاً أمام بياض الورق، ويضم المغلّف الذي قام كين بتصويره منذ أسابيع؛ استدعاء لهيئة المحلّفين.

الفصل الثالث

في «سنتر ستريت»، رأيت سيارة ليموزين سوداء متوقفة أمام مبنى المحكمة مباشرة، كان السائق واقفاً على الرصيف، ممسكاً الباب الخلفي للسيارة. دعاني «رودي كارب» إلى الغداء. كنت جائعاً.

كان السائق قد ركن السيارة على بعد عشرة أقدام من عربة «الهوتدوغ» تحمل على القسم الخلفي منها إعلاناً يتضمّن صورة لي. كما لو أنني أحتاج من الكون أن يذكّرني بالفرق بيني وبين رودي. ما إن جلسنا في السيارة حتى تلقّى رودي مكالمة على هاتفه الخلوي. أخذنا السائق إلى مطعم في «بارك أفينيو ساوث»، لم أكن أستطيع حتى أن ألفظ اسمه؛ بدا الاسم فرنسياً. قطع رودي الاتصال حالما نزلنا من السيارة وقال: «أحب هذا المكان. يقدّم أفضل حساء «رامب» في المدينة».

حتى إني لا أعرف ما هو الـ «رامب». لكنني كنت واثقاً من أنه ليس حيواناً، وهكذا أظهرت موافقتي، وتبعت رودي إلى الداخل.

بالغَ النادل بإطراء ضيفه، وقدّم لنا طاولة بعيدة عن ضجيج الزبائن. جلس رودي قبالتي مباشرة. يظهر في الخلفية منديل ومفرش طاولة، ويعزف أحدهم على البيانو بإيقاع لطيف.

«يُعجبني نمط الإضاءة هنا. تبدو وكأنها ... رومانسية»، قال رودي.

كانت الإنارة رومانسية خافتة لدرجة أنني استخدمت شاشة هاتفي الخلوي لأقرأ قائمة الطعام. كانت باللغة الفرنسية، ولهذا قررت أن أطلب ما يطلبه رودي. لم أشعر بالراحة في هذا المكان، ولا أحبّ أن أطلب طعاماً من قائمة ترفض أن تُظهر الأسعار إلى جانب صورة كل طبق. ليس هذا من الأماكن المفضّلة بالنسبة إلي. لكن النادل سجّل طلباتنا، وسكب كأسين من الماء وذهب.

«لندخل في الموضوع يا «إدي». أنا مُعجب بك. وأراقبك منذ فترة طويلة. لقد استلمت عدّة قضايا كبيرة في السنوات القليلة الماضية. قضية الطفل ديفيد مثلاً».

أومأت موافقاً. لم أكن أحب التحدث عن القضايا القديمة. أحبّ أن أترك الأمر بيني وبين موكّلي.

«وكنت ناجحاً أيضاً في قضية ضدّ شرطة نيويورك. لقد فرغنا من «واجباتنا» العادية. أنت صفقة حقيقية».

الطريقة التي قال فيها «واجباتنا» جعلتني أظنّ أنه عرف بأني حظيتُ بسمعة حسنة قبل أن أدخل امتحان القبول في نقابة المحامين. إن كل ما كان يدور حول حياتي السابقة بصفتي فناناً في الخداع كان محض إشاعات. لا أحد يستطيع إثبات أي شيء. ويعجبني الأمر بهذه الطريقة.

«أظنّ أنك تعرف القضية التي أعمل عليها حالياً»، قال رودي.

كنت أعرف طبعاً، من الصعب تجاهل الأمر. كنت أراه في الأخبار أسبوعياً، منذ سنة تقريباً: «أنت تدافع عن «روبرت سلمون»؛ نجم الأفلام. ستبدأ المحاكمة الأسبوع القادم إذا لم أكن مُخطئاً».

«ستبدأ المحاكمة بعد ثلاثة أيام. واختيار هيئة المحلفين غداً. نريدك أن تكون في فريقنا. يمكنك معالجة أمر بعض الشهود خلال فترة الإعداد. أعتقد أن لأسلوبك أثراً كبيراً. ولهذا أنا هنا. تحصل على المنصب الثاني، وتعمل على مدى أسبوعين، وبهذا تحصل على دعاية مجانية أكثر مما يمكن أن تتخيّل بكثير، ونستطيع أن نعرض عليك مئتي ألف دولار، كمبلغ مقطوع بغضّ النظر عن حجم العمل».

ابتسم رودي مظهراً أسنانه البيضاء اللامعة المتناسقة. بدا كصاحب متجر حلويات يقدّم لطفل شارع كل كمية الشوكولا التي يستطيع تناولها. كانت نظرته كنظرة من يقوم بعمل الخير. لكن كلما طالت فترة هدوئي، ازدادت صعوبة أن يحافظ رودي على ابتسامته.

«عندما تقول «نحن»، من تقصد تحديداً؟ أظن أنك تدير شركتك الخاصة، شركة «كارب لو».

أومأ برأسه موافقاً. «صحيح، لكن عندما يصل الأمر إلى نجوم هوليود، وتكون القضية جريمة قتل، يكون هناك لاعبون آخرون دوماً. الأستوديو هو من أوكل القضيّة إلي. وقد طلبوا مني الدفاع عن «بوبي»، وهم سيدفعون الفاتورة. ما رأيك يا عزيزي؟ ألا تريد أن تصبح محامياً مشهوراً؟».

«لا رغبة لي بتحقيق الشهرة وجذب الاهتمام»، هكذا أجبت.

امتقع وجهه.

«بالله عليك يا رجل، إنها قضية أكبر جريمة في هذه الولاية. ما الذي تقوله؟»

«لا أريد، شكراً لك».

لم يكن رودي يتوقّع ذلك. أسند ظهره إلى الخلف على كرسيه، ومدّ ذراعيه وقال: «انظر يا إيدي، أي محامٍ في هذه المدينة يتمنى أن يفعل أي شيء ليظهر على منصّة الدفاع في هذه القضية. أنت تعرف ذلك جيداً. إنه المال؟ ما خطبك؟!».

عاد النادل بطبقي حساء أزاحهما رودي جانباً. ثم سحب كرسيه مقترباً من الطاولة، وانحنى نحوي مستنداً على مرفقيه بينما كان ينتظر إجابتي.

«لا أقصد أن أبدو غبياً يا رودي. أنت على حق. قد يفعل معظم المحامين أي شيء للحصول على هذا المنصب. لكنني لست كمعظم المحامين. من خلال ما قرأته من مقالات، وما شاهدته على شاشة التلفاز، أعتقد أن «روبرت سولومون» قد قتل أولئك الأشخاص. ولن أساعد قاتلاً، مهما كانت شهرته، أو مهما كانت ثروته. آسف، هذا جوابي النهائي على عرضك».

لا يزال رودي يحتفظ بتلك الابتسامة التي تنمّ عن نجاحه بتحقيق هدفه، لكن كان ينظر إلى بطرف عينه ويومئ برأسه.

«فهمت يا إيدي، لماذا لا نجعل المبلغ ربع مليون دولار؟»

«لا يتعلّق الأمر بالمبلغ، أنا لا أدافع عن مُذنب. لقد بقيت، لمدّة طويلة جداً، بعيداً عن ذلك الطريق. إنه يكلّف أكثر مما ستحصل عليه».

أوحت ملامح وجهه بأنه فهم الأمر تماماً، فأخفى ابتسامته وقال: «ليس لدينا أي مشكلة إذا كان الحال كذلك. انظر، إن «بوبي سولومون» بريء. لقد ألصقت شرطة نيويورك هذه الجرائم به».

«حقاً؟ هل تستطيع إثبات ذلك؟»

صمتَ قليلاً وقال: «لا، لكنني أعتقد أنك تستطيع».

الفصل الرابع

حدّق كين في المرآة الطويلة الموجودة في غرفة النوم. كان يرى انعكاس صورته بالقياس الكامل. وعلى حواف المرآة، حشر الزجاج والإطار عدداً كبيراً من صور الرجل الذي يذوب الآن في حوض الاستحمام. لقد أحضر الصور معه، فهو يحتاج وقتاً كي يتفحّص بعض الملامح. كانت الصورة التي استطاع أن يلتقطها للرجل في وضعية الجلوس، هي التي تسترعي انتباهه أكثر من باقي الصور. كان الرجل في هذه الصورة يجلس على مقعد خشبي في «سنترال بارك» مصالِباً ساقيه أمامه، ويرمي فتات الخبز للطيور.

كان الكرسي الذي أحضرها كين من غرفة المعيشة أخفض من مقعد الحديقة بمقدار خمسة إنشات كما يبدو من الصورة، وجاهد كثيراً لكي يجعل زاوية ميل ساقيه بالشكل المناسب. لم يصالب ساقيه أبداً. ذلك لا يمنحه شعوراً بالراحة، أو أنه يتصرّف بشكل طبيعي، لكنه كان مثالياً جداً عندما يودّ محاكاة شخص آخر. إنه الشعور بالحيوية من أجل النجاح.

لقد اكتشف موهبة المحاكاة لديه عندما كان في المدرسة. أثناء الاستراحات، كان ينتحلُ شخصيات الأساتذة أمام رفاقه في المدرسة، وكان الطلاب يتشقلبون على الأرض من كثرة الضحك. لم يضحك كين أبداً لكنه استمتع بلفت الانتباه إليه. وقد أحبّ أصوات ضحكات الأولاد في المدرسة لكنه لم يستطع أن يفهم لماذا يضحكون، ولم يفهم العلاقة بين ضحكاتهم وانتحاله لشخصيات الأساتذة. وعلى الرغم من ذلك، كان يكرر هذا الأمر باستمرار. وهو ما كان يساعده على التأقلم. لقد انتقل كثيراً في مرحلة الطفولة: مدرسة جديدة، في بلدة جديدة، كل سنة تقريباً. من المؤكد أن والدته كانت تخسر عملها دوماً بسبب المرض أو الإدمان. وسترتفع ملصقات في حيّهم: صور حيوانات أليفة رحلت.

هذا ما كان يحدث قُبيل الرحيل.

طوّر كين مقدرته على التعرّف على أشخاص جدد بسرعة كبيرة. كان جيداً في إيجاد أصدقاء جدد، ولم يكن يفتقد الخبرة في ذلك. يشعر الجميع بالراحة معه. تتوقف فتيات صفه عن رمقه بنظرات غريبة، ويُدخله الصبيان في محادثاتهم عن كرة السلّة. وسرعان ما يقوم بانتحال شخصيات المشاهير، إضافة إلى بعض عناصر الإدارة.

شدّ جسده في وضعية الجلوس وحاول أن يرفع ساقاً فوق الأخرى ليحاكي الصورة التي لديه. بطّة ساقه اليمنى فوق ركبته اليسرى، والقدم اليمنى ممتدة. انزلقت الساق عن ركبته، فلعن نفسه. انتظر مدّة دقيقة ثم أعاد نطق الحروف كما لفظها الرجل في آلة التسجيل قبل أن تستقرّ الرصاصة في رأسه. أعاد نطق الكلمات بالهمس البطيء، ثم رفع الصوت تدريجياً. أعاد التسجيل مرة تلو أخرى. ثم أغمض عينيه وأصغى بكل ما لديه من اهتمام. كان الصوت في آلة التسجيل أفضل. ولا يزال بإمكانه أن يلحظ أثر الخوف في ذلك الصوت. لقد أرسلت التهدجات خلف حنجرة الرجل موجاتها فوق بعض الكلمات. حاول كين أن يعزلها، ثم يكررها بصوت واثق، ليعرف كيف كانت ستبدو لو نطقها الرجل دون خوف. كان الصوت في التسجيل عميقاً جداً. ولهذا خفّض مستوى صوته بمقدار «أوكتاف»، وشرب حليباً ممزوجاً بالكريم كامل الدسم، ليخنق حباله الصوتية. نجح الأمر، وبعد عدة تجارب، وتمكّنه من سماع تلك النبرة في رأسه، تولّدت لديه ثقة عميقة بأنه يستطيع إعادتها، أو يكون قريباً منها على الأقل، حتى دون أن يعالج حنجرته بمنتجات الألبان.

بعد خمس عشرة دقيقة أخرى، بدا التطابق واضحاً بين الصوت المسموع في التسجيل وصوته. حينها، عندما وضع ساقه اليمنى فوق الركبة اليسرى، بقيت في مكانها ولم تنزلق.

تملّكه شعور بالرضا التام، فنهض إلى المطبخ وفتح الثلاجة. وعندما سكب الحليب، رأى ما يلفت الانتباه في الثلاجة. اللحم المقدد، بيض، جبن، قطعة زبدة، حبات طماطم طرية، ليمون. قرر أن اللحم المقدد والبيض، بالإضافة إلى الخبز المقلي، ربما تساعد في تخزين بعض السعرات الحرارية. إنه يحتاج إلى عدة كيلو غرامات أخرى ليتطابق وزنه مع وزن الضحية. لأن كل ما تم أخذه في الحسبان يمكن أن يضيع مع نقص الوزن، وقد يستطيع أن يضع وسادة في بطنه لكنه رتّب الأمر كله بطريقة منهجية. وإذا استطاع أن يكسب بعض الوزن عبر تناول وجبة كبيرة، ليصبح متماثلاً مع هدفه، فإن هذا ما سيقوم بفعله.

وجد مقلاة تحت حوض المطبخ، فقام بتحضير وجبة. وبينما كان يتناول طعامه، قرأ مقتطفات من مجلّات «صيد الأسماك بالصنارة» الموجودة على طاولة المطبخ. شعر بالشبع فأبعد الطبق. ومن خلال اعتماده على الطريقة التي سارت بها الأمور هذه الليلة، أدرك تماماً أنه لن يحظى بفرصة جديدة لتناول الطعام مرة أخرى قبل منتصف الليل.

قال في نفسه، سيكون العمل كثيراً جداً هذه الليلة بالتأكيد.

الفصل الخامس

اعتقدت أن حساء «الرامب» يستحقّ الانتظار. كان فيه نكهة بصل أخضر وثوم وزيت الزيتون. ليس سيئاً أبداً. انتهت المحادثة عندما طلب رودي من النادل أخذ أطباق الحساء. تناولنا الطعام بصمت. وبعد أن تأكدت من أنّه انتهى، وضعت ملعقتي على الطاولة، وجففت شفتيّ بمنديل، ووجّهت كامل اهتمامي إلى رودي.

«أعتقد أن القضية تغريك. ربما تريد المزيد من التفاصيل قبل أن تقرر. هل أنا على حق؟» قال رودي.

«صحيح».

«خطأ»، قال رودي. «هذه أهمّ قضية وصلت إلى الشاطئ الشرقي على الإطلاق. عليّ أن أقدّم مرافعتي الافتتاحية إلى هيئة المحلّفين خلال يومين لا أكثر. أنا منشغل بهذا الأمر منذ البداية، ومضيت إلى أبعد الحدود في حفاظي على سريّة الدفاع؛ لأن عنصر المفاجأة حاسم في هذه القضية. أنت تعرف ذلك. حتى هذه اللحظة، أنت لست محامياً مسجّلاً في الدعوى. وكلّ أقوله، لا يخضع لقانون الحصانة بين المحامي والموكّل».

«كيف سيكون الأمر إذا وقّعت اتفاق سريّة المعلومات؟» أجبت.

«إنه لا يساوي ثمن الحبر الذي يُكتب به»، قال رودي. «أستطيع أن أكسو منزلي باتفاقات السرّية، وتعرف تماماً كم عدد الفعّال منها؛ ربما لا يكون كافياً لأمسح به مؤخرتي. إنها هوليود!».

«إذاً لن تخبرني بأي شيء آخر عن القضية؟»

«لا أستطيع. شيء واحد أستطيع قوله الآن؛ أنا أؤمن ببراءة هذا الشاب»، قال رودي. قد يكون صدق موكّل رودي مزيفاً وخادعاً. لقد كان ممثلاً موهوباً يعرف كيف يؤدي دوره أمام الكاميرا. لكن رودي، على الرغم من تبجّحه، ومهاراته العالية في الإقناع في قاعة المحكمة، لا يستطيع إخفاء الحقيقة عني. أنا لم أرافقه لأكثر من نصف ساعة، أو أكثر بقليل. لكن ذلك التصريح بدا طبيعياً، ويبدو أنه يعنيه حقاً. عندما تكلّم، لم يُظهر أية ملامح مثيرة للشبهة في الوجه أو الجسد أو اللفظ، لا من الناحية الشعورية ولا من غيرها. كان

واضحاً جداً، وكانت الكلمات تنساب تلقائياً. ولو كان يُفترض بي أن أراهن على ذلك، لقلت إنه يقول الحقيقة - إنه مؤمن تماماً ببراءة «روبرت سولومون».

لكن هذا ليس كافياً. بالنسبة إلي على الأقل. ما الذي سيحصل إذا كان رودي مخدوعاً من موكّل متلاعب؟ ممثل!

«انظر، أنا أقدّر عرضك بشكل كبير، لكنني لن أدخل....»

«انتظر»، قال رودي مقاطعاً. «لا ترفض الآن على الأقل. خذ وقتك. اذهب إلى النوم وفكّر بالأمر ملياً وأخبرني في الصباح. ربما تغيّر رأيك».

دفع رودي الحساب، وترك للنادل ما يتناسب مع شهرته، وغادرنا المطعم المظلم إلى الشارع. نزل السائق من الباب الأمامي وفتح الباب الخلفي.

«هل أقلّك إلى مكان معين؟» قال رودي.

«ركنت سيارتي في «باكستر» خلف المحكمة».

«لا مشكلة، هل تمانع الذهاب إلى موقع سيارتك عبر الطريق الثاني والأربعين؟ هناك شيء أودّ لو تراه».

«هذا جيد بالنسبة إلي».

ينظر رودي من النافذة وهو يُسند مرفقه على مسند الذراع، بينما تنقر أصابعه بخفّة على شفتيه. فكّرت بكل ما سمعته. ولم يمضِ وقت طويل حتى عرفت تماماً سبب رغبة رودي بإقحامي بهذه القضية. لست متأكداً تماماً، لكن لديّ سؤال يمكن أن يزيح الغموض تماماً عن هذا الأمر.

«أعرف أنك لا تستطيع أن تطلعني على التفاصيل، لكن أجبني عن سؤال واحد. أظنّ أن هناك دليلاً هاماً يظهر أن روبرت سولومون قد اتهمته سلطة تطبيق القانون، ألم يظهر هذا بطريقة سحرية خلال الأسبوعين المنصرمين؟».

في اللحظات الأولى لم يقل رودي أي شيء. لكنه ابتسم قليلاً. هو يعرف تماماً أنني كنت أفكّر بالأمر.

«أنت على حق؛ ليس هناك دليل جديد. لم يظهر أي جديد خلال الأشهر الثلاثة الماضية». ثم قال متهكماً: «أظن أنك حللت لغز القضية كلها، لا تأخذ الأمر بشكل شخصي».

إذا تم توظيفي لمتابعة شرطة نيويورك، سأكون حينها المحامي الوحيدالذي يتعامل مع شهود من الشرطة في فريق الدفاع كله. سأكون الشخص الذي يرمي الشرطة بالقذارة. فإذا نجحت، سيكون الأمر رائعاً. لكن إذا لم تسر الأمور على ما يرام مع هيئة المحلّفين - سيتم طردي. وسيحظى رودي بالوقت المناسب ليفسّر لهيئة المحلّفين أنه تم توظيفي منذ أسبوع واحد -وأن أية اتهامات قدمتها ضدّ الشرطة، لم تصدر عن الموكّل. سأكون عنيفاً وخطيراً، وأخرج عن النص الأصلي للمحاكمة. وفي تلك الظروف، يستطيع رودي أن يحافظ على علاقة طيبة مع هيئة المحلّفين مهما حصل. وسأكون عضو الفريق الذي يُستخدم لمرّة واحدة، سواء أكان كبطل، أم كغبي ساذج.

ذكي. ذكي جداً!

ألقيت نظرة سريعة ورأيت رودي ينظر من نافذة السيارة. انحنيت للأمام وتابعت مسار نظراته فرأيت لوحة إعلانات تحمل إعلاناً لفيلم بعنوان «The Vortex». إن لوحة إعلانات في شارع اثنين وأربعين لن تكون رخيصة أبداً. يبدو أنه فيلم خيال علمي مكلف جداً. ويظهر من الكتابة أسفل اللوحة أن نجمي الفيلم هما «روبرت سولومون» و«أرييلا بلوم». كنتُ قد سمعت عن الفيلم، وأي شخص في هذا البلد شاهد التلفاز خلال السنة الماضية، يعرف عن هذا الفيلم أيضاً. لقد كان مغامرة بثلاثمئة مليون دولار - بطولة «روبرت سولومون» وزوجته «أرييلا بلوم». إلقاء القبض على صبي هوليود السيئ الناشئ حديثاً لارتكابه جريمة قتل جماعية، وتغطية إعلامية محمومة للحدث. لدينا في هذه القضية ضحيتان: مسؤول الأمن في منزل بوبي، المدعو «كارل توزر»، وزوجة «بوبي» وهي «أرييلا بلوم». عندما وقعت الجريمة، لم يكن قد مضى على زواج «بوبي» و«أرييلا» أكثر من شهرين. وكانا قد أنهيا للتو تصوير حلقات أول موسم لهما من «تلفزيون الواقع». يزعم معظم النقاد أن هذه المحاكمة ستكون أضخم من محاكمتي «أو جاي سيمبسون»، و«مايكل جاكسون» مجتمعتين.

«ارتفعت هذه اللوحة الأسبوع الماضي. وفيها تقرير صحفي عن «بوبي»، لكن الفيلم بقي محفوظاً في علبته منذ سنة تقريباً. فإذا تمت إدانة «روبرت»، سيبقى الفيلم في العلبة. وإذا خرج بعد محاكمة طويلة، سيبقى الفيلم هناك أيضاً. ولذلك فإن الطريقة الوحيدة لتحرير الفيلم، واستعادة شركة الإنتاج

لأموالها، هي بأن تُظهِرَ للعالم كله أن «روبرت» بريء. لقد وقّع «بوبي» عقداً مربحاً لثلاثة أفلام إضافية مع شركة الإنتاج هذه. وكان هذا الفيلم العمود الأساسي في هذا الامتياز التجاري. علينا أن نتأكد من أنه قادر على إنجاز العقد. وإذا لم يستطع ذلك، ستخسر الشركة مبلغاً هائلاً من المال؛ الملايين في الواقع. هناك الكثير ممن يرغبون الاستفادة من هذه الحالة يا إيدي. نريد نتيجة نهائية لصالحنا، وبسرعة».

أومأت برأسي موافقاً، وأشحت نظري عن اللوحة. ربما يهتمّ رودي بأمر «روبرت سولومون»، لكن جلّ اهتمامه منصبّ على نقود شركة الإنتاج. من يلومه على ذلك؟ إنه مُحامٍ قبل كل شيء.

كانت جميع لوحات الإعلانات في الشارع الثاني والأربعين تحمل أخباراً عن البداية الوشيكة لهذه المحاكمة.

كلما فكرت بالأمر أكثر، ازدادت قناعتي بأن هذه القضية أشبه بكابوس. ومن الشكل العام لها، ربما يكون هناك صراع بين شركة الإنتاج و»بوبي». ماذا لو أراد الصبي الاعتراف بالذنب، أو إبرام اتفاق مع النائب العام، ولم تدعه شركة الإنتاج يفعل ذلك؟ وماذا لو كان بريئاً فعلاً؟

خرجنا من الشارع الثاني والأربعين واتجهنا جنوباً نحو «سنتر ستريت»، وكنت أفكّر بما سمعته عن القضية في الأخبار. من الواضح أن اثنين من أفراد الشرطة قد استجابوا لنداء الاستغاثة الذي أطلقه «سولومون»، والذي صرّح فيه أنه وجد زوجته ميّتة، ومعها رئيس الأمن.

أدخل «سولومون» الشرطة إلى منزله، وصعدوا الدرج.

في الطابق الثاني، ثمّة طاولة مقلوبة على الأرض، وإلى جانبها آنية مكسورة. كانت الطاولة أمام نافذة تطلّ على الجانب الخلفي للمنزل، حيث الحديقة الخلفيّة المسوّرة في الأسفل. كان في هذا الطابق ثلاث غرف نوم، اثنتان منهما فارغتان ومظلمتان. بينما تقع غرفة النوم الرئيسة في نهاية الممر، وكانت غارقة في الظلام أيضاً. داخل هذه الغرفة، وجدا «أرييلا» ومسؤول الأمن الشخصي، «كارل». أو ما بقي منهما. كان كلاهما جثتين هامدتين عاريتين على السرير.

كان دم زوجة «سولومون» ظاهراً عليه. ومن الواضح جداً أنه كان هناك المزيد من الأدلة الجنائية التي يصفها مكتب النائب العام بأنه لا يمكن دحضها، وتؤكد أن «سولومون» مذنب.

أغلقت القضية.

أو هكذا اعتقدت.

«إذا لم يكن «روبرت» هو القاتل، فمن يكون؟» سألته.

التفّت السيارة إلى «سنتر ستريت»، وأبطأت سرعتها أمام المحكمة. عدّل رودي جلسته في السيارة وقال: ينصبّ تركيزنا على من لم يفعلها. هذا نصّ توريط الشرطة له. أعرف أنه قرار كبير، وأنا أقدّر وجهة نظرك الأخلاقية. لديك هذه الليلة كلها للتفكير في الأمر، فإذا اتخذت قراراً بأن تكون معنا، اتصل بي. وبغضّ النظر عن قرارك، هذا من دواعي سروري»، صرّح رودي بذلك وهو يعطيني بطاقة العمل الخاصة به (البزنس كارد).

توقفت السيارة، فصافحت رودي بينما نزل السائق ليفتح الباب. وقفت على الرصيف وراقبت الليموزين وهي تنطلق. ومن دون أن أطلع على هذه الملفّات، أستطيع أن أخمّن أن رجال الشرطة اعتقدوا أن «روبرت» هو القاتل، وباشروا العمل على إثبات إدانته. معظم رجال الشرطة لا يريدون سوى إبعاد الناس السيئين. كلما كانت الجريمة أكثر فظاعة، زاد احتمال قيام رجال الشرطة بإثبات الأدلّة ضدّ المتهم. وهذا ليس قانونياً. ربما يمكن الدفاع عن ذلك أخلاقياً، لكن لا ينبغي أن يتدخّل رجال الشرطة بالأدلة - لأن من الممكن في إحدى المرات أن يفعلوا الشيء ذاته مع شخص بريء.

أعرف بعض رجال الشرطة، إنهم أشخاص طيّبون. وأي شرطي يتلاعب بالأدلّة لتسوية القضية يُصبح مكروهاً من عناصر الشرطة الجيدين أكثر مما يكون مكروهاً من محامي الدفاع.

حول المنعطف المتجه إلى «باكستر ستريت»، بحثت عن سيارتي، الـ «موستانغ» الزرقاء، لم أجدها. نظرت حولي، فرأيتها تُرفع على ناقلة بإشراف مسؤول مواقف السيارات في المدينة.

«هيه، أنت، هذه سيارتي»، قلت ذلك وأنا أجتاز الشارع نحو الناقلة.

«إذاً عليك أن تدفع لموقف السيارات يا صديقي»، قال مسؤول مواقف السيارات بزيّه الأزرق الزاهي الموحّد.

«لقد دفعت للموقف».

هزّ الموظّف رأسه وأعطاني بطاقة، وأشار إلى سيارتي بينما كانت تُرفعُ إلى الناقلة. لم أستطع في بداية الأمر أن أعرف ما الذي كان يشير إليه الموظّف، لكنني عرفت أخيراً. تحت ممسحة الزجاج الأمامي، كان هناك كيس «ماكدونالد» تبرز من فتحته ما يقرب من ثلاثين إلى أربعين قشّة. ثمة شيء مكتوب على الكيس الورقي الأسمر، بقلم حبر عريض أسود. وطأت إطارات سيارتي سطح الناقلة، ورفعت نفسي لأصل إليها، ثم التقطت الكيس الورقي. تقول الرسالة:

«**لقد تأخرت**».

ألقيت الكيس في سلة مهملات مجاورة، وأخرجت هاتفي الخلوي واتصلت بالرقم الموجود على بطاقة رودي.

«رودي، أنا إيدي. لقد فكّرت بالأمر. هل تريد مني أن ألاحق شرطة نيويورك؟ ليذهبوا إلى الجحيم، سأفعل ما أودّ فعله. سوف أقرأ الملفات كمحامٍ عن روبرت - لكن بشرط واحد. بعد أن أطلع على القضية، إذا كنت لا أزالُ مقتنعاً بأنه مذنب، سوف أبتعد».

الفصل السادس

في أي وقت آخر من السنة، كان بإمكاني أن أمشي إلى مكاتب شركة «كارب وشركاه» خلال عشر دقائق. كان مكتبي الخاص، والذي أصبح مكان إقامتي أيضاً دون معرفة المالك، يقع في الشارع السادس والأربعين، قريباً من الجادة التاسعة. لففت عنقي بوشاح، وحشرت نفسي في معطفي، وانطلقت من مكتبي في الخامسة والنصف تقريباً. لدي الوقت الكافي لآخذ شريحة «بيبروني» مع الصودا من الطريق، وأحصل على الوقت الكافي لأتناولها. كانت الشمس قد غربت للتو، وبدأ الرصيف يتجمّد. لذا عليّ أن أسير بهدوء شديد إذا أردت أن أصل إلى هدفي سالماً. كنت متجهاً إلى «فور تايم سكوير». أو ما كان يُدعى يوماً مبنى «كاندي ناست». في الطابق الثامن والأربعين من ناطحة السحاب الأسطورية؛ صديقة البيئة، والتي تعمل على الطاقة الشمسية، داخل هذا المبنى، يعمل الناس في مجال «التجارة العادلة - Fairtrade» و»القهوة العضوية» و»الكومبوتشا»(1). كان ناشر مجلّة «كوندي ناست» في هذا المبنى، لكنه انتقل في السنوات الأخيرة وترأس مبنى التجارة العالمي الأول - «ون وورلد تريد سنتر». وعندما انتقل من هذا الموقع، انتقل إليه المحامون.

دخلت البهو في الساعة السادسة وخمس دقائق. وقد امتدت مسافة طويلة من البلاط اللامع بين المدخل ومكتب الاستقبال المكسو بالرخام الأبيض. كان السقف بارتفاع ثمانين إلى تسعين قدماً، وهو مصنوع من صفوف من الألواح الفولاذية المصقولة، والمطوية لتبدو كدرع وحش ضخم.

أعتقد أن الله لو أراد بهواً خاصاً به، لما خلقه مختلفاً كثيراً عن هذا البهو.

نقرَ كعباي بالأرض بوتيرة ثابتة بينما كنت أجتاز المسافة نحو مكتب الاستقبال. أنظر حولي، ولا أرى أية أرائك أو كراسٍ في أي مكان. إذا أردت الانتظار، فسوف تنتظر واقفاً. بدا هذا المكان وكأنه مصمم لتشعر بضآلتك. بعد أن انتظرت فترة شعرت بأنها طويلة، اتجهت إلى قسم الاستقبال، وقدّمت نفسي إلى شاب ذي بشرة فاتحة وردية، يرتدي ملابس رسمية تبدو وكأنها تسحق صدره الشبيه بصدر طائر.

«هل حضورك متوقّع يا سيدي؟» سألني الرجل بلكنة بريطانية.

«لدي موعد إذا كان هذا ما تقصده».

«تقلّصت شفتاه بطريقة يُفترض أنها ابتسامة مودّة. لكنها لم تكن كذلك. بدا كما لو أنه يتذوّق شيئاً غير ممتع، ويحاول بيأس ألا يُظهر ذلك.

«سيرافقك أحدهم بعد لحظات».

أومأت برأسي شاكراً، وتمشيت ببطء على البلاط. رنّ الهاتف في جيب سترتي، وقرأت على الشاشة اسم «كريستين»؛ إنها زوجتي. كانت خلال الأشهر الثمانية عشر الماضية، تسكن في «ريفرهيد» وتعمل في شركة قضائية من المستوى المتوسط. وابنتنا «إيمي» البالغة اثني عشر عاماً من عمرها، استقرّت في مدرستها الجديدة. لقد انفصلنا على مدى بضع سنوات. كنتُ قد بدأت بتعاطي المشروبات، لكن القشّة التي قصمت ظهر البعير كانت سلسلة قضايا وضعت عائلتي في حالة خطر. ومنذ سنة تقريباً، فكّرت أنا وكريستين بأن نعود للعيش معاً لكنني لا أستطيع الإقدام على هذه المغامرة؛ ليس قبل أن أنتهي من عملي بالقانون. فكّرت بالاستقالة مراراً، لكن هناك دوماً ما يجعلني أعود عنها. قبل أن أدمن على الكحول، حدث أن أخطأت الثقة بموكّل وأطلقت سراحه. ثم تبيّن أنه كان مُذنباً في كل شيء، وعلى مستوى ما عرفتُ ذلك. لقد تابع مساعيه ليؤذي أحدهم بشكل سيء جداً. وقد تعاملت مع هذه المعرفة بشكل يومي، وأحاول يومياً التعويض عما جرى. إذا استقلت، وتوقفت عن مساعدة الناس، أعرف أنني قد أستطيع المقاومة ستة أشهر، لكن بعد ذلك، سيبدأ الشعور بالذنب. يشبه الشعور بالذنب وشماً يزن مئتي باوند. وبقدر ما أحارب من أجل أولئك الموكّلين الذين أؤمن بهم، أتخلّص ببطء من ذلك الوزن. لكن الأمر يحتاج وقتاً. ولطالما صليت وتأملت بأن تبقى كريستين بانتظاري في نهاية المطاف.

«إيدي، هل أنت مشغول غداً ليلاً؟ أنا أطبخ الميتبول، وترغب «إيمي» بأن تراك»، قالت كريستين عبر الهاتف.

لم يكن ذلك اعتيادياً. فقد ذهبت في العطلات الأسبوعية، ورأيت إيمي.. لم تكن تدعوني أبداً خلال أيام الأسبوع.

«في الواقع، تم توكيلي بقضية جديدة؛ قضية كبيرة جداً، لكنني أستطيع دوماً توفير بضع ساعات. ما المناسبة؟»

«أوه، لا شيء محدد. أراك الساعة السابعة والنصف؟»

«سأكون هناك».

«كن معنا الساعة السابعة والنصف، ليس الساعة الثامنة أو الثامنة والنصف، اتفقنا؟»

«أعدك بذلك».

لم أتلقَ دعوة للعشاء منذ زمن طويل. أشعرتني هذه الدعوة بالتوتر، أردت أن نعود عائلة من جديد، لكن العمل الذي أقوم به أتى بكل أنواع المشاكل إلى باب منزلي. كنت في السنوات القليلة الماضية أجهدُ دماغي بكيفية الانتقال إلى مهنة أكثر رصانة. فالقضايا الموكلة إليّ تجلب المشاكل، وعائلتي لا تستحقّ ذلك. شعرت مؤخراً وكأني بحاجة إلى إجازة أكثر من أي وقت مضى. كانت ابنتي تكبر، وليس باستطاعتي أن أكون معها يومياً لأشهد ذلك.

ثمة أشياء يجب أن تتغيّر.

وقع أقدام شدّ انتباهي إلى امرأة ضئيلة الحجم قاسية الوجه ترتدي زياً أسود. شعرها الأشقر المنسدل جانبياً يتمايل ويهتزّ كما لو أن كعبيها يُعلنان حضورها.

«سيد فلاين، اتبعني أرجوك»، قالت ذلك بلكنة شبيهة بالألمانية.

«تبعتها إلى المصعد الذي كان بالانتظار. وبعدها بلحظات، أصبحنا في طابق مختلف تماماً. المزيد من البلاط الأبيض المؤدي إلى مجموعة أبواب زجاجية تحمل اسم شركة «كارب لو».

خلف الأبواب تكمن غرفة حرب.

كان المكتب ضخماً، وكأنه بهو مفتوح بالكامل، وإلى اليمين توجد غرفتا اجتماع كبيرتان جدرانهما من الزجاج. وثمّة شاشات أجهزة لابتوب تضيء وجوه جيش محامي رودي المنتشرين وراء كل مكتب. ليس هناك قطعة ورق في أي مكان. في إحدى غرف الاجتماعات، رأيت مجموعة من البزّات التي تشير إلى اثني عشر شخصاً يلبسون أزياء الشارع العادية؛ إنها محاكاة لهيئة محلّفين. حيث ترغب بعض الشركات القضائية الكبيرة أن تختبر استراتيجيتها في قاعات المحاكم من خلال إقامة محاكمة بهيئة محلّفين معدّة للتدريب، مكوّنة أساساً من ممثلين خارج أوقات العمل، وقد وقّعوا اتفاقيات كبيرة مخيفة وسرّية مقابل أجر يومي كبير. على النقيض من المحامين، يميل الممثّلون للخوف كثيراً عندما يتعلّق الأمر باتفاقات سريّة.

في غرفة الاجتماعات الأخرى، رأيت رودي كارب جالساً وحده على رأس طاولة كبيرة. وتوجهتُ إليه مباشرة.

«تفضل بالجلوس يا إيدي»، دعاني رودي مشيراً إلى الكرسي المجاور له. خلعت معطفي ووضعته على كرسي، وجلست إلى طاولة الاجتماعات. لم تكن طاولة كبيرة كتلك التي في القاعة الرئيسة، هناك تسع كراسٍ حولها، أربعة إلى كل جانب، وواحدة عند الرأس مخصصة لـ رودي. اختلست النظر عبر الغرفة ورأيت خزانة مليئة بالجوائز، وهناك تذكارات وتماثيل وقطع كريستالية من مؤسسات ضخمة جداً مثل «أميريكان بار أسوسييشن». أعتقد أن رودي يدعو موكّليه للجلوس إلى هذه الجهة ليحظوا برؤية مباشرة للجوائز المقابلة لكراسيهم. إن جزءاً من هذا العرض كان للإعلان، لكنني متأكد أن الكثير منها كان لتعزيز «أناه».

«ملفّ القضية جاهز لتأخذه معك، يمكنك قراءته حتى صباح الغد»، قال رودي. اقتربت الشقراء، والتقطت من الطرف البعيد للطاولة جهاز كمبيوتر محمول رفيعاً جداً ومعدني الهيكل، ووضعته أمام رودي. أدار الجهاز باتجاهي ودفعه ليصبح أمامي مباشرة.

«كل ما تحتاجه موجود على القرص الصلب. نحن لا ندع أية ورقة تخرج من هذا المكتب. أنا خائف؛ فهناك صحافيون يدورون حولنا. علينا أن نكون بالغي الحذر. لدى كل من يعمل على هذه القضية رمز سري للمصادقة على الرسائل. وقد تم تعطيل خدمة الإنترنت في هذه الأجهزة، وهي تتصل من خلال شيفرة تعمل على «البلوتوث» في هذا المكتب فقط. يمكنك أن تأخذ هذا معك».

«أفضّل القراءة عن الورق».

«أعرف ذلك. وأنا نفسي أفضّل الورق، لكن لن نغامر بطباعة ورقة واحدة من هذه القضية قبل المحاكمة. أنت تفهم الأمر».

أومأت برأسي، وفتحت اللابتوب، فطلب إدخال كلمة المرور.

«دعك من ذلك الآن. ثمة من أودك أن تقابله. آنسة «كانارد» هل تفضّلت بالخروج؟» قال رودي.

الآنسة التي جعلتني أشعر بالحرج، استدارت دون أن تنطق كلمة واحدة، وغادرت.

بدأت أصابعي تنقر على وجه الطاولة المصنوع من قشر خشب البلوط المصقول، أردت الدخول في العمل.

«ما الذي يجعلك تعتقد أن الشرطة ورّطت «روبرت سولومون» بالقضية؟»

«هذا سيؤجج الجحيم الكامن في صدرك، لكنني لن أخبرك. إذا أخبرتك بذلك، سوف تركّز على هذا النسق من الأدلّة. أنا أريدك أن تفكر بطريقتك. بهذه الطريقة، إذا وصلنا إلى النتائج ذاتها، سيكون من الأفضل لنا أن نضع هذه النقطة أمام هيئة المحلّفين»، وبينما نطق كلمة «هيئة المحلّفين» قفزت نظراته للحظة نحو المحاكمة التجريبية في غرفة الاجتماعات إلى جانبنا.

«هذا منطقي جداً. كيف تسير الأمور في المحاكمة التجريبية؟»

«ليس كما يجب. أنهينا أربع محاكمات. ثلاث منها خرجت بنتيجة مذنب، وواحدة لا تزال معلّقة».

«ما هي نسبة الانقسام؟»

«ثلاثة لصالح غير مذنب. خلال المقابلات التي جرت بعد المحاكمة، قال هؤلاء المحلّفين الثلاثة إنهم لم يقتنعوا بالشرطة، لكنهم لا يرون أن عناصر الشرطة فاسدون، أيضاً. ثمة خيط رفيع جداً علينا أن نسير عليه، ولهذا أنت تسير عليه. إذا سقطت، فقد سقطت. ونستمرّ نحن بالقضية من دونك، ونصلح الخطأ. أنت تفهم الأمر، أليس كذلك؟»

«فكّرت بما فيه الكفاية. ولا أهتم بذلك. الأمر الوحيد المهم هو أنني لم أقرر ما إذا كنت سأقوم بذلك حتى الآن. أحتاج إلى قراءة القضية. وبعدها سأقرر».

قبل أن أنهي تلك الجملة، نهض رودي. استقرّت نظراته على الباب. كان هناك رجلان ضخمان يلبسان معاطف سوداء صوفية، قد اقتربا من المكتب. شعر قصير، أيدٍ كبيرة. عنقان ثخينان. اقترب اثنان آخران من المكتب، الضخامة نفسها والشعر نفسه والعنق نفسه. كانا يتبعان رجلاً صغيراً يرتدي نظارات سوداء، وسترة جلدية. فتح أحد الرجلين الضخمين باب مكتب رودي الزجاجي، ثم دخل وترك الباب مفتوحاً أمام الشاب الصغير. الرجل الذي كان تحت حمايتهم دخل المكتب، وخرج رجل الأمن وأغلق الباب.

من ذكرياتي وأنا أشاهده على الشاشة الكبيرة، اعتقدت أن روبرت سولومون كان يُشبهني بالطول والحجم؛ بطول ستة أقدام وإنشين، ووزن يصل إلى مئة

وخمسة وسبعين باونداً. لكن طول الرجل الواقف أمامي يبلغ خمس أقدام وخمسة إنشات، وربما يصل وزنه إلى وزن ذراعي أحد حرّاسه. يرتدي سترة جلدية فوق كتفيه الضيقين الناعمين، وسرواله الضيق يجعل ساقيه تبدوان مثل أعواد تنظيف الأسنان. ينسدل شعره الناعم على وجهه، وتغطي نظارات شمسية كبيرة عينيه. وصل إلى طاولة الاجتماعات. وقفت حالما مدّ يده الشاحبة النحيلة.

سلّمت عليه بلطف. لم أرغب بأن أؤذيه إذا ضغطت على يده.

«هل هذا هو الرجل يا رودي؟» قال ذلك، وشعرت أنني عرفته تماماً. كان صوته قوياً ومتناغماً. لا شك في ذلك - إنه روبرت سولومون.

«هذا هو الرجل»، قال رودي.

«سعيد بلقائك يا سيد فلاين».

«ادعُني إيدي».

«إيدي، أنا بوبي»، قال ذلك وهو يحاول نطق الاسم ليرى ما إذا كان مناسباً. لم أستطع أن أمنع نفسي من الإحساس برعشة عندما لفظ اسمي. كان هذا هو الصبي الذي تم الرهان عليه بأنه «ليوناردو دي كابريو» التالي.

على الأقل، المصافحة بالأيدي كانت متينة. حتى إنها كانت مُخلصة. وضع كرسياً إلى جانبي وجلسنا. وضع بوبي وثيقة على الطاولة أمامي، وطلب مني أن أقرأها وأوقعها. تصفحتها. كان اتفاقاً محكماً يُلزمني بالسرية التامة مع العميل. وبينما كنت أطلع على الأوراق، كنت منتبهاً لبوبي، الجالس إلى يميني، وقد خلع نظاراته وبدأ يداعب شعره بأصابعه. كان وسيماً، يبرز عظما خديه، وله عينان زرقاوان قاسيتان.

وقعّت الأوراق. وأعدتها إلى رودي.

«شكراً. كما تعلم يا بوبي، لم يوافق إيدي حتى الآن على العمل في هذه القضية. سوف يقرأ الملفات ثم يتخذ قراره. انظر، إن إيدي ليس مثل باقي محامي الدفاع. هو يتبع..... بشكل جيد، أعتقد أن كلمة «قانون - code» هي كلمة قوية جداً. دعنا نصغْها على الشكل التالي - عندما ينهي إيدي قراءة الملف، فسوف ينسحب إذا اعتقد أنك مذنب. وإذا رأى أنك بريء فسوف

يساعدنا. إنها طريقة متطرّفة جداً في ممارسة العمل القانوني، ألا تعتقد ذلك؟» قال رودي.

«يُعجبني ذلك»، قال بوبي. ثم وضع يده على كتفي، وحدّق أحدنا بعيني الآخر للحظات. لم يتكلم أي منا. تحديق وحسب. كان هناك عنصر يتم البحث عنه في الجانبين كليهما. هو أراد أن يعرف ما إذا كنت أشكّ به. وأنا كنت أبحث في أقواله، لكنني كنت أتفحّص عينيه أيضاً. حقيقة أنه كان ممثلاً موهوباً لم تفارق ذهني لحظة واحدة.

«أنا أقدّر طريقتك في العمل. تريد قراءة القضية؟ يُسعدني ذلك. عندما يُقال كل شيء ويُنفّذ، لن يعود دليل الادعاء هاماً. ليس بالنسبة إلي، أنا لم أقتل أرييلا، ولم أقتل كارل. أحدهم فعل ذلك. أنا.... أنا وجدتهما، هل تعرف؟ وجدتهما مستلقيين عاريين تماماً في سريري. لا أزال أراهما كلما أغمضت عينيَّ، لا أستطيع إخراج هذه الصورة من رأسي. ماذا فعلوا بأرييلا؟ إنه.... إنه مجرَّد... يا إلهي! لا ينبغي أن يموت أي شخص بهذه الطريقة. أودّ أن أرى القاتل الحقيقي في المحكمة، هذا ما أريده. إذا استطعت ذلك، سوف أراقبهم وهم يحترقون جرّاء ما اقترفت أيديهم».

إنها لحقيقة محزنة أن يُتّهم الناس الأبرياء بجريمة قتل. نظام العدالة لدينا مبنيّ على ذلك. يحدث هذا في كل يوم لعين. رأيت ما يكفي من الأبرياء المتهمين بإلحاق الأذى بأحبتهم ما لم نتأكد عندما يقول أحدهم الحقيقة، أوعندما يكذب. ليس لدى الكاذبين تلك النظرة، من الصعب وصف ذلك. هناك خسارة وفقْد. لكن هناك شيء آخر أيضاً. الغضب والخوف، بالتأكيد. والأمر الآخر - الشعور المؤلم بالظلم. لقد أنجزت العديد من القضايا المشابهة لدرجة أنني أستطيع أن أرى الحقيقة تتراقص في زاوية عين كاللهب المتقد. أحدهم يقتل عائلتك، حبيبك أو صديقك وأن تقف في المحكمة، والقاتل حر. لا شيء أصعب من ذلك على وجه الأرض. وهي النظرة ذاتها في العالم كله. رجل بريء، يُتهم زوراً، يبدو هو ذاته في نيجيريا أو إيرلندا أو أيسلندا، أو أي بلد آخر. إذا كنت قد رأيت ذلك من قبل، فلن تنساه أبداً. من الصعب أن ترى تلك النظرة. عندما تكون تلك النظرة موجودة - قد يكون وشم البراءة لهذا الشخص منقوشاً على جبهته. أعتقد أن رودي رأى ذلك بنفسه، ولهذا طلب مني أن أرى بوبي. هو يعرف أنني أستطيع أن أرى تلك البراءة، وهذا سيؤثر على قراري أكثر من قراءة ملف القضية.

كان لدى بوبي سولومون تلك النظرة.

وعرفت أنه ينبغي عليّ الوقوف إلى جانبه.

الفصل السابع

مرّت نصف ساعة سهلة بصحبة بوبي. ساعده كوب القهوة على الكلام، وشربتُ كوبين وأنا أصغي. كان فتى مزرعة من ولاية فرجينيا. ليس لديه إخوة ولا أخوات. وقد هجرته والدته عندما كان في السادسة، وهربت مع عازف غيتار التقت به في حانة. ومع أنه بقي وحدة مع والده في تلك المزرعة، فقد عاش هناك بيسر كطفل، لكن فشل في التوافق مع تلك الحياة في اللحظة التي فكّر فيها بإمكانية وجود حياة مختلفة. داهم ذلك الإدراك بوبي بعد ظهر أحد أيام السبت عندما كان في الخامسة عشرة من عمره. إذ كانت صديقته تتبع دورة في التمثيل المسرحي، ولم ينتبه بوبي إلى الوقت حيث وصل إلى بهو الكنيسة قبل ساعة من نهاية الحصة.

بدلاً من الانتظار في الخارج، قرر بوبي أن يدخل ويشاهد.

ذلك اليوم غيّر كل شيء.

بدا بوبي مشدوهاً، فهو لم يشاهد المسرح من قبل، ولم يفهمه ولم يفهم القوة فيه. كان الأمر غريباً بالنسبة إليه لأنه كان عاشقاً للأفلام السينمائية ولم يفكّر أبداً في صناعة الأفلام أو كيفية عمل الممثلين فيها. وعندما التقى بصديقته، أخذ يطرح عليها السؤال تلو الآخر لمعرفة المزيد عن التمثيل. أدرج اسمه في الأسبوع التالي، وحصل بعد ستة أسابيع على أول تجربة له في المسرح الاجتماعي. ولم يعد إلى المزرعة بعد ذلك.

«قدّم لي الوالد شيئاً مميزاً جداً؛ فعندما بلغت السابعة عشرة، باع جزءاً من الماشية وأعطاني ألف دولار. اعتقدت في تلك اللحظة أنه يعادل كل المال الموجود في العالم. لم أرَ أبداً هذا الكمّ من المال. كان المبلغ كله عبارة عن أوراق من فئة الخمسة دولارات والعشرة دولارات، وكانت ملوّثة بالتراب وما إلى ذلك. أموال تاجر ماشية، هل تفهم ذلك؟».

اعتقدت أن بوبي كان مليونيراً، أو ربما أكثر من ذلك. ومع ذلك، تلألأت عينه عندما تحدّث عن النقود التي حصل عليها من والده.

«خبأت ذلك المال بشكل جيد، النصف في حقيبتي، والنصف الآخر في جيبي. ثم أخبرني أنه ابتاع لي تذكرة الحافلة إلى نيويورك. يا إلهي، بدا وكأنه أفضل يوم في حياتي. لكنه كان الأسوأ. كنت أعلم أنه في هذا العمل منذ سنوات.

ولا يستطيع إدارة المزرعة بنفسه. لكن لم يكن يهتم بأي شيء من ذلك، بل أراد فقط أن أحصل على فرصتي، أتفهم؟».

أومأتُ برأسي.

«حصلت على فرصتي بفضل والدي. سبع سنوات كنادل وغاسل أطباق، وممثل تحت الاختبار. كنتُ جيداً، ثم قبولي في أقل من نصف الأعمال التي تقدّمت إليها. وفي أحد الأيام، في الوقت والمكان المناسبين، اتجهت إلى أفضل مسارح نيويورك، شارع «برودواي». كانت السنتان الأولى والثانية في غاية الصعوبة. مرض والدي وكنت أزوره دوماً. جاء في ليلة الافتتاح، وشاهدني في دور البطولة في مسرح «برودواي». لم يبقَ طويلاً بعدها. ولم يعرف أنني تلقّيت اتصالاً من هوليود. كان سيفرح من أجلي».

سألته: هل قابل أرييلا؟».

هزّ رأسه نفياً: «لا، لم يرها، كان سيحبها حقاً». ثم أطرق رأسه وابتلع لعابه، وبدأ يسرد قصته.

تقابلا أثناء تصوير أحد مشاهد فيلم عادي اسمه «**هام**»؛ قصة عن سن البلوغ. لم يكن لديهما أية مشاهد معاً في الفيلم، لكنهما تقابلا مصادفة، ثم أمضيا أوقات استراحتهما معاً. كانت أرييلا في تلك الفترة قد أدّت أدواراً ثانوية في ستة أفلام عادية. بدا وكأن الأمور تسير إلى صالحها بسرعة كبيرة. كان دورها في هذا الفيلم هو دورها الأول كبطلة - كانت تعتمد على نجاح هذا الفيلم في سطوع نجمها على الرغم من ضعف إمكانيات الترويج له. وبالفعل حدث ما كانت تتوقعه. أدّى نجمها الصاعد إلى رفع مستوى نجومية بوبي لفترة طويلة. ولم يمض وقت طويل حتى شكّلا ثنائياً يافعاً قوياً. حصلا على أدوار البطولة في أفلام الخيال العلمي، ووقّعا عقوداً على مسلسلات تلفزيون الواقع.

«وإذا حصلت على فرصة خلال استجوابي، فسأسأل المدعي العام لماذا يعتقد أن من الممكن لي أن أقتل المرأة التي أحب؟ ما من شيء منطقي في ذلك».

اتكأ على كرسيه واضعاً يده على جبهته، وراح يحدّق في الفراغ. لم أكن بحاجة إلى الكثير من الجهد لأقدّم مجموعة كبيرة من الأسباب التي تجعل شخصاً مثله يقتل زوجته الجديدة.

«بما أنني قد أعمل على هذه القضية يا بوبي، عليك أن تعرف أنني أعتبر كل لقاء بيننا كأداء للمحاكمة. وإذا سمعتك تقول ما هو غير مناسب، عليّ أن أشير إليه حتى لا تخطئ في قاعة المحكمة، أتفهمني؟»

«بالتأكيد، بالتأكيد. ما الذي قلته؟» قال ذلك وهو يعدّل جلسته.

«قُلت إنك ستسأل المدعي العام سؤالاً. ستكون شهادتك للإجابة على الأسئلة، وليس لتطرح الأسئلة. وأسوأ ما يمكن أن يحدث لك هو أن تطرح سؤالاً من هذا النوع وتتلقّى إجابة من المدعي العام. قد يقول إنك قتلت أرييلا لأنك حصلت على كل ما تريده، أو لأنك لم تكن تحبها، أو لأنك وقعت في حب امرأة أخرى، أو اكتشفت حبّها لرجل آخر، ولا تريد طلاقاً فوضوياً في الحالتين كلتيهما، أو لأنك كنت ثملاً وأصابتك الغيرة فجأة، أو أنها اكتشفت سرك الأسوأ....»

توقفت عن الكلام. لكن عندما ذكرت كلمة «**سرّ**»، شعّت عينا بوبي وطافتا جميع أرجاء الغرفة قبل أن تستقرّا في وجهي.

كانتا تُربكانني، كنت قد أحببت ذلك الطفل. لكنني لم أعد الآن واثقاً تماماً.

«لا أريد أية أسرار بيننا، والأمر نفسه ينطبق عليه يا رودي»، قال بوبي.

أوشكت أنا ورودي أن نحذّره من أي شيء قد يضرّ دفاعه، لكننا تأخرنا. فقبل أن نتمكن من منعه، أخبرنا بكل شيء.

الفصل الثامن

قبل شهر من الآن، أمضى كين يوماً كاملاً كي يتمكن من ركن سيارته في هذا المكان. استطاع في ذلك اليوم أن يركنها في موقع قريب من الموقع الذي يريده، وبقي فيه حتى فرغ الموقع الذي يريده. انتقل إلى موقعه الجديد وركن السيارة. إنه يجلس الآن في مقعد السائق لسيارة من نوع «ستيشن»، ويشرب القهوة الساخنة من كوب حافظ للحرارة. كان يعلم أن الأمر يستحق العناء لأن موقف سيارات «تايمز سكوير» كان في الشارع المقابل لمبنى «كوندي ناست». وإذا ركنت سيارتك في الطابق الثامن، واستطعت أن تركن في أحد المواقف العشرة الموجودة إلى اليسار، يمكنك أن ترى الشارع بوضوح. ومرتفعاً بما يكفي لترى ما يحدث في الشارع، وتُصبح شركة «كارب لو» المُضاءة على مدار الساعة، على مرمى نظرك. وعبر منظار رقمي صغير، راقب كين فريق الدفاع وهو يستعدّ للمحاكمة. راقب تعليقات المساعدين على أداء رودي كارب أثناء تدريبه على مرافعته الافتتاحية، حتى أنه حضر اثنتين من المحاكمات التجريبية.

الأهم من ذلك أنه راقب كارب ومستشار هيئة المحلّفين عندما وضعوا ثماني صور من أصل عشر على لوحة كبيرة في الجزء الخلفي من قاعة الاجتماعات. كانت الصور لرجال ونساء من هيئة المحلّفين. وقد تغيّرت بعض الصور من أسبوع لآخر، حيث أجروا بعض التعديلات في محاولة منهم لاختيار الأفضل بالنسبة إليهم في هذه المحاكمة. وفي ذلك المساء تحديداً تم الكشف عن المحلفين الاثني عشر الذين تفضلهم هيئة الدفاع.

تنصّت كين أيضاً على اجتماعات استراتيجية في مكتب رودي كارب الخاص. فمن خلال عملية مسح سريع بمنظاره لداخل مكتب «كارب لو»، توصل إلى طريقة لزرع جهاز تنصّت فيه عدة أيام من المراقبة. تضمنت العملية بعض المخاطر، لكنها لم تكن كبيرة. لقد راقب رودي وهو يأخذ البريد من السكرتيرة، ويفتح الصندوق ويتفحّص الهديّة التذكارية. إنها عبارة عن قطعة معدنية ملتوية ومتشابكة مثبتة على قاعدة خشبية جوفاء. ولوحة نحاسية صغيرة حملت النقش: «Rudy Carp, World Lawyer Of The Year. EYLA، رودي كارب، محامي السنة العالمي».

ترمز الأحرف الأخيرة «EYLA» إلى «مؤسسة المحامين الشباب الأوروبيين»، وفقاً للملاحظة المذكورة. وعنوان المرسل واضح أيضاً. كان أول ما سمعه

كين عبر جهاز الإرسال المزروع في الهدية التذكارية، رسالة شكر أملاها كارب ليتم إرسالها إلى صندوق بريد أنشأه كارب في بروكسل.

ومن نقطة المراقبة الخاصة به في موقف السيارات المطلّ على الشارع، استطاع كين أن يرى السكرتيرة وهي تضع الهدية إلى جانب الجوائز الأخرى.

كان ذلك منذ ثلاثة أسابيع. ستبدأ المحاكمة بعد يومين من الآن، وهو يشعر بالثقة. لقد أسفرت المحاكمات التدريبية عن إدانات. كان أعضاء فريق الدفاع مختلفين فيما بينهم، وبدا بوبي سولومون وكأنه على حافة انهيار عصبي كامل. وفوق ذلك كله لم يكن الأستوديو الذي يموّل المحاكمة سعيداً، وكان يمارس الكثير من الضغوط على بوبي. أرادت هوليود براءة سولومون، ولم تنجح أموالهم حتى الآن في ضمانها. ولم يفهم مدراء الأستوديو ما الذي يحدث.

ما من شيء يُسعد كين أكثر من ذلك.

ثم شاهد المحلّفين الاثني عشر النهائيين الذين اختارهم الدفاع.

ما من ضمانة لأن يكون أيٌّ منهم في القائمة النهائية، وقد رأى صورة الرجل الذي ينتحل شخصيته الآن في القائمة مرات قليلة سابقاً، لكن ليس الليلة.

سيحتاج بعض التعديلات الخاصة من أجل قائمة هيئة المحلّفين.

عندما فكّر في ذلك، شاهد المحامي الشاب الذي يجلس في مكتب «كارب». لقد حصل على كمبيوتر محمول، ووقّع على عقد توكيله. إنه يتحدث الآن إلى بوبي سولومون. يبدو محامياً جيداً، كان سولومون يخبره بقصّة حياته بغية استثارة مشاعره ودفعه للاهتمام.

وضع كين السماعات الرأسية وأنصت.

«فلاين»، كان اسم المحامي الشاب.

قرر في هذه الليلة أن يتحرّى عن هذا اللاعب الجديد. لم يكن لديه الوقت الكافي الآن، لذلك التقط هاتفه الخلوي مسبق الدفع، والمعد للاستخدام لفترة وجيزة. وطلب الرقم الوحيد المخزن فيه.

أجاب ذلك الصوت المعروف على الاتصال.

«أنا مشغول. عليك الانتظار».

كانت نبرة صوت الرجل في الطرف الآخر عميقة، ولها إيقاع مميز. كانت توحي بشيء من النفوذ والسلطة. ص٤٥

«الأمر لا يحتمل التأجيل، أنا أعمل أيضاً. أريدك أن تراقب شرطة المرور الليلة. سأقوم بزيارة صديق، ولا أريد أن أكون مشوشاً»، قال كين.

أنصت كين باهتمام ليسمع أي تلميح لمعارضة أو رفض. يعلم كلاهما حقيقة هذه العلاقة. هي ليست شراكة أو جمعية. تكمن القوة مع كين، وقد كانت معه دوماً، وستبقى.

صمت الرجل لحظة. حتى هذا التأخير البسيط بدأ يزعجه.

«هل نحتاج لإجراء محادثة؟» سأل كين.

«لا، لسنا بحاجة لها. أنا أصغي. إلى أين تريد الذهاب؟»

«إلى هنا وهناك، لاحقاً سأرسل رسالة تحدد موقعي»، قال ذلك وأنهى المكالمة.

إنه شخص حذر، يزن مخاطر كل خطوة خطوها. ومع ذلك، ترميه الحياة أحياناً بما هو غير متوقع. توجد حواجز في الطريق إلى وجهته. يستطيع التعامل مع معظمها لوحده، لكنه يحتاج أحياناً إلى مساعدة من شخص يمكنه الوصول إلى قواعد البيانات، أو جمع معلومات ليست متوفرة لدى المواطنين العاديين. الرجال من هذا النوع مفيدون دوماً، وقد أثبت الرجل نفسه.

هما ليسا صديقين. فقد تجاوزا هذا النوع من العلاقات. وعندما تحدثا، تظاهر الرجل بأنه يشارك كين معتقداته، وأعرب عن التزامه بمهمته. كان كين يعرف أنه كاذب. وأنه لا يهتم أبداً بإيديولوجياته. هو يهتم بوسائله فقط: مسائل القتل البسيطة، وكل المتعة التي ترافقها.

«لا أريد أية أسرار بيننا. والأمر ذاته ينطق عليك يا رودي....»،قال سولومون. وسمع كين ذلك بوضوح تام عبر المايك. ترك جهاز الهاتف وركّز على غرفة الاجتماعات. جلس كارب وظهره إلى النافذة. لم يستطع أن يرى وجه المحامي، كان فلاين جالساً إلى جانب كارب لكنه يدير وجهه بعيداً عن النافذة وينظر إلى بوبي سولومون. انحنى كين إلى الأمام وأنصت.

الفصل التاسع

لا وجود لما يُسمّى قضية سيئة. هناك موكّل سيئ وحسب. تعلّمت ذلك منذ زمن طويل من القاضي فورد الذي أعتبره قدوتي، وثبت مراراً وتكراراً أنه على حق. تذكرت نصيحة هاري وأنا جالس على كرسي جلدي بجانب «بوبي سولومون».

«تشاجرت أنا وأرييلا ليلة الجريمة. لذلك تركت المنزل تلك الليلة وذهبت للشرب. أنا... أنا.... أردتكما فقط أن تعرفا ذلك. في حال تمت الإشارة إلى هذا الموضوع. نعم تشاجرنا لكنني أقسم أنني لم أقتلها. لقد أحببتها»، قال بوبي.

«لماذا تشاجرتما؟» سألته.

«أرادت أن أوقّع عقد الموسم الثاني من برنامجنا الواقعي «ذا سولومونز». لكنني كرهت أن تلاحقنا الكاميرات، بدا وكأن.... أصبح الأمر مبالغاً فيه، أتفهم ذلك؟ لم أستطع القيام بذلك، وتشاجرنا. لم يكن شجاراً جسدياً أبداً، ولم ألمسها بيدي. لكن كان الصوت عالياً وكانت مستاءة. أخبرتها أنني لن أفعل ذلك، ثم غادرت».

جلس مرة أخرى على كرسيه، ونفخ خديه، ووضع يديه على رأسه. بدا وكأنه ارتاح لأنه أفرغ مكنونات صدره، ثم بكى. لقد تفحصته عن كثب. أفصحت نظراته عن شيء واحد فقط - إنه الشعور بالذنب. لم أستطع أن أحدد تماماً ما إذا كان الشعور نابعاً من قسوة كلماته الأخيرة مع زوجته، أم نابعاً من شيء آخر.

نهض رودي وفتح ذراعيه ليعانق بوبي.

تعانق الرجلان، واستطعت أن أسمع رودي يهمس قائلاً: «أنا تفهّم ذلك، أتفهّم ذلك، لا بأس؟ لا تقلق، أنا سعيد لأنك أخبرتني. سيكون كل شيء على ما يرام».

عندما عادا إلى موقعيهما رأيت البريق في عيني بوبي.

أخذ نَفَساً عميقاً ومسح وجهه. ص٤٧

نظر بوبي إلي ومدّ يده وقال: «حسناً، أعتقد أن هذا كل ما لدي لهذه الليلة، شكراً للإصغاء. وآسف لأنني كنت عاطفياً. إنني في مأزق، وسعيد لأنك ستساعدني».

وقفت لأصافحه. كان ثابتاً بشكل يثير الدهشة هذه المرة. أمسكت يده واستغرقتُ لحظة في تفحصه أكثر عن قرب. كان رأسه لا يزال مطرقاً، شعرت أن يديه ترتعشان من التوتر. وعلى الرغم من حراسه الشخصيين، والملابس الفاخرة وتشذيب الأظافر والمال الوفير، كان لا يزال طفلاً خائفاً من احتمال أن يمضي حياته في السجن. أنا معجب به، وقد صدقته. ومع ذلك لا يزال خيط الشكّ موجوداً. ربما كان يمثّل دوراً لكنه كان مُقنعاً بالنسبة إلي. كان الطفل الموهوب دون أي شك. لكن هل كانت موهبته في التمثيل كافية لخداعي؟

«أعدك أن أبذل قصارى جهدي».

وضع يده اليسرى أعلى معصمي، وأطبق يده اليمنى على يدي بإحكام.

«أشكرك، هذا كل ما يمكنني أن أطلبه منك».

«شكراً بوبي، يكفي لهذا اليوم. سأراك في المحكمة صباحاً لاختيار هيئة المحلّفين. ستكون السيارة أمام الفندق في الثامنة والربع. اذهب الآن وخذ قسطاً من الراحة»، قال رودي.

لوّح بيده وغادر المكتب. وأحاطته على الفور مجموعة من الحراس الشخصيين الذين اتخذوا كل الاحتياطات اللازمة. ثم أخرجوه من المكتب محاطاً بمجموعة من معاطف الكشمير الطويلة.

التفت إلى رودي. وجلسنا.

«متى علمت أنه تشاجر مع أرييلا حول برنامجهما الواقعي؟» سألته.

«منذ اليوم الأول، فكّرت أن الموكّل سيصارحني بالأمر في لحظة ما. يبدو أن لديك تأثيراً كبيراً على بوبي. لقد فتح قلبه أمامك مباشرة».

أومأت موافقاً وقلت: «من الجيد أنك لعبت هذا الدور. دعه يشعر بأنه أخرج شيئاً ما من صدره. هذا سيعزز ثقته بنفسه».

كمد وجه رودي ونظر إلى الطاولة وشبك أصابعه. وبعد لحظة، رفع رأسه وتناول الكمبيوتر المحمول وسّلمه إلي.

«ثمّة أدلة ساحقة ضدّه. لدينا فرصة ما لكنها ضئيلة جداً. وسأفعل ما هو ضروري لأجعل ذلك الاحتمال أفضل. راجع الأدلّة هذه الليلة، وسوف ترى ما نحن بصدده».

أخذت اللابتوب وفتحته.

«يتطلّب الأمر شيئاً غير عادي ليقتل أحدهم شخصين بدم بارد. وخاصة زوجتك ورجل عرفته جيداً. فمن النادر أن يفقد إنسان السيطرة على نفسه بهذه الطريقة، دون أن يكون له تاريخ سابق من العنف. هل لدى بوبي أي سجل في الأمراض النفسية؟ إذا لم يكن لديه تاريخ طبي عنيف، فقد يقيدنا إظهار سجلاته إلى النيابة العامة».

«لن نستخدم سجلاته الطبية». قال ذلك مبيناً عدم اهتمامه بالأمر، ثم ضغط زرّ الهاتف وقال: «أنا بحاجة إلى وسيلة نقل آمنة».

لاحظت شيئاً في نبرة صوته. إما أنه لم يكن يرّحب برأيي في هذا الجزء من القضية، أو أنه كان يخفي أمراً ما. وأياً كان ذلك، قدّرت بأنه ليس بالغ الأهمية، أو أن الادعاء قد وجده واستخدمه. فتخلّيت عن الفكرة حالياً.

فتحت اللابتوب، فأظهرت الشاشة الرئيسة الحاجة إلى كلمة مرور. كتب رودي شيئاً ما على الورقة ووضعها أمامي.

«هذه كلمة المرور. سنتأكد من عودتك إلى مكتبك بأمان مع هذا الجهاز. لذلك سأطلب من أحد أعضاء فريقنا الأمني مرافقتك، إذا لم يكن لديك مانع».

فكّرت في البرد القارس في الخارج، والسير إلى مكتبي.

«هل سيأتي رجال الأمن بسيارة؟»

«بالتأكيد».

نظرت إلى الورقة. كانت كلمة المرور «غير مذنب - NotGuilty».

أغلقت الجهاز ووقفت لأصافح رودي.

«يسعدني أنك انضممت إلينا»، قال رودي.

«قُلتُ إنني سأدرس ملفات القضية قبل أن أقرر».

هزّ رودي رأسه، «لا. لقد قلت لبوبي إنك ستساعده. ووعدت أن تفعل ما بوسعك. لقد أصبحت معنا. وأنت تصدقه، أليس كذلك؟»

يبدو أنه ما من فائدة تُرجى من إخفاء ذلك. «نعم، أعتقد أنني سأفعل».

لكنني كنت مخطئاً سابقاً، قلت في نفسي.

«أنت مثلي تماماً، يمكنك أن تعرف متى يكون موكّلك بريئاً. أنت تشعر بالأمر وحسب. لم ألتق بأي شخص يمكنه أن يشعر بذلك حتى هذه الليلة»، قال رودي.

«أنا لست بوبي سولومون يا رودي. ولا داعي لأن تجاملني. أعلم أنك أحضرته إلى هنا لأنك تريدني أن أقابله. أردت مني أن أحدق في عينيه وأتفحصه. وأن أتخذ ذلك القرار. كنتَ تعرف أنني سأصدقه. لقد راوغتني. ومع أنني لا أظن أنه القاتل، لا أستطيع أن أجزم بأنه لا يخدعنا نحن الاثنين».

رفع يديه وقال: «إن كان متهماً بأنه المذنب، فهذا لا يغيّر حقيقة أن لدينا سيناريو مرعباً، ولدينا هنا رجل بريء. نعم، يمكنه التمثيل. لكن لا يمكنك التمثيل للخروج من جريمة قتل مزدوجة».

فُتحت أبواب المكتب. احتاج الرجل الذي دخل إلينا إلى فتح كلا البابين، وكان لا يزال عليه أن يحرّك نفسه من الجانبين. بدا مثلي من حيث الطول. كان أصلعَ وعريضاً كطاولة الاجتماعات اللعينة. يرتدي سروالاً أسود وسترة سوداء مغلقة حتى العنق. قاطع ذراعيه أمامه وشبكهما معاً. اعتقدت أنه كان أكبر مني بخمس سنوات أو ست، وأنه كان مصارعاً. برزت مفاصل أصابعه ككرات اللُبان.

«هذا هولتن. سيتأكد من وصولك مع جهاز اللابتوب بأمان»، قال رودي ذلك ثم انحنى ورفع الحقيبة المعدنية من أسفل المكتب ووضعها فوقه. اقترب هولتن، وتبادلنا التحيّة بتهذيب، وذهب مباشرة إلى الحقيبة. فتح الأقفال وقلب الغطاء ثم وضع اللابتوب داخلها. شاهدته يغلق الحقيبة ويقفلها، ورأيته يُخرج من جيبه أصفاداً ليثبّت مقبض الحقيبة بيده، ثم أخذها وقال: «لنذهب».

شكرت رودي، وكنت قد اقتربت من الباب مع هولتن عندما عرض رودي نصيحته الأخيرة. «عندما تقرأ الملفات، تذكّر ما حدث هنا هذه الليلة. تذكر شعورك، وتذكّر أنك تعرف أن هذا الشاب بريء. ونريد أن نتأكد من أنه سيبقى بريئاً».

الفصل العاشر

قطع كين الاتصال بجهاز التنصّت بعد سماعه اعتراف روبرت سولومون. وأقفل سيارة «الستيشن واغن» وانتقل إلى سيارة رمادية من نوع «فورد». جلس في مقعد السائق مقابل منحدر الخروج إلى موقف السيارات. ومن نقطة المراقبة هذه، استطاع أن يرى ما يكفي من الشارع ليراقب سيارات الدفع الرباعي السوداء الكبيرة التي تستخدمها شركة «كارب لُوْ» لنقل موظفيها.

«دار محرّك سيارة الفورد».

دون أن يُبعد نظره عن الطريق أمامه، انحنى على المقعد الجانبي وفتح صندوق القفازات وأخرج مسدساً من نوع «كولت ٤٥»، وسحب مخزن الذخيرة. لمست أصابعه الطلقات المحشوّة في المخزن. وصدر صوت خفيف عندما عاد المخزن إلى موقعه. ثم سمع الصوت الناتج عن تلقيم السلاح.

ظهرت سيارة «كورفيت» حمراء في الشارع أمامه.

«استقرّ مسدس «الكولت» في حمالة على صدره تحت المعطف. وكانت الساعة السابعة والربع.

في أية لحظة الآن، قال لنفسه.

ارتدى زوج القفازات الجلدية الضيّقة، وكان يحب رائحة الجلد. إنها تذكّره بامرأة كان يعرفها ذات يوم. كانت ترتدي عادة سترة جلدية من النوع الذي يرتديه راكبو الدراجات، وقميصاً أبيض وسروال جينز أزرق. تذكّر تجاعيد شعرها الأسود؛ وبشرتها الشاحبة؛ والطريقة التي تستنشق فيها الهواء عندما تضحك؛ وتذكّر طعم شفتيها. وفوق ذلك كله تذكّر سترة راكبي الدراجات. وتلك الرائحة القوية. والطريقة التي رقدت فيها الدماء فوق الجلد قبل أن يتم امتصاصها تدريجياً كما لو أن السترة تتجرّع كأس خمر بهدوء وعلى المدى الطويل.

أمسك كين عجلة القيادة.

أصغى إلى صوت احتكاك الجلد على الجلد - صوت القفازات على عجلة القيادة. وفكّر بالصوت الصادر عن سترة الفتاة حين بدأت تخبط بيديها بمحاولة يائسة منها لكي تقاتله. لم تصرخ أبداً. لقد فتحت فمها إلا أن الصوت لم يخرج من حلقها. سمع صوت السحاب على السترة، وبعض الجلجلة، وصوت احتكاك الجلد بالجلد عندما حاولت أن تضربه بيدها. حدث أن فكّر كين بأن هذا الصوت كان همساً تقريباً.

صرير الإطارات على الإسمنت المطلي أصدر ضجيجاً. وهناك امتداد لضوء مصابيح أمامية. نظر كين نحو الصوت فرأى شاحنة بيك أب تهبط المنحدر من الطابق العلوي. لم يرغب بأن تعيق الشاحنة مجال رؤيته، تقدم بالسيارة إلى بداية المخرج المنحدر، ثم توقف. قرأت الكاميرا لوحة سيارته. وبدأ الحاجز يرتفع. ثم اندفع بسيارة الفورد إلى الأمام.

مع اقترابه من الشارع، تجاوزته سيارة دفع رباعي سوداء، كانت قد خرجت من مبنى «كوندي سانت». نظر إلى جهة اليمين ثم اليسار. كانت حركة المرور خفيفة. تقدّم ببطء قدر المستطاع دون أن يلفت أي انتباه. كان لديه ما يكفي من المسافة ليسير إلى جانب سيارات الدفع الرباعي المتوقفة، لكنه لم يشأ ذلك. التفّ خلفها، وأسعده أن يرى فلاين ورجل أمن «كارب لو» الأحمق يخرجان من المبنى، ويتجهان نحو السيارة. وبتفحصهما معاً شعر كين أن المحامي يشكّل تهديداً جسدياً بقدر الحارس. كان الظلام دامساً ولم يستطع تمييز وجهيهما، لكنه شاهد طريقة تحرّكهما. ثمة العديد من رجال الأمن الذين يحمون بوبي، وكان من الصعب معرفته من بينهم - بدوا متشابهين جداً. في حين كان الحارس بديناً، ضخماً ذا عضلات - كان يتحرّك بسرعة. ومن الصعب الفصل بين الحراس - كان للجميع بُنية ضخمة قوية، وكانوا يتحرّكون بالطريقة ذاتها. لكن فلاين، من جهة أخرى، تحرّك مثل راقص أو ملاكم. وبدا دائماً متوازناً وواثقاً من نفسه. بدا طويلاً ومتناسقاً. إنه رجل اعتاد العمل عندما كان صغيراً. وهو يقف الآن كمقاتل.

يحمل الحارس إحدى تلك الحقائب، حقيبة اللابتوب. كانت الشركة متشددة جداً بخصوص تأمين أجهزة اللابتوب الخاصة بها. ليس هناك من طريقة لاختراقها عن بعد، ولا طريقة للدخول إليها دون استخدام كلمات المرور التي تتغيّر يومياً. إذا حظي بالوقت الكافي مع هذا الجهاز، يستطيع أن يخترقه، لكن عليه أن يصل إليه أولاً، ودون أن تعرف الشركة بذلك. لدى كين الوسائل والعلاقات والطرق للدخول إلى مبنى «كارب لو». لكن ما من أحد يمكن أن يمنحه الوقت الذي يريده للعمل على اللابتوب دون إثارة الشك. وكان من المستحيل إخراج أي جهاز من تلك الأجهزة من المكتب بسبب وجود

الكاميرات التي تغطّي كل جزء من المكتب. إنه يريد أحد تلك الأجهزة لأنها تحتوي على قضية سولومون.

خلقت فكرة حيازة الملفات تياراً كهربائياً واخزاً في جلده. وقف الشعر على عنقه. وتنفّس بطريقة مضطربة. دخل المحامي والحارس إلى السيارة وتحرّكا باتجاه الطريق.

أفلت كين دواسة المكبح وتبعهما.

في هذا الجزء من مانهاتن، وفي تلك اللحظة، تتباطأ حركة المرور لتصبح نوعاً من الزحف البطيء. هذه السرعة تناسب كين. لقد أراد تلك الحقيبة.

ثمّة هاتف ذكي، غير مرخّص طبعاً، على يمين عجلة القيادة. فتح محرّك بحث «غوغل» وبحث عن المحامي إيدي فلاين. ولدهشته، كانت الصفحات الأولى عبارة عن مقالات إخبارية، وقضايا فلاين السابقة. ومع تفحّصه لكل مقال من المقالات، قرر أن فلاين يشكّل التهديد الأكبر في قاعة المحكمة. إنه رجل خطير. ثم قلّب عدداً من الصفحات الأخرى وتبيّن أنها تخص القصص السابقة ذاتها، وأُعيد نشرها في مدوّنات ومواقع إعلامية مختلفة. ليس هناك من موقع إلكتروني يخص شركة إيدي فلاين. والشيء الوحيد الذي وجده كان عنوانه ورقم هاتفه في موقع دليل الهاتف.

وكما هو متوقّع، بعد عشرين دقيقة، انطلقت سيارة الدفع الرباعي من جهة اليمين إلى عنوان يقع في الشارع الغربي السادس والأربعين. إنه العنوان نفسه الذي وجده كين على صفحات الإنترنت. ركن كين السيارة إلى جهة اليسار، وأطفأ المحرّك. التقط هاتفه ووضعه في سترته، وخرج من السيارة وفتح الصندوق الخلفي. تلفّتَ حوله في البداية، وتأكد من عدم وجود أي شخص خلفه، كان الشارع خالياً. تحت البطانية الموجودة في الصندوق، وجد كين مجموعة من سكاكين المطبخ التي صنعها لغايات خاصة. اختار منها سكيناً حاداً لصنع شرائح اللحم، وسكيناً آخر على شكل ساطور. كان كلٌّ منهما موضوعاً في جيب جلدي. وهناك حقيبة ظهر مفتوحة وجاهزة إلى جانب البطانية. دسَّ السكاكين التي اختارها في الحقيبة وأغلقها، ووضعها على ظهره. فبعد أن يقتل الرجلين، سيكون بحاجة للحصول على الحقيبة. لقد تعلّم منذ سنوات أن أسرع الطرق لقطع أحد الأطراف ترتبط بمهارة الجزّار أكثر مما ترتبط بقوته. فإذا ضرب معصم الحارس الميت بالساطور، يُحتمل أن يستغرق الأمر من خمس ضربات إلى عشر لقطع اليد. إذ ستمتص العضلات والأوعية الدموية القوة كلها. ومن المحتمل أن تستغرق هذه الطريقة ثلاثين

ثانية. لكن كين خطط لاستخدام سكين شرائح اللحم في بتر العضلات والأوعية الدموية المحيطة بالمعصم، وكشف العظام. ثم تأتي ضربة واحدة بالساطور الذي يزن ثلاثة أرطال، وتنتهي المهمة. كان الوقت المقدّر لإتمام ذلك من خمس عشرة إلى سبع عشرة ثانية. ص٥٣

وضع قبّعة البيسبول على وجهه، ثم أغلق صندوق السيارة واجتاز الشارع.

خرج الحارس الذي يُثبّت الحقيبة بمعصمه من السيارة فعلاً. وقف في الشارع وظهره نحو كين، ومد يده ليفتح الباب الخلفي للسيارة.

لم تكن إضاءة أقرب ضوء مصباح شارع كافية لأن يتمكّن كين من رؤية الحارس بشكل جيد. هناك مسافة خمسين قدماً بينه وبين هدفه. انفتح باب سيارة الدفع الرباعي وخرج منها فلاين. وعرفه من الطريقة التي تحرّك بها. مدّ يده إلى سترته ووضع يده اليمنى على المسدّس ولمس الزناد برفق.

أربعون قدماً. كان فلاين يغلق أزرار معطفه استعداداً للتوجّه إلى مكتبه.

سمع كين صوت إطباق باب سيارة أمامه مباشرة. أصابه بعض التوتر. تجوّل رجل عجوز أسود بلباس البحرية حول مقدّمة سيارة مكشوفة خضراء داكنة، وصعد الرصيف على بعد بضع أقدام من كين، وفي وهج مصباح الشارع. كان يسير بالاتجاه ذاته، متجهاً إلى مكتب فلاين. لم يتمكّن من رؤية وجهه. لكنه رأى الشعر الرمادي في مؤخرة رأسه.

كان قد أوشك أن يسحب سلاحه، ويدفع الرجل من طريقه، عندما رفع هذا الرجل يده وصاح.

«مرحباً يا إيدي!».

التفت فلاين باتجاه كين، وكذلك فعل رجل الأمن. كلاهما كانا على الدرج، في موقع مرتفع. خفض كين رأسه. استطاع أن يرى جسديهما من تحت حافة قبعته، لكنه لم يتمكن من رؤية وجهيهما. لم يرغب بمخاطرة أن تتلاقى الأعين. فآخر ما يريده هو أن يتم كشفه. وبينما تنحّى الحارس، فتح معطفه وأمسك سلاحه. كان فلاين والحارس ينظران باتجاهه.

لقد فقد عنصر المفاجأة. وإذا أشهر سلاحه، فسيشاهدونه وهو يفعل ذلك. وفي هذه الحالة، ونظراً لمتوسط فترات ردود الأفعال، كان من المرجّح أن

يُطلق رجل الأمن طلقتين على الأقل. يجب أن يكون رجل الأمن الهدف الأول.

اصطدم حذاؤه ببلاط الرصيف. وأصبح إيقاع قلبه أسرع. وتدفّق الدم في أذنيه. كان بإمكانه تقريباً أن يشعر بتذوّق البقايا اللاذعة الناتجة عن إطلاق النار في الهواء. اجتاحت برودة لذيذة عموده الفقري. هذا هو. هذا ما عاش من أجله. إنه الترقب المهيب. بحركة سريعة واحدة، زفر الهواء من صدره، ورفع مرفقه، وسحب يده اليمنى من سترته.

الفصل الحادي عشر

كنت في خطوتي الثالثة عند مدخل المبنى عندما سمعت أحدهم يحييني باسمي في الشارع. وعلى الفور، شعرت أن هولتن متوتر جداً. لم يتحدث أبداً أثناء قيادة السيارة إلا ليسألني ما إذا كنت مرتاحاً. كان يُجيب بتهذيب، وبشكل مُقتضب، على أسئلتي القصيرة. هل رودي كارب مدير جيد؟ نعم، كان هولتن مقاولاً خاصاً، لكن من السهل العمل مع كارب. هل عمل في شركة لفترة طويلة؟ نعم. هل يحب البيسبول؟ كلا. أيحب كرة القدم؟ لا. استسلمت تماماً، اعتقدت أنه كان يراقب الطريق ولا ينبغي أن أشتت انتباهه. ولدى الوقوف على الدرج المؤدي إلى مدخل المبنى الذي أقيم فيه، فوجئت بردّ فعله الاحترازي. لم يفعل أي شيء في الواقع لكنه أصبح مستعداً لأي شيء. التفتُ باتجاه الصوت الذي سمعته ورأيت القاضي «هاري فورد» يلوّح بيده قرب الرصيف. كانت سيارته القديمة المكشوفة مركونة في الشارع. وكنت أوشك أن ألوّح بيدي إليه عندما رأيت رجلاً خلفه. كان يضع على رأسه قبّعة بيسبول تغطي جبينه. ولم أستطع رؤية وجهه في وهج مصابيح الشوارع لأن حافة القبّعة أخفت ملامحه. لم يكن وجهه هاماً حينها لأنني ركّزت على يده اليمنى. كانت داخل جيب معطفه الداخلي، وبدا كما لو أنه يستعدّ لإشهار مسدّسه.

أدركت بطرف عيني أن هولتن قد لاحظ الرجل ذاته، وقد وضع يده على سلاحه المتدلّي من خصره. شعرت بجفاف في فمي، ووجدت أنني لا أستطيع أن آخذ نفساً عميقاً. شعرت بأنني أتجمد. كانت الغرائز الأساسية الأولية التي بقيت في داخلي قد ركّزت كل شيء على ذلك الرجل الذي يضع يده في سترته. لم يكن جسدي يحتاج إلى أية عوائق كالتنفّس أو التفكير. فقد أصبحت كل عضلة فيه، وكل عصب، في حالة تأهّب قصوى. وكل الطاقة التي يستخدمها جسدي تحوّلت الآن إلى وضعية النجاة. كنت قريباً من المكان. كنت راسخاً في مكاني. فإذا أخرجت هذه اليد مسدّساً من السترة، فأنا مستعدّ للاستلقاء على الأرض فوراً.

كانت درجة الحرارة تنخفض. واستطعت رؤية جليد جديد يتشكّل على الرصيف، ويتلألأ تحت أضواء مصابيح الشارع كالكريستال المسحوق.

اقترب الرجل من هاري، وسحب يده اليمنى من جيبه. أشارت ذراعه إلى جهتنا، وكان في يده شيء أسود لامع. سمعت صوت طقطقة جوفاء من مسدّس هولتن وهو يفتح حافظة المسدس الجلدية. وكما لو أن قابساً داخلياً

تم تفعيله، استنشقت كمية كبيرة من الهواء وجثوت على ركبتيّ. وغطيت رأسي بيدي.

ساد الصمت. ليس صوت إطلاق نار ولا وميض طلقات. ولا رصاصة تصيب الطوب فوق رأسي. ثم شعرت بقبضة كبيرة تربت على كتفي.

«كل شيء بخير»، قال هولتن.

نظرت للأعلى فرأيت هاري يقف إلى جانب الرجل ذي القبّعة. كانا يحدّقان في هاتف الرجل الخلوي. أشار هاري إلى جهة الغرب على طول الشارع «٤٦». أومأ الرجل شاكراً، وقال شيئاً لهاري ورفع الهاتف. استطعت من تلك المسافة أن أرى ما يشبه الخريطة على شاشة الهاتف الخلوي. سار الرجل بمحاذاة المبنى واتجه غرباً.

«يا إلهي! كنتَ ستصيبني بنوبة قلبية يا هولتن».

«آسف، لكن من الأفضل أن نكون حذرين».

«إيدي، ما الذي تفعله بحق الجحيم؟»، سأل هاري.

وقفت، ومسحت معطفي، واتكأت على السياج.

«من الواضح أنني توخيت الحذر. ما الذي كان يريده هذا الرجل؟»

«مجرّد سائح. يسأل عن الاتجاهات»، أجاب هاري.

نظرت بقلق. تابع الرجل طريقه حاملاً هاتفه الذكي أمامه. كان ظهره متجهاً إلينا. رأيته يبتعد، ثم عدت إلى هاري.

«اعتقدنا أن ذلك الرجل يحمل سلاحاً. توحي مشيته بنوع من **الإصرار**. هل رأيت ذلك الرجل من قبل»، سألت هاري.

«لا أعرف. لم أر وجهه بشكل جيد بسبب القبّعة. وحتى لو رأيت وجهه، لن أكون قادراً على إخبارك المزيد - أنا لا أرتدي نظارتي»، أجاب هاري.

«إذاً، كيف قدت سيارتك إلى هنا؟»

«بحذر شديد»، أجاب هاري.

***

التقط هولتن إحدى الكراسي الخشبية، ثم خرج من المكتب ووضعه إلى جانب الباب الأمامي الذي يفضي إلى فسحة الدرج. ثم عاد ثانية وألقى نظرة أخرى على مكتبي. ومن موقعه على الأريكة، نظر هاري إلى هولتن بشيء من اللامُبالاة، كان يحمل كأس ويسكي من صنف ممتاز، ويعرف تماماً كم كان جيداً.

«هذا المكان غير آمن بشكل جيد يا فلاين. سأبقى في الخارج هذه الليلة. وفي الصباح، سأطلب خزنة لمكتبك. لا بدّ أن تحفظ اللابتوب بها عندما لا تكون هنا. هل يناسبك ذلك؟» قال هولتن.

«هل تعني أنك ستجلس خارج مكتبي طوال الليل؟».

«هذا ما أفكّر فيه».

«حسناً، ربما لاحظت السرير في الخلف. ليس لدي شقة. أنا أنام هنا. وربما أعمل طوال الليل، فلا تقلق حيال ذلك. اذهب إلى بيتك لتأخذ قسطاً من النوم. سأكون بخير».

«إذا كان الأمر سيّان بالنسبة إليك، فسوف أبقى في الخارج».

«هناك أريكة. إذا كنت ستبقى، فلا بدّ أن تحظى بالراحة».

ألقى نظرة واحدة على الأريكة. كان هاري قد سقط في منتصفها منذ سنوات مضت، وأصاب بعض نوابضها، فتدلّت من الوسط. وكتذكير دائم عن تلك الليلة، كلما أتى هاري، يجلس على الطرف البعيد للأريكة، فتجعله النوابض يميل نحو الوسط، وتجعله يبدو وكأنه يمكن أن يسقط في الوسط بأية لحظة. وصلني انطباع هولتن بأنه قد يكون أكثر راحة على كرسي خشبي صلب.

«لن أكون بالحارس الشخصي الجيد إذا كنت نائماً على الأريكة عندما يقتحم أحدهم بابك من أجل اللابتوب. سأكون في الخارج. اتفقنا؟».

نظرت إلى الحقيبة على مكتبي ورأيت الأصفاد لا تزال عالقة بالمقبض.

قلت: «لا بأس بذلك».

«سأخرج الآن أيها السادة»، قال ذلك وأغلق باب المكتب خلفه.

«إنه انفعالي قليلاً»، قال هاري.

«لا شيء قليل بالنسبة لهذا الرجل. الأمور كلها متساوية، لقد أعجبني بطريقة ما. يمكنك أن تقول إنه محترف».

«ماذا يحتوي هذا اللابتوب ليتطلّب هذا النوع من لحماية؟»

«يمكنني أن أخبرك، لكنك ستثمل هذه الليلة لدرجة لن تستطيع أن تتذكر، لذلك ربما يكون من الأفضل أن نتحدث بالموضوع غداً».

«سأشرب نخب ذلك الشيء».

سكبت لنفسي كمية قليلة من الشراب، وجلست إلى مكتبي. سأشرب كأساً واحداً فقط لتخفيف التوتر. فأنا أحتاج ذهناً صافياً لدراسة ملفات القضية. يمكنني في الوقت الحالي أن أسترخي قليلاً. المصباح الموجود في الزاوية، ومصباح مكتبي الزجاجي الموشح بالأخضر، أضفيا وهجاً دافئاً على مكتبي الصغير. استرخيت في مقعدي ووضعت ساقي على المكتب ورفعت كأسي إلى شفتي. أستطيع أن أستمتع بالشراب المميز مع هاري الآن. أصبحت أشرب بشكل منضبط الآن، بعد أن استغرق مني ما يكفي من الوقت للوصول إلى هذه المرحلة. لقد ساعدني هاري كثيراً.

لولا هاري لما كنت محامياً. منذ سنوات مضت، حدث أن رُفِعت قضية ضدي بسبب حادث سيارة، وتولّيت أمر الدفاع عن نفسي، وفشلت عملية الاحتيال من شركة التأمين. كان هاري هو القاضي. تجادلت مع محامي الشخص الآخر وربحت القضية، ثم التقيت بهاري بعد مدّة. أخبرني أن عليّ أن أفكر بمهنة القانون. وكان ذلك، حصلت على شهادة في القانون لاحقاً وبدأت أعمل كاتباً لدى هاري عندما اجتزت امتحان المحاماة. لقد منحني حياة جديدة، حياة بعيدة عن الخداع والاحتيال في الشوارع. لقد أنجزت تحوّلي الجذري في قاعة المحكمة.

«كيف حال العائلة؟» قال هاري.

«تكبر إيمي بسرعة، أنا أفتقدها كثيراً. ربما تصبح الأمور أفضل؟ لقد اتصلت كريستين ودعتني لتناول العشاء».

أجاب هاري بحماس: «هذا جيد. هل تعتقد أن بإمكانك أن تصلح ما كان؟»

«لا أعرف. استقرّت كريستين وإيمي في ريفرهيد. وتشعران بأن حياتهما تتقدم من دوني. أحتاج إلى وظيفة تُبعدني عن المخاطر. عمل ثابت، شيء ممل لا يُقحمني ولا يُقحم أي شخص آخر في المشاكل. هذا ما تريده كريستين، حياة طبيعية».

حتى عند تصريحي بذلك، لم أكن واثقاً ما إذا كان لا يزال صحيحاً. كان المنزل الآمن المستقر هو كل ما أردناه يوماً. لكن وظيفتي أعاقت ذلك، ولا أعرف الآن ما إذا كانت كريستين لا تزال تريدني في حياتها أو لا. أصبح هناك مسافة بيننا. وكنت آمل أن تكون دعوة العشاء هذه فرصة للتقرّب منها مرة أخرى. ص٥٨

أخذ هاري رشفة من كأسه، وفرك رأسه.

«ما الذي يدور في ذهنك؟»

«تلك الحقيبة. وذلك الرجل الذي يشبه حبّة الفاصولياء في مدخل مكتبك. هذا ما أفكر فيه. إذا كنت تبحث عن عمل أكثر استقراراً، فهذا لا ينطبق على ذاك. قل لي إنك لست في مأزق».

«أنا لست في مأزق».

«لماذا أظن بأن هذه ليست القصّة كلها؟»

رشفت السائل الرائع في قعر الكوب ورفعت الكأس باتجاه الضوء. ثم أخذت رشفة أخرى ووضعت الكأس على مكتبي.

«قابلت رودي كارب اليوم. وتعاقد معي كعضو في فريق الدفاع عن روبرت سولومون».

وقف هاري. وشرب ما بقي من كأسه، ووضع الكأس الفارغ جوار كأسي.

«في هذه الحال، عليّ أن أغادر»، قال هاري.

«ماذا؟ ما الذي حدث؟»

تنهّد، ووضع يديه في جيبي سرواله، وأطرق رأسه وهو يتابع حديثه.

«أظن أنك التقيت به هذا الصباح. ولم يكن لديك أي اتصال به قبل ذلك. لا رسائل، ولا بريد إلكتروني، ولا مكالمات هاتفية، هل أنا على حق؟».

«أنت على حق. كيف عرفت ذلك».

«ما الذي قاله رودي عن سبب توظيفك؟»

«سأعمل كشيء يصلح لمرّة واحدة بطريقة ما. عبارة عن مورد قابل للاستهلاك. سألاحق رجال الشرطة. وإذا لم أكن مُقنعاً لهيئة المحلّفين، فسوف أخرج من فريق الدفاع وكأن شيئاً لم يكن. سأكون طبقة عازلة بين رودي وهيئة المحلّفين. إذ عليه أن يحافظ على سمعته بين أعضاء الهيئة إذا لم تنجح الخطّة. أعلم أنها ليست صفقة جيدة، لكنني أريد مساعدة هذا الشخص، بوبي. أعرف أنه نجم سينمائي، وأعرف كل شيء، لكنني أحببته. وأعتقد أنه بريء».

«أعتقد أن رودي يحتاج إلى قصّة يمكن أن تصدّقها. وبطريقة ما، يكون الأمر مُقنعاً أكثر إذا ظننت أنك لم تحصل على صفقة جيدة. هذا يفسّر سبب توظيفهم لك قبل يوم واحد من اختيار هيئة المحلّفين».

جاء دوري بالتوتر الآن. عدّلت جلستي وركّزت كل انتباهي على هاري.

«هاري، توقف عن التلاعب بالكلام، وقل ما لديك».

«استدعتني القاضية كولينز يوم الجمعة. وقالت إن لديها شعوراً غريباً حقاً. هذا لم يدهشني. لقد كانت، في العام الماضي، تقود المحاكمة الأولى في قضية سولومون. وقد أُقيمت اثنتا عشرة جلسة استماع، وطلبات لرفضها، سمّها ما شئت. لكن قبل أسبوعين من الآن، انتقلت إلى فندق لكي تحظى بمكان هادئ للعمل. إن روينا كولينز، وبغضّ النظر عن أخطائها، قاضية لا تُمانع بالعمل المجهد. وعلى أية حال، أعتقد أنها مُرهقة. إن قضية من هذا النوع مُرهقة للغاية».

انخفض صوته قليلاً وغرق في التفكير. لم أقل أي شيء لأنه سيخبرني بما تبقى بعد أن يستجمع أفكاره.

«وردني اتصال من المستشفى صباح يوم السبت. لقد انهارت ريتا في الليلة السابقة بعد فترة قصيرة من حديثنا. ولولا خدمة الغرف المنتظمة لفارقت الحياة الآن. وجدها عامل النظافة مُلقاة على الأرض، وتُعاني من فشل في

الجهاز التنفسي. أحمد اللّه أنه وجدها. لقد أنقذ المسعفون حياتها. كان تعاني من سلسلة نوبات قلبية، وهي تحظى بعناية مركّزة، وتُعتبر حالتها حرجة لكنها مُستقرّة. قمت بزيارتها اليوم، وبدت حالتها سيئة.

«بغضّ النظر عن أي شيء آخر، هذا يعرّض محاكمة سولومون للخطر. ليس لدي أي شخص يمكن أن يتخلّى عن جدول قضاياه لمدّة أسبوعين - لهذا تورّطت في الموضوع. أنا القاضي في قضية سولومون».

الفصل الثاني عشر

غادر هاري مكتبي غاضباً جداً، فهو لا يحبّ المحامين الذين يحاولون التحايل على النظام. وقد كان هاري يعتقد أن رودي كارب يُشكِّك في نزاهته. ليس هناك صداقة بين المحامين والقُضاة. والقُضاة لا يتخلّون عن أصدقائهم المحامين بعد أن يتم تعيينهم على منصّة الاحتياط. يحافظ القضاة والمحامون على صداقاتهم خارج قاعة المحكمة، وكذلك يفعل بعض المدّعين ومحامي الدفاع. وعندما يلتقون في قاعة المحكمة، يلتزمون بالقوانين. إنه أمر مقبول لسبب واحد فقط؛ إذا كانوا على طرفي نقيض، تتوقّف هذه العلاقة خلال فترة القضية. وبما أنني الآن عضو في فريق الدفاع عن بوبي سولومون، فلن أستطيع أن أشرب مع هاري أو ألتقي به في أي مكان. كان هذا ما أزعجه.

أخرجت جهاز اللابتوب من الحقيبة، وقمت بتشغيله ثم اتصلت برودي كارب.

«لا يمكن أن تكون قد قرأت الملفّ كله يا إيدي؟» قال رودي.

«لم أفتحه حتى الآن. لم أفعل شيئاً سوى أنني تناولت الشراب مع صديقي هاري فورد».

ساد الصمت.

انتظرت أن يقول رودي أي شيء، لكنني لم أسمع سوى صوت أنفاسه على الخط. ثمّة جزء مني يريده أن يعترف بذلك، وجزء آخر يريده أن يصمت، وأن يراوغ قليلاً.

«رودي، ربما عليّ أن أستقيل».

«لا، لا، لا تفعل ذلك. انظر، عليّ أن أدخلك في القضية بطريقة ما. أنت محام ممتاز يا إيدي، ما كنا لنلجأ إليك لو لم نكن مقتنعين بذلك».

«كيف لي أن أصدّق أي شيء مما تقوله الآن؟»

«انظر، لا يزال كل ما قلته لك صحيحاً. أريد شخصاً لملاحقة الشرطة؛ يمكنك أن تقوم بعمل رائع من تلك الناحية، لقد فعلتها من قبل. وإذا علقت ولم تنجح بالمهمة، فسوف نخرجك من القضية لحفظ ماء وجهنا أمام هيئة المحلّفين.

وإذا صادف أنك كنت من أصدقاء القاضي المفضلين، لا بأس، ربما لن يميل إلى إلحاق الضرر بنا بسبب ما فعلته. وهذا لن يؤثّر على صديقه إيدي فلاين، فهل سيؤثر الآن؟

كان تصرّفاً ذكياً منه. فثمة الكثير من المحامين المميزين في هذه المدينة، والكثير من ذوي الخبرة الذين ينتقدون رجال الشرطة على منصّة الشهود. لكن ليس هناك الكثير من الأصدقاء المميزين للقاضي هاري فورد.

«إذا كنت تعتقد أن هاري سيسهّل الأمر على موكلك من أجلي، فأنت مخطئ».

«لا تقلق، أنا لا أشك بنزاهة القاضي، وهو لن ينحاز إلينا. أنا لا أعني ذلك، لكن هذه الاستراتيجية محفوفة بالمخاطر. إذا لم تقتنع هيئة المحلّفين بها، فلن يسمح القاضي فورد بأن ينعكس ذلك بشكل سيئ على عميلنا أو عليك شخصياً، هذا ما أعنيه. وهذا لا يجعله منحازاً بل عادلاً».

جاء دوري الآن لكي أصمت. أردت أن أخبر رودي بأنني استقلت، وأنني سأعيد اللابتوب مباشرة مع هولتن. لكن شاشة اللابتوب سطعت بينما كنت أفكّر، وتم طلب كلمة المرور «NotGuilty»، فأدخلتها وتغيّرت الشاشة. لاحت أمامي صورة بوبي سولومون؛ يقف بوبي وأرييلا في زي عيد الميلاد أمام شجرة الميلاد في «برونستون». أظهرت الصورة شابين متحابين بشكل واضح، كان كلّ منهما يمسك بيد الآخر ونظر إليه. بدت وعود كل منهما نحو الآخر واضحة في الصورة. إذا قدّمت استقالتي، سأخذل بوبي لمبررات خاطئة.

«لا أحبّ أن أخضع للاستغلال. أنت تريدني في هذه القضية، إذاً ارفع السعر».

«أستطيع أن أرى كيف لهذا أن يجعلك غاضباً، لكننا لا نملك ميزانية مفتوحة. ربما يمكننا أن نزيد المبلغ قليلاً، ولن يجعلني هذا أشعر بالاستياء، ما رأيك بخمسة وعشرين بالمئة زيادة؟»

«ما رأيك بشراكة في مكتب «كارب لو»؟ شريك مبتدئ. استحقاقات كاملة. وأختار قضاياي. لا أريد مشاكل مالية في الأشهر الستة القادمة، وكل ما أريده هو عمل ثابت يُبعدني عن الخطر».

«ذلك هو البدل المستحّق بمعنى الكلمة»، قال رودي.

قلت: «إنها قضية بمعنى الكلمة.

صمتَ، استطعتُ سماعه يتمتم وكأنه يفكّر بالأمر.

«ما رأيك بعقد لمدة عامين كمدير مساعد؟ تقدم كشفاً بلائحة أهدافك لمدة سنتين، مثل أي مدير مساعد آخر، وتصبح شريكاً مبتدئاً. هذا أفضل ما يمكنني فعله يا إيدي»، قال رودي.

قلت: «سآخذ أتعابي الأصلية بالإضافة إلى الصفقة». ستكون الأتعاب مفيدة، لكنني بحاجة إلى عمل. أرادت كريستين أن أحصل على عمل عادي لا يورّطني، ولا يورّط عائلتي، في المشاكل. ربما يؤدي ذلك إلى قطع شوط طويل في طريق إصلاح علاقتنا، بالإضافة إلى أنه يضمن لنا المستقبل.

«لك ما تريد»، قال رودي.

«هذا رائع، والآن ما الشيء الإضافي الذي تريد أن تخبرني به عن هذه القضية؟».

«لا شيء. أؤكد ذلك. اقرأ الملف. أعتذر مرة أخرى بشأن موضوع القاضي. لم أفكّر أبداً بإبقاء الأمر سراً لأنك كنت ستكتشفه على أية حال عندما تدخل إلى قاعة المحكمة. انظر، أعتقد أن بوبي بريء. أنا أعلم ذلك وأشعر به. وأنت تعرف كم هو الأمر نادر بالنسبة إلي؟ سأفعل أي شيء لإخراج هذا الولد من ورطته. اقرأ الملف، وتعرّف على قضيتنا. اتصل بي صباحاً. عليّ اختيار هيئة المحلّفين في التاسعة».

أغلقَ الخط.

تساءلت حينها إلى أي مدى يريد رودي أن يذهب في إنقاذ موكّله.

انزلقت أصابعي على شاشة الجهاز واخترت مجموعة ملفات. ليس هناك متصفّح أنترنت ولا أية تطبيقات أخرى باستثناء الملفات. ثمة خمسة منها. البيانات والأقوال. المواد الفوتوغرافية. التحاليل الجنائية. تصريحات الدفاع. خبراء الدفاع.

أمسكت بيدي قلم رصاص، وبدأت أديره بين أصابعي. هذا يجعلني، بطريقة ما، أفكّر بشكل أفضل، ويحافظ على نشاط يدي. قبل أن أصبح محامياً، استخدمت جميع أنواع الخداع. كان بعضها يتطلّب القدرة على نشل محفظة،

أو مجموعة مفاتيح أو هاتف خلوي. لطالما أخبرني والدي أن أحافظ على مهارة يدي، مما يعني أن أتدرّب على الحفاظ على ردّة فعلها، وعلى سرعتها. وبالتالي إذا حدث وكنت أفكر بأمر ما، يساعدني على ذلك أن أمسك بقلم أو قرص بلاستيكي من أقراص لعبة البوكر، وأحركه بين مفاصل أصابعي.

تشكّل الملفات الثلاثة الأولى قضية الادعاء. أما الملف الذي يحمل عنوان «تصريحات الدفاع» و»خبراء الدفاع»، فهو المستندات التي وضعتها شركة «كارب لو». عادة ما يذهب المحامون مباشرة إلى ملفات الادعاء، ويبحثون في التصريحات والإفادات ويقرؤون كل كلمة. كل ملف يمثل قصة، ذكريات الفرد، تشكل معاً رواية كاملة، إنها الرواية التي يحاول الادعاء إقناع هيئة المحلّفين بها.

أسوأ ما في الروايات أنها غير موثوقة في كثير من الأحيان.

كانت طريقتي تختلف بعض الشيء. لأنني أعتبر أن القصة الحقيقية في الصور؛ إن صور مسرح الجريمة لا تكذب. فهي ليست من الشهود، ولا يمكنها ارتكاب الأخطاء، ولا تستطيع إخفاء الحقيقة. وهي تجعلني أتخيّل قضية الادعاء. ولو كنت أنا المدّعي، فما هو نوع القضية التي سأرفعها ضد بوبي سولومون. في قضايا جرائم القتل، ليس كافياً أن تعرف كيف سيكون دفاعك، عليك أن تعرف ما هي الخطوات التي سيخطوها النائب العام، وتخطط لمواجهتها.

كانت الصور محمّلة على الشاشة في ملف الصور. والأولى منها لم تكن صورة بل ملفّ فيديو. قمت بتشغيله.

أصبحت الشاشة سوداء تماماً واعتقدت للحظة أن الفيديو لم يتم تحميله بطريقة مناسبة. ثم عرفت أن ذلك بسبب موجات لكاميرا أخرى مثبّتة فوق الباب الأمامي لمنزل أحدهم. أستطيع أن أرى الشارع في الأسفل. ثمة رجل يرتدي سترة وسروال جينز أسود يتجه إلى باب المبنى. وقد أطرق رأسه وجعل عينيه مثبتتين على شاشة الكمبيوتر اللوحي الذي يحمله. نقر على إحدى القوائم التي تظهر على الشاشة، وهناك سلك أبيض يربط الجهاز بالسماعات الموجودة في أذنيه. توقّف الرجل عند الباب، وعندما فُتِحَ الباب، رفع رأسه قليلاً. رفعه بما يكفي لأرى مشهداً ضبابياً لوجه نحيل وطرف نظارات شمسية كبيرة سوداء. اختفى الرجل من المشهد وافترضت أنه دخل إلى المبنى.

تشير الساعة إلى التاسعة ودقيقتين.

يدخل بوبي سولومون إلى المنزل بعد التاسعة مباشرة.

أغلقت شاشة الفيديو، وعدّت إلى الصور. أستطيع أن أخمّن من الصورة الأولى أن شخصاً من مكتب النائب العام قد حضر إلى مسرح الجريمة. وقد أظهرت المجموعة الأولى من الصور الباب الأمامي للمنزل، إنه باب أنيق.

كان باباً عادياً سميكاً مغطى بألواح خشبية. وقد تم طلاؤه بالأخضر الداكن مؤخراً. لقد التُقِطَت الصور في تلك الليلة، وانعكس لمعان الكاميرا على الطلاء الجديد نسبياً. المقبض النحاسي السميك مثبت وسط الباب، وتظهر صورة قريبة أن القفل بأحسن حال. لا يوجد أي خدش حول الطلاء في تلك المنطقة، ولا ضرر على القفل ولا في الباب كله إطلاقاً. ص٦٤

«مع وجود قتيلين في غرفة في الطابق العلوي، فإن التقاط صور لباب أمامي في حالة ممتازة لا تكون في قائمة أولويات شرطة نيويورك؛ هم يريدون القبض على القاتل. وقد تم تخصيص كل دقيقة من وقتهم في مسرح الجريمة للقيام بذلك. إن لمكتب النائب العام طريقة تفكير مختلفة، فهم يريدون أن يكونوا واثقين من إدانة القاتل أيضاً عندما يُقبض عليه. يكمن جزء من هذه العملية في توقع المسار المحتمل للدفاع - أن هناك متسللاً قتل أرييلا بلوم وكارل توزر - وقطع هذا الاحتمال من مصدره.

ما من أذى لحقَ الباب الأمامي والقفل.

فتحتُ مجموعة ثانية من الصور. هنا بداية القصة؛ سلسلة من اللقطات المأخوذة من المدخل، وغرفة المعيشة والمطبخ، والحمامات في الطابق العلوي، وغرف النوم الإضافية، وجميع غرف المنزل باستثناء الغرفة التي عُثِرَ فيها على الجثتين.

كان الديكور هو ذاته في جميع أنحاء المنزل؛ ديكور حديث وبسيط، وكله باللون الأبيض أو الرمادي أو السكّري، وبعض الألوان الزاهية الغريبة هنا وهناك. ثمة وسادة أرجوانية على أريكة رمادية داكنة. ولوحة جدارية تجريدية حمراء على جدار المطبخ، ولوحة أخرى بحرية انطباعية باللون الأزرق ومشتقاته في غرفة المعيشة فوق مدفأة بيضاء. بدا كل شيء نظيفاً ومرتباً تماماً. وكان أشبه بمنزل خرج للتو من ألبوم صور. لا تشوبه شائبة. ولا شيء يشير إلى أن اثنين من الشباب عاشا هناك. ربما لم يتمكّنا من قضاء الكثير من الوقت في هذا المكان بسبب مهنتهما.

أثمرت عشر دقائق من النظر إلى الصور عن بعض التساؤلات؛ إذ كان هناك باب خلفي مقفل، والمفتاح موجود في القفل من الداخل. وعلى الجانب الخارجي من الباب الخلفي هناك شبكة معدنية مقفلة أيضاً، فلا توجد مؤشرات ضرر على أي من البابين.

كان السجاد أبيض تقريباً. بدا وكأنه مغطى بثلج لم يمضِ على سقوطه يوم واحد، ثلج ناعم وطري. والمنزل أشبه بموقع ينبغي عليك أن تخلع حذاءك عندما تدخل من الباب. البيت كله مغطى بالسجاد، ومن السهل اكتشاف قطرة دم واحدة عليه، لكن لا وجود لأي شيء.

الصورة الوحيدة البارزة فعلاً كانت صورة السلالم إلى الطابق الثاني. كانت الطاولة مقلوبة وهناك آنية محطمة على الأرض. كانت طاولة السرير تحت النافذة الكبيرة، وحولها طوق مزخرف. يدفع الناس ثمناً باهظاً للحصول على مواصفات أصلية في منزل من هذا النوع. كانت الصورة التالية هي الأولى من بين مجموعة كبيرة من الصور التي تُظهر مسرح الجريمة؛ موت عنيف يروي قصته الخاصة، قصّة مكتوبة على الضحايا. في جروحهما، وعلى جلدهما، وأحياناً في عينيهما.

لم أشاهد أبداً شيئاً كهذا.

كان مصوّر مسرح الجريمة التابع لشرطة نيويورك قد التقط الصورة الأولى عند قاعدة السرير. على الجانب الأيسر للسرير، من الجهة المطلّة على الشارع، كانت أرييلا مستلقية ووجهها إلى الأعلى. وإلى جانبها كارل، من جهة اليمين. كان اللحاف مكوّماً على الأرض، إلى جانب كارل. ترتدي أرييلا سروالاً ولا شيء آخر. وقد وضعت ذراعيها إلى جانبيها وضمّت قدميها. الفم مفتوح، العينان مفتوحتان، وجذعها أحمر. وثمة بركة دم تشكّلت في أسفل بطنها. استطعت أن أرى بقع دم داكنة اللون في جميع أنحاء صدرها، إنها آثار الطعنات. كانت الأغطية تحتها حمراء أيضاً. وهناك بقع دم على رقبتها فقط. لا يوجد أي شيء على وجهها أو ساقيها.

استلقى كارل على جانبه الأيمن عارياً أمام أرييلا. كانت ساقه منحنية عند الركبة، وجذعه ملتفّ إلى الأمام. وترى من هذه الزاوية أن جسده قد اتخذ هيئة بجعة. وبقدر ما أستطيع أن أرى، لم يكن هناك أية علامة على جسده. لا أثر لطعنات ولا كدمات، بل بدا جسده سليماً، كما لو أنه متكوّر قربها وميت. لكن الأمر لم يبقَ على هذا النحو عندما رأيت ظهره، وعرفت سبب الوفاة. كان الرأس من الخلف أجوفَ، وهناك القليل من الدماء، بقعة حمراء داكنة تحت

رأسه، لكن ما من شكل واضح للجرح، ومن المحتمل أن ضربة واحدة قد قتلته. ربما يفسّر هذا وضعية جثته؛ ساقان مكوّرتان في وضعية تشبه وضعية الجنين، والرأس متجه للأسفل من شدّة الضربة.

اعتاد محامو الدفاع، كما اعتاد رجال الشرطة، على النظر إلى النهايات المروعة للحياة، والعنف الذي يخطّه أحدنا على جسد الآخر. إنها الطبيعة البشرية. إذا فعلت شيئاً معيناً عدداً كافياً من المرات، فلا يعود يحتفظ بالمعنى نفسه، ولا يحافظ على الأثر ذاته الذي كان في المرّة الأولى.

أنا لم أعتد النظر إلى الموت العنيف. وصلّيت كي لا أعتاد عليه أبداً؛ لأن ذلك الجزء مني سيموت ولن يعود إلى الحياة أبداً. أنا في حاجة إليه، وأرحّب بهذا الألم. لقد تم استئصال رجل وامرأة من هذا العالم - لقد سلبهما كل ما كان لهما في الحياة، وكل شيء كانا سيصبحان عليه. ثمة كلمة واحدة تجول في ذهني. بريئان، بريئان، بريئان. لم يفعلا أي شيء يستحق ذلك.

صوت طقطقة.

نظرت إلى يدي ووجدتُ أنني توقفت عن تدوير القلم. كنت أمسكه بقوّة كبيرة جعلتني أكسره نصفين دون أن أدرك ذلك.

مهما تكن مهمتي في هذا القضية، أنا أدين بواجب نحو أرييلا وكارل. وأياً كان ذلك الشخص الذي فعل ذلك، يجب أن يُعاقب. وإذا كان ذلك الشخص هو بوبي، فلا بد من التعامل معه بموجب القانون. لكن بطريقة ما، ومن خلال نظرتي للضحايا، أصبحت أشكك أكثر في أن بوبي قادر على فعل شيء كهذا.

ثم تذكرت. جميعنا قادرون في أعماقنا.

مما رأيته حتى الآن، لا تتطابق أسباب الوفاة تماماً مع تقارير وسائل الإعلام. كانت الصحف والمحطات الإخبارية تقول إنه تم تقطيع الضحايا إلى أشلاء في اعتداء جنوني نابع من الغيرة. لم يكن هذا ما رأيته في الصور؛ لم تظهر أي طعنة في جسد كارل. وقد قادني البحث في مجموعة صور أخرى إلى صورة مقرّبة لمضرب بيسبول على أرضية غرفة النوم. وتم الاستنتاج بأن المضرب هو الأداة التي أصابت رأس كارل وقتلته.

بإمعان التفكير بهذه الصور، وجدت أن ما رأيته غير مفهوم بطريقة ما. إذ وصل القاتل إلى المنزل، متسللاً أو باستخدام المفاتيح، وصعد إلى غرفة النوم فوجد أرييلا وكارل في السرير. كان كارل الضحية الأولى؛ من المنطقي

التخلّص من التهديد الأكبر أولاً. إن ضرب الرأس بمضرب بيسبول، وبقوة كافية لكسر جمجمة، سيُحدث ضجيجاً، الكثير من الضجيج. ولا توجد طريقة لكتم ذلك الصوت دون التخفيف من الضرر الناتج عن الضربة ذاتها. ومع ذلك لم تُصب أرييلا بأية جروح دفاعية. لا أثر لجروح أو كدمات على الذراعين أو اليدين؛ يبدو كما لو أن الطعنة الأولى أو الثانية كانت قاتلة. أو على الأقل كانت قوية بما يكفي لتشلّ حركتها.

ثمة شيء غير واضح في هذا المشهد.

قبل أن أنتهي من ملف الصور، كان هناك مجموعتان باقيتان؛ الأولى منهما لبوبي سولومون. كان يرتدي سترة حمراء وقميصاً أبيض، وسروالاً رياضياً أسود. وكانت أكمام السترة مبقعة بالدم، ويداه أيضاً. لكن ليس هناك دماء في أي مكان آخر.

مجموعة الصور الأخيرة أثارت قلقي؛ لقد تم التقاطها في المشرحة. يظهر فيها كارل توزر وهو عارٍ على طاولة معدنية. ورأيت للمرّة الأولى كدمة خفيفة أرجوانية بطول ثلاثة إنشات على حنجرته. كما لو أنه تلقّى ضربة بعصا معدنية رفيعة، أم أن هناك شيئاً تم لفّه جزئياً حول رقبته، وجرّه بقوة. لكن لم يكن ذلك ما أثار قلقي؛ فالكدمات لا تسبب الموت، وربما كانت من علامات الموت؛ تجمّع الدم في الدهون حول عنقه مع توقّف القلب عن العمل.

لا، كانت مجموعة الصور الثانية هي ما أثارت قلقي. سلسلة صور تم التقاطها للفم عن قرب.

ثمة شيء تحت لسانه.

انتقل المصوّر إلى الفيديو لتوثيق هذا الجزء الأخير.

قمت بتشغيل المقطع. شاهدت ملقطاً معدنياً طويلاً يدخل إلى فم كارل. وعند خروجه، كان هناك شيء ما بين فكّيه، شيء لم أعرفه في البداية. ومهما كان ذلك الشيء، فقط تم وضعه في طبق زجاجي، لتعمل عليه مجموعة أخرى من الملاقط. بدا وكأنه ورقة مطوية في المنتصف، مع مخروط صغير ملتصق بها. يبدو المخروط بحجم رأس قلم. عبثت الملاقط كلها بهذه الورقة ثم فردتها، وتم تقريب الكاميرا لتظهر الصورة بشكل أوضح.

لم تذكر الصحف أي شيء عن ذلك، لا يمكن.

لم تكن ورقة، بل ورقة نقدية من فئة الدولار، مطوية مرات عديدة. وعلى الجانب الخلفي منها يوجد ختم الولايات المتحدة العظيم. وفي كل زاوية من زوايا الورقة النقدية، يوجد الرقم «١»، الذي يقع خلف كلمة «واحد». يستقرّ هذا العرض كله على ما يشبه شبكة عنكبوت. كانت الورقة مطوية بطريقة تجعل كل زاوية تبدو كنموذج، أو تشكّل ما يشبه الجناح. أربعة أجنحة تنتشر من شكل مخروطي مركزي. كان المخروط فقط هو الطيّة المعقّدة لمركز الورقة. لقد تم تشكيلها لتبدو مثل قفص صدري، وفي الأسفل بطن. كان توزعها يبدأ من القفص الصدري إلى كل الجهات، لتشكل مقدّمة جناحاً ومؤخرة جناح.

لقد طوى القاتل ورقة دولار، وجعلها تبدو كفراشة، ووضعها في فم كارل توزر.

الفصل الثالث عشر

بعد محاولته الفاشلة للحصول على الحقيبة، تجوّل كين حول المباني. وعندما عاد إلى سيارته كان تنفّسه قد انتظم، لم تعد يداه تشعران بالثقل، وتوقف نبضه عن الخفقان في أطراف أصابعه. ثم ألقى الحقيبة على المقعد المجاور للسائق وانتظر.

مرت عشرون دقيقة قبل أن يرى الرجل الذي كان يرتدي بزّة جميلة يغادر شقّة فلاين. شاهده كين وهو يدخل سيارته المكشوفة وينطلق. عاد النبض إلى أصابعه، وشعر فجأة بالمسدس الموجود في جيب سترته. كان هناك الحارس وفلاين فقط. سيكون الحارس مستيقظاً الآن. في اللحظة الأخيرة فقط قرر كين ألا يُشهر السلاح على الرجال في الشارع. انتظر مدّة طويلة قبل أن يُشهر السلاح، فقد اضطره الحارس إلى ذلك. وفي اللحظة ذاتها سحب هاتفه الخلوي، وبدأ يسأل عن الطريق. يظن كين أن ما حدث أمر جيد أيضاً، حيث كان الحارس سيُطلق النار عليه أولاً.

التفكير في هذا اللابتوب الموجود في شقّة فلاين جعله يضغط على أسنانه. نظر إلى المبنى مرة أخرى، وأدرك أنه لا يعرف نوع الكاميرات الأمنية الموجودة في الداخل، ولا عدد القاطنين هناك، وربما كان هناك بوّاب على كل مكتب.

عاد محرّك السيارة إلى الحياة، وبدا صوته وكأنه يكافح ضدّ درجة الحرارة المنخفضة. ثم نقل عمود علبة السرعة، وخرج ببطء من غربي الشارع «٤٦».

أعطى كين وعداً لنفسه بأنه سيعود في وقت لاحق، عندما يكون مستعداً. فلديه أعمال أخرى في الوقت الحالي.

اتجه شرقاً نحو النهر. قاد السيارة على طول الشارع «٤٦»، إلى الجادة الثانية، ومن ثم إلى فرانكلين روزفلت. كانت حركة المرور لا تزال قوية مما جعله يتقدم ببطء. لم يكن من مواطني نيويورك، ولا بأي شكل من الأشكال. لكنه مع ذلك، لا يكاد ينظر إلى شاشة جهاز الملاحة، لقد بُنِيَت مانهاتن على شبكة. وإذا جئت إليها للمرة الأولى، فستمضي خمس دقائق تنظر إلى الخريطة لتعرف كيف تتجه. ومن الخريطة، تبدو الجزيرة أشبه بلوحة كهربائية، لا تحتاج إلا إلى الطاقة الكهربائية لكي تعمل. لا يعتقد كين بأن

الناس، سكان مانهاتن، هم الذين يقدّمون الطاقة الكهربائية لتشغيل تلك المدينة التي تشبه لوحة كهربائية. ولم تكن السيارات ولا القطارات.

إنه المال.

تعيش مانهاتن على «الأخضر»، إنه الدولار.

بينما توقّف وسط الزحام، تفحص انعكاس صورته في مرآة الرؤية الخلفية. لقد انتفخ أنفه بشكل جيد، ربما أكثر مما هو مفروض. وهذا يجعل بقية أجزاء وجهه منتفخة أيضاً. فدوّن في عقله ملاحظة لكي يتذكر لاحقاً أن يضع الثلج على وجهه ويخفف الورم، وسيحتاج أيضاً إلى المزيد من الماكياج. بدأت الكدمات تظهر من خلال طبقة رقيقة على بشرته.

سيعاني أي شخص آخر من ألم مبرّح، لكن ليس كين. كان متميزاً جداً، هذا ما أخبرته به والدته.

لم يكن يعرف جسده، كان بعيداً عنه.

عندما كان في الثامنة، اكتشف أنه ليس كبقية أقرانه. فقد سقط من على شجرة تفاح في الحديقة. وكانت السقطة قوية لأنه كان يتسلّق الجزء العالي منها، وسقط على الأرض من أعلى فروعها. لم يبكِ وهو ملقى على العشب، لم يبك أبداً. وبعد لحظة، عاود الوقوف، وكان يريد أن يتسلّقها مرة أخرى عندما اكتشف أنه لا يستطيع الإمساك بالفروع بيده اليسرى؛ بدا معصمه متورّماً. كان ذلك غير طبيعي فذهب إلى المطبخ ليسأل والدته لماذا يبدو معصمه مُضحكاً. وما إن وصل إلى البيت حتى تورّم معصمه ثلاثة أضعاف حجمه الطبيعي، بدا كما لو أن أحدهم حشر كرة «تنس» تحد جلده. وحتى هذا اليوم، يستطيع كين أن يتذكر الطريقة التي تدلّى بها وجه والدته عندما شاهدت معصمه. طلبت سيارة إسعاف، وعندا سئمت الانتظار، لفّت حقيبتين من البازيلاء المجمدة حول معصمه، ووضعته في السيارة القديمة، واتجهت إلى المستشفى.

لم تقد والدته السيارة يوماً بهذه السرعة.

تذكّر كين تلك القيادة تحديداً. كانت فرقة «ستونز» تعزف في الراديو، والدموع تتلألأ على وجه والدته، وجعل الذعر صوتها مرتفعاً وجنونياً.

«لا بأس، لا بأس. لا تخف. سنعالجك حالاً. هل تؤلمك يا عزيزي؟» تسأل الأم.

«لا»، أجاب كين.

في قسم الأشعة في المستشفى، تم التأكد من وجود عدة كسور. ويتطلّب الأمر معالجة المعصم قبل وضع الجبيرة. وأوضح الطبيب الضرورة الملحّة لذلك، وقال إنهم سيبذلون قُصارى جهدهم لتخفيف الألم باستخدام الغاز والهواء. لم يستنشق «جوشوا» الصغير رائحة المواد الغريبة القادمة من الأنبوب، ونزع القناع أكثر من مرة.

لم يصرخ خلال العملية، بل بقي جامداً تماماً وأصغى بافتتان مكتوم للحشرجة الصامتة لعظامه المحطمة بينما يقوم الأطباء بسحب المعصم ودفعه. وضعت الممرضة ملصقاً على قميصه يقول إنه مريض شجاع. وأخبرها أنه لا يحتاج إلى أي دواء، وأنه على ما يرام.

في البداية، أعاد الطاقم الطبي السبب إلى الصدمة، لكن والدته تعلم أن هناك ما هو أكثر من ذلك، كان ذلك مختلفاً، وقد حثّت المستشفى لإجراء اختبارات لابنها. حتى هذا اليوم، لا يعرف كين من أين حصلت على المال لدفع تكاليف هذه الفحوصات. اعتقد الأطباء بداية أن في دماغه خللاً ما، لم يبكِ عندما وخزوه بالإبر. كما سمع كلمة «**ورم**» لكنه لم يكن يعرف معناها. وسرعان ما استبعدوا وجود ورم في دماغه. جعلت هذه النتيجة والدته سعيدة للغاية لكنها بقيت قلقة لأن هناك المزيد من الفحوصات التي يجب القيام بها.

بعد مرور عام، تم تشخيص حالته بمرض وراثي نادر جداً؛ «عدم الشعور بالألم خلقياً». لا تعمل مستقبلات الألم في دماغه إطلاقاً. لم يشعر «جوشوا» الصغير بالألم، ولن يشعر به أبداً. يتذكر كين كيف استقبلت والدته هذه الأخبار بمزيج من الخوف والسعادة عندما كانا في مكتب الطبيب. كانت سعيدة لأن ابنها لن يعرف الألم الجسدي أبداً، لكنها ظلّت خائفة مع ذلك. رأى والدته وهي تنظر إليه في مكتب الطبيب، كانت ترتدي الثوب الأزرق ذاته الذي كانت ترتديه عندما سقط عن الشجرة، ونظرات الخوف ذاتها التي أشعلت النار في عينيها.

كان كين يستمتع بكل لحظة من ذلك.

سمع بوق سيارة خلفه يحثّه على التقدم بسرعة فعادت أفكاره إلى الحاضر. وبعد ساعة واحدة، وصل إلى بروكلن. أوقف محرك السيارة، وخرج منها، وحدد موقعه على جهازه.

سيصله إنذار مبكّر في حال وجود أي اتصال مع شرطة نيويورك.

شقّ طريقه عبر أنساق متشابهة من منازل الطبقة الوسطى في الضواحي، والمكوّنة من ثلاثة طوابق، غرفة المعيشة في الطابق الأول فوق المرآب. ويخفي الطلاء الجديد الصدأ الموجود على الأسوار المحيطة. ثم وصل إلى منزل يخص رجلاً يُدعى «والي كوك».

ظهر وجه «والي» على اللائحة في مكتب «كارب لو» باعتباره الخيار الأول لهيئة المحلّفين أكثر من أي شخص آخر. كان عضواً ليبرالياً رسمياً تبرّع بأرباح من عمله كمحقق خاص في الاتحاد الأميركي للحقوق المدنية، ويدرّب فريقاً صغيراً في عطلة نهاية الأسبوع.

لم يستطع كين الاعتماد على الادعاء الذي اعترض على وجود «والي» في هيئة المحلفين، وكان من الخطير جداً أن يبقى على القائمة. بالإضافة إلى ذلك، فهو سيحتلّ مكاناً يُفسح المجال أمام سقوط كين في خيارات الدفاع.

هناك سيارة وحافلة صغيرة مركونتان في مدخل منزل «والي». شعّ الضوء من نافذة الطابق الأول. ثمة امرأة في الثلاثين من عمرها ذات شعر بني طويل تخطو على الأرضية مع طفل بين ذراعيها، اقترب منهما «والي» وقبّل المرأة واختفى من المشهد. استلّ كين سكين تشريح اللحم واتخذ طريقه إلى الباب الأمامي.

الفصل الرابع عشر

قرأت بقية ملفات قضية سولومون في أقل من ساعتين، إذ يمكن تخطي الكثير منها بإلقاء نظرة سريعة. كما تُثبتُ البيانات الأساسية للشرطة سلسلة الكفالات وتقارير مخبر التحاليل الجنائية وأقوال الشهود. كان هناك عدّة أدلّة أساسية.

أجرى بوبي سولومون مكالمة لطلب النجدة في الساعة (٠٠:٠٣). ولدي تسجيل صوتي وكتابي لتلك المكالمة. بدا بوبي بحالة ذعر شديد، وكان يختنق بالدموع والغضب والخوف والخسارة الفادحة. وكل ذلك واضح في صوته.

الموظف : ٩١١ الطوارئ، هل تحتاج إلى الإطفاء, أو الشرطة, أو مساعدة طبية؟

سولومون: النجدة... يا إلهي ... أنا في المنطقة ٢٧٥،غربي الشارع ٨٨. زوجتي ... أظن أنها ميتة. شخص ما..... يا إلهي ..... شخص ما قتلهما.

الموظف: سأرسل عناصر شرطة ورجال الإسعاف. اهدأ يا سيدي, هل أنت في خطر؟

سولومون: أنا... أنا ... لا أعرف .

الموظف: هل أنت في الموقع الآن؟

سولومون: نعم، في غرفة النوم، أنا... أنا ... وجدتهما للتو. إنهما في غرفة النوم . إنهما ميتان.

(صوت بكاء).

الموظف: سيدي؟ سيدي؟ خذ نفساً عميقاً، أريدك أن تخبرني ما إذا كان هناك أحد في المنزل الآن.

(أصوات كسر زجاج وتعثر شخص ما)

سولومون: أنا هنا . آه، أنا لم أتفحص المنزل... اللعنة ... أرجوك أرسل سيارة الإسعاف الآن. إنها لا تتنفّس...

(يسقط الهاتف من يد سولومون)

الموظف: سيدي؟ أمسك الهاتف أرجوك. سيدي؟ سيدي؟ ص٧٣

***

أخبر بوبي الشرطة أنه كان قد خرج ليشرب بعد ظهر ذلك اليوم، وتناول بعض الحبوب أيضاً. لم يتذكّر أين كان تحديداً، لكنه قال إنه زار بعض الحانات؛ والتقى بعدد قليل من الناس لكنه لم يتذكر أسماءهم. ثم أخذ سيارة أجرة من أمام ملهى ليلي وعاد إلى المنزل قبل منتصف الليل. كان الضوء خافتاً في الصالة، ولم يكن كارل في المطبخ ولا في غرفة المعيشة. ثم انتقل إلى الطابق العلوي ليبحث عنه فرأى باب أرييلا مفتوحاً والمصباح مُضاء. وعندما دخل، وجد أرييلا وكارل جثتين هامدتين.

بدت المكالمة وقصة «سولومون» معقولتين في البداية. لدى بوبي تاريخ من الجنح الصغيرة عندما كان يذهب للمرح الصاخب، فلم يكن شيئاً غريباً ألا يتذكّر ما كان عليه عندما يقع تحت تأثير الكحول.

كانت حجّة غيابه ضعيفة. لكن لم يكن هناك مبرر للشكّ في قصته.

حتى قرأت تصريح «كن إيغيرسون»، الذي يعيش في المنطقة «٢٧٧» شارع «٨٨» غرباً. يبلغ «إيغرسون» ثلاثة وأربعين عاماً، ويعمل مدير صندوق وقائي. وصف إيغرسون وصوله إلى المنزل في التاسعة مساء. في تلك الليلة، قال «مرحباً» لجاره المشهور «بوبي سولومون»، وشاهد بوبي يصعد سلّم منزله. وقد عرف إيغرسون الوقت بالتحديد لأن زوجته تعمل دائماً في وقت متأخر من ليلة الخميس، وتغادر جليسة الأطفال في التاسعة. وأكّدت «كوني بروكوسكي» جليسة الأطفال ذات الأعوام الثلاثة والعشرين أنها غادرت منزله عندما عاد إيغرسون للبيت في التاسعة مساءً.

كنت أفكر بطرق للالتفاف على هذه الشهادات، بعض نقاط الهجوم. ثم فكرت في الفيديو، وتسجيلات كاميرا المراقبة من خارج المنزل المسجّل عليها تاريخ ليلة القتل، في الساعة التاسعة مساء. وتُظهر «سولومون» يدخل المنزل.

يتم تفعيل الكاميرا عندما تستشعر حركة ما، لذا لم يتم تسجيل أي شيء آخر حتى ظهر رجال الشرطة بعد عشر دقائق من منتصف الليل. لم يظهر بوبي في أية لقطة عندما عاد إلى المنزل عند منتصف الليل. وعثرت شرطة

نيويورك على أرييلا وكارل عندما أدخلهم بوبي بعد عشر دقائق من منتصف الليل.

الاستنتاج؟ كان «بوبي سولومون» يكذب بشأن زمن وصوله إلى المنزل.

سيحسم مخبر التحاليل الجنائية مصير بوبي. كان دم كارل على مضرب البيسبول الخاص ببوبي، وعليه بصماته أيضاً. وكان دم أرييلا على ملابسه. وفوق ذلك كله: كان الدولار المطوي على شكل فراشة، والمحشو في فم كارل، يحتوي على بصمات بوبي وحمضه النووي. قال بوبي لشرطة نيويورك إنه لم يرَ هذا الدولار من قبل، ومن المؤكد أنه لم يطوِ الورقة ولم يضعها في فم كارل.

انتهت اللعبة.

أجاب رودي على اتصالي فوراً.

«إنه في مأزق»، قلت.

«أتفق معك، لكنك لم تتعمّق بما يكفي. فقد زرع قسم التحاليل الجنائية الخاص بشرطة نيويورك الحمض النووي لبوبي».

«ما الذي يجعلك واثقاً»، سألته.

«لأن اختباراتهم أظهرت وجود أكثر من حمض نووي واحد».

«أمهلني لحظة فقط»، أجبته وفتحت ملف التحاليل الجنائية. بالفعل، كان هناك تقرير يحدد الحمض النووي الذي كان موجوداً على الدولار. كانت هناك علامتان «A» و«B». العلامة الأولى تخص الحمض النووي لبوبي، في حين ترتبط الثانية بحمض نووي موجود في قاعدة البيانات، ويعود لرجل يُدعى «ريتشارد بينا».

«مهلاً يا رودي. لا بدّ من وجود أكثر من حمض نووي في أي قطعة نقدية قيد التداول. يدهشني أنهم لم يعثروا على عشرين حمض نووي على الورقة. هذا لا يعني أن الشرطة أثبتت أن الحمض النووي يعود إلى بوبي».

«نعم إنه كذلك. أثبت ذلك التحليل الذي توافق مع ريتشارد بينا، وجود تلوّث بالحمض النووي في المختبر»، قال رودي.

«كيف ذلك؟»

«اكتشفنا بعض المعلومات الأساسية المتعلّقة بريتشارد بينا؛ من بيانات قديمة لدى مخبر التحاليل الجنائية. كان قاتلاً متسلسلاً تمت إدانته، فقد قتل أربع نساء في كارولينا الشمالية بين عامي (١٩٩٨ - ١٩٩٩). أطلقت عليه الصحافة اسم «سفاح تشابل هيل». ثم أُلقي القبض عليه وإدانته، وبعد فشله بالاستئناف مرتين متتاليتين، تم تنفيذ حكم الإعدام عام (٢٠٠١)».

لم أكن أنتظر من رودي أية إضافات. أخذت صور الدولار التي تم التقاطها بعد فتح الورقة. كانت الصورة الأولى للجهة الخلفية من الورقة. وقد لاحظت بعض التصبغات الصغيرة حول النسر الأمريكي، كما لو أن الورقة تعرّضت لتشطيبات قلم كان يدور عشوائياً في الجيب. لم أنظر عن مسافة قريبة، أردت فعلاً أن أرى الجانب الآخر للدولار. فبحثت مجدداً في الصور، وحصلت في هذه المرّة على ما كنت أبحث عنه. على الجهة الأمامية للورقة النقدية، إلى اليمين من صورة جورج واشنطن، ثمّة رقم تسلسلي. ولا يتم إنشاء رقم تسلسلي إلا في ثلاث مناسبات. الأولى إذا حدث تصميم جديد للأوراق النقدية. والمبرر الثاني لتشكيل سلاسل جديدة يتعلّق أيضاً بتغيير في الأوراق. كما يوجد على كل ورقة توقيعان، أحدهما على يمين صورة واشنطن، والآخر على يساره. الأول توقيع أمين الخازن الولايات المتحدة، والآخر هو توقيع وزير المالية. وكان التوقيعان الموجودان على الورقة التي كانت في فم كارل هما لأمينة الخزانة «روزا جوماتوتوا ريوس»، والوزير «جاك لو». ويتوافق الرقم التسلسلي مع العام الذي تم فيه تعيين «لو» عام (٢٠١٣).

فسّر رودي الأمر لي.

«ريتشارد بينا لم يلمس هذه الورقة. ففي الوقت الذي طُبِعَت فيه الورقة، كان قد مرّ اثنا عشر عاماً على وفاته».

«وليس هناك بصمة له، لا يوجد سوى الحمض النووي».

«صحيح».

«إذا كانت البصمات الوحيدة على الورقة تعود إلى بوبي، وكان الحمض النووي عليها يعود إلى كل من بوبي وبينا.... أظن أن تقنيّ مخبر التحاليل الجنائية قد مسح الورقة قبل أن يزرع حمض بوبي النووي، وقام في الوقت نفسه، وبطريقة ما، بزراعة حمض بينا النووي عن طريق الخطأ».

«بدأت تفهم الأمر الآن، إنها النظرية الوحيدة الممكنة. يمكن مسح الحمض النووي بتعريضه للمنظّفات المنزلية، ومن السهل التخلّص منه. ما عدد الأيدي التي لمست هذه الورقة النقدية منذ طباعتها عام (٢٠١٣)؟ لا بدّ أن تكون بالمئات، إن لم نقل الآلاف. لقد تمت إزالتها لمحاولة توريط بوبي. وقاموا بمسح الورقة، ثم أخفقوا بزراعة حمض بوبي النووي، وبطريقة ما تمت إضافة حمض بينا النووي في المختبر. هذا هو التفسير الوحيد، هذا ما وجدناه».

هذا منطقي. لكن لا يزال هناك ما يقلقني؛ كانت الفراشة رمزية بطريقة ما، وهامة لشخص ما، ربما كان القاتل أو الضحية. وقد استغلّت الشرطة هذا الدليل. لقد استخدمت شرطة نيويورك هذا الدليل لتوريط بوبي عن طريق زراعة حمضه النووي لكنها أخفقت.

«تم اختبار الحمض النووي لـ «بينا» في ولاية أخرى، فكيف وصل إلى مختبر شرطة نيويورك؟»

«نحن لا نعرف، لكنه وصل».

أصغيت إلى رودي على الهاتف وهو يهاجم فساد الشرطة، والضجّة الإعلامية التي سيخلقها هذا الدليل، وكيف سيكون هذا هو أساس الدفاع عن بوبي. وبعد ثلاثين ثانية، توقفت عن الإصغاء. عدتُ بذهني إلى «كارب لو»، وأنا أجلس إلى جانب بوبي، أصغي إليه وهو يدافع عن براءته. في تلك اللحظة، تساءلت عما إذا كنت سأسمح لنفسي بأن أصدقه. كان ممثلاً موهوباً دون شك، ونجوم السينما ليسوا جميعهم ممثلين رائعين. كان بوبي محترفاً، ولديه المهارات. شيء آخر يزعجني؛ في معظم القضايا، إذا زرعت الشرطة أدلة ضد المشتبه فيه، فعادةً ما يكون ذلك بسبب اعتقادهم بأنه مُذنب. لم أستطع أن أرى كيف تمكّن شخص آخر من دخول المنزل دون أن تراه كاميرا المراقبة التي تعمل عن طريق رصد الحركة. وهناك شهادة الجار أيضاً.

«لقد اقتنعت بقصّة بوبي يا رودي، لا أستطيع أن أكذب عليك أو على نفسي بشأن ذلك. صدّقته عندما أخبرني بأنه بريء، ولا أستطيع أن أدع أي شيء آخر يؤثر على هذا الحكم. فإذا لم يكن لديك مانع، أريد أن أباشر العمل مع المحقق الخاص بي. ما زلنا لا نملك السكين التي قتلت أرييلا. أخبرني، ماذا يقول بوبي عن مضرب البيسبول الذي تم استخدامه لقتل كارل؟»

«قال إنه أبقى المضرب في الممر. كان لديه حراسة بالتأكيد، لكن والده العجِوز كان يُبقيه دوماً بجانب الباب الأمامي. وكان بوبي يفعل الشيء ذاته

دوماً؛ إنه مضربه، وهذا يفسّر سبب وجود البصمات علية...»

«لكن ليس الدم، أريد البحث في هذا الأمر أكثر».

«تم تحويل أتعابك إلى حسابك. إذا أردت أن تُنفق بعضاً منه على التحقيق، أرجو أن تفعل. سأتولّى اختيار هيئة المحلّفين. اتصل بي في الصباح، وخذ قسطاً من النوم»، قال ذلك وأنهى المكالمة.

بحثت في قائمة جهات الاتصال في هاتفي حتى وصلت إلى اسم «Blow Me». وطلبته. لم أهتم بالتوقيت أبداً لأن الشخص الذي أتصل به معتاد على إجراء مكالمات هاتفية طوال الوقت، إنها إحدى سمات العمل. تم استقبال المكالمة. سمعت صوتاً أنثوياً من الجهة الأخرى، كان الصوت خشناً وفيه شيء من نبرة وسط غربي أميركا.

«إيدي فلاين، رجل القانون المخادع. كنت أتساءل متى ستتصل بي».

يعود هذا الصوت إلى عميلة سابقة في مكتب التحقيقات الفيدرالية تُدعى «هاربر». لم تخبرني أبداً باسمها الأول. وعندما أفكر بالأمر، لا أكون واثقاً ما إذا كنت سألتها يوماً عن اسمها الأول. قابلت هاربر منذ عام، قبل أن تستقيل من المكتب مع شريكها «جو واشنطن». لقد أسسا جهازاً خاصاً للأمن والتحقيقات في مانهاتن، وكانا يؤديان عملاً جيداً بكل المقاييس. وعندما التقينا للمرة الأولى، صدمت رأسي بسقف سيارتها من نوع «موستانغ». وبعد بضعة أشهر، كنا نطارد المجرم نفسه، ولم تُنقذ حياتي أنا فحسب، بل أنقذت حياة زملائها العملاء في مكتب التحقيقات الفيدرالية أيضاً. أستطيع العمل على قضية بوبي بمفردي، لكنني أردتها معي. كانت طرق تفكيرها سليمة، وأنا أثق بحكمتها؛ وإذا كانت ترى أن بوبي مذنب، فقد أفكّر بالأمر مرة أخرى.

«سعيد بالتحدث معك أيضاً. اعذريني لأنني لم أتصل سابقاً، كنت أنتظر القضية المناسبة. أنا بحاجة إلى محقق، هل تعرفين أي شخص مناسب؟»

«Blow Me»، يا لها من مفاجأة، من هو موكّلك؟»

كنت أعرف ما هو قادم قبل أن أجيب. لكنني أجبت على أية حال.

«أنا في فريق الدفاع عن «بوبي سولومون». سنثبت أن شرطة نيويورك قامت بتوريطه، وأنت ستساعدينني».

أطلقت ضحكة قوية وقالت: «هذا جيد. لاحقاً ستخبرني بأنك تمثّل «تشارلز مانسون»».

«أنا جاد. خلال ساعة من الآن، سيصل إلى شقتك رجل أمن من «كارب لو» ومعه جهاز لابتوب محمول. سينتظرك بينما تقرئين الملفات، إنه أمر حساس جداً؛ إذا خرج أي شيء من هذه الملفات قبل المحاكمة.....»

توقفت ضحكة هاربر في حنجرتها.

«بالله عليك يا إيدي، هل أنت جاد؟».

«أنا جاد. يبدو أنه ليس لدينا أكثر من يوم أو يومين لنفهم هذا الموضوع. اقرئي الملف، واتصلي بي عندما تنتهين من ذلك. سنذهب صباحاً إلى مسرح الجريمة. إلا إذا كنت تفضلين أن نبدأ من مكان آخر؟»

«سأتصل بك عندما أنتهي من الملفات. لكن من خلال ما شاهدته في الأخبار، تشير كل الدلائل إلى أن سولومون هو القاتل. أنت تعلم ذلك صحيح؟ يبدو وكأنه خاسر».

«لقد قرأت الصحف كلها أيضاً. واستمعت إلى جميع الخبراء القانونيين في قناة «سي. إن. إن». ويعتقد الجميع أن هذه المحاكمة قد انتهت قبل أن تبدأ. ربما كانوا على حق، لكنني تحدثت مع بوبي، وكذلك فعل رودي كارب. ونحن لا نعتقد أنه الشخص المناسب لارتكاب جرائم قتل من هذا النوع. كل ما يتعيّن علينا فعله هو إقناع اثني عشر عضواً في هيئة المحلّفين بأننا على حق».

الفصل الخامس عشر

بهزّة قوية واحدة من معصمه، أعاد كين قبضته على السكين. وبعد أن اجتاز الشاحنة الموجودة في المدخل، انحنى وغرس السكين في العجلة الخلفية من جهة السائق. وترنّحت السيارة بينما كان الهواء يخرج من الثقب الذي فتحه في العجلة. أمال قبّعته إلى الأسفل ووضع السكين في جيبه، وتقدّم بضع خطوات إلى الباب الأمامي ورنّ الجرس.

مرّت لحظة ثم فتح «والي» الباب. كانت المرّة الأولى التي يراه فيها كين بوضوح، وعن مسافة قريبة، بدا الرجل في أواخر الثلاثينات على الأرجح. كان الشعر خفيفاً فوق جبهته، وبدا وجهه متورداً. اشتم كين رائحة النبيذ في أنفاسه، وأخبرته البُقع الياقوتية فوق شفته العليا بأنه شرب كوباً كبيراً من النبيذ. مما يفسّر هذه النظرة المنتعشة على الوجه القاسي.

خبا وهج ذلك الوجه عندما رأى كين. وأياً كان الشخص الذي كان يتوقعه، فهو لم يكن يتطابق مع مظهر كين الحالي.

تحدث كين بلكنة جنوبية كان يستخدمها غالباً. بطريقة ما، يضيف هذا التشدّق الجنوبي مصداقية على ما يقوله. ويجعل الناس يثقون به.

«آسف لإزعاجك، كنت ماراً من هنا ورأيت إطار شاحنتك فارغاً تماماً من الهواء. ربما كنت تعرف ذلك مُسبقاً، لكنني فكّرت بأن أقوم بواجبي الإنساني وأخبرك إذا كنت لا تعرف».

استدار كين، وكان حريصاً على ستر وجهه عبر إبقاء وشاحه مرتفعاً، وإبقاء نظره إلى الأسفل. ويبدو أن الخدعة نجحت.

«أوه.... حسناً، شكراً لك. أي عجلة تتحدّث عنها؟»

«هذه العجلة، سأريك».

خرج والي من المنزل وتبع كين إلى الجانب الخلفي للشاحنة، انحنى قليلاً ليرى العجلة بينما وقف كين إلى جانبه. لم يكن ضوء الشارع قريباً منهما، ولم تكن أضواء المنزل تصل إلى ذلك الموقع.

«يا إلهي، ثمة شيء لعين مزّقِ هذه العِجلةٍ»، قالِ والي.

فحص الثقب بأصابعه. بدا وكأن شيئاً صلباً حاداً اخترقه بشكل مستقيم. كان قد أوشك أن ينتصب على قدميه عندما قال: «حسناً، شكراً لأنك....» ثم تجمّد في مكانه. كانت ركبتاه منحنيتين وذراعاه مرفوعتين، وكفاه مفتوحتين. وكان يحدّق بمسدس كين. وتأكد كين من ألا يغفل والي عن أي تفصيل صغير عبر توجيه السلاح مباشرة إلى وجهه.

عندما تحدث كين مرة أخرى، كان العسل الجنوبي الدافئ قد تلاشى عن لسانه كما لو أنه لم يكن، وأصبح صوته قوياً وصارماً.

«لا تتكلم، ولا تتحرك. نفّذ ما أقول وحسب، سنتجه الآن إلى سيارتي. سأطرح عليك بعض الأسئلة البسيطة، فإذا أجبت عليها تعود إلى منزلك. وإذا سببت لي المتاعب، أو لم تجب عليها، سأكون مضطراً إلى توجيه سؤال إلى زوجتك الشابة».

زفر نفساً ثقيلاً أمام فوّهة المسدس. أصابته حالة من الذعر، وبدأت ساقاه ترتعشان، لم يكن قادراً أن يُبعد عينيه عن كين، كان ينظر إلى وجهه المتواري في الظل. تخيّل كين أن الضوء الذي بدا وكأنه يهرب من عينيه كان مرئياً للرجل الواقف أمامه، وهذا كل ما استطاع أن يراه - بقعتان صغيرتان من الضوء في الظلام.

«قف ودعنا نذهب. أم يجب عليّ توجيه ذلك السؤال إلى زوجتك؟ إنه بالفعل سؤال بسيط. ما الذي سيزعجها أكثر؟ أن أطلق النار في وجهك، أو أن أغرس سكيني في عين طفلك؟»

انتصب الرجل، وتحركت تفاحة أدم الكبيرة في حلقه صعوداً وهبوطاً وهو يبتلع ذعره. ثم أشار كين إليه بأن يتقدم، والتزم والي بذلك.

«اتجه يميناً عند أسفل الطريق، وتابع التقدم في الشارع، وقف قرب سيارة «ستيشن واغن» تلك، من جهة الباب المجاور للسائق. أنا خلفك بخمس خطوات. وإذا ركضت، ستموت. وكذلك الطفل».

سارا بصمت إلى نهاية الطريق، وأبقى كين المسدس تحت سترته. ما من أحد آخر في الشارع؛ فالبرد قارس، والوقت متأخر، يبدو الشارع خالياً تماماً. اتجه والي يميناً، واتبع التعليمات ثم وقف عند باب سيارة كين.

«ما الذي تريده مني؟» قال والي والخوف يطرق صدره وكأنه طبل.

فتح كين السيارة وطلب منه أن يدخل بهدوء. ثم انسلّ الرجلان إلى السيارة في آن معاً، وكان كين يوجّه المسدس إلى والي عندما جلس في مقعد السائق. أغلقا الأبواب. وكان والي يحدّق أمامه مباشرة، ويرتعش خوفاً ويزفر الهواء.

«أعطني هاتفك الخلوي»، قال كين.

أطرقت عينا والي مدة نصف ثانية. وشاهد كين ذلك. ولمح والي المسدس الذي أمسكه كين بيده اليسرى، في الأسفل، عند معدته، بينما يشير إليه وهو مقوّس الظهر حتى يتمكن من الوصول إلى جيب سرواله.

«ببطء»، قال كين.

أخرج «والي» الهاتف من جيبه، ونقر بيده على الشاشة فأضاءت، لكنه كان لا يزال يرتعش، فانزلق الهاتف على الأرضية. مدّ يده للأسفل. كانت المصابيح الداخلية للسيارة مطفأة، فلم يستطع كين أن يرى سوى ضوء شاشة الهاتف على الأرضية، وكان الضوء كافياً ليتمكن من رؤية قدمي والي تنتفضان. تصلّب كين، ومدّ يده للأسفل، لكنّه تأخر كثيراً.

استلّ والي مدية لولبية، وغرسها في الجانب الأيمن من ساق كين. أمسك كين معصم والي، حتى عندما حرّك النصل وجعل الدم يتدفّق. لكن قبضة كين كانت محكمة، فلم يستطع والي تحريك المدية.

ضرب كين رأس والي بفوّهة المسدس. وسدد ضربة بأخمص المسدس إلى معدته، فأفلت المدية من يده. راقب كين الرجل يئنّ ويكافح لكي يتنفس. إن معظم المحققين الخاصين يحملون نوعاً من أدوات الدعم، لكن كين لم يفكّر بتفتيشه قبل أن يُدخله إلى السيارة. وجّه كين فوهة المسدس إلى الجهة الجانبية من رأسه ونظر إلى المدية المغروسة في ساقه بشيء من اللامبالاة.

«أفسدت هذا السروال»، قال كين.

«ما .. ما ... ما خطبك أيها الرجل؟» قال والي.

كان يمسك رأسه بيده، ويحاول أن يستنشق الهواء بجرعات مؤلمة، محاولاً استيعاب المشهد أمامه. إنه لم يتأثر بالسكين الموجودة في ساقه، ولم يتجهّم من الألم، لم يصرخ ولم يصرّ على أسنانه. كان لا مبالياً مطلقاً بجرح مؤلم وخطير.

«أنت تتساءل لماذا لا أصرخ؟ أعطني هاتفك وإلا جعلتك تصرخ فعلاً».

انحنى ببطء هذه المرة، وأمسك الهاتف وأعطاه لكين. خفض كين المسدس، فنظر والي إليه جانبياً، ويده أمام وجهه في انتظار أن يسمع صوت المسدس.

«اللعنة، بذلت الكثير من الجهد لأحافظ على مظهر هذا السروال»، قال كين. «لا تقلق، لن أطلق النار عليك»، قال ذلك وهو يعيد السلاح إلى سترته. «لكن عليّ أن أحتفظ بسكينك. هنا في مكانها».

تحرّك كين بسرعة كبيرة تفوق قدرة والي على تحديدها. هو لا يزال يبدو خائفاً، كما لو أنه يتوقع هجوماً. كان الثقب الذي فتحته سكين كين في جمجمته ينزف دماً. قام كين بتشغيل محرّك السيارة، ودفع رأس والي أسفل لوحة القيادة، وانطلق. أضاء المصابيح الأمامية، وعندما شعّت أضواء لوحة القيادة داخل السيارة، ألقت وهجاً أرجوانياً على قبضة المدية المصنوعة من الكروم، والتي تبرز من ساق كين، لم يجرؤ على رفع المدية كي لا ينزف. كان بحاجة إلى مكان هادئ ليعالج جرحه، ويتخلّص من جثّة والي.

بعد خمس عشرة دقيقة، وصل إلى منطقة تجارية؛ ساحات مخصصة لشاحنات النقل، ومصانع وورش. جميعها مغلقة في الليل، وبعضها كان مغلقاً منذ سنوات. دخل في موقف مفتوح إلى جانب مصنع مهجور، وتقدم حتى وصل إلى سياج من الأسلاك في الخلف. ليس هناك مصابيح شارع ولا كاميرات مراقبة. خرج من السيارة، وقام بتبديل لوحاتها. لطالما أنجز مهمة كهذه خلال خمس دقائق. لكن ليس هذه المرة، إذ لم يستطع أن يجثو بسبب السكين المغروسة في فخذه، ولم تكن لديه القوة الكافية في تلك الساق. أزال بصمات أصابع والي عن جهاز الهاتف ورماه في الساحة المفروشة بالحصى. ثم سحب جثّة والي من السيارة ورماها إلى جانب الهاتف. لديه عبوة بنزين في صندوق السيارة، وبعد أن غمر الجثّة والهاتف، أشعل النار وراقبها بضع دقائق. نظر حوله فلم تقع عيناه على أي شخص أو أي شيء يمكن رؤيته من موقعه وصولاً إلى النهر. قد تبقى الجثّة أسبوعاً أو أكثر قبل أن يُكشف عنها. وعندما يعثر عليها رجال الشرطة، سيستغرق الأمر أسبوعاً آخر على الأقل لتحديد الهوية من سجلات الأسنان. وهو وقت أكثر من كاف بالنسبة إليه لينجز عمله.

هل يعلم رجال الشرطة أن «والي» كان سينضمّ إلى هيئة المحلّفين؟ هذا ممكن. عندما لا يحضر غداً، سيُدرج اسمه على قائمة الاستدعاء لتبرير غيابه عن الهيئة. وهذا سيستغرق بضعة أيام على الأقل، وربما أكثر.

بعد ذلك بساعة، توقف كين في مكانه في موقف السيارات المقابل لشركة «كارب لو». وانتظر بضع دقائق لتُطفأ الأنوار التي تعمل باستشعار الحركة، ويسود الظلام. أولاً، تناول من المقعد الخلفي حقيبة أدوات طبية وفتحه. واستخدم مقصّاً حاداً لقص سرواله وكشف السكين المغروسة بعمق في فخذه. كان مشهد إصابة كبيرة في جسده يثير فضوله دوماً. لم يشعر بأي شيء، لكنه كان يعلم أنه قد يكون هناك تلف كبير في العضلات. فعندما استبدل لوحات السيارة، كان يعرج، لكنه لم يكن متأكداً ما إذا كان ذلك بسبب وجود السكين في فخذه. أما الجانب الإيجابي للأمر فكان معرفته أنه ما من ضرر على الشرايين الرئيسة، وإلا لكان قد نزف أثناء الطريق إلى مانهاتن.

أدرك أن عليه العمل بسرعة. المحرك لا يزال يعمل، أطفأ المصابيح الأمامية، وضغط ولاعة السجائر في لوحة القيادة.

لديه القطن الطبي والضمادات، فاستطاع بهما أن يوقف النزيف بعد أن سحب السكين. الدم يتدفّق بشكل مستمر. لقد كان مسروراً، فلو كانت دفقات الدم متواترة، وتتسق مع ضربات قلبه، سيكون عليه أن يذهب إلى المستشفى. وهذا من شأنه أن يثير الشكوك.

أصدرت ولاعة السجائر صوتاً يعلن عن جاهزيتها.

إن الطريقة التي استخدمها كين لعلاج نفسه تجعل أي شخص عادي يتلوّى ويصرخ، ويكزّ على أسنانه من شدة الألم قبل أن يفقد وعيه. لكن في حالة كين تحديداً، كل ما كان عليه هو التركيز والتأكد من أنه لن يفقد سيطرته على ولاعة السجائر بينما كان يغرسها عميقاً في الجرح. أبقاها لفترة، وعندما توقف النزيف، أعاد ولاعة السجائر إلى مكانها، ووضع خيطاً في إبرة. كان يعمل كشخص ذي خبرة؛ إذ لم تكن المرة الأولى التي يخيط بها جلده. كان الإحساس هو نفسه دوماً، شعور بالضغط والشدّ على طول الجلد. لكن ليس هناك ما يزعج. لفّ الجرح بكمية من الشاش والأربطة. وخرج من السيارة ولمعت الأضواء، وضع السترة فوق ساقه، وركب سيارته الثانية، وخلع سرواله التالف الملطّخ بالدماء، وارتدى سروال جينز جديد أسود احتفظ به المقعد المجاور للسائق مع قميص وقبّعة لفريق «نيكس».

عندما عاد إلى الشقة كان متعباً. خلع ملابسه ببطء أمام المرآة، وفحص ساقه. لم ير الكثير من الدماء. وكان يأمل بتوقف النزف بحلول صباح اليوم التالي.

أمامه يوم طويل وحافل.

الثلاثاء

الفصل السادس عشر

مخبز «هوت أند كروستي»، الذي يقع في نقطة تقاطع غربي شارع ثمانية وثمانين مع شارع «برودواي»، يقدّم قهوة جيدة وأفضل الفطائر المحلّاة. لا تزال سيارتي في مركز الحجز، ولهذا استقليت مترو الأنفاق باكراً لأتجنب الزحام، ما منحني بعض الوقت لتناول الفطور. تناولت كمية من الفطائر مع اللحم المقدد، وتركت كوبي القهوة جانباً بينما كنت أنتظر وصول هابر. الساعة الثامنة وخمس عشرة دقيقة، كان هناك رتل من عمال البناء، وموظفون إداريون وسيّاح ينتظرون فطورهم المكوّن من «كعكة البيغل».

رأيت هولتن قبل أن أرى هاربر. دخل من الباب الأمامي وتعرّف على مكاني، وكان قد اجتاز نصف المسافة نحوي عندما ظهرت هاربر وهي تمشي خلفه. لم يكن للأمر علاقة بضآلة حجمها بل بضخامته. لو أنك أوقفته أمام سيارة بويك موديل (١٩٥٢)، لما تمكّنتَ من رؤيتها خلفه. كان طول هاربر أقلّ من معدّل الطول الوسطي بقليل، رشيقة ونحيلة تسرّح شعرها على شكل ذيل حصان، ترتدي سروالاً من الجينز، وحذاء عالياً له أنشوطة، وسترة جلدية تغطي الصدر كاملاً حتى العنق. كان هولتون يرتدي الزي نفسه ويحمل حقيبة جلدية مثبّتة بمعصمه.

قال هولتن: «تنتهي ورديتي في الساعة التاسعة والنصف. سيأتي «باني» ليأخذ مكاني. وسوف يراقب شاشة الكمبيوتر حتى أعود إلى الخدمة ليلاً».

أجبت: «صباح الخير لك أيضاً».

ردّت هاربر: «أرجو أن تعذر هولتن يا إيدي. لقد نام على أريكتي. لو كنت مكانه لتذمّرت أيضاً».

«هل تقصدين أنه نام فعلاً؟ اعتقدّت أنه يستمدّ طاقته عبر وصل نفسه بشاحن كهربائي».

«صدّقني»، قال هولتن، «لو اعتقد رودي كارب أن ذلك ممكناً لكان هناك ما دفعني للتحرّك».

كان هولتن يشعر بالإثارة حقاً. والسبب يعود إلى هاربر كما أظن. لقد عمل كلاهما في مجال تطبيق القانون، ولديهما الكثير من الأشياء المشتركة.

جلست هاربر أمامي وإلى جانب هولتن. وطلب كلاهما كعكة البيغل، ولم أكن قد اكتفيت من القهوة بعد.

«إذاً فقد حصلت على إذن من النائب العام لمساعدتنا في مهمتنا الاستطلاعية البسيطة هذه؟» قالت هاربر.

«بالفعل. لقد تحدثت مع مساعد النائب العام، وسهّل الأمر لي مع شرطة نيويورك. وقد أولت شبكات الإعلام الكثير من الاهتمام بالقضية مما حوّل المنزل إلى مزار للمعجبين. حتى إن مفوّض الشرطة وضع جدولاً لتنظيم العمل الإضافي، وتعيين عناصر شرطة أمام مدخل المنزل على مدى أربع وعشرين ساعة في اليوم. ولولا ذلك لغصّ المنزل بالزوار وتلاشت محتوياته بسبب رغبة الناس بالاحتفاظ بذكرى منه، أو التقاط صور لصحفيي هوليود. يعرف الشرطي الموجود هناك أننا في الطريق إليه».

أومأت هاربر بالموافقة، ووكزت هولتن الذي بادلها الابتسامة. استطعت أن أخمّن مشاعر الإعجاب التي يكنّها لها. لقد بدا بابتسامته البلهاء تلك أشبه بطالب في المدرسة الثانوية.

«أخبرتك مسبقاً أنه لن تكون هناك صعوبة بالدخول إلى المنزل. عليك أن تتحلّى بالإيمان»، قالت هاربر. رفع هولتن يديه معلناً هزيمته.

قرأت ملف القضية. وكذلك فعلت هاربر. توفرت لدينا الخبرة الكافية لنعرف أنه مهما بلغ عدد الصور التي رأيناها عن مسرح الجريمة، لن تكون بقيمة وجودنا في ذلك المكان فعلياً. كنت أحتاج لأن أتفحص مسرح الجريمة وتضاريسه ومخطط الغرفة. بالإضافة إلى ذلك، أردت أن أتأكد أن رودي ورجال الشرطة لم ينسوا أي تفصيل.

«إذاً ما رأيك بالقضية؟» سألتها.

امتقع وجه هاربر فوراً، أشاحت بوجهها وتنحنحت.

«دعني أصوغها كما يلي؛ أنا لست مُقتنعة مثلك. أعتقد أنه من المفترض أن يقدّم عميلنا الكثير من التفسيرات، وهو لم يفعل أي شيء حتى الآن».

«هل تعتقدين أنه يكذب بشأن هذه الجرائم؟».

في تلك اللحظة، وصلت الوجبات التي طلباها، وبقينا صامتين حتى تأكدنا أن النادلة أصبحت خارج نطاق السمع، وعندها أجابت هاربر: «إنه يكذب في أمر ما، أمر بغاية الأهمية».

لم يتحدثا أبداً خلال فترة تناول الطعام التي لم تدم طويلاً. التهم هولتن كعكته بسرعة، بينما تناولت هاربر طعامها وكأنها تتزوّد بالوقود من أجل رحلة طويلة وقاسية عليها المضي بها قدماً. لم يستمتع أي منهما بوجبته. شربتُ قهوتي وانتظرت.

مسحت هاربر شفتيها بمنديل واستندت على كرسيها. كان هناك ما يشغل بالها، فقالت:

«لا أستطيع التوقّف عن التفكير بالفراشة».

«أعرف، بصمات بوبي وعيّنتان من الحمض النووي. يعتقد رودي أن عناصر الشرطة هي من ثبّتت دليل الحمض النووي. وأعتقدُ أنه على حق».

أومأت برأسها موافقة على كلام هولتن وقالت: «نعم، لست واثقة من إدخال شرطة نيويورك لحمض ريتشارد بينا النووي إلى المختبر. إنها مسألة صعبة. ما يشغلني الآن هو الفراشة بحد ذاتها. حاولت أن أصنع واحدة ليلة البارحة. من الواضح أن فن طي ورقة الدولار فن شائع. هناك فيديوهات تعليمية على موقع «اليوتيوب». شاهدتها مدة خمس وأربعين دقيقة بينما كنت أستريح من قراءة الملفات. لم أتمكن من صناعتها. أياً كان الشخص الذي يصنعها، فقد احتاج إلى وقت طويل لتحضيرها، وقد صنعها قبل تنفيذ الجريمة. إن العبث بجثّة لإرسال تصريح، يحتاج إلى أعصاب باردة».

«أثارت هذه النقطة اهتمامي أيضاً، لا أعرف كيف ستقوم النيابة العامة بالالتفاف على أهمية الفراشة، لكنني أعتقد أنهم سيقولون إنها تُظهِر أن بوبي لم يقتل كارل وأريلا، في سورة غضب. وكما قلت أنت، إنه تصرّف بارد. فهي تُظهر أنها جريمة عن سابق إصرار وتصميم».

قالت هاربر: «حقاً إنه تصرّف غريب. وهو تصرّف طقسي تقريباً. ويبدو أنه يخصّ القاتل أكثر مما يخصّ الضحية. ومع أنني أقرأ الكثير عن هذا الموضوع، إلا أنني اتصلت بصديق لي في «مكتب العلوم السلوكية». وسوف يقوم بمراجعة البيانات. كما يحتفظ مكتب التحقيقات الفيدرالي بسجل

خاص بالجرائم الشعائرية، وهناك فريق يبحث عن أنماط السلوك. ربما كانت مشابهة للعامل المحفِّز لدى شخص آخر.

عدّ هولتن بعض الأوراق النقدية، ونشرها بين أصابعه. كان جهاز اللابتوب في حضنه، أصدرت سلسلة الأصفاد الطويلة قعقعة بينما كان يحرّك النقود.

«حاول رودي القيام بذلك مسبقاً. وأمضى فريقنا كله أياماً في الأزقّة المظلمة بحثاً عن أنماط سلوك مشابهة. لن تخبرنا الشرطة الفيدرالية بأي شيء، ولهذا قمنا ببحثنا الخاص عبر التقارير الإخبارية والاتصالات الخاصة بأقسام الشرطة. لكننا لم نصل إلى أي شيء. ربما يكون لدينا فرصة مع صديقك»، قال هولتن.

رفعت النادلة الأطباق وتركت الفاتورة.

«سأدفع الحساب»، قلت ذلك وأنا أضع النقود على الطاولة.

اعترضت هاربر، واعترض هولتن بطريقة أشد. إنهما شرطيان سابقان لا يزالان على عادة البقاء بعيداً عن جيب محامي الدفاع، باستثناء حالة واحدة كما يبدو، عندما يكون الاسم على جدول المرتبات الشهرية.

«سأقوم بتسوية الأمر»، قال هولتن وهو يعيد لهاربر ورقة من فئة العشرين دولاراً، «الإفطار على حساب شركة كارب. ستكون فاتورة الإفطار ضمن حساب النفقات».

جمع نقودي وأعادها إلي، ووضع نقوده بدلاً عنها. لفتت انتباهي ورقة الدولار الأخيرة التي كانت أعلى النقود التي تركها هولتن على الطاولة. كانت صورة «جورج واشنطن» إلى الجهة السفلى. وعلى الوجه العلوي ظهرت صورة رمز الولايات المتحدة العظيم. وعلى الجهة اليسرى هرم تعلوه عين واحدة ترى كل شيء، وإلى اليمين نسر يحلق بين النجوم ودرع مخطط، يمسك أغصان الزيتون بإحدى قدميه، ويقبض بالأخرى على حزمة سهام. وفي الحال، شيء ما بدأ يشغل ذهني. راودني إحساس غريزي بأن الورقة النقدية في فم كارل كانت مفتاح هذه القضية اللعينة كلها.

سرنا نحن الثلاثة حول المنعطف باتجاه غربي شارع ثمانية وثمانين. كانت الطريق تؤدي إلى النهر، لكن لم يكن هناك من داعٍ للسير تلك المسافة. مررنا بكنيسة، وعدّة متاجر معدّات، وفندق. وفي الجهة الأخرى من الطريق، رأينا المنزل المكوّن من ثلاث طبقات من الحجر البني، وشريط مسرح الجريمة

يظهر لامعاً أمام الباب. وهناك شرطي يجلس بلباسه الرسمي، يأخذ استراحة على درجات الشرفة. كان الشرطي أصغر حجماً من هولتن، لكنه كان ضخم الجثّة حليق الرأس ذا عنق ثخين. وعلى الطريق، اصطف عشرات الأشخاص بزيّهم الأسود، وقد وضع بعضهم قمصاناً وأزهاراً وصوراً لأرييلا على أسوار المنزل. افترشت المجموعة معاطف مطرية وكراسي قابلة للفتح. وكانوا هنا طوال اليوم، وربما كل يوم. تمت إضاءة الشموع أسفل شجرة أمام المنزل، وحولها عُلقتْ صورة كبيرة لأرييلا حبل وشريط لاصق.

حالما صعدنا الدرج، نهض الشرطي وأومأ لنا برأسه، ووضع إصبعه على شفتيه. نظر إلى بارتياب، ثم غمز بعينيه وقال: «تفضلوا بالدخول يا حضرات الضباط».

أومأت برأسي. كان جميع المُعجبين المحتشدين في الخارج يشعرون بالحزن على أرييلا. لم ألحظ أية قمصان أو ملصقات تخصّ بوبي. ولو أن الشرطي أبلغ الحشد أننا نمثّل بوبي لكانت الأمور ستسوء بالتأكيد. أبعد الشرطي الشريط المحيط بمسرح الجريمة جانباً، ولم يفتح الباب إلا بما يكفي لدخولنا واحداً تلو الآخر. استطعت أن أشعر بتدافع الأقدام على الدرجات عندما تقدّم المعجبون آملين إلقاء نظرة سريعة على المشهد في الداخل. ص٨٩

«تراجعوا قليلاً»، قال الشرطي ذلك بعد أن أصبحنا في الداخل، ثم أغلق الباب.

«يا للهول، أولئك الأولاد مجانين»، قال الشرطي. ثم تقدّمت هاربر إليه ومدت يدها بابتسام وقالت: «مرحباً، أنا هاربر».

كانت في الشرطة الفيدرالية لوقت طويل. ولا تزال رغبتها بتطبيق القانون قوية.

وضع الشرطي يده في جيب معطفه وقال: «تراجعي يا عاهرة. غير مسموح لأحدكم بلمس أي شيء هنا. لديكم نصف ساعة فقط».

قلت لها: «أهلاً بك في عالم الدفاع عن الجرائم يا هاربر».

الفصل السابع عشر

قبل أن يغادر الشقة ذلك الصباح، أزاح كين الغطاء الذي يغطي حوض الاستحمام، ثم مدّ يده ونزع السدادة وفتح صنبور الماء. وخلال دقيقة، كان يغسل عظمة بيضاء هشّة. جمع العظام والأسنان ولفّها بمنشفة، وطرقها حتى أحالها رماداً، ثم سكبها في علبة البودرة المعطّرة وأغلقها. ولا بدّ أن الرصاصة التي وضعها في جيبه وجدت طريقها إلى النهر، أو جرفتها العاصفة بعد أن غادر المكان بوقت قصير. لقد أنجز المهمّة. استحمّ واستبدل ضماد جرح ساقه بآخر نظيف. ارتدى ملابسه، ووضع المكياج اللازم، واطمأن بعد أن خفف كيس الثلج الورم الظاهر على وجهه، ثم ارتدى معطفه ونزل إلى الشارع.

لم يمضِ وقت طويل حتى انضمّ إلى الرتل منتظراً أن يقوم رجال الأمن بتفتيشه أمام مبنى المحكمة الجنائية الذي يقع في «سنتر ستريت». كان هناك نسقان، وكان جميع من في رتله يحملون رسائل مختومة بالشمع الأحمر لإثبات أنهم من المدعوين لاختبار هيئة المحلّفين.

تحرّك الرتلان بسرعة كبيرة، ولم يستغرق كين وقتاً طويلاً حتى أصبح في الداخل وتخلص من ذلك البرد القارس. وعلى الرغم من الجرح، إلا أنه لم يكن يعرج. إن عدم شعوره بالألم يعني أنه ما من تبديل طرأ على طريقة مشيته. خضع للتفتيش، وتم مسح سترته بالأشعة السينية. لم يجلب معه الحقيبة ذلك اليوم، ولم يُحضر أي سلاح من أي نوع كان لأن في ذلك مخاطرة كبرى. تجاوز الحاجز الأمني وأُرشد إلى المصعد حيث أخبروه أن يتحدث إلى شرطيّة تنتظره في الطابق العلوي. لطالما شعر بالإزعاج عندما تكون المصاعد مزدحمة. رائحة البشر النتنة، رائحة عطر ما بعض الحلاقة، مزيل العرق، والسجائر. أخفض رأسه ودسّ أنفه في وشاحه السميك.

كان يشعر بذلك الاضطراب في أعماقه لكنه تمكّن من السيطرة عليه.

انفتح باب المصعد على رواق رخامي باهت، وتبع كين الحشد حتى وصلوا إلى شرطيّة ذات وجه مدوّر تنتظرهم في غرفة الاستقبال. انتظر دوره، وتصنّع ملامح حيرة طفيفة. وبعد أن تحقق من أوراق الاستدعاء وبطاقته الشخصية، نظر حوله وأخذ ينقر بأصابعه على إبزيم حزامه. أرسلت الشرطية المرأة التي كانت أمامه إلى غرفة انتظار كبيرة على يمين مكتب الاستقبال.

وأحسّ هو بوخز كهربائي خفيف في مؤخرة رقبته، كما لو أن أحدهم قرّب مصباحاً ساخناً من بشرته. راقه ذلك الشعور.

«طلب الاستدعاء وبطاقتك الشخصية، سيدي»، قالت الشرطية. كان أحمر شفاهها الفاقع قد ترك أثره على أسنانها.

سلّمها كين الأوراق المطلوبة بينما كان ينظر بارتياب إلى الغرفة التي تقع خلفها إلى اليمين. تحققت الشرطية من طلب الاستدعاء، وتمعّنت ببطاقته الشخصية، ورمقته بنظرة واحدة ثم أعادت البطاقة إليه وقالت: «سر بهذا الاتجاه وخذ مكانك. سيبدأ عرض مقطع فيديو بعد قليل. ثم....» .

أعاد كين البطاقة الشخصية إلى محفظته. لم تكن تلك البطاقة بطاقته. ورخصة قيادة السيارة التي بحوزته، والصادرة عن ولاية نيويورك كانت تخصّ الرجل الذي اختفى البارحة في حوض الاستحمام. كبح رغبته الملحّة بأن يرفع قبضته عالياً إذ ليس من السهل أن تتمكن من النجاح عند التحقق من البطاقة الشخصية. لقد أحسن وضع العلامات المميزة. في كثير من الأحيان، وحتى باستخدام اللاصق والصباغ والمكياج، لا ينجح في الاقتراب كثيراً من ملامح الوجه. حدث ذلك معه مرة في كارولينا الشمالية. تعود الصورة الموجودة على البطاقة الشخصية إلى عشر سنوات مضت. حتى إن الشكل الحالي لصاحب الصورة لا يشبه الصورة الموجودة على البطاقة الشخصية. حدّقت الشرطية به وبرخصة القيادة مدّة دقيقتين، كما استدعت المشرف عليها قبل أن تسمح له بالمرور. الشكر الجزيل لنيويورك التي تبتسم له اليوم.

بدت حجرة الانتظار ملطّخة. ولا تزال بقع النيكوتين على السقف منذ الفترة التي كان بوسع هيئة المحلّفين المُحتملة أن تدخّن في فترة انتظار مصيرها. في تلك الحجرة، انضمّ كين إلى ما يقارب عشرين عضواً متقدّماً أو أكثر. جلس كلٌ منهم على كرسي ذي طاولة قابلة للحركة معلّقة بذراعه. وتقدّم شرطي آخر وسلّمه ورقتين. تضمّنت الأولى استبياناً عاماً، بينما تضمّنت الأخرى تعليمات تتعلّق بعمل هيئة المحلّفين.

على الجدار المقابل، ظهرت شاشات تلفاز بحجم خمسة وسبعين إنشاً. ربما أكمل الاستبيان بسرعة كبيرة، فقد نظر حوله ورأى الآخرين يعضّون أطراف أقلامهم بينما يفكّرون بالإجابات. كان الاستبيان معدّاً لاستبعاد المحلّفين ذوي الصلة، أو حتى على معرفة، بالشهود أو باللاعبين الأساسيين في تلك

المحاكمة. كما يتضمّن أيضاً أسئلة عامة لتحديد الميول. لم يشكّل أي سؤال عائقاً أمام كين، لقد تدرّب جيداً على أن يكون محايداً على الورق.

لم يكد يرفع قلمه عن الاستبيان حتى بدأ عرض الفيديو. عدّل جلسته ووضع يديه في حجره، وركّز جلّ اهتمامه على الشاشة. كان عرضاً قصيراً لم تتجاوز مدّته خمس عشرة دقيقة، قدّم فيه القُضاة والمحامون معلومات عامة عن القضية، ليعرفوا من سيكون في قاعة المحكمة وما هي أدوارهم، وليوضحوا لهم طبعاً نمط العدالة المتوقّعة من عضو مثالي في هيئة المحلّفين في نيويورك. فعلى عضو الهيئة أن يكون منفتح العقل، ويحرص على ألا يتحدث بالقضية مع أي شخص كان حتى يصدر الحكم، والانتباه إلى الأدلّة. وبالمقابل، سيتقاضى كل عضو أربعين دولاراً عن كل يوم، إما من قبل رؤسائهم في العمل، أو من المحكمة. وإذا استمرّت المحاكمة أكثر من ثلاثين يوماً، تقوم المحكمة وفقاً لتقديراتها الخاصة، بإضافة ستة دولارات يومياً. هناك وجبة غداء يومية. والمحكمة غير مسؤولة عن نفقات التنقّل ومواقف السيارات.

أثناء لحظات التوقف التي تخللت العرض، وبينما يقوم العارض بتغيير المشاهد، ألقى كين نظرة خاطفة على الرجال والنساء حوله. كان الكثير منهم قد اهتموا بهواتفهم أكثر من اهتمامهم بالفيديو. لاحظ أن القليل منهم يولي العرض الانتباه بينما أوشك بعضهم على النوم. عاد كين بنظره إلى الشاشة، حينها فقط رآه.

رجل يرتدي بزّة بلون الصوف، ويقف تحت المدخل الذي يُفضي إلى هذه الغرفة. كان أصلعَ، وبدت الشعيرات القليلة الظاهرة على جانبي رأسه رمادية تميل إلى البياض. كان سميناً قليلاً لكنه ليس بديناً، إذ يحمل ما يقارب العشرين إلى ثلاثين باوندا إضافياً ليس أكثر. وقد تدلّت نظارته إلى أسفل أنفه لدرجة بدت وكأنها توشك أن تسقط عن وجهه. كان مطرقاً برأسه إلى الأسفل، مركّزاً نظره على شاشة هاتفه، ويحرّك إبهامه الثخين على الشاشة. يُظهر الضوء الصادر عن الشاشة ثنايا ذقنه السمينة فتجعله كرجل أخرق خرج من أفلام الرعب في فترة الخمسينات. كما أُتيح لـ كين أن يلحظ عينيه الداكنتين الغائرتين، البنيّتين المائلتين للسواد، والقاسيتين جداً. كانتا في مكان آخر غير شاشة الهاتف. لقد تحرّت تلك العينان في كل عضو هيئة مُحتمل بدوره. وتثبتت على كل منهم أربع ثوان أو خمس بالحد الأقصى. نظرة ثاقبة إلى أحدهم، ثم الانتقال إلى التالي.

وحده كين انتبه لهذا الرجل. لقد سبق له أن رآه، وعرف اسمه. لم يلحظ أي شخص آخر وجوده. وهذا بالضبط ما أراده الرجل. لقد عرف كين ذلك. كان

يرتدي بزّة تبعث على الضجر. قميصاً أبيض وربطة عنق باهتة. كل ما في هندامه يدّل على أنه قديم، ويبدو أنه حصل على هذه البزّة منذ عشر سنوات على الأقل. ليس في وجهه ما يميّزه أيضاً. إنه من النوع الذي يمكن أن تجلس مقابله في القطار مدّة ساعة، ولا تستطيع بعد المغادرة بثوان أن تتذكّر أي شيء يتعلّق به.

كان اسمه أرنولد نوفوسيليك. وقد عيّنته شركة كارب لو كمستشار لمحلّفيها في قضية سولومون. ليلة تلو الأخرى، على مدار الشهر الماضي، جلس كين في موقف السيارات مراقباً أرنولد وهو يحرّك وجوهاً مثبّتة على لوحة إعلانات مكاتب شركة كارب لو. كان الفريق كله قد اجتمع ليتحرّى عن كل عضو موجود على لائحة هيئة المحلّفين. قام بتصويرهم، وتحرّى عن حياتهم الشخصية وحسابات التواصل الاجتماعي، وحساباتهم البنكية، وعائلاتهم ومعتقداتهم. والشخص الذي سلبه كين حياته كان على تلك اللائحة. وهناك أيضاً وجه الرجل الذي أحرقه في الخلاء الليلة الماضية.

من نواحٍ عديدة، كان أرنولد الاختبار الحاسم بالنسبة لـ كين. وإذا كان بمقدور أي شخص أن يعرف أن كين قد سلب حياة رجل من لجنة المحلّفين، سيكون أرنولد هذا الشخص. كما كان يراقب أعضاء هيئة المحلّفين ليعرف من منهم يأخذ المسألة على محمل الجد ومن لا يأخذها.

فجأة، أدرك كين تماماً أنه سرعان ما ستقع عينا أرنولد المستديرتين اللامعتين عليه. دفعته هذه الفكرة ليتنفّس بعمق. شعر بالحرارة تسري في جسده، كان التعرّق عدوه. ربما تنساب قطرات العرق على وجهه وتزيل الطلاء الذي يغطّي الكدمة حول عينيه. وبينما كان أرنولد يركّز على شاشة هاتفه، نزع كين وشاحه وفكّ أزرار ياقة قميصه.

ثم شعر بذلك. كانت عينا أرنولد تتفحّصانه. أراد أن يختلس النظر ليتأكد، كانت أعصابه وأحاسيسه كلها تحرّضه على الالتفات إليه، لكنه لم يفعل. بل أبقى عينيه مسمّرتين على الشاشة، لكنه استطاع أن يلمح أرنولد بطرف عينه. لم يكن متأكداً، لكنه بدا وكأنه أهمل هاتفه وبدأ يحدّق فيه بشده.

تحرّك كين في مقعده. شعر وكأنه وقع في قبضة الشرطة. لكنه صمم أن يتابع الفيديو إلى نهايته وهو ثابت ومكشوف، ومن ثم يستطيع أن ينظر حوله. يستطيع حينها أن يراقب ما كان يفعله أرنولد، كان يعاني في كل لحظة.

انتهى العرض ونظر كين إلى أرنولد. كان يحدّق فيه بشكل مباشر، ثم حول نظره إلى مكان آخر. أخرج كين منديلاً قرنفلي اللون من جيب قميصه ومسح

جبينه بلطف. لم يكن التعرّق بالسوء الذي توقعه. ظهر القليل من الماكياج على المنديل، وكان بلون المنديل تماماً. كان يفكّر في ما هو قادم الآن.

سمع وقع خطوات الشرطية تشق طريقها من الخلف إلى الإمام. كان حذاؤها يُصدر صوتاً واضحاً على أرضية الغرفة الخشبية. ثم التفتت لتصبح في مواجهة المجموعة، وخلفها تماماً، رأى كين نسقاً آخر من الأعضاء المحتملين ينتظرون دورهم لدخول الغرفة.

وجّهت الشرطية كلامها للحشد الموجود في الغرفة.

«سيداتي سادتي، شكراً لإصغائكم. أرجو أن تضعوا أوراق الاستبيان، وعليها أرقام هواتفهم، في الصندوق الأزرق في الجهة الخلفية للغرفة، وتتبعوا زميلي جيم إلى قاعة المحكمة. وقبل أن تغادروا، في حال لم تتم الإشارة إلى ذلك - هذه هي غرفة تجمّع المحلّفين. إذا لم يتم اختياركم في المجموعة، عودوا إلى هنا وانتظروني. لا ينبغي أن تغادروا من تلقاء أنفسكم إذا لم يتم اختياركم. شكراً لكم».

سرعان ما جمع كين أشياءه ومشى بسرعة إلى الجهة الخلفية للغرفة. كلما كان أقرب إلى بداية النسق، كلما توفر لديه حظ أكبر في الحصول على مقعد في هيئة المحلّفين. وضع الاستبيان في الصندوق ووقف في النسق خلف امرأة في أواسط عمرها، ذات شعر بني مجعد، وترتدي معطفاً أخضر ثقيلاً. التفتت إليه وابتسمت.

«هذا مثير، أليس كذلك».

أومأ كين موافقاً. إنه كذلك.

لقد خطط لكل شيء، وعمل بجدّ، حتى إنه توصل إلى التأقلم البالغ مع هيئة المحلّفين ليزيد من فرص اختياره من قِبَل الدفاع، لكن ذلك كله أصبح مرهوناً بضربة حظ. وصل إلى هذه المرحلة من قبل، ولم يحالفه النجاح. ذكّر نفسه بأنه صنع حظّه بنفسه، وبأنه كان أكثر ذكاء من أي شخص في هذه الغرفة.

فُتِحت الأبواب في نهاية الغرفة، واستطاع كين أن يرى خلفها الممر. كان الممر يؤدي إلى قاعة المحكمة. وأخيراً، بعد هذا الوقت كله.

حانت لحظته.

الفصل الثامن عشر

أرضية خشبية بطول عشر أقدام تفصل ما بين الباب الأمامي وطبقة سجاد تغطي أرضية المنزل كله. تطلّب الأمر وقتاً كي ننظف أحذيتنا بالممسحة الموجودة على المدخل. اتكأ الشرطي على حافة إطار الباب وراقبنا. وقبل دخولنا مباشرة، رصدت وجود كاميرات مراقبة سوداء صغيرة ضمن ساعتي جدار معلّقتين فوق الباب الأمامي. نظرت حولي في الردهة فلم ألحظ وجود نظام إنذار.

«من هنا»، قالت هاربر.

لم تجد لوحة الإنذار لكنها وجدت المكان الذي كانت موجودة فيه. ثمة أربعة ثقوب مسامير في الجدار، إلى يمين الباب تماماً. هناك آثار غبار أبيض ملتصق على حافة الجدار.

قلت: «أين هي لوحة الإنذار».

«ربما نُقلت من أجل التحقيق»، قالت هاربر. وسجّلت ملاحظتي كي أسأل رودي عن الأمر عندما أراه لاحقاً.

يتسع الممر لثلاثة أشخاص يسيرون براحتهم، حتى ولو كان هولتن أحدهم. كان متأخراً عنا قليلاً عندما وصلنا إلى الطاولة المجاورة للجدار الأيسر. تقدّم هولتن وحده، وأفسحنا له المجال ليمر، ثم مشينا جنباً إلى جنب متجاوزين الطاولة. تبدو قديمة الطراز، ربما صُنِعت من خشب الورد، ينتصب فوقها مصباح عمودي غير مضاء قرب جهاز هاتف، وراوتر لخدمة الإنترنت، إضافة إلى رزمة رسائل غير مفتوحة. كان الدَرَج إلى اليمين. لكن هولتن انعطف إلى اليسار، نحو ما ظننت أنه المطبخ. يبدو في الحقيقة أكبر مما كان عليه في الصور. ما من شيء يلفت الانتباه هنا. ألقيت نظرة على غرفة المعيشة. ثمة أرائك وكراسٍ ممزّقة، وحشواتها بارزة. هناك شيء واحد مفقود في ملفّات الشرطة، وكان بوبي قد استفسر من الشرطة عنه - لم يتمكّنوا من إيجاد السكين التي أودت بحياة أرييلا.

يحتوي الطابق الأول مكتباً وغرفة مليئة بالصناديق، وحماماً وغرفتي نوم متباعدتين. لا شيء جدير بالاهتمام. ثمة نافذة كبيرة تفسح المجال لإطلالة جيدة على الحديقة الخلفية. كانت حديقة صغيرة مسوّرة مكسوّة بالنباتات.

لم أستطع أن أرى أية سلالم، وفي حال وقوع أي حدث، يكون الباب الخلفي مُقفلاً من الداخل. لا يمكن لأي شخص أن يخرج من نطاق الرؤية بهذه الطريقة.

يحتوي الطابق الثاني على غرفة نوم رئيسة. صعدنا الدرج، وكانت هاربر في المقدّمة.

الشيء الوحيد المفقود هو طاولة مقلوبة على الأرض أسفل النافذة. كنت قد رأيتها في صور مسرح الجريمة بالإضافة إلى آنية محطّمة.

تجمعت الأسرار كلها في غرفة النوم. دخلت هاربر أولاً. ثم توقّفت وسحبت طرف قميصها من تحت سترتها وغطّت أنفها.

«إنها مليئة بالغبار؛ هذا يؤثر على جيوبي الأنفية»، قالت.

رأيت بعض قطع الأثاث؛ كان هناك منضدة جانبية ومصباح للقراءة، ومنضدة للزينة. وكلتاهما بلون أبيض. وكانت المرآة الموضوعة على منضدة الزينة مُحاطة بمصابيح صغيرة من النوع الذي قد تراه في غرف تبديل الملابس في المسرح. هناك سرير قديم الطراز بواجهة بيضاوية الشكل، وتزيينات حديدية متداخلة ونماذج لأزهار مطليّة باللون الأحمر.

لا يزال الفراش في مكانه. ثمة بقع حمراء دائرية داكنة على حواف السرير حيث نزفت أرييلا. لم تظهر أي بقع حيث كان يرقد كارل. كبتت هاربر عطسة. بقي الموقع فارغاً معظم الوقت. ومع الرائحة الكريهة التي تملأ البيت، بدا أن هناك الكثير من الغبار في الغرفة، إضافة إلى رائحة أخرى. أعتقد أنها تشبه رائحة الجبن المتعفّن. إنها رائحة دم قديم متعفّن.

أغلقت عينيّ وحاولت أن أتجاهل هاربر. غصّ عقلي بالصور التي التقطتها شرطة نيويورك لمسرح الجريمة. فكّرت بملاءات السرير الملقاة على الأرض، والمضرب الموجود في الزاوية، والطريقة التي استلقى بها كارل وأرييلا على السرير.

«لم تجد الشرطة السكين المستخدمة في الجريمة، أليس كذلك؟» قالت هاربر.

«أبقيت عيني مغمضتين وقلت: «لا، لم تجدها. لقد تفحّصوا جميع السكاكين في المنزل، ما من أثر للدماء أبداً، ولم تتطابق أيٌ منها مع شكل الجرح. فتّشوا

الحديقة والسقيفة، وكل جزء من هذا المكان، وأتخيّل أنهم بحثوا حتى في المجاري. لم يجدوا السكين. هذا يمنحنا فرصة للمجابهة. يمكننا الجدال بأن قاتل أرييلا قد أخذ السكين معه قبيل مغادرته».

سمعت وقع خطوات هاربر على أرضية الغرفة. صوت صرير الألواح الخشبية تحت السجادة. فتحت عيني وجلتُ ببطء حول السرير. لا توجد قطرة دم واحدة على السجادة. كانت بقعة الدم الوحيدة التي لامست الأرض موجودة في الزاوية، وقد تسرّبت من المضرب.

أزاحت هابر القميص عن وجهها، ومدّت يدها خلف ظهرها لتمسك عبوة ماء من جيب بنطالها. فتحت الغطاء وشربت. لا بدّ أنها تنفّست وهي تشرب، فقد بدأت تسعل بشكل مفاجئ. فانزلق الماء من بين أصابعها بينما كانت تحاول أن تغطي فمها.

«اللعنة، آسفة»، قالت ذلك وغطّت أنفها مجدداً.

«هل أنت بخير؟ إنه الماء وحسب، لا تقلقي».

تقدّمت قليلاً ورأيت بقعة رطبة على السجادة، وبعض القطرات على السرير. جثوت وبيدي منشفة لأحاول تجفيف السجادة.

«آسفة يا إيدي»، قالت هاربر.

«لا بأس». كنت أوشك أن أنهض لأجفف الفراش عندما توقّفت فجأة. ظهرت بعض قطرات الماء الصغيرة المتناثرة على الفراش. لم تجف. وضعت هاربر راحة يدها على الفراش ومسحت القطرات بسرعة. تحسست الفراش. كان جافاً تماماً.

نظرنا إلى بقع الدم على السرير، ثم نظر أحدنا في عيني الآخر. «ابن زانية»، قالت هاربر.

أومأت موافقاً. التقطت عبوة الماء من جيبها ونثرت القليل منه على الفراش فتبعثر الماء عليها على شكل لآلئ كبيرة.

انتظرنا...

مرّت ثلاثون ثانية والماء لا يزال في مكانه. حركّت هاربر إصبعها على شاشة هاتفها وبدأت تلتقط الصور.

«نحتاج إلى ملاءة سرير»، قالت هابر.

«على الفور» قلت ذلك وأنا أفتح أبواب خزانة قريبة. ثمة حجرتان مُدمجتان مخصصتان لملابس أرييلا، بينما احتوت الثالثة على ملاءات السرير وأغطيته. لقد تصوّرت أنها ستكون مطوية بعناية في مكان قريب هنا، لكن الشرطة لم تترك أي جزء من المكان على حاله أثناء بحثها عن أداة الجريمة. سحبت إحدى الملاءات وألقيتها فوق البقع، ثم وضعتها على طبقتين. استلقت هاربر عليها، واستلقيت إلى جانبها. نظر أحدنا إلى الآخر. كانت تبتسم. لم أكن قد رأيتها منذ سنة تقريباً عندما انتهينا من العمل على إحدى القضايا. لقد أمضيت ساعات طويلة معها، نعمل معاً ونتحدث، وأمسك روحي بيدي بينما أجلس إلى جانبها وهي تقود السيارة.

في جميع الأوقات التي أمضيناها معاً لم يحدث أن لاحظت جمال عينيها الرائعتين.

صدر من جهة الباب صوت «نحنحة» فنهضت ورأيت هولتن واقفاً في الممر.

«هل قاطعت استراحتكما، أو أي شيء آخر؟» قال هولتن.

نهضنا عن الفراش. رفعت هاربر الملاءة عن السرير، ثم طوتها وسارت أمامي لتعيدها إلى مكانها. كانت وجنتاها متورّدتين، ولا يزال طرفا شفتيها يرسمان طيف ابتسامة.

«كنا نعمل على حماية مؤخرة بوبي سولومون. يبدو أن من الممكن أن يكون بريئاً قبل كل شيء»، قالت هاربر.

رنّ هاتفها. أجابت على الاتصال ومضت إلى الساحة الخارجية. ثم تبادلت مع هولتن بضع نظرات غير مريحة بينما كانت تواصل حديثها. عندما أنهت هاربر مكالمتها، عادت إلينا وقد أوشكت أن تقول شيئاً إلا أن هولتن قد سبقها.

«لست مُتعباً، أعتقد أنني سأتصل بـ «ياني» وأخبره أن بإمكاني أن أغطي هذه المناوبة. أردت أن أتأكد فقط، هل سنتناول مشروباً في وقت لاحق؟».

تراجعت هاربر خطوة إلى الخلف، ولامست شعرها بيدها لكنه كان لا يزال مربوطاً بأناقة إلى الخلف.

«بالتأكيد يا رفاق»، أجابت هاربر، «تلقيت للتو اتصالاً من «جو واشنطن». لقد اتصل بمكتب العلوم السلوكية، ربما نصل إلى شيء ما، لكن علينا أن نغادر الآن».

«إلى أين؟» قال هولتن.

«فيدرال بلازا. إنه احتمال صعب جداً، لكن ربما يكون لدينا مشتبه آخر بالجرائم».

الفصل التاسع عشر

تبعَ كين النسق إلى قاعة المحكمة. أطلّ أعضاء هيئة المحلّفين المحتملين من بابٍ جانبي، ولاحظ على الفور أن المقاعد والصالة العامة كانت فارغة تماماً. سيجلس أعضاء الهيئة هنا. ليس هناك حشد عام ولا صحافة في هذا الجزء من المحاكمة. شاهد كين رودي جالساً على منصّة الدفاع إلى جانب بوبي سولومون. وجلس أرنولد نوفوسيلك إلى طرف الطاولة، بجانب رودي. وقد جلس سولومون وعلى وجهه ملامح كآبة.

رسم النائب العام على وجهه طيف ابتسامة. لقد بحث كين عن هذا الرجل بشكل مكثّف؛ إنه «آرت بريور». بدا أطول مما توقع كين، لقد شاهده في عدّة مؤتمرات صحفية خلال الأشهر الستة الماضية. كان يرتدي بزّة زرقاء قاتحة، ومصممة لتناسب كتفيه العريضتين، وقميصاً أبيض وربطة عنق صفراء، ومنديلاً أصفر للجيب. شعره بني وفاتح ووجه ضارب إلى السمرة، ويدان طريتان، والوميض خلف تلك العينين الخضراوين جعلت من بريور شخصية مثيرة للاهتمام. كانت حركته بطيئة وأنيقة. وهو من النوع الذي يقبّل الجدّات على وجناتهن ويدسّ أصابعه الناعمة في حافظات نقودهنّ بالبرودة التي تمسّ شفاهه وجناتهن. إنه رجل ألاباما؛ وُلِدَ وترعرع فيها. تلقّى تدريبه الأولي في الجنوب، وكان في النيابة العامة دوماً. ومع أنه تعرّض للضغط عدة مرات، إلاّ أنه لم يسعَ أبداً إلى منصب نائب عام أو عمدة أو محافظ. لم يكن لديه أية مطامع سياسية. كان يحب دار المحكمة.

حدد كين بطريقة مثالية الوقت المناسب ليدخل النسق. جلس الأعضاء العشرون الأوائل في الصف الأمامي، وترأس كين النسق الذي سيملأ الصف الثاني من المقاعد. أن تكون في الصف الأول يعني أحياناً أن تجعل الناس ينظرون إليك بدقّة. لقد تعلّم أن المحامين يرتابون في الناس الراغبين بعضوية هيئة المحلّفين. كما أنه عادةً ما يكون لديهم أجندة خاصة بهم. لا يحتمل كين أن يعرف أي شخص بغايته.

كانت المرة الأولى التي يجلس فيها وتتجه عيناه إلى مقدمة المحكمة. فعل ما بوسعه، لكنه كان من الصعب عليه أن يخفي دهشته. لم تعد القاضية الشقراء التي أُوكلت القضية إليها تشغل كرسي القاضي. بل حلّ محلها الرجل الذي رآه البارحة وهو ينزل من سيارته الخضراء المكشوفة أمام مكتب «إيدي فلاين». تجمد في مكانه للحظة. لم يتجرّأ أن يأتي بأية حركة خوفاً من أن يراه القاضي. إنه لا يحبّ المفاجآت، ولم يكن يستطيع احتمالها. ماذا

سيحدث إذا عرفه القاضي؟ فكّر بهذا التغيير. لقد استخدم كين صوته الحقيقي عندما سأل ذلك الرجل عن الاتجاهات، وليس الصوت الذي كان يتمرّن عليه. ولا الصوت الذي يستخدمه الآن. وقد فعل ما بوسعه ليخفي ملامحه الشخصية تحت القبعة الرياضية.

نظر القاضي باتجاه هيئة المحلّفين حالما اتخذوا أماكنهم. وقعت عيناه على كين، وبادلة بدوره النظرات ذاتها. شعر بأن قلبه يوشك أن ينفجر. لاحظ كين أن ما من شيء علق بذهن القاضي، ثم التفت إلى المحامين. هزّ كين جسده قليلاً ليشعر بشيء من الاسترخاء.

بات قريباً جداً الآن.

بقيت ساعتان فقط لاختيار هيئة المحلّفين، ولا يزال القاضي يعمل على النسق الثاني. ثمة مشكلة؛ فقد بدأ من الجهة المقابلة لمكان جلوس كين. كانت الطريقة التي تجد فيها هيئة المحلّفين طريقها من قاعة المحكمة إلى موقعها كهيئة محلّفين تعتمد على القاضي إلى حد بعيد. لقد سبق أن شاهد ذلك مرات عديدة وبطرق مختلفة. بقدر ما يكون هناك عوامل عشوائية ضمنية، يخفف القاضي من التدقيق. يُستدعى بعض القُضاة الأعضاء عبر أرقام بطاقاتهم الشخصية الموجودة في القائمة، ويختارونهم عشوائياً. ويرى بعض القضاة أن يتخذ الأعضاء المحتملون أماكنهم في القاعة بطريقة عشوائية، وبالتالي فإن ضمان مقعد في هيئة المحلّفين يحتاج أحياناً إلى حظ قوي. كان القاضي هاري فورد، كما عرّف عن نفسه، يفضّل هذه الطريقة.

ألقى القاضي كلمة حول دور هيئة المحلّفين، وأوضح كيفية سير المحاكمة. كان كين قد سمع ذلك كله سابقاً لكن الكلمة لم تكن واضحة بهذه الطريقة.

ثم بدأ الاختيار. أولاً، كانوا أعضاء هيئة المحلفين. قال ستة منهم إنهم إما مرتبطون بإجازات قاموا بحجزها ودفع أجرها مُسبقاً. أو كان لديهم أقارب مرضى، أو مواعيد طبية، أولئك تم إعفاؤهم رسمياً.

ثم أنشبَ المحامون أسنانهم في المجموعة.

تم استجواب الأعضاء واحداً تلو الآخر، وتم قبولهم أو رفضهم من قِبل الدفاع والادعاء. كان لدى الدفاع عدد محدود من الاعتراضات على عضو الهيئة، دون الحاجة إلى إظهار السبب. يمكنهم القيام بذلك اثنتي عشرة مرة. عليهم بعد ذلك أن يشرحوا للعضو سبب عدم تمكّنه من العمل. تم استبعاد امرأة من قِبَل الدفاع دون طرح أي سؤال. بدا وكأن العديد من المحلّفين

واجهوا أقدارهم بهذه الطريقة، والدفاع قد أوشك على الوصول إلى آخر اعتراضاته. لم يستبعد محامي الادعاء إلا عضواً واحداً، وذلك بتبيان أن العضو كان معجباً لوقت طويل بـ «بوبي سولومون».

أخذ كين يغرز أظافره في جلده. ليس لرغبته بالشعور بالألم. بل كي يمنع نفسه من تحريك يديه بينما كان يتحرّك بعصبية. إذ لم يشأ أن يُظهر توتره؛ ليس الآن.

تم قبول عشرة أعضاء من كلا الجانبين. لم يبقَ سوى اثنين. هناك أربعة مقاعد فارغة على منصّة المحلّفين. اثنان لأعضاء الهيئة، واثنان للاحتياط. أخذ الرجل موقعه على منصة الشهود من أجل الاستجواب. عرّف نفسه باسم «برايان دالي»؛ متزوج، ليس لديه أولاد، مدير في شركة ستاربكس، انتقل مع زوجته من سافانا في جورجيا إلى نيويورك منذ ست سنوات. لم يسأل رودي كارب أي سؤال. كان أرنولد قد أنهى تحريه حول برايان، وقبله رودي كعضو في هيئة المحلفين. لاحظ كين أن هذا كان الأول. إذ لم يحدث سابقاً أن قبل الدفاع عضواً من دون أسئلة. لا بدّ أنهم يريدون دالي حقاً في الهيئة، هذا ما اعتقده كين. لقد أعاد التفكير بالصور التي التقطها لـ برايان. كان الرجل قريباً من وزن كين الطبيعي. كان نحيلاً ولديه عضلات، وبطول طبيعي. قريب من بنيته، وخاصة الأنف. حان وقت الاختيار بين برايان دالي والشخصية المقنّعة التي ينتحلها كين.

«هل لدى الادعاء أية أسئلة»، قال القاضي فورد.

«سؤال أو اثنين يا حضرة القاضي»، أجاب بريور وهو يقف على قدميه ويزرّ سترته. أحب كين سماع صوت بريور. إنه أشبه بسكب العسل في كأس.

«والآن يا سيد دالي، أرى أنك تباركت بسرّ الزواج المقدّس؟»

«صحيح، أنا متزوج منذ ست عشرة سنة».

راقب كين خطوات بريور نحو منصّة الشهود. كان الرجل يختال بخطواته، وكان ذلك يليق به. لم يكن متغطرساً. إنها نعمة لا يد له فيها.

«رائع، ليس هناك ما هو أهم من رابط الزوج والزوجة. ما اسم زوجتك؟»

ثمة ابتسامة تريد أن تظهر على وجه كين. عرف أن هذه المعلومات بمتناول يد بريور. كانت تلك عبارة عن رقصة، وكان بريور متأهباً لرقصة فالس مع

دالي أمام هيئة المحلّفين دون أن يشعر دالي بذلك.

«مارثا ماري دالي».

«يا له من اسم جميل. تخيّل أن تعود إلى البيت هذه الليلة، إلى مارثا ماري. وتستنشق رائحة وجبة طعام تُعدّها، حالما تدخل من الباب الرئيسي. وقد استغرقت ساعات من العمل في المطبخ. تغتسل، وتجلس معها على مائدة العشاء، ثم تتساءل مارثا ماري أين أمضيت هذا اليوم. إذا كنت تستطيع ذلك، تخيّل أنك لم تعطِ إجابة لمارثا ماري! هل تستطيع أن تتخيل هذا السيناريو يا سيد دالي؟»

«أستطيع، لكنني أخبر مارثا ماري دوماً أين أكون. ليس هناك أسرار بيننا».

«هل أستطيع أن أكون أول من يطلب منكما ذلك. تخيل فقط أنك لم تجب على سؤال مارثا ماري. هل تعتقد أنها سترى صمتك مُريباً؟»

«يا إلهي! نعم يا سيدي».

«ماذا يحدث إذا اتهمتك مارثا ماري بلقاء امرأة أخرى من أجل علاقة غير مشروعة؟. إذا لم تبدد مخاوفها، فسيكون من حقّها أن تظنّ بك أسوأ الظنون، ألن تفعل ذلك؟»

راقب كين دالي وهو يومئ برأسه.

«سيكون مبرراً لها أن تعتقد ذلك، بالتأكيد»، قال دالي.

«بالطبع ستكون معذورة. إذا تم اتهام أحدهم بارتكاب جريمة شنيعة، وبقي صامتاً، واختار ألا يُخبر هيئة المحلّفين بأنه بريء - ألن تعتبر أن الأمر مُثير للشبهة؟»

«سأعتبر الأمر كذلك بالتأكيد يا سيد بريور».

سحر بريور لا يعرف حدوداً. اجتاز خطوات باتجاه منصّة الشهود، وربّت على كتف دالي وقال: «شكراً لوجودك معنا يا سيد دالي. وأبلغ مارثا ماري تحياتي».

استدار في مكانه ووجه الحديث إلى القاضي بامتعاض بينما كان عائداً إلى منصّة الادعاء «حضرة القاضي، أعترض على السيد دالي لسبب محدد؛ وهو

أنه لا يستطيع أن يصل إلى حكم موضوعي».

«أوافق»، قال القاضي.

اعتقد كين أن بريور، بما هو عليه، أحد أفضل المحامين الذين عرفهم. لقد شاهده للتو وهو يزيح عضو هيئة محلّفين له الأفضلية بالنسبة للدفاع، وذلك باستخدام أساليبهم ذاتها. الشيء الوحيد الجدير بالاهتمام عند اختيار هيئة المحلّفين هو الموضوعية.

«هل ارتكبت خطأ ما؟!» قال دالي وهو يبسط ذراعيه. وقد لاحت على وجهه ملامح الحرج.

أرجو أن تجلس في غرفة الانتظار يا سيد دالي. أنا واثق أن الشرطية المسؤولة ستفسّر لك كل شيء»، قال القاضي. «أذكّر الأعضاء الباقين الذين تم اختيارهم. وكما شرحت مُسبقاً - ليس على المُدعى عليه أن يُثبت أي شيء. إذا اختار المُدعى عليه ألا يُدلي بشهادته، وله الحقّ بذلك - فليس عليكم اتخاذ أي قرار بناءً على ما اختاره».

اقترب أحد عناصر الشرطة من دالي، وأخرجه بلطف من منصّة الشهود. أطلق تنهيدة خفيفة. لقد أوشك سابقاً أن ينتحل شخصية برايان من أجل هذا العمل. إنه يشعر براحة كبيرة الآن لأنه تخلّى عن ذلك القرار. كانت مارثا ماري العنصر الحاسم في نهاية المطاف. كانت بطول ستة أقدام تقريباً، ويقترب وزنها من ثلاثمئة باوند. يبدو السيد برايان قزماً إلى جانبها.

عرف كين أنه لن يستطيع أن يقتلهما معاً ويُذيبهما في حوض استحمامهما.

«المرشح التالي لهيئة المحلّفين، تقدّم من فضلك»، قال القاضي.

وقف كين وتبع الشرطي إلى منصّة هيئة المحلّفين.

الفصل العشرون

في طريقنا إلى مكتب نيويورك للتحقيقات الفيدرالية في «فيدرال بلازا»، أطلعتنا هاربر على ما وصل إليه صديقها جو واشنطن. قاد هولتن السيارة، وجلست هاربر إلى جانبه بينما جلست في المقعد الخلفي. وانحنيت إلى الأمام لأسمع قصّة هاربر. إن محاولة إقناع هيئة المحلّفين بأن موكلك لم يرتكب جريمة قتل أمر صعب جداً. من الأسهل بكثير أن تبيّن أن موكّلك لم يفعلها، بينما تشير بإصبعك إلى متهم آخر.

شرحت هاربر الأمر لهولتن، واكتفيت أنا بالاستماع.

«لم أترك مكتب العلوم السلوكية بعلاقات جيدة. لكن شريكي «جو» غادر وهو يحتفظ بأواصر أفضل. إنه أكثر من مجرّد شخص اجتماعي. اتصل بأحد أصدقائه القدامى وطلب منه البحث في برنامج بيانات الجنايات العنيفة (ViCAP)، ومركز معلومات الجنايات الوطنية (NCIC). لم يصل إلى أي شيء. وفجأة، اقترح صديق «جو» فكرة الاتصال بوحدة تحليل السلوك ليرى ما إذا كان بإمكانهم إطلاعنا على أي شيء. وتبيّن أن ثمة ممثّلاً لهم قد يمكنه تقديم شيء ما مفيد».

الوحدة الثانية لتحليل السلوك، والتابعة لمكتب التحقيقات الفيدرالي، ركّزت على جرائم القتل المتسلسلة التي يرتكبها البالغون أكثر مما ركزت عليها وحدات تطبيق القانون الأخرى. إن برنامج بيانات الجنايات العنيفة، مركز معلومات الجنايات الوطنية، يديران قواعد بيانات فيدرالية تقيّد تطبيق القانون بالنسبة للقضايا العالقة في كامل البلاد.

«من هو ممثّلها»، سألتها.

«إنها المحللة النفسية «بايج ديلاني». أخبرني «جو» أنها تعمل خارج المكتب منذ شهر، وهي تساعد السكان المحليين بقضية مجرم كوني آيلاند»، قالت هاربر.

«ما علاقتها بقضيتنا؟»

«ربما لا شيء، وربما يكون هناك شيء ما. الشيء الوحيد الذي لم يعجبني في مسرح الجريمة هو القدر الكبير من النظافة. لو كان سولومون هو القاتل،

لكان ارتكب الكثير من الأخطاء لأنها المرة الأولى له. لا وجود للحمض النووي على الجثث، لا جروح دفاعية على الضحايا، لا وجود لأي جرح أو خدش على جسده. قتل شخصين بطريقة نظيفة جداً. ثم يترك ورقة من فئة الدولار في فم كارل، وعليها بصماته وحمضه النووي؟ لا يمكن تصديق الأمر. لا بدّ أن هناك ما هو غامض في هذه القضية، لكني بالفعل، لا أصدّق حكاية موكلنا أيضاً».

«الكثير من الأشياء غير المنطقية في هذه القضية - فكّري بأسلحة الجريمة مثلاً؛ لقد استطاع بوبي بطريقة ما، ودون أن يغادر المنزل، أن يخفي السكين التي قتلت أرييلا، لكنه ترك المضرب الذي استخدمه لقتل كارل على أرضية غرفة النوم - وبصمات أصابعه عليه - ثم اتصل بالشرطة ليخبرهم أنه وجد جثثاً في بيته؟ أمر لا يُصدّق، أليس كذلك؟ لكن النائب العام لن يزيّن الأمر بهذه الطريقة. إنه مضرب بوبي، وكانت بصماته عليه. سيقولون إنه لم يرغب بترك مسرح الجريمة مثالياً بطريقة لا لبس فيها. وإلا ستبدو جريمة مدبّرة. وربما أبقى الفراشة في ذلك المكان ليُشغل الشرطة في مطاردة ميؤوس منها، أو لإرسال نوع من الرسائل الخادعة. لقد تلاعب وترك حمضه النووي عليه. خطأ بسيط. بطريقة أو بأخرى، سوف يقولون إن بوبي خطط للجريمة».

أسندت رأسها على المقعد ورفعت عينيها باتجاه السقف وراحت تفكر بالأمر كله.

«هذا ممكن جداً يا إيدي. كما أسلفت، ربما يُمسك النائب العام بالرجل الصحيح! دعنا نرَ ما ستقوله «بايج». أرسلت قائمة حول ما يمكن أن يكون توقيعاً للقاتل، وثمة شيء في القائمة لفت انتباه الشرطة الفيدرالية، وإلا لما كانوا وافقوا على لقائنا».

أوصلنا هولتن إلى فيدرال بلازا، ثم ركن السيارة، وقابلنا في بهو مبنى «جاكوب كي جافيتس». قرر أن ينتظر. أخذت جهاز اللابتوب. اعتقد هولتن أن المكان آمن هنا. وبعد تفتيش دقيق، ومرور حذائي واللابتوب عبر جهاز التفتيش بالأشعة، سمحوا لنا بالدخول إلى الطابق الثالث والعشرين. تركت هاربر تقودنا. لقد عملت هنا مدة سنتين، وهي تعرف المكان جيداً.

لم تعِقها النظرات القذرة القادمة من عميلين في مكتب الاستقبال بينما كنا ننتظر الاستدعاء. لقد انتظرنا طويلاً، وبعد عشرين دقيقة، عندما أوشكت أن أترك هاربر وحدها اقتربت منا امرأة ترتدي بنطال جينز رمادياً وسترة سوداء. تبدو «بايج ديلاني» في أواخر الخمسينات من عمرها، ولا تُظهر

ملامحها العامة سنين عمرها. كان جميلة القوام ذات شعر أبيض مُرسل على طبيعته. تضع نظارة فوق أنفها النحيل، ومنحتها التجاعيد على طرفي شفتيها مظهراً مرحّباً.

صافحت هاربر. ورمقتني بتلك النظرة التي اعتاد عليها محامو الدفاع. سرنا خلفها عبر ممر طويل ضيق إلى غرفة اجتماعات. ثمّة جهاز لابتوب مغلق على المكتب. جلستُ وهاربر إلى جهة، وجلست ديلاني إلى المكتب أمام اللابتوب. نزعت نظارتها ووضعتها على الطاولة.

«كيف هي حياة التحقيق الخاص التي تعيشينها الآن؟» قالت ديلاني.

«من الجيد أن تكوني سيدة نفسك»، أجابت هاربر.

بقيت ساكناً؛ لم يكن هذا عالمي، لسلطات تطبيق القانون روابطها الخاصة. تركت هاربر تستثمر مهاراتها.

«جو واشنطن يرسل لك تحياته»، قالت هاربر.

«لطالماً كان مهذباً، يسعدني أنك تعملين معه. إنه رجل جيد. إذاً، أعتقد أن وقتك ضيق، لندخل في الموضوع. ألقيت نظرة على العلامات التي لديك»، قالت ديلاني. فتحت اللابتوب، وأزاحته إلى منتصف الطاولة بحيث تستطيع كلتاهما قراءة رسالة هاربر.

«معظم تلك العلامات غير مناسبة لأغراض البحث»، قالت ديلاني، «نحن نجمع أكبر قدر من المعلومات من مسارح الجرائم الفردية، لكن لا نجمع إلا ما هو مميز ومرتبط بالقضية. إذا استخدم القاتل سلاحاً خاصاً، أو ترك علامة معيّنة على الجثة، كتب رسالة أو بدا وكأنه يتبع رواية معيّنة - كل ذلك يُعتبر علامة أو توقيعاً. لقد عرفنا هويّة الكثير من الضحايا من خلال التواقيع. حيث يكون التوقيع متعمّداً أحياناً: عندما يمثّل القاتل أخيولة من نوع ما. وفي حالات أخرى، يكون تصرّفاً لا شعورياً. إذا تبيّن أن هناك نموذجاً ما، أو أوحى بفكرة ما، نتعامل معه كعلامة محتملة نضعها في برنامج بيانات الجنايات العنيفة».

لم يُظهر برنامج بيانات الجنايات العنيفة أي شيء يخص قضيتنا»، قالت هاربر.

«النظام لم يكتمل بعد، وليس مستخدماً لدى جميع موظفي تطبيق القانون. وبعض عناصر الشرطة ليسوا قياديين بطبيعتهم. وبالطبع، يمكن للمجرمين تبديل النماذج. يعتمد النظام غالباً على إدخال الموظفين المسؤولين للبيانات وتفحّصه للتحذير من جرائم جديدة. بالإضافة لذلك، إذا تم حلّ القضية، لا تبقى في النظام أبداً. هذا النظام مصممٌ لمساعدة رجال الشرطة بإلقاء القبض على المجرمين العنيفين، وتحدي شخصية مجهولين وأشخاص مفقودين. نحن لا ننشر تفاصيل مرتكبي الجرائم الذين نقبض عليهم وندينهم مباشرة. هذه هي نقطة الضعف الأساسية».

أسندت هاربر ظهرها وقاطعت ذراعيها على صدرها وقالت: «كيف تكون تلك نقطة ضعف؟ من المؤكد أن قضايا جرائم القتل المنتهية ليست ذات صلة».

أجبتها: «النظام لا يُجيز إدخال الإدانات الخاطئة».

كانت المرة الأولى التي تلحظ فيها ديلاني وجودي. صمتت لبرهة، ثم أومأت برأسها.

«إنه على حق. تخبرنا دراسة أجراها «المكتب الوطني للتبرئة» أن من بين كل خمسة وعشرين محكوماً بالإعدام في الولايات المتحدة، هناك بريء واحد. ويتم سنوياً إلغاء خمسين إلى ستين إدانة بجريمة قتل. إنه عدد كبير من القضايا التي لا نملك بيانات عنها، ولا نستطيع اقتفاء أثر علاماتها، ناهيك عن الناس الأبرياء الذين لم يحظوا بمحام يدحض الاتهامات الموجّهة إليهم. العميل الذي تحدّث معه «جو» يعرفني. وهو يعتقد بوجود ما هو مثير للاهتمام في الصور التي أرسلتها. أنا لا أعرف أي شيء عنها حتى الآن لكنني سعيدة بقدومك. إنها الإشارة الأخيرة في قائمتك، ورقة الدولار».

توقفت برهة. كنت أشعر أن ديلاني تريد أن تقول المزيد، وعرفت أنها لا تستطيع. كانت المرأتان كلتاهما تتصفان بالحدّة والإصرار. إذا كان لدى هاربر نظرية ما تتعلّق بالقضية، فلن تتزحزح عن موقفها حتى تعرف إلى أي مدى تصل نظريتها. كانت تفكّر بسرعة، ولديها طاقة جسدية تتدفّق في كل شيء تفعله. تبدو وكأن ناراً تتقد داخلها. في حين كانت ديلاني تفكّر بشكل أعمق، وتتسم بالهدوء، وتبدو كقرص صلب يُصدر أزيزاً أثناء انهماكه بحلّ مشكلة ما.

بقيت هاربر صامتة، ولم أنبس ببنت شفة. كنا نأمل بالمزيد من ديلاني. لكنها لم تقل أي شيء. عرفت أنها ستحاول الحصول على معلومات إضافية منا

دون أن تمنحنا أي شيء. وعرفت هاربر ذلك أيضاً. تلك كانت ممارسات المحققين الفيدراليين المعهودة.

«أريد أن أرى ورقة الدولار التي ذكرتها»، قالت ديلاني.

«ليس لدينا سوى الصور»، أجابت هاربر.

«هل هي بحوزتك؟»

أومأت هاربر بالإيجاب، ولتعزيز موقفها، بسطت يديها على المكتب بسكون تمام. حاولت أن أنأى بنفسي. كانت لعبة هاربر وهي تعرف كيف تلعبها.

لم يتحرك أي شخص، ولم ينطق أحدهم كلمة واحدة.

أخيراً، هزّت ديلاني رأسها وابتسمت.

«هل أستطيع رؤيتها؟ يمكنني أن أقدم مساعدة بالمقابل؟»

«لنعقد صفقة. سوف نريك الصور إذا كشفت لنا عما لديك. كلٌ منا يضع ما لديه على الطاولة».

«لا أستطيع أن أفعل ذلك. أنا متورّطة بتحقيق عالي الحساسية، و....»

نهضت عن الكرسي بطريقة صاخبة، وتركت أرجل الكرسي تحتك بقوة ببلاط الأرضية. ولم تكن هاربر تنهض عن الكرسي قليلاً حتى رفعت ديلاني يدها.

«انتظرا. أستطيع أن أعطيكما بعض التفاصيل، وليس كلها. لكن فقط إذا عرفت أنها ذات صلة بقضيتكم. لا علم لي بالقضية التي تعملان عليها، وإذا لم يكن الدولار مطابقاً، فلا حاجة لي بالمعرفة. أرجوكما أن تجلسا. دعوني أطّلع على الصور، وإذا كانت الصور التي أبحث عنها، فسوف أعطيكما قدر ما أستطيع».

تبادلنا النظرات أنا وهاربر، ثم جلسنا. فتحت الحقيبة الموجودة إلى جانبي وأخرجت جهاز اللابتوب، وقمت بتشغيله. عثرت على صورة الفراشة المصنوعة من ورقة الدولار، وحرفت الشاشة بطريقة تمكننا نحن الثلاثة من الرؤية.

لم تستغرق ديلاني أكثر من خمس ثوان حتى قالت: «لا، لا تبدو كتلك التي لها صلة بالقضية. هل لديكما أية صور إضافية لدولار غير مطوي؟»

غصّ قلبي قليلاً. استطعت أن أرى هاربر وهي تذوي أمامي. مالت بكتفيها واقترب ذقنها من الطاولة.

أطلقت تنهيدة. للحظة معينة، كان لدي بارقة أمل بإمكانية حصولنا على شيء يخبرنا ببراءة روبرت سولومون.

«بالتأكيد»، أجبت.

نقرت على شاشة اللمس، وقلبت صفحتين وتركت ديلاني تلقي نظرة. تمتمت هاربر قائلة: «عفواً، أغلقنا على الأقل هذا الطريق المسدود».

أومأت موافقاً، ثم أثارت ديلاني اهتمامي. انعقد جبينها وانشدّت بشرتها حول عينيها. وتحرّكت شفتاها ببطء بينما كانت تقترب من الشاشة. مدّت جسدها وانحنت خلف المكتب. ثم عادت وبيدها دفتر رسم. بدا الدفتر قديماً وبالياً. صفحاته مطوية عن الجوانب. فتحت الدفتر ووصلت إلى صفحة في منتصفه تقريباً وأعادت النظر بحماس إلى الشاشة.

«أريد أن أعرف كل شيء عن القضية التي تعملان عليها فوراً».

قالت هاربر: «ماذا؟ هل عثرت على شيء ما؟»

تجاهلت هاربر، وسحبت قلماً من حقيبتها وبدأت ترسم. كانت تنظر باهتمام إلى الشاشة، ثم تنقل اهتمامها إلى اللوحة ورسمها. لقد تجاهلت سؤال هاربر، وطرحت سؤالاً يتعلّق بقضيتها.

«ما هي معلوماتك العملية عن القتلة المتسلسلين؟» قالت ديلاني.

سرت قشعريرة في جسدي.

قلت: «لا أعرف سوى ما قرأته في الصحف، ليس أكثر».

«عادة ما يكونون ذكوراً بِيضاً تتراوح أعمارهم بين الخامسة والعشرين والخمسين، منعزلين وليس لديهم كفاءات اجتماعية، لديهم معدّل ذكاء منخفض، ويعانون غالباً من أمراض نفسية»، قالت هاربر.

هذا يتطابق مع القليل الذي أعرفه. رفعت نفسي قليلاً وأنا جالس فرأيت ديلاني ترسم ورقة زيتون على مخطط لرمز الولايات المتحدة العظيم في دفترها. رفعت رأسها مجدداً، ورأيت قلم الرصاص في يدها يرفرف فوق مجموعة سهام في حين كانت شفتاها تتحركان. كانت تُحصي. عاد قلمها إلى الصفحة، وبدأت ترسم مجدداً.

«كل ما ذكرته للتو خاطئ تقريباً، قالت ديلاني. «إننا في وحدة التحليل السلوكي ندعوهم المكررين. يمكن أن يكونوا من أية مجموعة عرقية، ومن أي عمر، ودون مبررات. والكثير منهم متزوجون ولديهم عائلات كبيرة. وقد تكون من جيرانه لسنوات دون أن تعرف ذلك. إن ضعف المؤهلات الاجتماعية ومستوى الذكاء المنخفض عبارة عن فرضيات منطقية، لكنها ليست هكذا دوماً. نجح الكثير منهم في التملّص من قبضة العدالة لفترة طويلة، وذلك بسبب اختيارهم لضحاياهم. لم يسبق لمعظم ضحايا المجرمين المتسلسلين أن التقوا بقاتلهم من قبل. حتى الأخرق منهم قد يعمل لسنوات قبل أن يتمكن رجال الشرطة من القبض عليه. ولكن يبقى هناك نسبة الواحد بالمائة الذين لديهم مهارات اجتماعية عالية جداً، ومعدّل ذكاء يتجاوز كل حدود، وأياً كان ذلك الأمر الذي يجول في أذهانهم ويجعلهم يرتكبون تلك الجرائم، فهم ينجحون في التواري حتى عن أقرب أصدقائهم. غالباً ما لا نتمكّن من القبض على هذا النوع. وأفضل مثال على ذلك هو «تيد بوندي». وعلى العكس مما نشاهده على شاشات التلفاز - لا يرغب هذا النوع من القتلة بالوقوع في قبضة الشرطة أبداً. وقد يتطرّف البعض بتصرّفاته ليضمن البقاء بعيداً عن السجن، لدرجة أن بعضهم ينتحل شخصية الضحية. وهناك آخرون، مع أنهم لا يريدون أيضاً أن يُقبض عليهم، تتشكل لديهم رغبة ضمنية بأن تتم معرفة ما اقترفوه من جرائم».

نقرت ديلاني على الشاشة. وقرّبت الوجه الآخر لورقة الدولار حول الختم الرسمي. التغيير الذي رأيته على الدولار وتجاهلته، يحتلّ الآن الشاشة كلها. يبدو من هناك ثلاث علامات حبر على الختم. واحدة على السهم. وواحدة على ورقة الزيتون، وواحدة أعلى نجم في المجموعة، إلى جهة اليسار، فوق رأس النسر.

«ما الذي نراه هنا؟» سألتها.

أطبقت ديلاني دفتر الرسم ودفعته إلينا. كان رسماً للختم العظيم، مع بعض أوراق الزيتون، ورؤوس السهام، ونجوم مظللة بقلم الرصاص فوق النسر.

نظرت مجدداً إلى الشاشة. ورقة الزيتون ورأس السهم والنجمة قد تم تلوينها بالحبر الأحمر، ووضعها في فم كارل.

«لقد سبق أن رأيت تلك العلامات على ورقة الدولار ثلاث مرات. وحددتها على هذا الرسم»، قالت ديلاني. «وجدنا إحداها مطوية وموضوعة بين أصابع أقدام جثة أم لطفلين. والأخرى كانت موضوعة على طاولة مجاورة للسرير في نزل رخيص إلى جانب جثة بائع سيارات. ورأيت الأخيرة بيد جثّة مالك مطعم. أعتقد أنه أسلوب: توقيع (2) one-per-cent-er. أياً كانت القضية التي تعملون عليها، فهي مرتبطة بأحد شياطين وحدة التحليل السلوكي. أعتقد أنه من أكثر المجرمين المتسلسلين تعقيداً في تاريخ مكتب العلوم السلوكية كله. لم يسبق لأحد أن رآه من قبل. وكل ما لدينا عبارة عن علامات على ورقة دولار، لذا لا يؤمن بعض المحللين بوجوده، أما بعض المحللين الذين يؤمنون بوجوده، فيسمّونه «ورقة الدولار». لذا من الأفضل لكما أن تخبراني بما تعرفانه عن هذه القضية، والآن مباشرة».

الفصل الحادي والعشرون

أمسك كين الكتاب المقدّس بيده اليمنى، وتلا القسم الموجود على البطاقة كما لو أنه يعني كل كلمة. أخذ الموظّف الكتاب المقدّس منه، وعرّف كين عن نفسه كما طُلِبَ منه، واتخذ مكانه على المنصّة.

كان كارب، ومستشاره نوفوسليك في هيئة المحلفين، يتشاوران ويتهامسان. وأخيراً، بعد أن تنحنح القاضي، تقدّم كارب وطرح سؤالاً. لم يكن السؤال الذي يطرحه يهم كين، فهو يعرف كيفية الإجابة بالنسبة لكارب. ويعرف ما الذي يبحث عنه محامو الدفاع في شخصية المحلّف.

قال كارب: «بحسب معرفتك، هل هناك ما يعيقك عن العمل في هيئة المحلّفين هذه؟»

كان سؤالاً تافهاً؛ عرف كين ذلك. توقّع أن كارب يعرف ذلك أيضاً. لقد أرادوا رؤية ما الذي سيفعله وحسب.

ترك كين عينيه تطوفان إلى الجانب. وصمت، ورمش بعينيه عدة مرات. ثم نظر مرة أخرى إلى كارب وقال: «لا. ليس بذهني أية فكرة عن ذلك». لم تكن الإجابة ذات أهمية. المهم أنه ترك محاميّ الدفاع يرونه وهو **يفكّر**. لقد عرف أن العضو الذي يُنظر إليه على أنه يفكّر، يكون مفضلاً لدى الدفاع، ولن يكون بالضرورة مزعجاً للنيابة العامة.

«شكراً لك. الدفاع يقبل هذا المحلّف»، قال كارب.

استدار بريور في مقعده وتحدث إلى مساعد النائب العام خلفه. كانت محادثة قصيرة. وقف بريور وحدّق بـ كين الذي أصغى بدوره للأصوات المريحة الصادرة عن رفاقه المحلّفين. كانت هيئة المحلّفين حيّة، شيء يتنفس. بالتأكيد، كانوا جميعاً أفراداً. ومع ذلك، إذا وضعتهم مجتمعين فسوف يتحوّلون إلى وحش، وحش على كين أن يروّضه.

مضت ثلاث ثوان أو أربع منذ أن وقف بريور. لكن كين شعر بأنها دقائق. أصبحت الغرفة هادئة. وتوقف حفيف الأوراق. وخفّت الضوضاء الصادرة عن الحشد. تفحّص بريور كين. وتلاقت عيونهما للحظات وجيزة لم تبلغ نصف

ثانية. ومع ذلك، حدث في هذه الفترة القصيرة جداً شيء بينهما. شعر كين وكأن الرجلين توصلا لحالة تفاهم.

«حضرة القاضي»، قال بريور، «ليس لدى الادعاء أية أسئلة، ونحتفظ بموقفنا في هذه اللحظة».

طلب القاضي من كين أن يأخذ مكانه على منصة هيئة المحلّفين. وقف، ونزل عن منصّة الشهود، واتخذ طريقه إلى المقاعد المخصصة لهيئة المحلفين. جلس في النسق الأمامي، في النهاية تقريباً.

مرت ساعة أخرى استبعد فيها الدفاع والادعاء خمسة عشر عضواً محتملاً. وكما فعل مع كين، احتفظ بريور بموقفه بشأن سبعة محلّفين آخرين. نظر كين إلى المنصّة، ومع الأماكن الإضافية، وجد عشرين محلّفاً جالساً.

استبعد بريور عضواً محتملاً آخر كان لديه تجربة سابقة في التمثيل عندما كان طفلاً، وربما كانت ربطه علاقة طفيفة مع بوبي سولومون.

لم يجلس بريور في مكانه بل نظر إلى منصة هيئة المحلفين الممتلئة، واستغرق في تفحّص المحلّفين الواحد والعشرين جميعهم. ثم أمسك مفكّرته واقترب من القاضي.

«حضرة القاضي، النيابة العامة تشكر السيدة «مكي», والسيدة «ماكل», والسيد «ويلسون», والسيد «أوكونور» على قدومهم، وهي لم تعد بحاجة إليهم. تعتبر النيابة أنه أصبح لديها الآن هيئة محلّفين كاملة».

وقف رجل ذو شعر رمادي كان جالساً على بعد أربعة مقاعد إلى اليمين من كين، وبدأ يشقّ طريقه خارجاً من نسق المقاعد. كان قادراً على تخطي بعض الإناث المحلّفات النحيلات وهنّ جالسات، لكن كين اضطر إلى الوقوف ليسمح له بالمرور. كما وقفت المرأة الطويلة التي كانت جالسة إلى يسار كين، لتدع كين والمحلّف المُستبعد يخرجان من النسق الأمامي.

«فلينتقل جميع المحلّفين إلى جهة اليمين قدر الإمكان. أفسحوا المجال يا رفاق»، قال القاضي فورد.

لامس الرجل كين أثناء مروره. وعندما عاد كين إلى المنصّة، لاحظ أن المرأة الطويلة أخذت مكانه لأنها عادت إلى النسق قبله، وانتقلت مع المحلّفين الآخرين إلى اليمين بناءً على أوامر القاضي. نظرت المرأة إليه وابتسمت

بلباقة بينما جلس هو في المقعد الذي كانت تدفئه مدة نصف الساعة الماضية. لم يبادلها كين النظرة. كانت في الخمسينات من عمرها، ذات شعر كستنائي، وترتدي سترة زرقاء فاتحة. وانسحبت آخر النساء اللواتي استبعدهنّ بريور من النسق الثاني خلفه.

«سيداتي سادتي، أنتم هيئة المحلّفين في هذه القضية»، قال القاضي، «أول ستّة منكم في الخلف، وأول ستة في النسق الأول، هم أعضاء هيئة المحلّفين».

نظر كين حوله.

«بدءاً من يمينك»، تابع القاضي، «أي الأربعة الآخرون بعدك، والسيدة والسيدان في النسق الخلفي، والسيد في النسق الأمامي، هم الأعضاء الاحتياطيون».

لم تأخذ المرأة الطويلة مقعد كين فقط بل احتلّت مكانه في هيئة المحلّفين. بدت سعيدة، وأصبح هو عضواً احتياطياً. سوف يشاهد سير المحاكمة. وكل ذلك بسبب المرأة الطويلة التي كانت إلى جانبه.

راقب كين الموظّف المسؤول وهو يثبّت أماكن الهيئة، ويعطي كلاً منهم رقماً. حصل على الرقم ثلاثة عشر. وحصل الاحتياطيون الآخرون على الرقم أربعة عشر وخمسة عشر وستة عشر.

حذّرهم القاضي من قراءة الصحف ومتابعة الأخبار، وإلغاء كل أنواع التعليقات الإعلامية من حياتهم. طلب القاضي من مراقب هيئة المحلّفين أداء القسم، وهو الشرطي الذي يهتم بالهيئة ويتأكد من أنهم يطبّقون القوانين.

التفتت المرأة الطويلة التي أخذت مكان كين، المحلّفة رقم اثني عشر، وهمست له قائلة: «أمر رائع، أليس كذلك».

أومأ برأسه.

تحدّثت بلكنة نيوجرسي، وكان بوسعك أن تشعر برائحة سجائر الصباح في أنفاسها. ذلك يذكّره بوالدته. حاول أن يركّز على تلك الذكريات، وعلى أي شيء يمنعه من التفكير بفشله بالحصول على مقعد في هيئة المحلّفين. لو فكّر بكل ذلك التحضير.....

تلاشى كل شيء كما تذر الريح الرمادَ.

تحدث القاضي وأوقف الغضب المتصاعد في أعماق كين.

«أيها المستشارون، لقد خصصنا يومين لاختيار هيئة المحلّفين، وانتهينا من العمل مبكراً. أقترح ألا نهدر المزيد من الوقت. ستبدأ المحكمة صباح الغد»، قال القاضي فورد.

«مستعدّون يا حضرة القاضي، يتوق موكلي للحفاظ على حسن سمعته، بحيث تتمكن الشرطة من القبض على القاتل الحقيقي»، قال كارب.

ارتفع حاجبا القاضي بشدّة عندما رمق كارب تلك النظرة. عرف كين أن محامي سولومون سينتهزون أية فرصة لإثبات براءة موكلهم أمام هيئة المحلّفين. وخمّن بأن القناعة بذلك ستبدأ بالتسلّل إلى بعض أعضاء الهيئة إذا سمعوا ما يكفي من هذا الكلام.

الشرطي الذي يعمل كمراقب، أخرج أعضاء الهيئة من قاعة المحكمة واحداً تلو الآخر، إلى ممرّ بارد عاجي اللون. واصطفّ كين خلف المرأة ذات السترة ووقف. كانت الشرطية تمرّ أمامهم وتوزّع عليهم كراسات تتضمن تعليمات حول كيفيّة الحفاظ على رضا رؤسائهم، وكيف يطالبون برسوم هيئة المحلّفين.

استندت ذات السترة الزرقاء إلى الحائط، وابتسمت له ابتسامة زائفة ومدّت يدها. وعلى الرغم من ابتسامتها الزائفة استطاع كين أن يشعر بالتفاهة اللامحدودة التي تشعّ منها. كانت امرأة من النوع الذي يخبز الكعك للعجائز، وتُظهر لهم كم عليهم أن يكونوا ممتنين لجهدها في خبز هذا الكعك.

«أنا بريندا. بريندا كولسكي».

صافحها كين وقدّم اسم الشخصية التي ينتحلها.

«أول مرة أكون في هيئة المحلّفين، أشعر بالحماس. أعلم أنه لا ينبغي أن نتحدّث بالقضية، لكنني أردت أن أعبّر لأي شخص عن مدى سعادتي بحصولي على فرصة تمكنني من تسديد شيء ما لهذه المدينة. تفهم ما أعنيه، أليس كذلك؟ إن أداءك للواجب في هيئة المحلّفين جزء من دورك كمواطن صالح كما أعتقد».

أوماً برأسه موافقاً.

أعطت الشرطية ورقة وكرّاساً لبريندا، ثم لكين.

«أخبروني إذا كان لديكم أي استفسار. نحن لا ندفع مقابل مواقف السيارات. أرجو أن تعودوا غداً صباحاً في الساعة الثامنة والنصف. طاب يومكم».

أخذ كين ورقته وكرّاسته ولوّح لبريندا مودعاً بينما كان يبتعد. كان يوماً طويلاً بالنسبة إليه، الكثير من الأمور سارت بشكل جيد. ومع ذلك لم يُصبح عضواً في الهيئة. فكّر بجرح ذراعيه تلك الليلة بسكين من سكاكينه. ليس بهدف الموت. بل ليشعر بالقطع، بالإحساس الغريب الناتج عن غرس رأس النصل في طبقة جلده العليا. لا يوجد ألم، مجرّد إحساس بالدفء من سريان دمه على بشرته.

«وداعاً الآن، أعتقد أنني سأراك غداً»، قالت بريندا.

توقف كين، والتفت نحوها ثانية. تصنّع ابتسامة عريضة، ثم غمز وقال: «لا، هذا إذا رأيتك».

الفصل الثاني والعشرون

لفترة طويلة لم أعرف ماذا أقول، ولا هاربر أيضاً. إذا كان ما قالته ديلاني صحيحاً فهذا يعني أن بوبي سولومون بريء، وأن كارل وأرييلا هما ضحيتان لقاتل متسلسل.

ستحبّ الصحافة هذه القصة.

تسارعت نبضات قلبي وأنا أفكّر بذلك. يمكننا استدعاء ديلاني وجميع ملفاتها. ويمكنها أن تعرض خدعة الدولار، وتعرض النموذج أمام هيئة المحلّفين. كانت محللة عالية الخبرة لدى المباحث الفيدرالية. إنها بطاقة بوبي الرابحة. أردت الاتصال بكارب مباشرة غير أن ما يدور في ذهني جعلني أستقرّ في مقعدي. ليس الآن، احصل على المزيد. علي البقاء هادئاً لكنني في غاية الحماس. لم تتمكن هاربر من إخفاء الابتسامة على وجهها. لقد نجحت اتصالاتها. إنها لحظات عظيمة.

«يمكننا إخبارك بكل شيء»، قلت لديلاني، «لكن بالمقابل، ستجري محاكمة موكّلنا هذا الأسبوع. نريد أن نستدعيك، مع ما لديك من ملفات، للشهادة في المحكمة بما أخبرتنا به».

«أخشى أن هذا مستحيل».

«ماذا؟» قالت هاربر، ثم ضربت راحة يدها على الطاولة مما جعل جهاز اللابتوب يهتزّ.

اعتقدت بداية أن القوانين الفيدرالية هي العائق. إنها بحاجة إلى معلومات منا، ونحن نحتاج إلى شهادتها. هكذا كانت المفاوضات. ثم أدركت أنه لم يكن تفاوضاً. لا تستطيع ديلاني أن تشهد بما أخبرتنا به. وليس هناك طريقة لإجبارها على الشهادة بأمر من المحكمة.

سألتها: «إن التحقيق لا يزال قائماً، أليس كذلك؟»

زمّت ديلاني شفتيها وأومأت بالإيجاب.

«لا يمكنكِ مناقشة الأمر في جلسة علنية، ولا نستطيع أن نجعلك تفعلين ذلك. ستعلنين عما تعرفينه وما لا تعرفينه، إلى القاتل مباشرة». ص١١٦

«هذا صحيح. أريد الآن أن أعرف القضية التي تعملان عليها».

لم تعطِنا فعلياً أي شيء. لا أسماء. ولا تفاصيل حقيقية. مجرد علامات بالحبر على ورقة نقدية من فئة الدولار. هذا ليس كافياً. شعرت أنه لا بدّ من وجود المزيد. شيء آخر يربط بين هذه الجرائم. شيء أكبر من مجرّد بقع حبر. حتى لو كان بإمكان ديلاني أن تشهد، يحتاج الأمر إلى أكثر من ذلك لإقناع هيئة المحلّفين. وحيث توقّف الأمر هنا، سيكون لدينا ما يكفي من الخطوط العريضة الجيدة، لكن ليس لدينا قصة متكاملة.

«لا يمكننا الكشف عن معلومات العميل السريّة»، قلتُ لها.

«هراء، إذا كانت قضيتكما مرتبطة بتحقيقاتي - قد أكون أفضل أمل لكما بإطلاق سراح موكّلكما. إن إخفاء المعلومات عني ليس في مصلحته».

«ما الذي يضمن لنا أنك تساعدين موكلنا؟»

«لا شيء، لكنها الفرصة الوحيدة لديكما».

«لا، إنه التقدم الجديد الذي **حصلت** عليه. ظننت بأننا عقدنا اتفاقاً. أنت تحتاجين إلى اسم. ونحن نحتاج إلى ثلاثة».

أسندت مرفقيها إلى المكتب، وغطت وجهها بيديها وتنهّدت.

«لا يمكنني أن أطلعك على ملفات القضية، لكنني أستطيع أن أعطيك هذا المخطط الموجود على الطاولة مدّة ستين ثانية».

أخرجت من جيبي رزمة نقود، وأخذت منها ورقة، وبدأت أنسخ العلامات عليها من الصورة.

بينما كانت عيناها تجوبان السقف قالت: «لا أستطيع أن أريك ملفّ «أني هايتاور» ولا «ديريك كيس» أو... ماذا كان اسم الآخر؟

انتهيت من الصورة.

«ألم يكن ملفّ بوبي سولومون؟ أليس هو؟».

انحنى رأسها إلى الأمام، وفتحت فمها وهي تحدّق بي مباشرة. أعتقد أنني استطعت أن أرى رعشة شفتيها. كانت قد نسيت لعبتنا الصغيرة للحظة.

وبدأت تستوعب الاسم وثقله الاجتماعي، والأضواء المحيطة به.

أخيراً، أغلقت فمها وهزّت رأسها وقالت: «لا، لا، لم يكن ملفّ سولومون، بل ملف كارين هارفي. لا أستطيع أن أريك أي شيء من تلك الملفات».

انتهيت من نسخ علامات الختم على الدولار الخاص بي وطويته وأعدته إلى مكانه. ثم وضعت اللابتوب في الحقيبة. نهضت أنا وهاربر لمصافحة ديلاني. صافحتها هاربر أولاً. كانت مصافحة جافة، رسمية وموجزة وعملية.

خرجت معنا من قاعة الاجتماعات عبر الممر إلى مكتب الاستقبال، ثم استدارت وذهبت. وأثناء انتظارنا المصعد، تفحصت الدولار الذي وضعت عليه العلامات.

«علام يدور ذلك كله؟» قالت هاربر.

«لا فكرة لدي، إذا كانت على حق، فهناك شخص مريض طليق. وهو يلعب لعبة ما. علينا العمل على ذلك. علينا أن نجد طريقة لدعوة ديلاني للشهادة في قضية بوبي.

غيّرت هاربر طريقة وقفتها، ووضعت يدها على خصرها، ونظرت إلي بطريقة مربكة.

«أعتقد أنك سمعتها. حتى إنك قلت ذلك لنفسك - لا نستطيع إجبارها على الشهادة. إنها قضية مفتوحة».

فُتِح باب المصعد ودخلنا، ضغطت هاربر على زر الطابق الأرضي.

«هناك طريقة واحدة لإرغامها على الشهادة»، قلت لهاربر.

«أتحدّاك يا blwo me. ليس هناك من فرصة. تابع، ما الجديد لديك. أراهنك بأن ذلك لن ينجح. لن تشهد ديلاني مطلقاً ضد قضيتها».

«مبررها في أنها لن تشهد هو أن قضيتها لا تزال مفتوحة. كل ما علينا فعله هو إقفال تلك القضية».

الرحلة إلى «كارب لو» لم تستغرق الكثير من الوقت، ولم نتحدث أي شيء خلالها. قاد هولتن السيارة. جلست أنا وهاربر في المقعد الخلفي، وتصفح كلٌ منا المقالات الإخبارية على هاتفه.

تم العثور على آني هايتاورد ميتة في غرفة الجلوس بمنزلها في سبرينغفيلد، وذلك في شهر نوفمبر - تشرين الثاني عام (٢٠٠١). العنق مقطوع حتى النخاع، وكان من المفترض أن يقوم أطفالها بزيارتها نهاية الأسبوع مع والدهم «عمر هايتاورد». الأولاد الآن مع أخت عمر التي تقطن على بعد شارعين من مسكن والدتهم. أخبر عمر المحكمة أنه حصل مؤخراً على المال. لقد كسب رهاناً كبيراً بلعبة كرة القدم، ووصل المبلغ إلى مئة ألف دولار. حتى إن الصحف المحلّية تحدثت عن ذلك. لقد أنفق بعض المال على المخدرات - دخّن غليوناً أو أكثر بعد ظهر ذلك اليوم، ووجدت أخته الأولاد في مطبخ منزله وهم يعبثون بجهاز «الماكروويف». أخذت الأخت «شايان» الأطفال ليلاً ليتمكن عمر من النوم قليلاً. وبالتالي لم يكن لدى عمر ما يُثبت وجوده في مكان معيّن ليلة الجريمة. وكان عمر مديناً لآني بمبلغ ألف دولار كنفقة للأطفال، وكانت قد كلّفت محامياً باسترجاعها. وتم العثور على دولار بين أصابع أقدام آني وعليه بصمات أصابع عمر. فكّرت بالنسر الموجود على الختم، وبالسهام وأغصان الزيتون التي يمسكها بمخالبه. قال محامي الدفاع إن موكله عمر أعطى «آني» المال في وقت سابق من الأسبوع - وأن القاتل استخدم ورقة من تلك النقود لتوريط عمر.

لم تصدّق هيئة المحلّفين هذا الكلام.

هناك مقالة واحدة تعود للعام (٢٠٠٨) تؤكد مقتل عمر في السجن.

بدت قضية ديريك كاس واضحة بالطريقة ذاتها. كان ديريك ربّ أسرة لديه زوجة وثلاثة أولاد. يبيع شاحنات عبور من حصته الخاصة في قلب ويلمينغتون. كان يسافر في بعض المناسبات للقاء العملاء والمورّدين. وعلى طريق السفر، يُصبح ديريك «ديليلا». في صيف عام (٢٠١٠) تورّط في مشكلة، بصفته «ديليلا»، في حانة تبعد ميلين عن «نيوارك». فأحد العاملين بدوام جزئي في موقف سيارات، ويُدعى «بيت تيمسون»، لم يتقبّل برحابة صدر أن يكتشف أن موعده الغرامي الساخن كان في الحقيقة مع رجل، وهدد بقتل «ديليلا» خنقاً. لحق بها إلى الفندق، وخنقها في السرير، وترك دولاراً ورقياً عليه بصمات أصابعه على الطاولة قرب السرير. كان هناك شهود على التهديد. وتم إغلاق القضية.

«قضية كارين هارفي ليست متوافقة مع باقي القضايا»، قالت هاربر.

فقلت: «لم أصل إليها بعد. كيف ذلك؟»

حرّكت الشاشة بإبهامها لتصل إلى بداية المقال وقالت: «ليست كالقضايا الأخرى. مالكة مطعم في مانشستر، نيو هامبشاير. في أواخر الخمسينات من عمرها، امرأة مطلّقة وناجحة. يبدو أنها توفيت إثر عملية سطو عام (١٩٩٩). طلقة في المعدة من مسافة قريبة، واثنتان في الرأس. لقد تضررت آلة جمع النقود لكنها لم تُفتح. كان الشيء الوحيد المفقود هو نصف ورقة دولار. وعندما تم العثور على الجثّة كانت لا تزال تُمسك هذا النصف بيدها. كما تم العثور على النصف الآخر في شقّة «رودي رودس»، وهو عازف في فرقة محليّة ومدمن مخدرات، ولديه عدّة إدانات بسبب السطو المسلّح. قامت الشرطة المحليّة باقتحام منزله بناءً على معلومات سرية، ووجدوا النصف الثاني لورقة الدولار، وسلاح الجريمة وهو مسدّس ماغنوم عيار ٤٥ ملم. لم تكن بصماته على الورقة النقدية، لكنه فضّل الاعتراف بالقضية على أيّة حال».

«اعترف؟»

«اعترف بقتل اثنين. سيخرج بعد خمسة وعشرين عاماً».

شغل تفكيري بصمات بوبي على ورقة الفراشة التي كانت في فم كارل.

أوقف هولتن السيارة خارج شركة «كارب لو». ترجّلنا أنا وهاربر ودخلنا. سينتظر هولتن في قسم الاستقبال. وصلتني رسالة من رودي بينما كنا لا نزال مع الفيدراليين. وأخبرنا أن اختيار هيئة المحلّفين قد اكتمل، وستبدأ المحاكمة غداً. كان المكتب كخلية نحل. السكرتاريون، المحامون، المساعدون القانونيون - بدا الجميع متحمساً ومنشغلاً.

في قاعة الاجتماعات وجدنا رودي وبوبي ورجلاً آخر يجلس وظهره إليّ، شخص كنت آمل ألا أراه مرة أخرى. صادفته آخر مرة قبل بضع سنين عندما وقع في مشكلة أو اثنتين مع مكتب التحقيقات الفيدرالية. لقد عرفته حتى من ظهره. أستطيع أن أعرف ذلك الرأس القبيح الأصلع في أي مكان. إنه أرنولد نوفوسليك. كانت الاستشارات في هيئة المحلفين عبارة عن لعبة قذرة. وكان أرنولد الأكثر قذارة. لقد تورّطت في إحدى ألعابه سابقاً.

«مرحباً يا أرنولد».

نهض واستدار وأصابته الدهشة عندما رآني. لم يتغيّر. لا يزال وزنه زائداً عن المعدّل الطبيعي بمقدار خمسين باونداً، ولا زال يرتدي بزّة رمادية. ولا زال يتقاضى أجوراً باهظة في خداع طريد العدالة.

«هل لا زلت تستطيع قراءة شفاه أعضاء هيئة المحلّفين؟» سألته.

لم يجبني بأية كلمة بل حوّل غضبه إلى رودي.

«أرفض العمل مع هذا الرجل. إنه.... إنه....»

«محتال؟ هذا جزء يسير مما أنت بارع فيه»، أجبته.

صرخ رودي: «أوقفا هذه السخافة الآن. اجلس يا أرنولد، أرجوك. وأنت يا إيدي، إن أرنولد هو مستشارنا في هذه المحاكمة بما يخص هيئة المحلّفين. لقد حاول واختبر وحقق نتائج جيدة. وطريقة حصوله على النتائج ليست محور اهتمامي، ولا ينبغي أن تكون محور اهتمامك. دع أرنولد يقوم بعمله. وقم أنت بعملك، وسنعمل كفريق واحد يطفئ النار في بيت يحترق. لا مجال للجدالات لأن المحاكمة ستبدأ غداً».

لا بدّ أن هاري وضع الجدول الزمني. جيد؛ كنت أتطلّع للبدء. حوّلت انتباهي عن أرنولد، وقدّمت هاربر.

ربّت رودي على كتف بوبي وقدّم له عبوة ماء من المجموعة في وسط الطاولة. تناولها بيده وشربها حتى آخر قطرة. كان لديه اختبار وقوف في المحكمة اليوم. ومع أنني لم أكن هناك، أجزم بأن المحاكمة أصبحت حقيقية بالنسبة إليه. بدا عصبياً جداً ومتوتراً. انحنى فوق الطاولة وهو يمسك العبوة الفارغة بقوة ويلويها.

نزعت ورقة من المفكرة، وكتبت قائمة بالأشياء التي سأحتاجها.

«هل أصبحت القضية واضحة بالنسبة إليك الآن؟» سأل رودي.

تبادلت وهاربر نظرة قصيرة. وقررت أن أتحدث أولاً.

«ستعرض لك هاربر ما اكتشفناه. نعم، أصبحت الأمور أكثر وضوحاً. لكن لا يزال أمامنا الكثير من العمل. إذا حصلنا على نتائج جيدة، فسوف نكسب القضية. أحتاج أولاً على أحد مساعديك القانونيين لمساعدتي في تسوّق بعض الأشياء»، قلت ذلك وأنا أعطي القائمة لرودي.

التقطها بيده فراقبت ازدياد نظرات الدهشة بتقدّم القراءة.

«ثمة الكثير من الأشياء الغريبة هنا. أغطية بلاستيكية بعرض اثني عشر قدماً! شراب الذرة! ما هذا بحق الله يا إيدي؟»

«الأمر معقد. بالإضافة لذلك، نعتقد بوجود مسار نحو مشتبه به آخر. أخذتنا هاربر اليوم للقاء أحد محللي مكتب التحقيقات الفيدرالية. هناك رابط واحد بين هذه القضية وتحقيقات لا تزال مفتوحة في قضية قاتل متسلسل محتمل. ليس لدينا الكثير من المعلومات حتى الآن. إن الرابط ضعيف، وهو محلّ شكّ منطقي، لكننا نعمل على ذلك. أحتاج إلى مساعدتك. أريدك أن تستدعي شخصاً اسمه «غاري تشيزمان». سأعطيك عنوان عمله لاحقاً. ضعه على قائمة الشهود، واعرضها على النائب العام. ولا تقلق، لا أريد استدعاءه رسمياً، أريده فقط أن يكون على منصّة الحضور».

رأيت هاربر مستغرقة بمحاولة التعرّف على الاسم. فكّرت قليلاً وقالت: «من هو «غاري تشيزمان» هذا بحق الجحيم؟»

«إنه رئيس شركة «سويتلاندز» المحدودة التي تعمل في ولاية إيلنوي».

«وما علاقته بالقضية؟» سأل رودي.

«لا علاقة له بأي شيء. تلك هي الروعة في الموضوع. ثق بي، سيخلق هذا الرجل فجوة كبيرة في مسألة الادعاء».

الفصل الثالث والعشرون

كانت الساعة السابعة مساءً. انخفضت درجة الحرارة، وبدت أنفاس كين كسحب ضباب أمام وجهه، لكنه يشعر بالدفء. لقد بذل الكثير من الجهد بعد أن أمضى ساعة في غسيل سيارة «شيفي سيلفرادو» في مرآب مهجور. لم يستغرق وقتاً طويلاً ليحطّم القفل ويفتح الباب ويركن السيارة، ثم يعيد إغلاق المرآب. احتاج الأمر إلى خمس دقائق كحد أقصى. إنه يشعر بالإزعاج من الجرح الموجود في فخذه.

ثمة برميل وقود صدئ في الزاوية، كان المالك يستخدمه كمحرقة. عليه فتحة من الألمنيوم في الأعلى. سحب كمية من البنزين من السيارة التي غسلها، وسكبها في البرميل، ثم أشعل عود ثقاب وأسقطه.

وقف أمام البرميل المشتعل، وخلع قميصه وألقاه بين ألسنة اللهب. تفحّص جيب سرواله، وأخرج منه دولاراً واحداً، ثم خلع السروال ووضعه في البرميل. وقد تفحّص الورقة النقدية للحظة قبل أن يرميها هي الأخرى إلى ألسنة اللهب. كان قد وضع ملابس أخرى في حقيبة في المقعد الخلفي للسيارة. لا يستطيع كين أن يؤكد حقيقة الأمر لكنه ظن أنه رأى طيف ظل أخضر في ألسنة النار. ربما يحتوي البرميل على النحاس أو أية مادة بلاستيكية أخرى. ذلك ما جعله يتذكر رواية «غاتسبي العظيم» لمؤلّفها «فرانسيس س. فيتزجيرالد»، حيث يحدّق غاتسبي بالضوء الأخضر في المياه المظلمة. الحلم الأمريكي، إنه بعيد المنال ويتضاءل خلفه مع كل شعلة من اللهب.

يعرف كين هذا الحلم. فقد تحدثت عنه والدته. جهدت طوال حياتها لتحقيقه لكنها فشلت. تماماً كما فعل هو نفسه قبل أن يدرك الحقيقة. لم يكن الحلم الأمريكي بالمال والثروة، بل كان بالحرية، الحرية الحقيقية.

لم يحب إحساس الألم في ساقه. تفحّص هندامه، وعدّله قليلاً، وأخذ جرعة مضاعفة من المضادات الحيوية، وقاس درجة حرارته بميزان حرارة رقمي. كانت ثمانٍ وتسعين وستٍ بالعشرة. درجة مثالية.

كان يعرف الكثير عن الألم مقارنةً بشخص لم يختبره من قبل. للألم وظيفة فيزيولوجية هامة للغاية إذ يعمل كنظام تحذير. ثمة إشارات من الدماغ

تخبرك بوجود مشكلة. الصداع، الإصابات العضلية، العدوى. إذا لم يراقب جسده عن كثب، فقد يتسبب بإتلافه.

سمع رنين الهاتف فتناوله.

«**عثر أولاد على الجثة التي تركتها في بروكلين. وتم التبليغ. لا تقلق، سيستغرق الأمر بعض الوقت للتعرّف على الجثة**»، قال الصوت الصادر عن الهاتف.

«هل أحتاج إلى دفع جدول العمل قدماً؟» سأل كين.

«**لن يربطوا الجثّة باستدعاء هيئة المحلّفين على الفور، وربما لن يحدث ذلك أبداً. لقد كان محققاً مكلّفاً بأجندة ليبرالية - ثمة الكثير من الدوافع، والكثير من المشتبه بهم حتى الآن . ومع ذلك، كلما استطعت القيام بذلك بشكل أسرع، كان أفضل . أرى أنك كنت مشغولاً بعد ظهر هذا اليوم أيضاً. ربما عليك تهدئة الأمور الآن**».

«سآخذ نصيحتك بعين الاعتبار».

سمع الرجل يتنهّد في الطرف الآخر من هذا الاتصال.

«**هناك تعميم بأوصاف سيارة «شيفي» على مستوى الولاية. هل نظّفت السيارة؟ وغيّرت لوحاتها**؟»

«بالطبع، اهدأ قليلاً. لن تتم ملاحقة السيارة أبداً. ماذا سمعت عن نشاطات هذا المساء؟»

«**أعرف شخصاً في قسم جرائم القتل في تلك الدائرة. سيطلعني على ما يحدث. سأراقب الاتصالات. إذا حصلوا على فرصة مناسبة، سأبلغك**».

«تأكد من القيام بذلك. إذا علمت أنك تخفي أي أمر عني... أنت تعرف العواقب».

الفصل الرابع والعشرون

أحتاج إلى ساعتين من الراحة. لأترك الأفكار ترتب نفسها في رأسي. مع نهاية الاجتماع في «كارب لو»، أعتقد أن الجميع بحاجة للشيء ذاته تقريباً. كان الجميع مُنصتاً. أصغى رودي إلى لقصص كلها، لكنه رفع حاجبه دهشة عندما سمع هذه القصة. وأخيراً، اتّفقنا جميعاً - ليس لدينا ما يكفي للإشارة إلى قاتل متسلسل مجهول. ليس قريباً بما فيه الكفاية. لكن رودي بدا معجباً بأفكاري الأخرى، وأرسل اثنين من المساعدين القانونيين إلى مانهاتن مع بطاقة الشراء الخاصة بالشركة، وقائمة المشتريات التي وضعتها. كان ذلك جيداً. كان الصامت الوحيد في هذا الاجتماع هو بوبي. لم أستطع أن أفهمه. أمضى الوقت كله وهو يحدّق من النافذة بمبنى «تايم سكوير». ظننت أنه ربما كان يستمتع بالمشهد قدر الإمكان، كأي رجل يعرف أنه خلال السنوات الثلاثين أو الأربعين القادمة، لن يتسنّى له رؤية منظر كهذا من زنزانة السجن.

انتهى الاجتماع بوضع الترتيبات اللازمة لعقد اجتماع آخر صباح اليوم التالي، قُبيل جلسة المحكمة، للبحث في بيان رودي الافتتاحي أمام هيئة المحلّفين.

ووعدت هاربر بالاتصال بها لاحقاً بعد الانتهاء من موعدها مع هولتن.

لم ترغب في البداية بالاعتراف بأنه موعد. لكن أومأت موافقة وقالت: «نعم، إنه موعد. أعلم أنه من غير المهني جداً مقابلة أشخاص من هذا النوع، لكن ماذا سيحدث؟ إذا لم يُعجب رودي كارب بالأمر، **يستطيع أن «يعصف بي** .blow me»

«عليك التوقف عن ذكر هذه الكلمة« **blow me**». سيأخذ هولتن فكرة سيئة عنك».

ضحكنا للحظات. كان شعوراً جيداً. وما إن انفتح باب المصعد حتى شعرت وكأنني أحمل حقيبة تزن مئتي رطل. لقد عدنا للعمل.

«سأتصل ببعض الأصدقاء في الشرطة المحلية. يعرف جو الكثير منهم. أفضّل التعامل مع الشرطة المحليّة أكثر من الفيدراليين. سأجري بعض الاتصالات أيضاً، مع العمدة، النواب، المحققين. إنهم يغطّون نصف الولايات المتحدة تقريباً. أريد أن أرسل لهم تفاصيل ورقة الدولار - سنرى إذا كان هناك ما يفيدنا». قالت هاربر.

رنّ هاتفي. إنها كريستين.

«مرحباً، اسمع، أنا في المدينة. اضطررت للخروج لمقابلة بعض الأصدقاء القدامى. وعندما عدت إلى البيت، لم تعد لدي رغبة بإعداد العشاء. ما رأيك ببعض الأطباق الصينية؟»

«بالتأكيد، لم أكن أعرف أنك قادمة إلى مانهاتن».

«لم أعمل هذا اليوم، لذا قررت أن أذهب للقاء بعض الأشخاص. لا أريد أن أخبرك بتحرّكاتي يا إيدي».

«آسف، ليس هذا ما قصدته. أنا.... انظري، تبدو فكرة العشاء رائعة. ظننت فقط أنه من الممكن أن أرى «إيمي» هذه الليلة».

«حسناً، عليك أن تكتفي بي. هل نلتقي في المكان المعتاد؟ بعد ساعة؟»

أعرف أنه من الأفضل عدم الجدال. تسيطر كريستين تماماً على الوقت الذي أمضيه مع إيمي - ولم تكن لدي القدرة على الشجار لأنه سيزيد الأمر سوءاً وحسب. لا، أحتاج أن أترك انطباعاً جيداً هذه الليلة. لدي الآن طريق للخروج من الحياة التي أعيشها. عمل ثابت مع رودي. لا وجود لقضايا خطيرة. لا عملاء من المرضى النفسيين. ولا داعي للقلق من وجود مخبولين يستهدفون عائلتي للوصول إلي. هذا ما رغبت به كريستين للعائلة دائماً، وهو ما رغبت به دوماً.

«بالتأكيد، أراك هناك» أجبتها.

لدي وقت لإخراج سيارتي من الحجز. لم أرغب بأن أتركها هناك لفترة أطول، لقد خططت لأخذها هذا المساء لأقوده إلى «ريفرهيد»، وتناول العشاء مع إيمي وكريستين.

أوقفت سيارة أجرة واتجهنا شمالاً. كانت ساعة الذروة. في الطريق إلى الرصيف البحري السادس والسبعين. موقف سيارات مانهاتن. وجدت المحاسب فأعطيته التذكرة ودفعت الغرامة، أعطاني المفاتيح ورقم الموقع وخريطة إرشادية. عندما عثرت أخيراً على سيارتي الموستانغ، كان كيس»ماكدونالد» لا يزال تحت ماسحات الزجاج. مزّقته وألقيته على المقعد الخلفي، ولعنت المحقق الأحمق «غرانجر».

الحقير!

بعد نصف ساعة، كنت أقود سيارتي متجهاً إلى تشاينا تاون. ركنتها وهرولت مسافة شارعين وصولاً إلى شارع «دوير». لا يبدو مطعم «نوم واه تي بارلور» جيداً من الخارج. ولم يكن أفضل من الداخل أيضاً. حجرات من الفينيل الأحمر، وطاولات من الفورميكا. تم وضع العشاء لكن الفرق الوحيد كان وجود العيدان الصينية على طبق جانبي بدل الشوكة والسكين. لا وجود لأي شيء مميز. لكن بغضّ النظر عن الطعام، والتاريخ، إذ نشأ تشاينا تاون حول هذا المكان. فقد تم افتتاحه عام (١٩٢٠)، وتُقدّم فيه أطباق فطائر محشوة بأطعمة مختلفة لا يمكن لأي شخص آخر في المدينة كلها أن يطهو مثلها.

وصلت متأخراً، وكانت كريستين قد اتخذت موقعاً وطلبت كوباً من الشاي. لم تبتسم عندما رأتني، لكنها لوّحت بالعيدان الصينية وحوّلت انتباهها ثانية إلى الفطائر وصلصة الصويا. كنت ألهث قليلاً لأنني ركضت في طريقي إلى هنا. شعرت بانكماش معدتي فأدركت أنني كنت متوتراً. أردت إخبارها عن عملي في «كارب لو» لكنني لم أعرف كيف أفعل ذلك. كان فمي جافاً، ويخالجني شعور مشابه لما شعرت به في موعدنا الأول، إنه الخوف. عرفت عندما قابلتها للمرة الأولى أنها كانت استثنائية جداً، ولا ينبغي أن أفسد الأمر. لكنني أفسدته بما يكفي حتى الآن. وهذه هي الفرصة الأخيرة.

لقد قصّت شعرها. ذلك الشعر البني الداكن الناعم الذي كنت أعرفه جيداً، أصبح الآن قصيراً متدرّجاً. بدت مختلفة؛ بشرتها مائلة إلى السمرة أكثر من ذي قبل. جلست أمامها، وأحضر لي النادل كوباً من البيرة دون أن أطلبه.

«سمعت أنك عدت إلى الشرب مجدداً»، قال كريستين.

«انتظري لحظة، آسف لهذا التأخير. أنا لم أطلب البيرة، أنت طلبتها».

«أخبرني هاري بذلك. يقول إنك تسيطر على الموقف. وأن القليل منه كل حين، أفضل من قضم أظافرك وأنت تفكّر بأنك لن تعود إلى الشرب مجدداً»، قالت ذلك بعفوية بينما كانت تتناول الفطائر المقلية.

رفعت يديّ مستسلماً.

«مرحباً، أنا أسف جداً لتأخري. هل نستطيع أن نبدأ من جديد؟»

«أخذت كريستين رشفة من الشاي، واستندت ومسحت شفتيها بمنديل. ثم حدّقت بي ولوّحت بيدها وقالت: «أنا غريبة الأطوار قليلاً هذا اليوم. كيف تسير الأمور؟»

أخبرتها بقضية سولومون. غضبت في البداية. عقدت حاجبيها وتورّد عنقها. كنت أعرف كل ما ستقوله.

«ظننت أنه من المفترض بك أن تركن إلى الهدوء، وتبقى بعيداً عن الأضواء. هذا النوع من القضايا يجذب الاهتمام. ونحن نعرف أن هذا النوع من الاهتمام خطير عادة».

إنها نقطة هامة. وهي السبب في أننا لم نعد معاً. لقد جلبت وظيفتي المتاعب. وكانت عائلتي هامة جداً بالنسبة إلي. وإذا أصابهم أي مكروه بسببي، فلن أعرف ما الذي يجب فعله. اقتربنا كثيراً من حدوث ورطات سابقاً. وعانت ابنتنا بسبب ذلك.

«هذه ليست قضية خطيرة. وهي فرصة بالنسبة إلي. سأخبرك بالأمر، لكنك لم تقولي أي شيء عن أحوال إيمي. أريد أن أسمع كل شيء».

«إنها رائعة يا إيدي، اجتازت اختبار الرياضيات بعد أن كانت قلقة بشأنه. وتعرّفت على صديق جديد في نادي الشطرنج. إنه صبي، لكنهما أصدقاء وحسب، حتى الآن. إنها سعيدة، ويبدو أنها مُعجبة بكيفن....»

كيفن. أصبحت كريستين على معرفة جيدة برئيسها في العمل. لقد ساعدها على الاستقرار في ريفرهيد، وعرّفها على أفضل الناس في المدينة. حتى إنه ساعدها ببعض الأعمال اليدوية في شقتها. لم ألتق به من قبل، لكن كان لدي رغبة قوية بأن ألكمه في وجهه.

«جيد. يُسعدني ذلك. هل ما زالت تقرأ؟»

«كل ليلة. حتى إنها تقرأ بعض الروايات البوليسية التافهة التي لا تزال تقدمها لها».

أومأت برأسي. هذا يمنحني شعوراً جيداً. أراهن أن كيفن يقرأ كتباً حول الإجراءات القانونية وتاريخ التكييف الهوائي. لطالما كان لي ولإيمي الذوق ذاته في اختيار الكتب.

تناولت بعض الطعام وتجاهلت كوب البيرة. كنت أقتنص المزيد من الوقت. أحاول التحلّي بالشجاعة للحديث عن علاقتنا. لقد انفصلنا منذ فترة طويلة. وبعد فترة من الانفصال، تتوقف عن الحديث عن تصحيح الأمور - أمر مؤلم جداً. لكن ثمة أمور توشك أن تتغير في حياتي. إنها فرصتي لتحسين وضعي. عمل من هذا النوع هو كل ما كنا نريده. الاستقرار والسلامة، وأن أعود إلى المنزل يومياً لتناول العشاء دون أن أقلق بشأن من سيرفس على الباب الأمامي.

لا أعرف كيف سأقول ذلك. الطعام خلق لديّ شعوراً بالمرض، كنت أشعر بقطرات العرق على جبهتي.

«حصلت على وظيفة»، قلت ذلك بشكل ملطّف. «في شركة «كارب لو». في الدعاوى القضائية الاعتيادية وبعض الأعمال الجنائية. ليس هناك خطورة ولا إثارة للجدل. ساعات العمل من التاسعة إلى الخامسة، والأجر جيد. سوف أترك هذا العمل يا كريستين. وقضية سولومون هي آخر قضية كبيرة لدي. أريد منك أن تعودي إلى المنزل مع إيمي. يمكننا استعادة مكاننا القديم في كوينز....»

تبللت عيناها بالدموع وارتعشت شفتاها.

«أو يمكننا الحصول على مكان جديد، وبداية جديدة. أستطيع الآن أن أكون سنداً لك ولإيمي. لن تحتاجي إلى العمل. سيكون الأمر كما رغبنا دوماً. نستطيع أن نكون عائلة مرة أخرى».

مسحت دمعة عن خدّها، ورمتني بالمنديل.

«لقد انتظرتك. في كل تلك الأمور السيئة التي تورّطت بها، من الشرب، إلى دورات العلاج من الإدمان، انتظرتك. وبعدها كل تلك القضايا يا إيدي. لقد اتخذت قرارك. جعلنا عملك نقف على خط النار. والآن بعد أن أنهيتَ كل ذلك، يُفترض بي أن أعود راكضة؟»

«ليس الأمر على هذا النحو، يأتي الناس إليّ وهم بحاجة إلى مساعدة؛ لا أستطيع أن أطردهم. أي نوع من الرجال أكون إذا تركتهم يدخلون السجن؟ لن أسامح نفسي إذا سمحت بحدوث ذلك. أنا لم أختر ذلك، ولم يكن لي خيار أبداً».

«لكنني أستطيع أن أختار؛ لم أرغب بكل هذا... هذه الحياة. أنا لا أريد زوجاً يبقى بعيداً عن عائلته في حال تعرّضت للأذى. حاولت يا إيدي. وانتظرت حتى سئمت الانتظار....»

«ليس عليك الانتظار. أخبرتك بأنني حصلت على عمل. إنه آمن. يمكن أن نعيد الأمور إلى ما كانت عليه».

ليس هناك عودة. لقد سئمت من ذلك. أردتك أن تزورني في البيت وترى إيمي هذه الليلة، لكنني عرفت بعد ظهر هذا اليوم أنه يجب عليّ أن أخبرك، أنا لا أستطيع إخفاء هذا الأمر بعد الآن. وقررت أن أقابلك هنا لأنني لا أريد لإيمي أن ترى ذلك. لقد اكتفيت يا إيدي، اكتفيت من الانتظار. أنا ألتقي بكيفن بشكل دائم. ويريدنا أن ننتقل للعيش معه».

في تلك اللحظة تحديداً، لم أعد إلى طاولة واحدة مع كريستين. ولم أعد أجلس في «مطعم الشاي»، لم أعد حتى في تشاينا تاون. في تلك اللحظة تحديداً رأيت ما كنت أخشاه تحديداً، وما كنت أحلم به منذ أشهر: تبقع جثّتي أمام مبنى «أمباير ستيت». وتقف كريستين في المرصد على ارتفاع ستة وثمانين طابقاً، تلتقط خاتم الزواج من حقيبتها وتقذفه فوق الحاجز. استلقيت على الرصيف وعرفت أنه قادم. أسرع وأسرع. عصابة «غولد» تتجه نحوي. ومع اقترابها مني، استطعت رؤيتها. لم أستطع التحرّك ولا التنفّس، وكل ما استطعت فعله هو غرس أظافري بين بلاطات الرصيف والانتظار.

ثم تلقيت ضربة على صدري واستيقظت.

أشعر الآن بألم حقيقي، ألم شديد مرعب يخطف أنفاسي. رأيته قادماً. وهو ما جعل الأمر أسوأ.

«لا تفعلي...!»

«لقد اتخذت قراري يا إيدي. آنا آسفة»، قالت ذلك وبدا صوتها بارداً.

«آسف، آسف جداً جداً، إن الأمور تتغير، وأنا سوف أتغير. هذا العمل الجديد.....» لكن الكلمات توقفت في حنجرتي، لقد فقدتها فعلاً. استيقظ شيء ما في داخلي. سأقاوم هذا الألم كله بالكحول. لقد عاد إلى الحياة صاخباً، وهو ما جعلني أقاتل.

«إنه لا يحبك كما أحبك».

سحبت كريستين بعض الأوراق النقدية ووضعتها على الطاولة، وأبقت يدها فوقها للحظة. كانت مترددة، لكن ليس بشأن النقود. لم أجرؤ على نطق كلمة واحدة. عرفت أنها لا تزال تحبّني في جزء من أعماقها؛ لقد تشاركنا الكثير من الأشياء، رَمَشت بعينيها بسرعة وهزّت رأسها. نهضت كريستين، وانسلّت بعيداً عن الطاولة وقالت: «كيفن يحبني. وأنا أعرف ذلك. وسوف يعتني بإيمي، وبي أيضاً. لا تتصل أبداً - ليس في هذه الفترة».

تهيأتُ للمغادرة، مددت يدي بسرعة وأمسكتها من المعصم، توقفت. يا له من تصرّف أحمق! فتركتها تذهب.

أصغيت إلى نقرات كعبها على الأرض وهي تغادر. كان الصوت يخفت كلما ابتعدت. نظرت إلى كوب البيرة أمامي على الطاولة، «ميلر كولد غولدن». كانت قطرات الماء المتكاثفة تنحدر إلى أسفل الزجاجة. أردت أن أشربه. وأشرب عشرة أكواب أخرى، ثم فودكا، ثم ويسكي، أحتاج إلى ذلك كله لتخفيف الألم. حالما أمسكت الزجاجة بيدي ورفعتها إلى شفتي، لمحته فوق النقود التي تركتها كريستين على الطاولة.

كان الخاتم الذهبي فوق النقود.

أعدت الزجاجة إلى الطاولة. وفركت جبيني. شعرت كما لو أن قطار شحن يعبر كل وريد من أوردتي.

نهضت فأخذت الخاتم ووضعته في جيبي.

قادتني قدماي إلى سيارتي. لم أرفع ناظري، ولا لمرة واحدة، طوال طريقي إلى موقف السيارات. عندما ركبت السيارة وقمت بتشغيل المحرك، لم أعد أتذكر أي شيء عن خروجي من المطعم. شعرت بالمرض. بدوت كمن ابتلع بالوناً ضخماً جداً لا يستطيع تقيؤه.

بدت قيادتي للسيارة إلى الشارع السادس والأربعين وكأنها تحدث بطريقة اعتيادية. انعطفت في الطريق، دون أن أعرف حقيقة كيف وصلت إلى هناك، ولا ما استغرقته من وقت في القيادة. ركنت السيارة خارج المكتب ترجلت. تُصدر المفاتيح في جيب معطفي رنيناً معدنياً بينما كنت أسير نحو الدرج المؤدي إلى مكتبي. أخفض رأسي. تتساقط أنفاسي كطبقات ضباب بارد على قدمي.

لم أر المحقق غرانجر حتى دفعني بقوة إلى الخلف.

تعثّرت، لكنني تدبّرت أمري كي أبقى على قدمي. أقفِلَت أبواب السيارة. هناك العديد منهم. نظرت حولي. ثلاثة رجال ضخام البنية عن يساري، واثنان عن يميني. وأحد الرجلين من جهة اليمين كان يحمل هراوة الشرطة. تراجع غرانجر إلى الخلف، وصعد الدرج، وأبقى نظراته باتجاهي. كانوا بانتظاري. ومع أنها كانت لمحة بسيطة لكل منهم إلا أنني عرفت مباشرة أنهم من الشرطة، حتى قبل أن أرى الهراوة. طريقة وقوفهم، ملابسهم، سراويل الجينز، والأحذية. القمصان المدسوسة في السراويل، السترات الفضفاضة لإخفاء جعبة المسدس.

حركت كتفي وتخلّصت من معطفي الثقيل. قد تكون الريح الباردة أو الخوف هو ما يجعل الأدرينالين يتدفّق في جسدي، لكنني بدأت أرتعش. يمكنني أن أشعر بقبضي وهي ترتجف.

أسمع صوت تحطيم زجاج خلفي. أصابت الشظايا رأسي، وعرفت أن أحدهم قد أرسل بالهراوة باتجاه سيارتي.

بدا صوت غرانجر دافئاً. لقد انتظر ثمان وأربعين ساعة من أجل ذلك، ولم يستطع أن يخفي رضاه عن الأمر من خلال الكلمات الثلاث التي قالها.

«ليس في الوجه».

ابن السافلة.

لم أكن أنتظر ذلك. كان يحدث وحسب. كنت أستطيع أن أهرب إلا أنني لن أبتعد كثيراً، وهم لا يريدون قتلي، لكن ربما يفعلون ذلك إذا هربت؛ رصاصة في الخلف. لم يتوقف المشتبه به بعد أن تلقّى تحذيراً.

تحدث هذه الأمور على مدار الوقت. أهلاً بك في نيويورك.

كان صوتَ الشرطي القائد للمجموعة على يميني. رجل ضخم ذو شعر قصير وعيون صغيرة داكنة، ولديه شارب عريض ورقبة قصيرة. قبضته ضخمة جداً، ويزيدني بثلاث بوصات طولاً، وربما يزيد رفاقه بأربع أو خمس بوصات. إنه أضخم أفراد المجموعة. شخص قوي حقاً.

سحب قبضته اليمنى فبرز مرفقه خلف كتفه كما لو أنه يوشك أن يضرب مشتبهاً به بذراعه القوية. أصبحت عيناه أصغر عندما زمجر. ارتدّت شفتاه فوق أسنانه المنكمشة بينما انحسر الآخرون إلى الخلف مكتفين بالمشاهدة.

رأيته يُثني ركبتيه. كانت تلك اللكمة موجهة إلى معدتي. ضربة قوية أخرجتني من اللعبة. كان الآخرون يطؤون صدري، وركبتيّ، ومن ثم كاحلي. وبعد نصف ساعة أخرى كانوا جميعاً يحتسون البيرة الباردة ويضحكون عليّ. كان «غرانجر» في الخلف. يستعيد اللحظة التي علّموني فيها درساً لن أنساه أبداً.

ليس هذه الليلة. لا يمكن.

تراجعت إلى الخلف بينما سدد ذلك الجبان الكبير قبضته إليّ. ربما كان قوياً جداً لكنه كان بطيئاً أيضاً. لم يكن ذلك هاماً في الواقع، فالعضلات ستقوم بعملها، ولن تحتاج إلى الكثير من السرعة عندما يكون خلف اللكمة ذلك الوزن الثقيل.

كنت محظوظاً.

كنت أتمرّن على الملاكمة ستة أيام في الأسبوع، في «هيلز كيتشن» لمدة ست سنوات في أقوى صالات الملاكمة الإيرلندية في الحي. ما يعني أنها أقوى صالات الملاكمة في نيويورك.

أطلقتُ يدي اليمنى بسرعة كبيرة وسددت لكمة مفاجئة. بينما كنت أتحرّك خارج دائرة هؤلاء الرجال. لم يستطع ذلك الضخم رؤيتها. لم أحرّك وركي، ولم يكن ثمة وزن ثقيل خلفها. لم أكن بحاجة لذلك. كان لدي الوقت لاختيار موقعي، وكان ذلك كافياً. كانت اللكمة القوية لهدف سهل. كنت أعرف أين تتجه، ومدى قساوتها وسرعتها. حافظت على قبضتي بالاتجاه العمودي. كما لو أنني أؤدي التحيّة الوديّة حيث تواجه قبضتان إحداهما الأخرى. كان معصمي نحو الأسفل قليلاً. وثمة خط مستقيم يربط ما بين مفصل إصبعي الأوسط والمرفق. قاعدة عظمية صلبة تشكلت بزاوية تجعلها تحتمل الصدمات دون وقوع أي ضرر.

كان الضرر كله يتحوّل إلى الجهة المعاكسة. لقد حطّم مفصل إصبعي الأوسط إصبعه الخامس: مفصل إصبعه الصغير، وهو ما أصدر صوتاً فظيعاً. بدا الأمر كما لو أن الرجل الضخم حاول أن يسدد قبضته إليّ واصطدم إصبعه الصغير بزاوية جدار من القرميد. سمع رجال الشرطة جميعهم صوت انسحاق العظم، وتمزّق الأربطة، والكسور التي تتضاعف في معصم الرجل الضخم. بدا الأمر وكأن مطرقة تضرب كيساً من الفستق.

رفع الضخم يده المكسورة ليحمي وجهه، وارتدّ إلى الخلف بينما اقتربت اللكمة من جسده. ثم صدمته.

خطوت للأمام وضربته بكامل قوة قبضتي اليسرى على أضلاعه. كان لكمة قوية أسقطته أرضاً على الرصيف. اتخذت وضعية الاستعداد للرجل التالي.

فات الأوان. سمعت صوت الهراوة تهوي إلى جانب رأسي قبل أن أشعر بالإصابة. رأيت الرصيف يقترب مني فمددت يدي لأوقف سقوطي. تمايلت فرقة «غولد» أمام عيني. وسقط خاتم كريستين من جيبي. سمعت رنينه الناعم بينما كان يتدحرج على الرصيف. حاولت يائساً الوصول إليه. حتى كدت أسحق وجهي سعياً خلفه. لكنني لم أسقط على الرصيف. أصبحت الرؤية ضبابية، وتحرّكت دوامة أمام عيني ثم اختفت.

فقدت الوعي قبل أن أصطدم بالأرض.

الفصل الخامس والعشرون

أزعجني ذلك النور المسلّط على عيني بشدّة، وشعرت كما لو أنني تلقيت طعنة في الرأس بمعول من الجليد. انطفأ الضوء وأصبحت الرؤية ضبابية أمامي. شعرت بساقي باردة ورطبة، وقميصي أيضاً. كُنت مستلقياً على أريكة، وأحدهم يلوّح فوقي. سطعت مصابيح الإضاءة مجدداً أمام عيني فأغلقتهما. لكن أصابع حاولت فتحهما ثانية، فسطع النور في كل منهما فشتمت.

«كما تعرف يا إيدي، بدأت أظن أن مهنة القانون ليست مناسبة لك»، قال هاري فورد. أطفأ هاري الضوء وابتعد. كنت على الأريكة في مكتبي.

لديك ورم بحجم بيضة في مؤخرة رأسك. وأظن أن لديك ضلعاً مكسوراً واحداً على الأقل. هناك استجابة في الحدقتين، وهما متساويتان. لم تتقيأ، ولا يوجد دم في أنفك أو أذنيك. ستشعر بأن حصاناً ركلك في رأسك، وقد تُصاب بارتجاج خفيف، وعدا عن ذلك، أنت مازلت على الحالة القذرة ذاتها التي كنت عليها البارحة».

بدأ هاري عمله كمُسعف في فييتنام، وكان في السادسة عشرة من العمر. أما البطاقة الشخصية التي قدّمها كي يُدرِج اسمه في القوائم تقول إنه في الحادية والعشرين من عمره. سرعان ما ارتقى في سلم المراتب، وأنهى مسيرة مميزة في الجيش ليبدأ مهنة مجزية أكثر في مجال القانون. لا أعرف غيره قاضياً يستطيع أن يفكك بندقية (إم - ١٦) ويعيد تركيبها بعد أن يحتسي زجاجة من الويسكي.

قال هاري رافعاً ثلاثة أصابع: «كم عدد هؤلاء؟»

«ثلاثة».

«في أي يوم من الأيام نحن؟»

«الثلاثاء».

«من هو رئيس الولايات المتحدة؟»

«أحد الحمقى».

«هذا صحيح».

حاولت أن أجلس إلا أن الغرفة دارت حولي. فأرجعت رأسي للخلف وقررت الجلوس قدر ما أستطيع.

«أين وجدتني؟»

«في الخارج. اعترضت طريقي سيارة «إسكالاد» سوداء بينما كنت أدخل، انطلق ذلك الشيء اللعين مثل سيارة الهروب. ركنت السيارة ووجدتك. كنت سأطلب الإسعاف لكنني فحصتك ووجدت أنك بخير. هل تذكر كلامك معي وأنت في الشارع؟»

«لا. ماذا قلت؟»

«طلبت مني أن أجد هذا»

كان هاري يحمل خاتم زواجي بيده.

هذه المرة تدبرت أمري لكي أجلس. يكاد الألم في جانبي يقتلني. وضع هاري الخاتم على الطاولة وأحضر كوبين من القهوة. رأيت زجاجة ويسكي على الطاولة، لا تزال في كيس ورقي.

«شكراً يا هاري».

«لا تشكرني. اتصلت كريستين لتخبرني بما حدث. هل يمكنك أن تخبرني كيف انتهى الأمر بك في الشارع؟ هل تعاركت مع أحدهم في الحانة، أو شيء من هذا القبيل؟»

«الأمر معقد جداً».

«لو لم يكن الأمر كذلك لخاب أملي. أخبرني بما حدث فعلاً بحق الجحيم؟»

«تعرّضت لهجوم من مجموعة عناصر من الشرطة. كان لدي مشكلة في الأمس مع محقق يُدعى غرانجر. ولم يتقبّل الوضع كما يجب. لا بدّ أنه تلقّى بلاغاً من مركز حجز السيارات يفيد بأنني أخذت سيارتي، فذهب إلى مكتبي مع عصابة من الشرطة وانتظرني».

«لا يعجبني ما أسمعه. عليك أن تتحدث إلى...».

«من؟ شرطي؟ سأعالج الأمر بنفسي»، قلت له.

فتح هاري زجاجة الويسكي وملأ كأساً لكل منا. كان كل نفس أستنشقه يرسل دفقاً من الألم من جانبي إلى رأسي الذي يؤلمني سلفاً. تناولت كأساً كبيراً، وأعدته إلى الطاولة فارغاً. ملأه هاري مرة أخرى فشربته، ثم ملأه مجدداً.

«هوّن عليك»، قال لي.

استلقيت وأغلقت عيني. وتركت دماغي يهدأ. عرفت أنني أسير إلى النهاية؛ انهار زواجي في نهاية المطاف، ويوشك جسدي أن ينهار أيضاً. إذا لم أسيطر على رأسي، فسوف أفقده. بعد دقائق، خف الألم في جمجمتي، لكن جانبي بقي على حاله. ظننت أن غرانجر شعر بالرعب عندما تلقيت ضربة الهراوة في رأسي وسقطت؛ أرادوا أن يلحقوا الأذى بي؛ وليس قتلي. ركلة قوية في الأضلاع ثم يوقف غرانجر الأمر كله. لم أشعر بذلك، لكنني أعرف أنني كنت محظوظاً.

كان هناك صورة لإيمي وكريستين في محفظتي. أردت إخراجها لأتمعّن بها، ثم أحطم مكتبي بالكامل.

شربت المزيد من الويسكي. عرفت أنني بحاجة للبدء بالتفكير في القضية. كان عليّ أن أنحّي كريستين من ذهني في الوقت الحالي على الأقل. وبعد ذلك، عندما أنتهي من القضية، يكون الوقت قد تأخر. أحتاج إلى وقت، وهي تحتاج إلى وقت. لقد فكّرت لأمد طويل قبل أن تضع الخاتم على رزمة النقود في المطعم. ربما، ربما أستطيع دفعها لتغيير رأيها. ربما لا تزال هناك فرصة لاسترجاعها. كان عليّ أن أؤمن بذلك، وأنا أؤمن بذلك حقاً. لكن عليّ الانتظار حتى تنتهي القضية. إنها القضية؛ تأخذ كل وقتي، رفعت رأسي وفتحت عيني.

«لا يجب أن تكون هنا. ستُصاب النائبة العامة بنوبة إذا عرفت أين كنت».

تعرف «مريام سوليفان» أنني هنا؛ اتصلت بها قبل مجيئي. نحن لن نناقش القضية، كما أنك لم تظهر بشكل رسمي أمام المحكمة حتى الآن. إذاً ليس هناك من مشكلة رسمية. لقد مرّت بحالة طلاق، وهي تتفهم الأمر. إنها بخير، ولن تدع «آرت بريور» يستفيد من ذلك أيضاً. لكن انظر، لا تقلق بهذا الشأن. أتريد التحدث عن كريستين؟»

لا أريد. لا أستطيع.

قلت بعد برهة، هل عيّنت «مريام» «آرت بريور» من أجل هذا؟»

«نعم. ألم تقابله من قبل؟»

«لا. أعرفه من سمعته فقط».

مع ازدحام مكاتب النائب العام بالحد الأقصى من ملفات القضايا، وتسليم كبار مساعدي المحامين القضايا الاعتيادية، ومعالجتهم للقضايا الكبيرة المعقّدة من حين لآخر، ظهرت نتائج كارثية. لم يتمكنوا من معالجة ملفاتهم الخاصة، وتكريس الوقت اللازم للقضايا الكبيرة. لذلك استخدم المكتب عدداً أكبر من الموظفين، أو كان عليهم أن يناضلوا ويتصالحوا مع حقيقة إمكانية خسارة الكثير من الادعاءات الكبيرة لأنها لم تحظ بالاهتمام المناسب. وبعد ذلك، عندما قام مساعد النائب العام بمعجزة، ربح قضية كبيرة - في غضون بضع سنوات، قرر هذه المساعد ذاته أن يترشح للمنصب، ويحصل على وظيفة النائب العام.

كان الرهان الآمن الوحيد هو إحضار شخص يعمل لحسابه الخاص. وكان «آرت بريور» أفضل الخيارات؛ إذ لديه رخصة تخوّله العمل بالقانون في ما يقارب العشرين ولاية، ويعمل فقط بقضايا جرائم القتل. وكان ينجح بملاحقة المُدان ويفوز. لقد أتى إلى هذه المدينة مقابل سعر مناسب. يمكن للنائب العام أن يترك جميع محامي الادعاء يعملون بالقضايا الاعتيادية - يمكن لواحد أو اثنين أن يساعدا آرت، ثم ينجح آرت بالإدانة، وبعدها يضع قبّعته على رأسه ويغادر المدينة بحثاً عن القضية التالية دون أن يزعج أي شخص. كان جيداً أيضاً. يعالج آرت دعاوى إطلاق النار.

معظم محامي الادعاء في قضايا القتل، يحشدون منصّة الشهود بكل شرطي وخبير ومحلل سلوكي ونفسي وجنائي يمكن أن يخطر بأذهانهم. إذا أوقف شرطي سيارته في مسرح الجريمة لإيصال الكعك إلى زملائه الذين لم يحصلوا على استراحة بعد أربع ساعات من العمل، يمكنك أن تراهن بكل ما لديك على أن النائب العام سوف يدعوه للشهادة.

كان آرت بريور على النقيض من ذلك. لقد حقق في جريمة قتل في تينيسي، منذ ما يقارب عشر سنوات. وكان من المقرر أن تستمرّ المحاكمة ستة أسابيع. لكن «آرت» استطاع أن يُثبت أن المُتهم مُذنب في غضون أربعة أيام. لم يستدعِ سوى الشهود الأساسيين، ولم يتركهم ينتظرون على المنصّة مدة طويلة. يعتقد الكثير من المحامين أنها ممارسة خطيرة، ومع ذلك ينجح الأمر دائماً مع بريور.

في المرّة الأولى التي سمعت بها عن تلك القضية كانت من مدّعي شاب قال إنه يرغب بأن يجرّب أسلوب بريور. لقد وصفه بالشخص الثوري. لا يسعني سوى أن أحرر هذا الرجل من وهم مفاهيمه المتغطرسة. انظر، يتقاضى بريور أتعاباً ثابتة. وسواء بقيت المحاكمة ستة أشهر أم ست ساعات، سيحصل بريور على الأتعاب ذاتها. لماذا أعمل ستة أشهر بينما يمكنني الحصول على المبلغ ذاته إذا كسبت القضية خلال نصف هذه المدة؟.

لم يكن آرت بريور صاحب أسلوب قانوني. كان رجل أعمال.

«أعرف أن لدى آرت مكانة مرموقة لدى هيئات المحلفين طيبي القلب. إنها لهجته الجنوبية. وسكان نيويورك يحبونها. لكن لا يخدعنّك الأمر. قد يلعب آرت دور الريفي الحكيم - غير أنه يدمّر بقدميه. لا أستطيع أن أتحدث عن أدلّة في هذه القضية، لكن عليك أن تسأل رودي عن إزاحة بريور لأحد المحلّفين المحتملين اليوم. كان عرضاً بارعاً، إنه شخص محترف جداً»، قال هاري.

تناولت كوباً آخر من الويسكي، كان الألم يتلاشى. أمسك هاري بكأسي الفارغة وأبعدها.

«هذا أكثر من كافٍ لهذه الليلة. تذكّر اتفاقنا: متى ستتوقف».

أومأت برأسي. كان هاري على حق. أستطيع التعامل مع كمية عادية من الشراب، لكن فقط بحضور هاري. وفجأة لم أعد أفكر بالويسكي، أصبح دماغي غارقاً ببريور.

«هل هو أفضل مني؟» سألته.

«أعتقد أننا سنكتشف ذلك»، قال هاري.

الأربعاء

الفصل السادس والعشرون

لم يستطع كين النوم.

كانت التوقعات كبيرة جداً. يئس من محاولات النوم بعد الساعة الرابعة صباحاً، فقام بممارسة التمارين الرياضية مدّة ساعتين.

تمرين الضغط خمسمئة مرة. تمرين المعدة ألف مرة. تمرين شدّ الجسم مدة عشرين دقيقة.

وقف أمام المرآة والعرق يغطي رأسه وصدره. وأخذ ما يكفي من الوقت في تفحّص هيئته في المرآة. علية أن يتحمّل الوزن الإضافي إذ لا فائدة من الشعور بالحزن حيال ذلك. إنه يلعب دوراً معيناً قبل كل شيء. كانت عضلات ذراعيه قوية ومتينة. منذ أن كان في الثامنة عشرة، بدأ يذهب إلى الصالة الرياضية. وبسبب حالته، لم يكن يعاني من الأوجاع والآلام التي ترافق رفع الأثقال عادة. كان يأكل بالطريقة الصحيحة ويتمرّن كثيراً بشكل يومي. وخلال سنوات قليلة، كان قد بنى جسداً مناسباً لأهدافه؛ جسداً قوياً سليماً صحياً وخالٍ من الدهون. كانت علامات نموه تضايقه في البداية؛ إذ كان يبني عضلاته بسرعة تفوق نمو جلده، إلا أنه أحبّها مع الوقت. كانت بمثابة تذكير بإنجازاته.

نظر إلى صدره، وفرك جرحه الأخير. كان جرحاً بطول نصف بوصة على عضلات الجهة اليمنى من صدره، وما زال الجرح أرجوانياً وناتئاً. بعد ستة أشهر أخرى سيختفي اللون منه ويصبح مثل بقية الجروح. كانت ذكرى الجرح لا تزال قوية مما جعله يبتسم.

فتح الستائر وحدق في عتمة الليل؛ لقد أوشك الفجر على البزوغ، ولا وجود لأي شخص في الشارع. بقيت نوافذ المباني المقابلة مظلمة وساكنة. انحنى قليلاً ورفع المقبض ليفتح النافذة، فسفع الهواء القارس جسده كموجة باردة من المحيط الأطلسي. وعلى الفور، تلاشى التعب الناتج عن مضي ليلة كاملة بلا نوم. بدأ يرتعش، لم يكن يعرف ما إذا كان ذلك بسبب النسيم الجليدي أو بسبب الشعور بالانعتاق بعد وقوفه عارياً أمام المدينة. لقد سمح لمدينة

نيويورك أن تراه بهيئته الحقيقية؛ دون ماكياج، ودون شعر مستعار، بل كما هو فعلاً؛ «جوشوا كين».

لأمد طويل تخيّل أنه يكشف نفسه للعالم، يكشف ذاته الحقيقية. هو يعلم أنه لم يوجد شخص مثله من قبل. لقد درس علم النفس والطب النفسي واختلال الوظائف العصبية، لكنه لم يرَ أي تشخيص ينطبق عليه؛ هو لا يسمع أصواتاً، ولا تراوده أحلام. وليس لديه قصام ولا جنون الارتياب. ولم يُعتدَ عليه في الطفولة.

مريض نفسياً، ربما؟ لم يكن لديه شعور نحو الآخرين، ولم تكن لديه صلات قربى ولا تعاطف. لأنه وبحسب آلية كين العقلية، لا ضرورة لمثل هذه الأشياء. ليس لديه حاجة للشعور بأي شيء تجاه أي شخص لأنه لم يكن كأي شخص آخر؛ كانوا جميعاً أدنى منه؛ كان مميزاً.

يتذكّر والدته وهي تخبره بذلك.

« أنت مميز يا جوش. أنت مختلف».

كم كانت محقّة! يقول كين لنفسه.

كان فريداً من نوعه.

لم يكن شعوره على هذا النحو دوماً، فالفخر في هذا التصريح لم يأتِ بسهولة. وهو لم يكن متكيّفاً في المدرسة، ولولا موهبته في التقليد وانتحال الشخصيات لما كان قادراً على التأقلم فيها. وكان اتباعه لنمط «جوني كارسون» هو ما جعله يحظى بموعد لحفل التخرّج من المدرسة الثانوية مع فتاة جميلة ذات شعر بني داكن تُدعى «جيني موسكي». كانت لطيفة حتى وهي تضع جهاز تقويم الأسنان. وغالباً ما كانت تتغيّب عن المدرسة بسبب التهاب اللوزتين. وعندما تعود إليها بعد نوبة مرض، يبقى صوتها مبحوحاً غالباً، مما أعطاها لقب «هاسكي ماسكي».

في ليلة حفل التخرّج، وفي سيارة والدته، كان يرتدي بزّة سهرة مُستأجرة، وقد ركن السيارة قرب منزل «جيني» وانتظرها، لم يدخل إلى المنزل، بل بقي في السيارة والمحرّك يعمل، وهو يقاوم رغبته بالابتعاد. لم يكن كين يشعر بالألم الجسدي، لكنه يعرف تماماً ما هو القلق والارتباك والخجل والإحراج. كان يعرف هذه المشاعر بشكل دقيق. وأخيراً، ترجّل من السيارة وطرق الباب، فظهر والدها ببنيته الضخمة وهو يدخّن سيجارة، ووجّه إليه تحذيراً

شديد اللهجة يتعلّق بالعناية بابنته، ثم ضحك وسعل عندما طلبت جيني من صديقها كين أن يؤدي دور «كارسون». كان والدها من أشد المعجبين ببرنامج «**ذا تونايت شو**».

كانت رحلة السيارة إلى حفل التخرج هادئة في معظمها، إذ لم يعرف كين ماذا يقول، وتحدثت جيني بسرعة فائقة، ثم صمتت، ثم تحدثت مرة أخرى بعصبية قبل أن يتسنّى له الوقت الكافي لاستيعاب ما قالته في المرة الأولى. هو كان مهتماً بالكتب، وهي لم تكن تقرأ. حتى إنها لم تقرأ كتاب كين المفضّل بعنوان «غاتسبي العظيم.

«ما هو غاتسبي؟» قالت جيني.

ربما بسبب الارتباك من حالة الصمت المحرج سألته جيني كيف اكتسب موهبة انتحال الشخصيات. فأجاب بأنه لا يعرف تماماً - إنه يراقب الشخص حتى يرى، أو يسمع، شيئاً يظن أنه جوهر هذا الشخص. هي لم تفهم الأمر فعلاً، لكنه لم يبالِ بذلك. كل ما كان يهمّه في تلك الليلة أنها كانت جميلة، وكانت برفقته.

في تلك الليلة مشى كين في حفل التخرّج ويده بيد جيني. كانت ترتدي ثوباً أزرق بينما ارتدى هو بزّة السهرة الرسمية غير اللائقة بمناسبة كهذه. واحتسيا مشروباً، وتناولا طعاماً سيئاً، وانفصلا بعد نصف ساعة. لم يكن يحب الرقص، وكان قلقاً بشأن الرقص معها قبل موعد الحفلة بأسابيع. إلا أنه لم يحظَ بفرصة مناسبة ليخبرها بأنه لا يستطيع الرقص ولا يريد ذلك. فقد كان سعيداً فقط بالتحدث معها.

بعد نصف ساعة أخرى رآها تقبّل «ريك تومسون»على منصة الرقص. كانت جيني فتاة كين. وأراد أن يذهب إليها ويُبعدها عن ريك لكنه لم يستطع. وبدلاً من ذلك، احتسى مشروباً حلواً، وجلس على كرسي بلاستيكي يراقب جيني طوال تلك الليلة. راقبها وهي تخرج مع ريك، وراقبها وهي تركب في سيارته. قاد السيارة خلفهما، وأبقى على مسافة تضمن عدم الريبة حتى وصلا إلى قمّة في «ملهولاند درايف»، وركنا السيارة في منطقة جميلة تطلّ على «لوس أنجلوس». راقبهما وهما يمارسان الحبّ في المقعد الخلفي. وعندئذٍ، قرر كين أنه لا يريد أن يرى المزيد.

أغلق كين النافذة على هذه الليلة، وعلى ماضيه. وعاد إلى غرفة النوم وفتح عدّة المكياج. كان قد وضع فيها بعض الملابس، فالقتيل الذي سلبه كين حياته لم يكن لديه الكثير من الملابس، لكن أشياء كهذه لا تهمّ كين.

بعد بضعِ ساعات ستبدأ المحاكمة التي حلم بها طوال حياته؛ إنها محاكمة مميزة، واهتمام الصحافة بها مميز جداً ويتجاوز كل أحلامه. وكل ما حدث قبل الآن كان مجرّد تدريب، فكل شيء أوصله إلى هذه النقطة.

وعد نفسه بأنه لن يفشل.

الفصل السابع والعشرون

حاول هاري معظم تلك الليلة أن يضع كيس ثلج على رأسي لكنه فشل، كان ذلك مؤلماً للغاية.

تحدثنا لساعات، غالباً عن كريستين وعني. وكان ذلك آخر ما أردت التحدث عنه - لكننا لم نتحدث عن القضية.

حوالي الساعة الثانية صباحاً، اتصل هاري بأحد موظفي المحكمة، فوصلَ بسيارة أجرة وأقلّه إلى منزله بالسيارة المكشوفة الخضراء التي ركنها أمام مكتبي. كان معتاداً على اصطحاب هاري بالسيارة - وحرص هاري على أن يردّ له كل معروف. سنُصاب أنا وهاري بصداع صباح الغد لأسباب مختلفة.

استيقظت في الخامسة صباحاً، وأنا ما زلت على الأريكة في مكتبي. جلبت ثلجاً من الثلاجة الصغيرة بجانب مكتبي ووضعته على الورم في مؤخرة رأسي. خفّ الورم قليلاً لكن الألم أيقظني بمجرّد أن لامست قطع الثلج الأولى جمجمتي.

استلقيت لفترة طويلة على الأريكة، فسيطرت زوجتي وابنتي على كل تفكيري. كان الخطأ كله خطئي، لقد أفسدت حياتي. فكّرت بأنه من الأفضل لكريستين وإيمي ألا أكون في حياتهما على الإطلاق. تستحق كريستين من هو أفضل مني، وكذلك إيمي.

مددت يدي إلى زجاجة الويسكي. مع أن هاري يأخذها معه عادة لكنه نسيها الليلة الماضية. أمسكتها وفتحت السدادة، لكنني توقفت قبل أن يرتطم السائل بأسفل الكوب. أعدت السدادة وتركت كأسي فارغاً.

هناك أشخاص يعتمدون علي. بوبي سولومون، هاري، رودي كارب. وهاربر أيضاً بطريقة ما. حتى أريبيلا بلوم وكارل توزر. أنا مدين لهما أكثر من الجميع. تتطلّب قضية موتهما حلاً بهذه الطريقة أو تلك. إذا كان سولومون مُذنباً فهو يستحق العقاب، وإذا كان بريئاً فعلى الشرطة العثور على القاتل الحقيقي. العدالة. الإجراءات القانونية.

إنه كلام فارغ، لكنه أفضل كلام فارغ لدينا.

نهضت ببطء، واتخذت طريقي إلى الحمام وملأت الحوض بالماء البارد. غمرت رأسي وأبقيته حتى شعرت بلسعة في وجنتي.

أيقظني ذلك الإحساس.

رنّ هاتفي. ظهر الاسم «Blow Me».

«هاربر، يجب أن تكوني نائمة الآن. هل وجدت شيئاً؟»

«من يستطيع أن ينام؟ بقيت مستيقظة طوال الليل. اقترح جو بعض الروابط. كنت أقرأ ملفات قضايا الجرائم المتعلّقة بورقة الدولار».

«هل حصلت على ملفات القضايا الثلاث؟»

«نعم. ليس فيها الكثير فعلاً. الشرطة الفيدرالية لم تحرر الملفات. ولهذا كان علينا الوصول إليها من خلال ديلاني. هكذا ذهبت مباشرة إلى المصدر؛ مكتب المباحث في سبرينغفيلد وويلمنغتون ومانشستر. اختلق جو حكاية حول إقامة دورة تدريبية تتعلّق بالتحقيق في مسرح الجريمة. إنها قضايا منتهية، ولا أحد يقلق بشأن مشاركة هذه الملفات عن بعد».

«هل تبيّن أي شيء جديد؟»

«لا شيء، لا روابط. وبحسب ما أراه، لم يلتقِ كلّ من «ديريك كاس، آني هايتور، وكارين هارفي» مع الآخر. ثمة سيرة ذاتية شاملة لكل ضحية. لا شيء يربط بين الضحايا سوى ورقة الدولار. والشرطة لم تفكّر بالدولارات في تلك الأثناء، لكنها احتفظت بها كلها. أنت تعرف كيف تعمل الشرطة؛ يقومون بمداهمة تتعلّق بالمخدرات، ويجدون حقيبة مليئة بالنقود - من المحتمل أن تصبح تلك القضية أقل أهمية عندما يتم حجزها كدليل. لكن إذا كان مسرح الجريمة يخصّ شخصية عامة - لا أحد يعبث بعشرة سنتات. ويتم حفظ كل شيء بشكل مثالي».

تنهدت، كنت آمل بوجود رابط بين القضايا. ليس لديّ أي شكّ في أن ديلاني قد شكّلت رابطاً ما بين الضحايا؛ رابط لا يمكنها أن تُفصح عنه. لدي ديلاني نقطة تبدأ منها.

«في قضايا «كاس» و»هايتور»، عُثِرَ على بصمات الفاعلين على النقود. وهذا أدى إلى إدانتهم. أما في قضية «كارين هارفي»، فتم العثور على ورقة نصف

دولار في شقة «رودس»، ولم تكن البصمات عليها. هل كان هناك أية بصمات أو أثر لحمض نووي على النقود؟»

«لا أثر للحمض النووي. هناك أجزاء بصمات على الورقة النقدية في قضية «ديريك كاس». وعدة بصمات على الدولار الذي كان بين أصابع «آني هايتاور». ولم يُعثر على أي شيء على نصف الورقة النقدية التي كانت في شقّة «رودي رودس»، والمرتبطة بجريمة قتل «كارين هارفي». ولا يوجد سجلات مطابقة للبصمات في قاعدة البيانات».

«ومع ذلك، هل تم فحص البصمات الأخرى؟»

«أتصور ذلك. لكنني لست متأكدة».

«يجب أن نتأكد».

سمعت صوت أصابع هاربر تنقر على لوحة المفاتيح.

«سأراسل المختبرات في كل قضية. لا ضرر في إعادة التحقق»، أجابت.

«هل يمكنك إرسال الملفات إلي؟»

«إنها تنتظر سلفاً في بريدك الإلكتروني».

بقيت هاربر على الخط بينما كنت أشغّل اللابتوب. لم يمضِ وقت طويل حتى وجدت الملفات وفتحتها.

«ما هو الرابط؟» سألت هاربر.

«لا أعرف. إذا كان قاتلاً متسلسلاً، كما تتوقع ديلاني، فقد لا يوجد رابط آخر غير النقود. ماذا كان يُدعى؟ **التوقيع**؟»

«نعم، مثل بطاقة الاتصال. كل ذلك مرتبط بسيكولوجيا القاتل. ليس الأمر كما لو أنه يترك خلفه معلومات نتعقبه من خلالها عن قصد. التوقيع جزء مما هو عليه حقيقة، ولماذا يقتل»، قالت هاربر.

«أعتقد بوجود شيء آخر، لا بدّ من ذلك. لا يمكن لأحد أن يرى هذه الدولارات دون أن يخطر بذهنه أنها ترمز إلى شيء ما. ثمة قاسم مشترك واحد بين هذه القضايا كلها - ورقة نقدية توصل الشرطة إلى القاتل، هذا هو الأمر. ربما

كان ذلك ما اكتشفته ديلاني. إذا كان رجلاً واحداً فهو بالتأكيد لا يريد أن يُكتشف أمره، ويتخذ تدابير صارمة ليتأكد من معاقبة شخص آخر مكانه. لماذا؟»

لم تتردد هاربر. كانت تعرف بالفعل.

«ما هي أفضل طريقة للإفلات من جريمة قتل؟ والتأكيد من أن الشرطة لا تبحث عنك. إذا تم حلّ القضية فلن تظهر كنموذج. إنه يخفي هذه الجرائم - يتخذ كافة التدابير الصارمة ليضمن عدم اكتشافه. ألقِ نظرة على الملفات، سآخذ غفوة. أراك في المحكمة».

أغلقت الهاتف.

حضرتُ القهوة وفتحت الملفات. حتى السابعة صباحاً، كنت قد قرأت القضايا الثلاث كلها. كانت القهوة باردة، ودماغي يحتدم. التقطت محفظتي وأخرجت ورقة الدولار التي نسخت عليها الرسم في مكتب ديلاني، وتفحّصت العلامات.

اعتدت طوال حياتي أن أتعامل مع النقود، وحتى خداع الناس بها. يمكن للعديد من المحتالين استبدال ورقة المئة دولار بورقة العشر دولارات برمشة عين أمام نادل يشعر بالنُعاس في ملهى ليلي. لقد رأيت ذلك يحدث، وفعلته بنفسي في فترات من حياتي.

اغتسلت وحلقت ذقني وارتديت ملابسي، وكنت في كل ثانية أفكّر بختم الولايات المتحدة العظيم. والعلامات على الدولار: السهم وورقة الزيتون، النجمة، ثلاث علامات لكل دولار، ثلاث علامات لكل جريمة قتل.

والبصمة على الدولار الذي كان في فم كارل. كيف وجد الشرطة حمض ريتشارد بينا النووي عليه إذا كان قد توفّي قبل طباعتها بوقت طويل.

ارتديت معطفي، وأفرغت ما تبقى من القهوة السيئة، واتجهت نحو الطقس البارد حاملاً جهاز اللابتوب في حقيبة. لم أكد أفتح الباب الخارجي حتى سفع البرد وجهي الحليق، وبدا كما لو أنه سيسلخ جلدي. لا يمكن أن أمشي في هذا الطقس البارد، ولا أستطيع أن أركب سيارتي أيضاً؛ فهناك فجوة في الزجاج الأمامي، وقد تراكم الصقيع والثلج على المقعد المجاور للسائق. لذا اتصلت بشخص أعرف أنه اعتاد أن يدير ورشة لتفكيك السيارات المسروقة في «برونكس». كان خدوماً لكن أسعاره عالية.

تركت مفتاح سيارتي فوق الإطار الذي يقع إلى جهة السائق، ودثرتُ نفسي بالمعطف، ثم انطلقت باحثاً عن سيارة أجرة.

بعد خمس دقائق كنت في سيارة أجرة في طريقي إلى «سنترستريت»، وأكبر محاكمة شهدتها المدينة منذ سنوات. كان دماغي مشوّشاً، وعليّ التفكير بالشهود والمرافعة الافتتاحية واستراتيجية آرت بريور.....

بدلاً من ذلك كله فكّرت بورقة الدولار.

غطّى رودي المحاكمة كلها إذ كنت ألعب دوراً صغيراً في هذه القضية. كنت ممتناً بطريقة ما؛ فقد أزالت عني بعض الضغوطات. حاول السائق أن يفتح حديثاً عن فريق «نيكس» لكرة السلة. فأجبت بكلمة واحدة عن كل سؤال حتى صمت تماماً.

الدولار.

كنت قريباً. ثمّة شيء في جرائم القتل الثلاث تلك، شيء وجدته ديلاني. وعندما فكّرت في الورقة النقدية في قضيّة بوبي - غفلت عن شيء ما. لكن أياً كان ما يشغل الجزء الخلفي من ذهني، فهو لم يكن بوبي ولا تلك الفراشة.

كررت أسماء الضحايا الذين عرفتهم بالأمس. «ديريك كاس». «آني هايتاور». «كارين هارفي». هناك شيء ما بين هؤلاء الثلاثة سيوصلني إلى مكان ما في العمق. أشعر وكأنه أمام ناظريّ لكنني لا أستطيع رؤيته.

«كاس». «هاي تاور». «هارفي».

توفّي «كاس» في ويلمنغتون. و «آني هايتاور» في سبرينغفيلد. وسُرِقَت «كارين هارفي»، وقُتِلَت بطلقات نارية في مانشستر.

توقفت السيارة أمام مبنى المحكمة، وأعطيت السائق أجره وأضفت إكرامية.

الساعة الثامنة صباحاً، تجمعت الحشود خارج المبنى بالقوة. هناك مجموعتان من الناس. كلّ منهما تلوّح بلافتات، وتصيح مجموعة بوجه الأخرى وتصرخ. تحمل إحدى المجموعات لافتات «العدالة لآري»، بينما تحمل الأخرى لوحة كبيرة تدعم بوبي سولومون. بدا أنصار سولومون وكأنهم الأقلية، الله وحده يعرف كيف ستفكّر هيئة المحلّفين عندما تدخل من بين هؤلاء الناس. كانت الحشود تتزايد كل لحظة، وبدأ عناصر شرطة نيويورك بإقامة حواجز لتفريق

الحشود. كان عليّ أن أدفع الرتل بقوة لأدخل إلى مبنى المحكمة، إذ إن الجميع يريد مكاناً لحضور المحاكمة؛ إنها الأكثر شهرة في المدينة. لكن عندما تخطيت حاجز الأمن وضغطت على زر المصعد، عاد ذهني إلى ورقة الدولار.

النجوم.

أخرجت الدولار مجدداً وتمعّنت في الختم وأنا أصعد إلى الطابق الحادي والعشرين. هناك ثلاثة عشر سهماً بين مخالب النسر اليُمنى، وثلاث عشرة ورقة زيتون على الأغصان بين مخالبه اليُسرى. وفوقها جميعاً يوجد درع مصنوع من ثلاث عشرة نجمة.

نجوم، درع. قُتِلَ ديريك كاس في ويلمنغتون. وقُتِلَت آني هايتور في سبرينغفيلد، وكارين هارفي في مانشستر.

قلبتُ الورقة وحدقتُ في صورة «جورج واشنطن»، أخرجت هاتفي الخلوي واتصلت بـ هاربر.

ردت على الفور.

«لقد عثرت على شيء. أين أنت؟»

«أنا في طريقي، سأوافيك خلال عشر دقائق».

«توقفي قليلاً».

«ماذا؟»

«توقفي قليلاً. أريدك أن تعودي لرؤية ديلاني في «فيديرال بلازا». أخبريها أنك وجدت رابطاً، وأن لديك مزيداً من المعلومات».

«انتظر، لقد وقفت للتو».

سمعت هدير سيارة هاربر «الدودج تشارجر» يهدأ عندما أوقفت السيارة.

«ما الذي وجدته؟»

«العلامات على ورقات الدولار؛ إنها تشكل تكويناً. هل لديك دولار؟»

لا بدّ أنها وضعت الهاتف على مكبّر الصوت، فقد سمعت أصوات أبواق السيارات والفرامل وحركة المرور. وصل المصعد إلى الطابق الحادي والعشرين، خرجت واتجهت يميناً نحو النافذة بين المصاعد. حدّقت في مانهاتن عبر زجاج نافذة مغطى بالأوساخ. لقد أظهر المدينة بطريقة شعرت فيها أنني أراها من خلال صورة قديمة.

«حصلت على ورقة دولار، إلى ماذا تريديني أن أنظر؟»

«إلى الختم العظيم. هناك ثلاث عشرة ورقة زيتون، وثلاثة عشر سهماً، وثلاث عشرة نجمة فوق النسر. لماذا ثلاثة عشر؟»

«لا أعرف، لا شيء في ذاكرتي حول ذلك. لم ألحظ ذلك من قبل».

«أنت تعرفين. لقد تعلّمت كل ذلك في المدرسة لكنك لا تتذكرين الآن. اقلبي الورقة، واشنطن! الرئيس الأول للولايات المتحدة الأمريكية. قبل أن يُصبح رئيساً، كان يقود القوات في نيويورك مدافعاً عن المدينة ضد البريطانيين. لقد قرأ إعلان الاستقلال للجيش، وعندما تم التوقيع على إعلان الإستقلال، وقرأه واشنطن، تم التوقيع عليه من ثلاث عشرة ولاية فقط».

«ثلاث عشرة نجمة...»

«إنها خريطة. قُتِلَ كاس في ويلمنغتون، بولاية ديلاوير. وهايتاور في سبرينغفيلد، ماساتشوستس. وهارفي في مانشستر، نيوهامبشاير. كلها مستعمرات وقّع ممثلوها على إعلان الاستقلال. وإذا أضفنا أرييلا بلوم، وكارل توزر، فتكون نيويورك. ربما تكون هناك جرائم أخرى، جميعها على الشاطئ الشرقي. أخبري ديلاني أن عليها أن تعرف ما إذا كان أي شخص قد أُدين بتهمة قتل تتضمّن دولاراً. لا بدّ أن يكون الدولار جزءاً من الأدلّة ضدّهم. من المحتمل أنها فعلت ذلك على مستوى البلاد كلها، لكنها تستطيع الآن أن تضيّق نطاق البحث. نحن نبحث في الولايات الثماني المتبقيّة التي وقّعت على الإعلان، بنسلفانيا، نيوجرسي، جورجيا، كونيتيكت، ميريلاند، فرجينيا، رود آيلاند، كارولينا الشمالية...».

«إيدي، هناك «ريتشارد بينا». القاتل الميت الذي تم العثور على حمضه النووي على الدولار الذي كان في فم توزر. وقد أُدين بقتل تلك النسوة في كارولينا الشمالية. يمكن أن يكون رابطاً». ص١٤٨

«أنت على حق، هذا ممكن. نحن بحاجةٍ للتأكد من ذلك. هل تستطيعين التحدث مع ديلاني؟ هي لا تعرف شيئاً عن «بينا»».

أنا في طريقي إلى هناك، لكن هناك بعض الأمور غير المنطقية بعد. لماذا توجد ثلاث علامات على كل ورقة؟ أستطيع فهم النجوم، فهي تدلّ على موقع. لكن ما هو المقصود بالعلامتين الباقيتين؟».

«لا أعرف حتى الآن، الأمر بحاجة إلى تفكير. ربما يتعلّق الأمر بالضحايا بطريقة أو بأخرى».

«ثمة شيء آخر لم نفكّر فيه بعد. ماذا لو لم تحدث جرائم قتل أخرى في تلك الولايات؟ ماذا لو كان هذا الرجل قد بدأ للتو؟»

«هناك عدة سنوات تفصل بين بعض جرائم القتل هذه. لا أعتقد أنه كان متوارياً عن الأنظار. وأظن أن هناك ضحايا آخرين لم نجدهم بعد. وإذا كانت أرييلا بلوم وكارل توزر ضحايا هذا الرجل؟ فإن لديه الكثير من الخبرة. أعتقد أن هناك المزيد. لكن فهمت الأمر، ربما لا يزال هذا الرجل يلعب لعبته. وقد يستهدف ضحية أخرى في الوقت الحالي».

«أعرف. لكن انظر، لا أريد أن أهدر الكثير من الوقت على ريتشارد بينا. لديه ضحايا متعددون. ولا ينطبق على الآخرين». قالت هاربر.

«هذا صحيح. في قضيتنا كان هناك العلامات الثلاث ذاتها على الدولار، وضحيتان».

وضعتُ الدولار على حافة النافذة، وتمعّنت به جيداً، ثم قرأت بصوتٍ عالٍ العبارة اللاتينية على الشعار الذي يرفرف فوق النسر على الختم العظيم.

E pluribus unum.

من بين الكثيرين - واحد.

الفصل الثامن والعشرون

تفوح من قاعة هيئة المحلفين رائحة عرق وقهوة قديمة وطلاء جديد. كان كين يجلس بهدوء حول الطاولة الطويلة ويُصغي. عندما وصل إلى المكان أخبره مراقب هيئة المحلّفين بأن عليه أن يذهب إلى القاعة. لم يكن عليه الانتظار في الممر على الكراسي البلاستيكية الصلبة كأي عضو احتياطي آخر. إنها أوامر القاضي.

شرب كوب ماء فاتر وحاول أن يألف الشائعات. لقد تشكلت زمر معينة بين مجموعة المحلّفين الأحد عشر الآخرين، أربع نساء وسبعة رجال. كان ثلاثة رجال يتحدثون عن كرة السلّة في محاولة منهم لصرف اهتمامهم عن المحاكمة القادمة. وعلى الرغم من ذلك، تستطيع أن ترى أن ثقل واجبهم القادم يقع على أكتافهم الهشة.

لم ينخرط الأربعة الآخرون بأي حديث، وكانوا يُنصتون إلى حديث النساء الأربع عن المحلّفة الثانية عشرة - بريندا كولوسكي.

«شاهدت ذلك في الأخبار؛ كانت هي. يا له من أمر مريع!» قالت السيدة الشقراء القصيرة التي تُدعى «آن». استمع كين إلى الجميع عن كثب عندما تم استجوابهم لاختيار أعضاء الهيئة. دون ملاحظات في ذهنه عن المهنة والعائلة والأطفال والمعتقدات الدينية. كانت المرأة الأقرب إلى «آن» قد وضعت راحة يدها على صدرها، ولوت ذقنها وتركت فمها مفتوحاً. إنها «ريتا».

«ماذا حدث لبريندا؟ إنها السيدة التي كانت هنا بالأمس، أليس كذلك؟ وكانت ترتدي سترة جميلة؟» قالت ريتا.

«توفيت. دهستها سيارة أمام المكتبة التي تعمل فيها. وهرب السائق. حادث مريع». قالت آن. هزّت الأخريات رؤوسهن، وحدّقن في الطاولة المصنوعة من خشب البلوط العتيق المصقول. استمتع كين بالاستماع إلى أرنولد نوفوسليك وهو يتحدث عن إحداهن - عن بيتسي، في المحاكمات التجريبية. كان أرنولد سعيد بشكل خاص لأن رودي كارب تدبّر أمره ليجعلها تحصل على مقعد في الهيئة. الدفاع معجب جداً بـ «بيتسي».

وافق كين. لقد أحب بيتسي أيضاً، لديها شعر بني طويل عقدته على شكل ذيل حصان. أراد كين أن يشدّ ذلك الشعر.

كانت آخر النساء الأربع هي «كاساندرا»، وقد هزّت رأسها دهشة من الحديث عن بريندا. قبل مغادرته يوم أمس، شاهد كين كاساندرا وهي تتحدث إلى بريندا. كانت أنيقة ومتحدثة رائعة. «لقد أصبح عبور الشارع أمراً خطيراً للغاية هذه الأيام، مسكينة هي بريندا»، قالت كاساندرا.

«رأيت ذلك في الأخبار أيضاً. لم أكن أعلم أنها من هيئة المحلّفين، يا إلهي! هل سمعت ما ذكرته الأخبار عن أن السيارة عادت ودهستها بعد الحادث؟» قالت بيتسي.

«كما تعلمين، لا يُفترض بك أن تشاهدي الأخبار. ألم تسمعي ما قاله القاضي يوم أمس؟» هكذا قال «سبنسر» وهو أصغر المحلّفين.

بدأت «آن» تلوّح بيدها. احمرّ عنقها، وأشاحت بوجهها عن سبنسر كما لو أنه ذبابة مزعجة.

قالت بيتسي: «التقينا بها في الأمس، وهي الآن ميتة. هذا هو المهم هنا».

«لا، المهم أن ننفذ ما يقوله القاضي، فالناس تموت كل يوم. لا أقصد أن أكون مشاكساً في هذا الأمر، لكن، ماذا في ذلك؟ ليس الأمر كما لو أنها كانت صديقة لأحد»، قال سبنسر.

نهض كين من مقعده وأخرج محفظته، التقط ورقة نقدية من فئة العشرين دولاراً وألقاها على الطاولة.

«تحدثت إلى بريندا أمس، بدت سيدة لطيفة. ليس المهم ما إذا كنا نعرفها أم لا، فنحن جميعاً في المجموعة ذاتها. أنا لا أعرف أياً منكم، لكنني أفكّر بأنني إذا حدث وتوفّيت غداً، فهل يهتم أي شخص منكم. أقترح أن نساهم ببعض النقود، ونرسل إكليلاً من الزهور. إنه أقل ما يمكننا فعله»، قال كين.

نهض المحلّفون واحداً تلو الآخر وقدّموا نقوداً. ذكر بعضهم عبارات من نوع «أنت محق تماماً»، «مسكينة هذه المرأة»، «لنرسل بطاقة أيضاً». شارك الجميع باستثناء سبنسر. لقد وقف مقاطعاً يديه وهو يميل إلى أحد جانبيه. وأخيراً، وأخيراً، بعد أن حدّق به أحد المحلّفين الذكور لوقت طويل، أظهر امتعاضه بحركة من عينيه ثم وضع ورقة من فئة عشرة دولارات.

«حسناً»، قال سبنسر.

نصر صغير. يعرف كين أهمية هذه المبادرات، كانت مناورة ماكرة. واحدة أو اثنتين من هذه المبادرات هي كل ما يحتاجه للوصول إلى مكانة بينهم. جمع النقود وطلب من «آن» أن تشتري شيئاً ما إذا لم تكن تمانع.

لم تمانع أبداً، حتى إنها ابتسمت له عندما أخذت النقود وقالت: «لطف كبير منك، شكراً لك، بل شكراً للجميع»، قالت ذلك وظهر فيض مشاعرها من مؤخرة حنجرتها. ابتعلت لعابها ووضعت النقود في حقيبتها.

شعر أعضاء الهيئة بالرضا.

جلس كين وشغل تفكيره بالصوت الذي نجم عن اصطدام جمجمة بريندا بغطاء محرك سيارته «تشفي سيلفرادو». ضربة واحدة لشيء قاس أجوف يتحطم على المعدن. كان قد انسحق خلال جزء من الثانية. صدمتان متقاربتان جداً بحيث لا يمكن تفريقهما. ومع ذلك كان هناك تمييز لمجموعة الأصوات تلك. كان صوت تفكك عظم الترقوة والعمود الفقري مشابهاً للنقر على أوتار غيتار. بالنسبة إليه، بدا الصوت متناغماً تقريباً. كان أشبه بأوركسترا تنطلق بفاصل موسيقي عاصف قبل بدء العرض.

رشف قهوته والتقط خيطاً رفيعاً من سترته وفكّر بالاصطدام الثاني الصامت المخيّب للآمال بالشاحنة عندما عاد ليدهس رأسها.

يا لتعاسة الحظ، فكّر كين.

فُتِحَ الباب الخلفي لغرفة المحلّفين ودخل القاضي. كان يرتدي عباءة سوداء فوق بزّته السوداء.

هدأ الجميع والتفتوا إليه. بدأت «آن» تشعر بالذعر حقاً - كما لو أنه قُبِضَ عليها بالجرم المشهود وهي تكسر قانوناً لم تكن تفهمه فعلاً. انحنى كين وربّت على ذراعها بلطف.

وضع القاضي فورد يده الضخمة على الطاولة وانحنى وتحدّث بهدوء. وأثناء ذلك، ترك نظراته تطوف غرفة هيئة المحلّفين. تركها من حين لآخر تستقرّ على محلّفين معينين.

«سيداتي سادتي، لدي أخبار محزنة. وقد شعرت أن علي أن أخبركم بها على انفراد. صدّقوني، سوف أناقش هذا الأمر في اللحظات القليلة الآتية مع المحامين في هذه القضية. هذا هام جداً. ومع ذلك، رغبت بأن تعلموا بالأمر مني أولاً. تلقيت صباح اليوم مكالمة هاتفية من مفوّض الشرطة يخبرني فيها أن لدى إدارة الشرطة ما يدعوها للاعتقاد بأنكم في خطر حقيقي».

كارب لو

شقة رقم ٤٢١، مبنى كوندي ناست، ٤ تايمز سكوير، نيويورك.

سريٌّ للغاية، وثيقة عمل بين المحامي وموكله

مذكّرة هيئة المحلفين

الادعاء العام ضد روبرت سولومون

المحكمة الجنائية في مانهاتن

آنا كوبيلمان

العمر: ٢٧

مدرّسة حضانة في سانت إيفيس، عزباء، ليس لها أطفال، مشاركة في مجلة نيويور، تعزف على الكلارينيت والبيانو، الوالدان متوفيان. كانت الوالدة ربّة منزل، ويعمل الوالد في المدينة. لا مشاكل مالية، مهتمة بوسائل التواصل الاجتماعي - صفحة حياة السود تهمنا، بيرني ساندرز، الديمقراطيون، وما إلى ذلك. الليبرالية. حبّ الزمن الحقيقي مع « بيل مار».

احتمال التصويت بغير مذنب: ٦٤٪

أرنولد نوفوسليك

الفصل التاسع والعشرون

فُتحتْ أبواب المصعد, وتفرّقت مجموعة كبيرة من المجانين.

أولاً، خرج من حجرة المصعد رجلٌ بسترة خضراء، وظهره للخلف، وانطلق كما لو أنه قذيفة مدفع. واصطدم بأبواب المصعد المقابل، وسحق كاميرا تبدو باهظة الثمن كانت معلّقة إلى جانبه.

خرجت كتيبة من حراس الأمن، يرتدون ملابس سوداء، بحركة واحدة سلسة. واستطاعت وسط كرات اللحم هذه أن أرى قمّة رأس بوبي سولومون، كان رودي إلى جانبه. وانفتحت الأبواب التي تفضي إلى الدرج فتدفّق نسق من المصورين يركضون مثل كتيبة في معركة. ثم وصل مصعد آخر فتدفّقت مجموعة مراسلين وكاميرات التلفزة لتملأ الساحة. سطع الممر بتوهّج العدسات، وسبرت العدسات والمايكروفونات الطوق الأمني للوصول إلى نقطة ضعف.

أسرعتُ إلى قاعة المحكمة، وفتحتُ البابين على مصراعيهما. فهرع رجال الأمن لإبعاد وسائل الإعلام المهاجمة.

يا إلهي، يا له من سيرك!

أحضر عناصر الأمن الرجال الذين كانوا بحمايتهم، وهرعوا نحو الأبواب. تنحّيت جانباً في الوقت المناسب. فلو بقيت في مكاني لسُحِقت. التفت عنصر أمن ضخم يرتدي سترة جلدية سوداء إلى الخلف وأغلق الباب أمام الكاميرات.

استطلعت المكان. باستثناء الموظفين ورجال أمن المحكمة، كانت القاعة فارغة.

تفككت الحلقة. بعض الحراس يحملون حقائب تشبه الحقيبة التي استخدمها هولتن لحمل جهاز اللابتوب. وقفوا في الجزء الأمامي من القاعة. رأيت بوبي منكمشاً على نفسه في الممر، يتنفّس بصعوبة. ويربّت رودي على كتفه ويطمئنه بأن الأمور ستجري على ما يُرام.

اتجهت إلى رودي وأخبرته أنني أريد التحدث إليه. فجذب بوبي معه، وعدّل له ربطة عنقه، ورتّب هندامه. ثم ربّت على ذراعه وطلب منه أن يجلس على منصة الدفاع. مشيت مع رودي إلى الجزء الخلفي من الغرفة فعرضت له نظريتي عن الدولار.

أومأ برأسه بأدب في البداية. وكلما تعمقت في الحديث، قلّ اهتمامه. أستطيع القول إنه كان متوتراً بسبب الطريقة التي كان يعضّ فيها شفته العليا. لم تهدأ يداه أبداً، كان عصبياً ومتوتراً. إن موقع المحامي الأول في محاكمة من هذا النوع ستؤدي بأي شخص إلى هذه النتيجة.

«عميلة مكتب التحقيقات الفيدرالي، المدعوة ديلاني، هل ستشهد بذلك؟» قال رودي.

«تراودني الشكوك. ربما نجد طريقة لتحقيق ذلك، نحن نعمل على هذا الأمر».

رفع ذقنه، ورمش بعينه. وهزّ رأسه وقال: «حسناً. لدي الآن مرافعة افتتاحية لو سمحت. وهناك شيء آخر أيضاً». أشار إلي كي أقترب، وأخفض صوته حد الهمس.

«قمنا بتعيينك لمراقبة رجال الشرطة في هذه القضية. نعرف جميعاً السبب في ذلك، صحيح؟ أنت جندي يا إيدي. إذا استطعت أن تفنّد أكاذيب الشرطة، فسوف أخرجك من هنا على كتفي. أما إذا لم تفعل، فنتوقّع منك أن ترمي نفسك على تلك القنبلة اليدوية لحماية العميل. إذا حدث ذلك، سوف تختفي من هذه القضية وكأنك لم تكن هنا أساساً. هل هذا واضح؟ لا أريدك فعلاً أن تضيّع وقتك ومواردك على أدلّة لا يمكن استخدامها. قم فقط بالعمل الذي تم توظيفك على أساسه، فهمت؟ هل يبدو الأمر منطقياً؟

«لا بأس بذلك»، أجبت بنبرة تخبره تماماً أنني بعيد جداً عن كوني راضٍ بذلك.

«حسناً، بالمناسبة، لقد وصلت قائمة مشترياتك. وضع مساعدي كل ما تحتاجه في غرفة تخزين الأدلّة في الأسفل. سوف يأتون بها إذا كانت هناك حاجة لها، وعندما تطلبها».

وبذلك، ابتعد رودي وجلس على منصة الدفاع إلى جانب بوبي وتحدث معه بلطف محاولاً تهدئته. كنت على بعد خمسين قدماً على الأقل، لكنني

استطعت أن أرى ظهره وكتفيه يرتجفان. اتخذ «أرنولد نوفوسليك» مقعداً في زاوية منصّة الدفاع، وفرز عليها بعض الوثائق.

ما إن وصلت إلى منصّة الدفاع وأخذت مكاني حتى هدأت. لا جدوى من الشجار مع رودي، ليس الآن على الأقل، أستطيع أن أفعل ذلك في وقت لاحق. كان الجلوس يضغط على صدري مما جعلني أتناول بعض المسكنات مع كوب ماء. لن يكون الأمر سيئاً إذا وقفت. لدي الآن متسع من الوقت للجلوس. على الأقل، يمكن للألم الناتج عن ضلعي المكسور أن يخفف شعوري بألم الرأس.

فتحت الشرطية الأبواب على صوت صراخ مألوف. وشق الرجل، الذي سلّمت بأنه «آرت بريور»، طريقه إلى المحكمة مُحاطاً بعدد قليل من المدّعين الذين يحملون صناديق من الورق المقوّى. ظهر بريور جزئياً، يرتدي بزّة زرقاء أنيقة، مزيّنة بمشبك، ومصممة بإتقان طبعاً. مع قميص أبيض ناصع لامع تقريباً، وربطة عنق وردية. يحبّ بريور ربطات العنق الوردية، أو هكذا سمعت. وكان منديل الجيب العلوي مناسباً لربطة عنقه. لم يبدُ مغروراً في مشيته لكنه كان قريباً جداً من الغرور.

وصل إلى منصّة الدفاع وسلّم على رودي بحرارة. بدت أسنانه وكأنها تتغذّى من ذات التيار الكهربائي الذي يغذي قميصه.

«حان وقت اللعب يا آرت. بالمناسبة، هذا محامي الدفاع الثاني. إيدي فلاين».

وقفت، ممتناً للراحة التي قدّمتها أضلاعي. ومددت يدي مصطنعاً أفضل ابتسامة لدي.

صافحها بريور دون أن يقول أي شيء. وقف جانباً وفرش منديله أمامه، كما يفعل النادل قبل أن يضع الفوطة في حضنك في مطعم من الدرجة الثالثة في ميشيغن. وحافظ على ابتسامته بينما كان يمسح يديه بحرص.

قال بلكنة جنوبية مُستمدّة من كتاب «عربة اسمها الرغبة»: «حسناً، سيد... سيد - سيد فلاين. التقينا أخيراً. سمعت الكثير عنك في الساعات الأربع والعشرين الماضية».

كان يعاني من حالة ارتعاش العين. استطعت أن أشعر بالكراهية تشعّ من بشرته الضاربة إلى السمرة. قابلتُ مصارعي قاعات المحاكم أمثاله من قبل؛ لا تهمّهم القضية كلها، ولا يهمهم أن شخصاً قد تضرر أو مات. بل يتعامل أحدهم

مع المحكمة كرياضة يريد أن يفوز بها. والأهم من ذلك، أنهم يريدون سحق خصومهم، والتخلّص منهم. هذا يجعلني أشعر بالقرف. أستطيع أن أخمّن بأنني لن أنسجم معه.

«ربما كان ما سمعته عني غير صحيح. وقد يكون السوء الذي سمعت به مجرد رأس جبل جليدي».

تنفّس بعمق من أنفه. وبدا كما لو أنه يستنشق الحقد من الهواء.

«آمل حقاً أيها السادة أن تكونوا قد جلبتم معكم لعبتكم المفضّلة. سوف تحتاجون إليها». قال بريور. ثم عاد إلى منصّة الادعاء، وأبقى عينيه على بوبي طوال الوقت.

قبل أن يصل إلى منصّة الادعاء، دنا منه رجل يرتدي بنطالاً سكرياً ومعطفاً رياضياً أزرق، وقميصاً أبيض مع ربطة عنق حمراء قضفاضة في الأعلى بسبب ياقته المفتوحة. كان ذا شعر قصير جميل، وعينين ثاقبتين وبشرة سيئة، سيئة للغاية. تلوح بقع حمراء منفّرة من ياقته، وثمة الكثير من البثور السوداء على الأنف والخدين، والمحاطة بقشور من بشرته البيضاء. كانت كلها ناتئة بسبب لون بشرته الأبيض الشاحب. تظهر من جيب معطفه شارة الصحافة، ويحمل حقيبة كتف.

«من هذا الصحفي الذي يتحدث إلى بريور؟» سألت رودي.

بعد لمحة سريعة أجاب رودي: «إنه بول بينيتيو؛ صحفي مختص بالمشاهير في مجلّة «ذا نيويورك ستار». رجل ذو شخصية قذرة. يستخدم محققين خاصين للبحث في القصص الجنسية. هو الآن شاهد في هذه القضية. هل قرأت تصريحه؟»

«قرأته، لكنني لم أكن أعرفه، لم يقل الكثير. كان على الأغلب قد توقّع بأن بوبي وأرييلا لم يكونا على وفاق».

«تماماً، ولا يذكر مصادره. انظر إلى هذا»، قال رودي ذلك وفتح تصريح «بينيتيو» على اللابتوب، وأشار إلى الفقرة الأخيرة.

«ينطبق التميّز الصحفي على مصادري. أنا لا أستطيع أن أذكرها، ولا يمكنني الكشف عن المزيد من المعلومات في هذا الوقت».

«هل هناك متابعة لهذا الأمر؟»

«لا. صحفيّ من الدرجة الثانية، لا جدوى من إهدار الموارد على فاشل مثله»، قال رودي.

لاحظت أن بريور وبينيتيو لم يتصافحا. دخلا في محادثة كاملة دون ابتسامات ولا تحيات من أي نوع، كان مجرّد نقاش حادّ ومباشر. لم أستطع أن أسمع ما قيل، بدا واضحاً أن أحدهم يعرف الآخر جيداً، وأنهما قد تحدّثا مؤخراً. وفي لحظة واحدة توقّف الرجلان عن الكلام ونظرا باتجاهي.

تجاهلاني، ونظرا مباشرة إلى موكّلي. تابعت تلك النظرة لبوبي، ورأيت فوراً ما الذي لفت انتباههما.

بدا بوبي وكأنه سيفقد السيطرة على أعصابه. ردّ شعره إلى الخلف وبدأ ينقر بإصبعه على الطاولة. كانت ساقاه تتحرّكان صعوداً وهبوطاً، ثم أمال كرسيّه إلى الخلف. مددت يدي لأمسك به لكن ألمي الجانبي أوقفني. تراجعت الكرسي إلى الخلف، ورأيت عينا بوبي تنقلبان في رأسه قبل أن يهوي على الأرض.

انحنى جسده، وخرج الزبد من جانب فمه، واضطربت أطرافه واهتزّت. كان أرنولد أول رجل وصل إليه وهو على الأرض. حاول أن يقلبه على جانبه، وينادي باسمه بهدوء.

«المسعف!»

لا أعرف من الذي صاح، قد يكون رودي، وسرعان ما تجمّع حشد حولنا. ركعت قليلاً، وكدت أن أفقد الوعي بسبب الألم. رفعت رأس بوبي، وأخرجت محفظتي وحشرتها في فمه لمنعه من ابتلاع لسانه.

«أحضروا المسعف اللعين إلى هنا فوراً!»

سمعت الصراخ في هذه المرة صادراً عن رودي. كان الناس مجتمعين حولنا، ورأيت العديد من ومضات كاميرات التصوير تنعكس عن بلاط الأرضية. الصحفيون الملاعين. كان بينيتيو موجوداً أيضاً، وكان ينظر بنوع من الرضا. ثم اخترقت الحشد امرأة ترتدي قميصاً أبيض بشرائط حمراء على الأكتاف، مما جعل بينيتيو يتنحّى جانباً.

كانت تحمل عدّتها الطبية بيد واحدة.

«هل يعاني من الصرع؟» طرحت سؤالها وهي تجثو إلى جانب بوبي.

نظرت إلى الأعلى، ورأيت رودي. كان جامداً تماماً.

«هل يعاني من الصرع؟ هل يتناول أية أدوية؟ هل لديه حساسية من أي شيء؟ هيا، أريد أن أعرف»، قالت المسعفة.

تردد رودي.

«أخبرها وحسب!» صرخ أرنولد.

«إنه مُصاب بالصرع، ويتناول «الكلونازيبام»»، قال رودي.

«إلى الخلف. أفسحوا المجال».

تفرّق الحشد، ورأيت بريور عبر القاعة متكئاً إلى الخلف ومطبقاً ذراعيه أمام هيئة المحلّفين. كان الأحمق لا يزال يبتسم. نظر حوله، وتأكد أنه ما من أحد خلفه في هيئة المحلّفين، وبدأ يكتب رسالة على شاشة هاتفه.

الفصل الثلاثون

يعرف كين ما هو آت.

شرح القاضي الأمر لبقيّة أعضاء الهيئة. لم يستطع معظمهم استيعاب الأمر.

«أبلغني مفوّض الشرطة أنه لا يستطيع استبعاد احتمال استهداف «بريندا كولسكي» عن سبق إصرار وترصد لأنها اختيرت كعضو في هيئة المحلّفين. في الواقع، ثمّة أدلة على أن الحادث لم يكن عادياً. وكما شاهدتم على الأخبار فإن السيارة التي صدمت بريندا، عادت لتدهسها مرة أخرى. وبناء عليه، سوف نتخذ خطوات لضمان سلامتكم»، قال القاضي.

تكلم «سبنسر» أولا.»

«عرفت ذلك. أنا... يا إلهي. أعني، أي نوع من الخطوات يا رجل؟ يا سيدي؟»

شاهد كين القاضي فورد يقف بحالة من السلبية. لا بدّ أنه توقّع ردّ فعل ما، وكان متعاطفاً.

«عندما نأخذ استراحة الغداء، سنسمح لكل فرد منكم بالعودة إلى المنزل، وإحضار بعض الملابس. سيرافق شرطيٌ من المحكمة كلاً منكم. وعندما تنتهي المحكمة اليوم، سيتم نقلكم جميعاً إلى فندق، حيث تبقون تحت حراسة مشددة طوال مدّة المحاكمة».

آهات، احتجاجات، صدمة، دموع.

ترك كين كل ذلك ينكشف أمامه.

بقي القاضي حازماً وتابع: «في قضية تحظى بقدر كبير من اهتمام وسائل الإعلام كهذه القضية، يكون احتجاز هيئة المحلّفين وارد دوماً. أنا لم أتخذ هذا القرار بسهولة، ثقوا بي. على أية حال، أعتقد أنه إجراء احترازي ضروري. وأخبركم جميعاً بهذا الأمر الآن لكي تستطيعون إجراء اتصالاتكم مع العائلة والأصدقاء. وقد يضطر بعضكم إلى طلب رعاية الأطفال في السماء. أعطيكم ثلاثين دقيقة قبل أن تبدأ المحاكمة».

صدمت القاضي موجة من الاحتجاجات والأسئلة، وكانت كلها صادرة عن الأعضاء الذكور، بينما كان ينسحب من الغرفة. سمع كين أحد الأسئلة بوضوح تام. طرح السؤال رجلٌ يرتدي قميصاً أزرق باهتاً، وربطة عنق باهتة أيضاً، إنه «مانويل».

«سيدي؟ سيدي؟ أين سنقيم؟»

تقدّم كين إلى الأمام محاولاً الضوضاء في الخلف قدر الإمكان.

«ستقوم المحكمة بهذه الترتيبات خلال وقت قصير»، أجاب القاضي، ثم غادر الغرفة.

شعر كين بموجة من الإثارة تجتاح أمعائه. كان يتوقع هذه اللحظة. وكان في الواقع يعتمد عليها. ستقوم المحكمة بالترتيبات اللازمة، لكنه يعلم تماماً إلى أين ستتجه هيئة المحلّفين في الخامسة مساءً.

لقد قام بترتيبات خاصة به.

كارب لو

شقة رقم ٤٢١، مبنى كوندي ناست، ٤ تايمز سكوير» نيويورك.

سريٌّ للغاية، وثيقة عمل بين المحامي وموكله

مذكّرة هيئة المحلفين

الادعاء العام ضد روبرت سولومون

المحكمة الجنائية في مانهاتن

سبنسر كولبيرت

العمر: ٢١

نادل في شركة ستاريكس، ساحة الاتحاد. يعمل أيضاً «دي جي » في نوادي ليلية مختلفة في منطقة مانهاتن خلال عطل نهاية الأسبوع. عازب. مثلي الجنس. خريج مدرسة ثانوية. ديمقراطي. أساليب حياته الأخرى - يتعاطى الماريوانا بشكل منتظم (ليس لديه سجل جنائي سابق). يعاني من ضعف

مادي. الوالد متوفى والأم بحالة صحية سيئة ، يقيم في نيوجرسي. للحياة - يشرب الماريجوانا بشكل منتظم (لا يوجد سجل جنائي سابق). يعاني من ضعف مالي. الأب المتوفى. والأم في حالة صحية سيئة، تقيم في نيوجرسي. وترعاها أخته «بيني ».

احتمال التصويت بغير مذنب: ٨٨٪

أرنولد نوفوسليك

الفصل الحادي والثلاثون

شاهدنا أنا ورودي بوبي يصحو ببطء في الحجرة الطبية، كان يترنّح في البداية. ولا يدرك أين هو، أو ماذا حدث. أعطته المسعفة رشفات من الماء، وأجبرته على الاستلقاء. وقف رودي في الزاوية وبدأ ينبح في جهاز هاتفه.

«لم ينتهِ. ليس حتى الآن. أعطني المزيد من الوقت».

أستطيع سماع جانب واحد من المحادثة. لا يهم. أستطيع أن أخمّن أن الأمور لا تجري على خير ما يرام.

«ماذا لو رأت الصحافة ذلك؟ هو لا يزال على القائمة الأولى. أعطني أسبوعين وسوف أصل...»

أياً كان ذلك المتحدث في الطرف المقابل، فقد أغلق الخط. حنى رودي ذراعه للخلف، وبدا مستعداً لقذف هاتفه إلى الجدار. بدأ يشتم، ثم ترك ذراعه تستقر إلى جانبه.

يتكون الحجرة الطبية من سرير، وبعض الأدراج المليئة بمسكنات الألم والضمادات وجهاز إنعاش مثبّت على الحائط. طلب رودي من المسعفة أن تمنحنا لحظة. أخبرتنا قبل مغادرتها ألا نحرّك بوبي قبل مضي خمس عشرة دقيقة على الأقل، وأن ندعه يخرج ببطء.

«رأيت مراسلين صحفيين اثنين في الجزء الخلفي من قاعة المحكمة. لم يكن يُفترض بهما الدخول حتى يقف الجميع ويكونوا مستعدين للذهاب، لكن لا بدّ أنهما تسللا إلى المكان. لقد شاهدا كل ما حدث، وصوّراه أيضاً. ستكون الصور على الصفحة الأولى لأخبار هذه الليلة»، قال رودي.

«لم أعد أهتم بالأمر، لا يزال بإمكاني القيام بالعديد من الأدوار»، عقّب بوبي.

«انتظر، أنا لا أتابعك. هل ما جعل بوبي يتعرّض لنوبة صرع له علاقة بأي شيء؟ سألته.

تنهّد رودي، ونظر إلى الأرض وقال: «لا أحد يعرف أن بوبي مُصابٌ بالصرع قبل اليوم. هل فهمت؟ أنت لا تستطيع العمل على فيلم بقيمة ثلاثمئة مليون دولار، إذا كنت ستُصاب فجأة بنوبة صرع، وتسقط عن المنصّة. أقساط

التأمين وحدها ستكلّف بوبي خمسين مليون دولار. كان الأستوديو سيطلق بوبي وكأنه «بروس ويلس» الجديد. لقد تلاشى كل ذلك الآن».

«هناك أشياء تسترعي الاهتمام أكثر من مهنته الآن، كإدانته بجريمة قتل، ودخوله السجن؟»

«أعرف، لكن لا نستطيع فعل أي شيء الآن. أنا آسف يا بوبي، سيحرر الأستوديو الفيلم يوم الجمعة القادم، وسيلغون العقد المرتبط بقضيتك»، قال رودي.

لم يستطع «بوبي» أن يتكلم، أغلق عينيه واستلقى. كان أشبه برجل يوشك على السقوط من منحدر شاهق.

«لا يمكنهم أن يفعلوا ذلك»، أجبته.

«حاولت يا إيدي. لقد رفعوا المُلصقات بسبب المحاكمة. لا يريدون أن يتأخروا كثيراً، ولا يريدون إنفاق المزيد على الإعلانات. يحصل الأستوديو على جميع الإعلانات التي يرغب بها مجاناً في جميع أنحاء العالم. واتفاق بوبي مع الأستوديو لن يكون بخير إذا علم الجمهور بأمر إصابته بالصرع. هو يعلم ذلك. لقد وقّع اتفاقاً. وأنا حاولت إقناعهم بالانتظار، وأن يتركونا ننهي المحاكمة ونضمن البراءة. لكنهم لا يرون فائدة من ذلك، بل يرون أنها مجرّد مغامرة. لقد تخلّوا عنه وهو لا يزال يُعتبر بريئاً».

قلت له:» لا يمكننا أن نتركه».

«انتهى الأمر. يترك الأمر غصة في حلقي، لكن الأستوديو هو الموكّل هنا. سوف أخبر القاضي يا بوبي. وسوف يتم تأجيل المحكمة».

سمع بوبي كل شيء. وسواء أكان نجماً سينمائياً أم لا، بدا بالنسبة إلي كطفل يرتعد. وضع رأسه بين يديه، واهتزّ كتفيه وهو يبكي.

عندما غادر رودي القسم الطبي تحدّث معي بشيء من القلق.

«بالله عليك يا إيدي، نحن بشرٌ هنا».

لم أتحرك.

توقف رودى، عِاد إلى الخلف وطرح الأمر بشكل مباشر.

«إيدي، كانَ الأستوديو يدعم هذه المحاكمة. إنهم زبائننا. تعال معي الآن، يمكنك أن تبدأ العمل غداً. راتب جيد، وعمل سهل. هيا، أنت تستحقّ ذلك. لم يعد لدينا خيار».

«إذاً ذلك الكلام المعسول الذي قلته لي حول الإيمان ببوبي كان مجرّد مسرحية لتجعلني أوافق، أليس كذلك؟ ستتخلّى عن هذا الرجل في اليوم الأول من المحاكمة بجريمة قتل؟»

«لم تبدأ المحاكمة بعد. سأطلب من القاضي تأجيل المحاكمة حتى يحصل بوبي على محامٍ جديد. انظر يا إيدي، أنا لست شخصاً سيئاً، ولا أتخلّى عن بوبي. إنني أواظب على دفع سبعة عشر مليون دولار من الرسوم القانونية سنوياً. سأمضي مع موكلي، وأنت أيضاً. بالله عليك يا بوبي». قال رودي.

إذا أدرت ظهري لهذه القضية فلن أحصل على فرصة أخرى. كان عرض العمل هو الشيء الوحيد الذي حصلت عليه لاستعادة كريستين. مهنة ثابتة، حياة سهلة، دون ضغوط ولا مخاطر. ليس هناك من خطر على العائلة. إذا حصلت على العمل في «كارب لو»، ستكون لي فرصة كبيرة لاستعادة زوجتي. وبدون هذا العمل، هي لن تصدّق أنني حصلت عليه في المقام الأول، سأكون إيدي فلاين الكاذب مرة أخرى.

تنهدت، أخذت نفساً عميقاً، وأومأت برأسي.

خرجت إلى الممر وتبعتُ رودي إلى المصعد. عدّل ربطة عنقه، وضغط على زرّ طلب المصعد. ورآني أقترب.

«ولد ذكي»، قال رودي.

وقفت بصمت، منحني الرأس. انفتحت أبواب المصعد، دخل رودي إلى الحجرة ولم أتزحزح. تحركت الأبواب باتجاه الإغلاق فمد رودي يده لإيقافها وقال: «هيا يا إيدي! حان الوقت للرحيل. القضية انتهت».

«لا»، أجبته، «لقد بدأت القضية للتو. شكراً على عرض العمل».

كنت قريباً من الزاوية ومتجهاً إلى القسم الطبي عندما سمعت الأبواب تُغلق. عادت المُسعفة إلى الغرفة، ورأيتها تحاول التخفيف عن بوبي. رآني واقفاً في الممر. كان وجهه رطباً؛ لقد بلل العرق قميصه بالكامل، وكانت المسعفة تحاول جاهدة أن تعيده إلى وضعية الاستلقاء لكنه يقاوم.

«هل أستطيع الدخول؟»

أومأ موافقاً. تراجعت المسعفة إلى الخلف.

علّق بوبي إبهاميه بأطراف أكمامه ليمسح وجهه. لقد بدا شاحباً، واستطعت أن أراه يرتجف. بدا صوته كأغصان شجرة تتكسر في العاصفة.

«لا أكترث بالأستوديو، أريد فقط لهذا الأمر أن ينتهي. أنا لم أقتل «أرييلا أو كارل». أريد أن يصدّق الناس ذلك».

لا تتشابه ردود أفعال اثنين من المتهمين في أية محاكمة جنائية. قد ينهار بعضهم من اليوم الأول، بينما لا يبالي الآخرون بأي شيء - فقد دخلوا السجن سابقاً، ولا يهمّهم احتمال قضاء عقوبة أخرى. وهناك من يتعامل مع الأمر على مراحل، يكون مغروراً في البداية، ومفرطاً في الحماس، ويصبحون أكثر ثقة مع اقتراب المحاكمة. لكن في الوقت نفسه يتصاعد القلق، ثم سرعان ما تتلاشى الثقة من خلال الخوف الشديد. وعندما تبدأ الماكينة القضائية بتحريك مسنناتها في اليوم الأول من المحاكمة - ينهارون تماماً.

إن بوبي من الفئة الأخيرة. إنها فترة هامة جداً. اليوم الأول من المحاكمة بجريمة قتل هو للسباحة أو الغرق. ومن دون شكّ، كان بوبي يغرق.

«يبدو أنك بحاجة إلى محامٍ».

للحظات، بدت عيناه نصف مغمضتين. زال التوتر عن كتفيه، وبدا مسترخياً. لم يستمرّ الاسترخاء طويلاً.

«لا أستطيع أن أدفع كما يدفع الأستوديو، ورأيت كتفيه ينكمشان مجدداً. ويعود الذعر إلى وجهه.»

«هوّن عليك. رودي دفع لي ما فيه الكفاية؛ ما زلت أعمل من ماله. لكنك موكّلي، وسأبذل قصارى جهدي للدفاع عنك إذا كنت ترغب بذلك».

مدّ يده إليّ فأخذتها بيدي.

«شكراً جزيلا...»

«لا تشكرني الآن. لا نزال غارقين في القذارة هنا يا بوبي».

أسند رأسه إلى الخلف وأطلق موجة ضحك عصبية. ثم توقفت فجأة بعد اصطدمت بالواقع من جديد.

قال: «أعلم ذلك، لكنني على الأقل لست غارقاً في هذه القذارة وحدي».

الفصل الثاني والثلاثون

ينبغي على المحلفين أن يعتادوا الانتظار. لكن معظمهم لا يجيدون ذلك؛ إذ يصبحون مضطربين, وغاضبين, ومحبطين عندما يشعرون بضياع الوقت. لكن كين تدرّب كثيراً على هذا الأمر؛ كان رجلاً صبوراً. بدأت شبكات التدفئة تصدر صوتاً في غرفة هيئة المحلّفين، وأطلقت الأنابيب صفيراً. كان الجو بارداً في الخارج، ونظام التدفئة يقاوم كي يبقى الجو مستقرّاً.

بقي كين ساكناً في مكانه إلى الطاولة. وانقسم باقي الأعضاء إما ليجلسوا بقلق، أو لتناول القهوة والدردشة قليلاً. وتابعت النساء حديثهن عن بريندا، بينما تحدث الرجال عن الرياضة. باستثناء سبنسر؛ لم يكن محبّاً للرياضة، فكان يحدّق عبر النافذة بينما تحلّق موجة من الثلج في الهواء.

أخرج سبنسر محفظته التي تحتوي على كمية قليلة من الأوراق النقدية ثم التفت إلى كين وقال: «أربعون دولاراً في اليوم. لن أرسل رجلاً إلى السجن لبقية حياته مقابل أربعين دولاراً في اليوم»، ثم كزّ على أسنانه.

شاهد كين وجه سبنسر على قائمة المحلّفين المفضلين لفريق الدفاع. يُعرفُ بعض المحلّفين بالتزامهم المطلق بالقانون - وبكونهم ممثّلين للسلطة، ويتخيّل البعض أنفسهم دائماً في محاكمة. ينتمي سبنسر إلى هذا الفئة. ولم يكن من الصعب معرفة السبب الذي جعل الدفاع يرغب به في هيئة المحلّفين.

«متى سنحصل على الأجر برأيك؟» سأل سبنسر.

هزّ كين رأسه ولم يتكلم.

يؤمن كين بأن المال يُخرج أسوأ ما في الناس. يتذكر كين بعد ظهر يوم صيفي مضى عليه الزمن، ربما بعد أسبوع من عيد ميلاده العاشر، كانت والدته تقف قرب حوض المطبخ، تغسل الأطباق وتستمع إلى الموسيقى، وتبرق أشعة الشمس على شعرها. كان ثوبها رثاً جداً لدرجة بدا شفافاً تقريباً. وكانت قد تناولت كأسين من الشراب كما تفعل دوماً في فترة بعد الظهر. وعندما ابتعدت عن الحوض والتفتت، أضاءت الشمس ثوبها. كان شعرها يتمايل، وتطايرت رغوة الصابون من الفرشاة لتستقرّ على أنف كين. كانت

ألواح الأرضية في المزرعة القديمة تئن بفعل الحرارة، ويترافق صوتها مع الموسيقى.

يتذكر كين الضحك. فكّر بأنها ربما كانت المرة الأخيرة التي شعر فيها بسعادة حقيقية.

جاء الرجل في وقت لاحق من اليوم ذاته. كان كين جالساً في أرجوحة تحت تلك الشجرة العتيقة التي سقط عنها منذ بضع سنوات. أوشكت الشمس على المغيب، وسمع صرير الغصن فوقه وهو يحرّك ساقيه للأمام والخلف. ثم سمع صوت زجاج يتكسر، وصراخاً. اعتقد في البداية أنه ربما كان صوت الريح، أو صوتاً غريباً من الحبال التي تحمل الأرجوحة، لكنه سرعان ما أدرك أنه لم يكن كذلك. فركض نحو المنزل، منادياً أمه.

وجدها على أرضية المطبخ، والدم على وجهها، وشيء أسود ضخم فوقها.

رجل ذو شعر بني داكن، يرتدي سروال جينز قذر، وقميصاً متسخاً. بدت رائحته كرائحة القس في أمسيات أيام الآحاد. تلك الرائحة الغريبة الناعمة المشابهة لرائحة الأرض، أسمتها والدته رائحة «ويسكي البوربون». أدار الرجل رأسه وثبّت عينيه الحمراوين على كين.

«إذاً هذا هو الصبي»، قال الرجل.

«لا، لا، لا، قلت لك إنني لم أعد أريدك هنا بعد الآن...» فصفع الرجل والدة كين بشدّة.

«اخرج من البيت لبعض الوقت، سأعالج الأمر معك لاحقاً»، قال الرجل.

ثم التفت إلى الأم وقال: «هو لا يشبهني بأي شيء. حسناً، يعني أن بإمكاننا الحفاظ على اتفاقنا الصغير. لقد مرّ وقت طويل».

صرخت الأم فاندفع الولد راكضاً حتى وجد نفسه فجأة على الجانب الآخر من المطبخ. التفت الرجل وجذب كين إلى الغرفة. وصدر عن الصفعة القوية التي تلقّاها كين صوتاً قوياً جعلت الأم تعتقد أن ابنها مات. اصطدمت مؤخرة رأس كي بالجدار فسقط على الأرض.

صرخت الأم بصوت أعلى من السابق.

سرى إحساس بالدفء على خد كين. نهض عن الأرض ورفع يده، كانت المرة الأولى التي يرى فيها دمه في حياته كلها. تلك الضربة جرحت وجهه. وبينما كان معظم الأولاد يفقدون الوعي، أو يصرخون من الألم، أو ينسحبون إلى الزوايا خائفين، لم يشعر كين سوى بموجة غضب. لقد آذاه هذا الرجل، وكان يؤذي أمه.

اندفع بسرعة نحو حوض المطبخ. ورأى مقبض سكين والدته الأسود الكبير بارزاً من حوض الغسيل. لقد حذّرته والدته مرة تلو مرة من لمس هذه السكين. وعندما التقط المقبض بيده، كان يأمل بأن تسامحه على ذلك.

رفع الرجل عينيه مرة واحدة، ونظر بارتباك. لقد أوشك أن يقتل الصبي لكنه يراه وقفاً أمامه الآن. تجمّدت تلك النظرة المرتبكة في وجهه، وتدلّت وجنته اليسرى، وعينه أيضاً. وأصبحت عينه اليمنى بيضاء. لكن كين عرف تماماً أن مقلة العين تدور بسرعة.

نهضت والدة كين عندما سقط الرجل على الأرض. أمسكته أمه، وهدهدته وغنّت له. طوال تلك الفترة، كان كين يحدّق في طرف السكين الكبير الناتئ من مؤخرة رأس الرجل.

أحضر كين عربة يدوية قديمة صدئة، ونقلت والدته الجثة إلى الحقل الخلفي. كان يعرف ما الذي تفعله. بذل قصارى جهده ليمنعها من الذهاب بعيداً في الحقل، لكنه كان يعلم أن لا جدوى من ذلك. لقد اتجهت نحو التلّة الكبيرة المُغطاة بالطحالب، كانت الجهة الخلفية من التلّة جوفاء. فإذا دفنت رجلاً هناك، لن يتمكن أحد من رؤيته حتى يقف فوق القبر تقريباً.

انزلقت العربة من يديها في أعلى التل، وانزلقت جثّة الرجل وسقطت في قاع الجوف. كانت الأرض مظلمة وطرية، فاستجابت بسهولة للمجرفة الكبيرة التي حملها كين على كتفه.

لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى وجدت والدة كين أول مجموعة من العظام؛ عظام صغيرة. وكلما حفرت أكثر، وجدت المزيد. عظام حيوان مدفون في الأرض الرطبة الضحلة. لم تقل أي شيء لكين، لقد دفناه معاً.

مع انتهاء العمل، كانت والدة كين مغطاة بالتربة والدماء، فركعت قربه. وضعت يديها إلى وجنتيه الطريتين الملوّثتين بالقذارة وقالت: «لن أتحدث عن الحيوانات، كنت أعرف دائماً أنها من فعلك. سنبقي كل ذلك سرّاً بيني وبينك. أعدك، هل تعدني؟»

أوماً كين، ولم يتحدثا عن ذلك مرة أخرى إلا بعد سنوات. عرف الحقيقة عندما بلغ الخامسة عشر من عمره. أخبرته والدته أن الرجل كان ابن عمها، وأنه عندما توفي جدّ كين تاركاً لها المزرعة القديمة، عرض عليها ابن عمها مساعدة مالية. كان يعمل في جميع أنحاء البلاد، ولديه دائماً بعض المال لامرأة محتاجة. إنها بائسة جداً؛ ليس لديها طعام، ولديها فواتير، ولا تستطيع العمل بالأرض. كانت تلك النقود بمثابة بداية لها. أخبرت كين بأنها كانت تكره كل دقيقة أمضتها مع ذلك الرجل. كما أخبرته أن والده لم يكن فعلاً أحد أولئك البحارة الذين قُتلوا في مكان بعيد. بل كان هو؛ الرجل الذي دفناه سوية.

أخبرت كين أنها آسفة. فقد كانت بحاجة إلى المال. فأخبرها كين بأنه يتفهم ذلك. وتفهّم ذلك فعلاً.

لكنه لم يخبرها بالجزء الآخر؛ الجزء الذي يعرف أنه لا يُفترض أن يُخبر به أي شخص على الإطلاق. وهو أنه عندما غرس السكين الكبير في وجه ذلك الرجل، شعر بالارتياح.

ارتياح حقيقي.

شعور من الصعب أن يتكرر بمرور الزمن.

تجاهل تلك الذكريات ونظر مرة أخرى إلى سبنسر، عرف أن عليه التعامل مع المحلّفين أمثاله. بعض الناس لا يمكن إقناعهم. فبغضّ النظر عما حدث في قاعة المحكمة، وعن مدى جداله في غرفة هيئة المحلّفين، كان سبنسر يصوّت دوماً بطريقة واحدة. والأمر نفسه ينطبق على الموسيقي مانويل، الذي كان مفضّلاً أيضاً لهيئة الدفاع.

كان أشخاص كُثر على المحكّ بالنسبة إلى كين. هو لا يستطيع المخاطرة بأن ينهار كل شيء في غرفة المحلّفين. عليه أن يتعامل مع مشكلته قبل أن تصل إلى هذا الحد.

ويعرف كين تماماً ما يجب فعله مع سبنسر ومانويل.

كارب لو

شقة رقم ٤٢١، مبنى كوندي ناست، ٤ تايمز سكوير» نيويورك.

سريٌّ للغاية، وثيقة عمل بين المحامي وموكله

مذكّرة هيئة المحلفين

الادعاء العام ضد روبرت سولومون

المحكمة الجنائية في مانهاتن

إليزابيث مولر (بيتسي)

العمر: ٣٥

ربة منزل. لديها خمسة أطفال دون سن العاشرة، متزوجة من مهندس معماري، وتعمل كمدرّبة كاراتيه في عطلة نهاية الأسبوع. جمهورية. لديها مخالفات سابقة بسبب ركن السيارة بطريقة خاطئة (لا استثناء لخدمة هيئة المحلفين). تعاني من ضائقة مالية. تعمل بمجال تحديث الأثاث المنزلي، والبيع على موقع « eBay ». وسائل التواصل الاجتماعي - فيسبوك وإنستجرام - وتحديداً بصفحات الفنون القتالية والدفاع عن النفس.

احتمال أن تصوّت بغير مذنب: ٥٤٪

أرنولد نوفوسليك

الفصل الثالث والثلاثون

تركت بوبي في القسم الطبي، وعدت إلى قاعة المحكمة. اتصل الموظف بالمسعفة وأخبرها أن هاري يطلبني أنا والمدّعي العام في غرفته.

عندما عدت إلى قاعة المحكمة، وجدت جهاز لابتوب واحد على طاولة الدفاع. إنه اللابتوب الخاص بي، وعليه ملف مضغوط: ملفّ القضية. على الأقل لا تزال الملفات بحوزتي.

سمعت صوتاً يقول: «مرحباً، هل تمانع أن أبقى في الجوار؟»

اتخذ أرنولد نوفوسليك مكاناً إلى الطاولة، ووضع ملفاً كبيراً قرب اللابتوب الخاص بي.

«اعتقدت أنك غادرت المحكمة مع كارب»، قلت له.

دفع كرسيه إلى الخلف والتفت إليّ قائلاً: «أخذت أجري مقدماً، أستطيع الذهاب في أي وقت. لكن مستشار هيئة المحلّفين سيكون بخير بقدر ما تكون قضيته الأخيرة جيدة. أنت تعلم ذلك، لا بدّ أن أطلع على هذا الملف. ربما أستطيع المساعدة، لا أعرف. أنا لم أنسحب من قضيّة قبل الآن، وهذه القضية تغريني».

«يغريني أن أطردك، لكن الأمر لا يعني أنه ليس لدي ثغرة في فريق الدفاع. بالإضافة إلى ذلك، لقد كنتَ أول شخص يساعد «بوبي» عندما تعرّض للنوبة الآن».

«لدي لحظات من الضعف»، قال ذلك وهو يفتح ملفّه ويسلمني وثيقة.

«هذه قائمة هيئة المحلّفين المعدّلة، وفيها السيرة الذاتية لكل محلّف. لقد قمت بتعديلها هذا الصباح بعد أن علمنا بالخبر». قال أرنولد.

«أي خبر؟»

«حسناً، كان عليّ أن أضيف اسم عضو احتياطي. انظر، أحد الأعضاء الأساسيين، بريندا كولوسكي، تعرّضت للدهس الليلة الماضية، لقد توفيت،

وتشتبه الشرطة بطريقة موتها. رأيت ملازماً جاء لرؤية القاضي هذا الصباح».

«تباً».

«أنا أعرف ما يجري، مساعد هاري يبحث عنك، وبريور ينتظر هناك سلفاً. افعل ما بوسعك لتقنع القاضي ألّا يحتجز هيئة المحلّفين»، قال أرنولد.

«هل تحاول أن تعلّمني كيف أقوم بعملي؟»

«لا، لكنني لا أثق بك. وأنت لا تحبني. لنبدأ بالصراحة وننطلق من هنا».

أومأت بالموافقة، وتركته ينثر أوراقه وملفّاته على المكتب. أنا وأرنولد لسنا منسجمين. لكن مستشاري هيئة المحلّفين كانوا شرّاً لا بدّ منه في المحاكمات الكبيرة. إنهم يكلّفون الكثير، ومدى تأثيرهم غير واضح أبداً على النتائج.

على أية حال، كان أرنولد على حقّ في شيء واحد، حيث كان احتجاز هيئة المحلفين أسوأ ما يمكن أن يحدث في المحاكمة, ولم يكن أي من الطرفين يريد ذلك. فأنت تستغرق أسابيع، وأشهر، لاختيار هيئة محلّفين مثالية. وغالباً ما يبحث الدفاع عن النمط المُبدع؛ أناس يُفسحون المجال للخيال. بينما يريد الادعاء نحلاً طناناً. أناس يفعلون ما قيل لهم لكسب العيش، ولا يتذمّرون من ذلك. ويحاول كل طرف ملء مقاعد الهيئة بالنوع الذي يرغب به.

يريد الدفاع مفكّرين.

ويريد النائب العام جنوداً.

لكن ما يريده فعلاً كلُ طرف هو عضو الهيئة الذي يتخذ قراره عبر الاستماع للمحامين والشهود. ويُفترض بهيئة المحلّفين أن تتشكّل من العقول الحرّة المتنوّعة الممثلة للبشر القاطنين في تلك المنطقة.

عندما يتم احتجاز هيئة المحلفين، وعزلها عن العالم الخارجي ووضعها تحت الحراسة، تختلف طرق تفكيرهم؛ حيث يقضون الكثير من الوقت معاً في ظروف لا تُعتبر جزءاً من حياتهم الطبيعية. يبقى أعضاء الهيئة كلهم معاً، ويشكّلون كتلة واحدة. «**نحن**» ضدّهم. و«**هم**» عادة أعضاء النظام القضائي الذين يقولون إنهم لا يشاهدون التلفاز، ولا يقرؤون الصحف، ولا يذهبون إلى

منازلهم ما لم تنتهِ المحاكمة. عندئذٍ لا تعود هيئة المحلّفين مجموعة من الأفراد بل تصبح عقلاً مشتركاً واحداً.

إنه أمر لا يُناسب الدفاع ولا الادعاء، لأنه ما من أحد على الإطلاق يعرف الطريق الذي ستسلكه هيئة محلّفين معزولة. كما أن أي طريق سيختارونه سيكون سريعاً على الأرجح. سوف يشعرون بالملل، ويكتفون سريعاً من المحاكمة والعزلة، وسيقومون بإصدار حكمهم بسرعة لإنهاء هذا الكابوس وحسب. لن يهمهم أكان مذنباً أم لا، فهم سيختارون أسرع طريقة للخلاص من تلك المشكلة، ليتمكنوا من العودة إلى بيوتهم.

أشارت الموظفة إلي عندما وقفت بالباب المؤدي إلى الممر الخلفي. اتجهت إلى منصّة الشهود خلف كرسي القاضي، وتبعتها خارج القاعة عبر الممر البارد إلى الغرفة. كان بريور يستند إلى الجدار خارج مكتب هاري. طرقت الموظفة الباب مرة واحدة ثم أدخلتنا. لم يقل بريور أية كلمة حتى فُتح باب غرفة هاري.

«كيف حال موكلك؟» سأل بريور.

«سيكون بخير».

«تفضلا بالجلوس»، قال القاضي قبل أن يتمكن بريور من المتابعة.

كانت غرف القُضاة تعكس شخصياتهم، لكنها كانت أيضاً مواقع رسمية للإجراءات القضائية، لذلك كان هناك حدّ للمدى الذي يحيلونها فيه إلى أماكن شخصية لهم. فباستثناء بعض صور هاري وهو يرتدي الزي العسكري في فيتنام، وصورته المؤطرة الموقّعة مع «مايك جاغر»، لم يكن هناك أية أشياء شخصية في الغرفة.

اتخذت الموظفة مكانها على طاولة صغيرة في الزاوية. وجلست أنا وبريور على المقاعد الجلدية أمام مكتب هاري. انتظرنا حتى انتهى من سكب القهوة لنا جميعاً بمن في ذلك الكاتبة، وأخذ مكانه خلف مكتبه، وأفسح مجالاً لمرفقه بعد أن أبعد بعض الملفات الموجودة. انحنى بكامل جسده إلى الأمام وأمسك فنجان القهوة بكلتا يديه.

«مشكلتنا الأولى أن كارب غادر المبنى. أفهم من ذلك أنك تطلب تأجيلاً يا إيدي».

«ربما لا»، أجبته، «لقد استدعيت معظم شهود الشرطة، وبعض الخبراء. وكنت أنا من سيتعامل مع أولئك الشهود، وبما أن السيد بريور لن يفاجئني بأي شيء اليوم، سأكون على خير ما يرام. إذا عالجنا شهود الشرطة والخبراء حتى يوم الجمعة، سأحظى بوقت كافٍ لاستدعاء الشهود المدنيين خلال عطلة نهاية الأسبوع».

«على ذكر الشهود، لقد قرأت قوائم الشهود الخاصة بكما. لديك خمسة وثلاثون شاهداً في قائمتك يا آرت. ولدى إيدي سبعة وعشرون. هل يسخر أحدكما من الآخر؟ لقد قرأت ملفات القضية، تستطيع يا آرت أن تُنهي هذه القضية بدعوة خمسة أو ستة شهود على الأكثر. وأنت يا إيدي، ليس لديّ أية فكرة عن نصف الشهود المذكورين في قائمتك. أقدّر بأن رودي هو من وضع القائمة، لكن بالله عليك يا إيدي، أخبرني بجدية، من هو المدعو غاري تشيزمان؟»

إن قائمة شهود المحكمة أشبه بلعبة، إذ يمكنك أن تضع في القائمة أي شخص تعتقد أنك قد تحتاج إليه. كما يمكنك، إضافة إلى ذلك، أن تضع أشخاصاً إضافيين لمجرّد العبث مع خصومك، ودفعهم إلى إضاعة الوقت بمطاردتهم.

«انظر يا هاري، لن أقوم بمراجعة قائمتي ومناقشة جدارة كل شاهد. إذا اختصر آرت قائمته، فهذا جيد، سأختصر قائمتي أيضاً. أعلم ما تعنيه، نحن نسعى بهذه القوائم إلى جذب أكبر قدر من اهتمام الجمهور ووسائل الإعلام. وإذا قمنا باختصارها، فيمكن أن ننتهي من هذه المحاكمة خلال أسبوع ونصف».

«لا، سنختصر القائمة ونعمل على إنهاء هذه المحاكمة يوم الجمعة القادم»، قال هاري.

«يوم الجمعة؟ حسناً، طموح عظيم»، قال بريور.

توقفنا دقائق، وشربنا القهوة. وضع هاري فنجانه، وشبك أصابعه وأسند مرفقيه على المكتب. ثم أسند ذقنه على رأس القوس الذي صنعه بيديه وقال: «لقد احتجت هيئة المحلّفين. وهو أمر من ضمن صلاحياتي التقديرية القضائية. لا أريد أي جدال بهذا الشأن لأنني لن أغيّر رأيي. أنا أشعر بالقلق».

«بسبب السيدة كولوسكي؟ من المؤكد أن ذلك كان مجرد حادث مؤسف ومأساوي».

«استقبلت عناصر من شرطة نيويورك هذا الصباح، وهم على يقين من أن السيدة كانت مُستهدفة. لقد كانت موظفة في مكتبة، وشخصية معروفة في المجتمع، وتحظى باحترام كبير. لم يكن ثمة دافع لقتلها إذا استثنينا أنها اختيرت من ضمن هيئة المحلّفين هذه».

«إنه احتمالٌ بعيد من وجهة نظري يا حضرة القاضي».

«هذه مسؤوليتي هنا. ربما كان احتمالاً بعيداً، لكن إذا لم أحتجز هيئة المحلّفين، وحدث مكروه لأحد الأعضاء.....»

«لتفعل ما تراه صحيحاً يا هاري. هل صرّحت الشرطة عن مبررات شكوكها بأنها كانت مستهدفة؟» سألت القاضي.

«لا، لكنهم يحققون بالأمر. لذلك أيها السادة، أعيدوا مراجعة قوائم الشهود واختصروها. وإذا قام أحدكم باستدعاء شاهد واحد ظننت أنه غير مفيد، سأعاقبه. وكلما طالت مدّة المحاكمة، أصبحت هذه الهيئة محطّ أنظار أكثر. من ستدعو أولاً يا آرت؟ قال هاري.

«المحقق الرئيس. سنفعل ما بوسعنا للانتهاء من شهادته اليوم»، أجاب آرت.

أومأ هاري موافقاً وقال: «سمعت أن موكلك يعاني من نوبات صرع. هل هو بخير؟»

«أظن ذلك، وكلما أسرعنا بهذه المحاكمة كان أفضل».

غادرنا غرفة هاري معاً. بينما بقيت الكاتبة هناك لإعداد ملفات القاضي. كنا نعرف طريقنا ولم يكن هناك داعٍ لأية مرافقة.

«بدافع الفضول فقط. من هو غاري تشيزمان؟ لقد بحث المساعدون في صفحات الإنترنت، ولم يتمكنوا من العثور على أي خبير، أو أي شخص مرتبط عن بعد بهذه الجريمة، يحمل هذا الاسم. والمثير للدهشة أن هناك عدداً قليلاً من الأشخاص الذين يحملون هذا الاسم في الولايات المتحدة. أودّ أن أعرف لماذا ظهر في القائمة بالأمس». قال بريور.

«ربما لا أكون بحاجة لاستدعائه. هذا كل ما أستطيع التصريح به الآن».

«حسناً، كنت أعلم أنني سأتلقّى منافسة جيدة من رودي، من العار أن ينسحب. آمل ألا تشعر بالخيبة».

هززت رأسي. يجعلني أمثاله أشعر بالاشمئزاز؛ لقد كان في هذه القضية من أجل المال فقط. الجميع في نهاية المطاف لا يبالون بجثث الموتى والمآسي والأشياء المروعة التي يفعلها أحدهم مع الآخر. هذا أمر مختلف. ليس استخفافاً أو أي شيء من هذا القبيل. إنه الأمر الشائع. منذ سنوات طويلة، وقبل أن أصبح محامياً، أقسمت بأنني لو اعتدت النظر إلى مشاهد القتل دون أن يراودني أي شعور نحو الضحايا، ستكون نهاية الطريق بالنسبة لي.

«انظر، أفهم ذلك. تريد أن تكسب القضية، حسناً. هذه ليست مباراة في التبوّل يا بريور، لقد قُتِلَ شخصان».

«وبعد نهاية المحاكمة، سيبقون أمواتاً»، أجاب بريور.

فتحت الباب الموجود في نهاية الممر وخرجت إلى قاعة المحكمة. كانت ممتلئة، وتعجّ بالمراسلين ومذيعي القنوات الإخبارية، ومعجبي أرييلا بلوم، وعدد قليل من معجبي بوبي. كانت القاعة أشبه بسيرك لعين.

لحقني بريور إلى القاعة فشاهد الحشد الكبير وقال: «أنت مخطئ بأمر واحد فقط؛ إنها مباراة تبوّل. وعندما يُقال كل شيء، ويتم العمل على كل شيء، ينتهي الأمر لصالح من لديه المحامي الأفضل. أنت كبير بما يكفي لتفهم ذلك يا بني. يوم الجمعة القادم، سأقف أنا أمام الكاميرات وأعلن العدالة لأولئك الضحايا، لم أخسر قضية واحدة منذ عشرين سنة. ولن أخسر هذه أيضاً».

أطلّ في الرواق بذلك البياض اللؤلؤي، ووقف هناك رافعاً يديه فوق رأسه، معدّاً نفسه لإعلان النصر. صفّق الحشد، وانطلقت بعض الصفرات والصرخات من ناحية معجبي بوبي، لكنها لم تكن كثيرة. أحضر أرنولد بوبي إلى المحكمة، وجلس كلاهما بصبر على منصّة الدفاع. بدا بوبي شاحباً، ولمعت قطرات العرق على جبهته، وأخذتُ مكاني إلى جانبه.

«يبدو أن الجميع ضدّي»، قال بوبي.

«لا تقلق حيال ذلك» أجبته. «مع نهاية هذا اليوم، سوف تتغير الأمور جذرياً، انس هؤلاء الناس، لا يهمنا في هذا المكان سوى هيئة المحلّفين. فبقدر ما تكون عادلة، سنكون بخير».

«على ذكر هيئة المحلّفين، هل اطلعت على القائمة المحدّثة؟» قال أرنولد.

فتحت القائمة التي قدّمها لي وبدأت أقرأ. حان الوقت للتعرّف على هيئة المحلّفين هذه، اثنا عشر عقلاً. لم تكن أفضل هيئة محلفين قياساً بما كنت آمل به، وهي ليست الأسوأ بالتأكيد. لدي ثلاثة أيام لأجعلهم في صفي. ثم رنّ هاتفي، فظهرت رسالة نصيّة من هاربر. «قابلني أنا وديلاني في الاستراحة. لقد وجدنا المزيد من الضحايا».

الفصل الرابع والثلاثون

عندما اتخذ كين مقعده في هيئة المحلّفين تنافس مع ريتا على الموقع، فانتقلت إلى الأمام وتركته يشغل مقعداً. كان آخر محلّف في الصف الخلفي، والأقرب إلى المخرج. جلس سبنسر أمامه في مقعد منخفض، إلى اليمين قليلاً. فإذا نظر مباشرة إلى منصّة الشهود أمامه، يستطيع بسهولة أن يرى من فوق كتف سبنسر.

رائع.

حصل المحلّفون على نسخ من أوراق القضية ضمن ملف أحمر، بالإضافة إلى بعض الأقلام والدفاتر. وأصدر القاضي فورد تعليمات لهيئة المحلّفين ليضعوا الملفات على أقدامهم وأنه سيقوم هو أو مستشاره بتوجيههم إلى الصفحة المطلوبة عند الضرورة. وهم أحرار بتدوين الملاحظات.

أبقت معظم النساء، باستثناء كاساندرا، دفتر الملاحظات مفتوحاً، وأمسكن الأقلام بحالة استعداد، وكذلك فعل سبنسر. بينما وضع مانويل دفتر ملاحظاته في حضنه، ووضع قلمه الجديد بين أسنانه. أما بقية الرجال فقد وضعوا كل شيء على الأرض، وأبعد كلٌ منهم ساقيه على أوسع نطاق يسمح به الأدب، وضم ذراعيه إلى صدره.

بلغت الأصوات الصادرة عن الناس في مقاعد العامة مستوى الضجيج. كان هناك هياجٌ في الغرفة، مدمنو المحاكم، روائيو قصص الجرائم الحقيقية، صحفيو ومراسلو قنوات إخبارية، الجميع كان يثرثر. ومع أنه لم يتم التصريح عن أية تفاصيل تخصّ الجريمة، فقد كانت الأساسيات التي تم عرضها كافية لإشعال الصحف اليومية. كان لديهم معلومات كافية لنشر القصة وإعادة نشرها لكن دون أية تفاصيل حقيقية. يعرف كين أن صحيفة «واشنطن بوست»، قد أطلقت على هذه المحاكمة اسم محاكمة القرن. ومعظم الناس متفقون على ذلك. وقد بقيت كذلك حتى جاءت محاكمة قتل المشاهير الكبرى التالية. وحتى ذلك الحين، وبالنسبة لنيويورك، كانت تلك هي الأخبار الهامة. الأخبار المسائية.

أمر القاضي بالصمت، فانخفض الضجيج. تفحّص كين الحشد ورأى الكثير من أفراد عائلة أرييلا. ثم ألقى نظرة على منصّة الدفاع فاكتشف أن رودي كارب

غير موجود. ليس هناك سوى «فلاين» المحامي وأرنولد نوفوسليك، مستشار هيئة المحلّفين.

ثمة أمر ما يحدث. ربما قام سولومون بطرد محاميه الآخرين، وعيّن فلاين عوضاً عنهم. **ستكون تلك غلطة فادحة** من وجهة نظره.

كانت البداية للادعاء. يحب كين هذا الجزء كثيراً.

نهض بريور، ووقف وسط القاعة مقابل هيئة المحلّفين. يستطيع كين أن يشتمّ رائحة عطر ما بعد الحلاقة لبريور منذ مدة طويلة. كان عبقها قوياً لكنه ليس مزعجاً. وقبل أن يتحدث، استطاع كين أن يلحظ استمتاع المدّعي بحالة الصمت. كانت العيون كلها تتجه نحوه.

ومع أول خطوة باتجاه هيئة المحلّفين، كراقص يتحرّك مع أول نوتة موسيقية للأغنية، بدأ بريور مرافعته الافتتاحية.

«سيداتي وسادتي أعضاء هيئة المحلّفين، أسعدني التحدث إلى بعضكم يوم أمس، أثناء جلسات الاختبار، لكنني أعتقد أن عليّ أن أقدّم نفسي. لقد أخبرتني أمي دوماً أن أكون مهذباً. وبناءً عليه، أيها السيدات والسادة، اسمي «آرت بريور». أريدكم أن تتذكروا هذا الاسم جيداً لأنني أقف الآن هنا لأعدكم ثلاثة وعود».

عدّل كين جلسته ولاحظ أن أعضاء آخرين في الهيئة فعلوا الشيء ذاته. وشاهد بريور يرفع سبابته.

«أولاً، أتعهد بأن أقدم لكم الحقائق التي تُثبت أن روبرت سولومون قتل أرييلا بلوم وكارل توزر بدم بارد. وأنني لن **أتكّ ن** ولن **أنظّر**، بل سأريكم **الحقيقة**».

ثم رفع إصبعه الثاني.

«ثانياً، أعدكم بأن أبيّن لكم أن روبرت سولومون كذب على الشرطة بشأن تحركاته في ليلة الجريمة؛ لقد أخبر الشرطة بأنه عاد إلى المنزل عند منتصف الليل. سوف أثبت أنه كذب في هذه النقطة لإخفاء مشاركته في جريمة القتل هذه».

ثلاثة أصابع.

«ثالثاً، أتعهد بأن أقدّم لكم دليلاً جنائياً قاطعاً يكشف بأن روبرت سولومون كان في مسرح الجريمة. وسأريكم بصمات أصابعه، وحمضه النووي، على كل شيء تم إدخاله في حلق كارل توزر، بعد أن قام بقتله».

سرت رعشة ممتعة في جسد كين. كان آرت يقدّم عرضاً ساحراً، إنه أفضل أداء رآه. وعندما أنزل بريور يده وثبتها على جنبه، قاوم كين الرغبة بالتصفيق. كان صوته يغصّ بالتعاطف والشفقة على الضحايا، والغضب المبرر لذكر اسم سولومون.

«سيداتي سادتي، سأحافظ على وعودي لأنني سأزعج والدتي العزيزة في قبرها إذا فشلت في هذا الواجب. إنها قضيّة عن الجنس والمال والانتقام. لقد وجد روبرت سولومون زوجته في الفراش مع رئيس الأمن، كارل توزر. كان يعلم أنهما يقيمان علاقة غرامية، وأن زواجه قد انتهى. فانهار على رأس كارل تورز بمضرب بيسبول، ثم أخذ سكيناً طعن به زوجته **مرة تلو مرة تلو مرة**. وقام بعدها بطيّ ورقة من فئة الدولار وحشرها في حلق توزر. ربما اعتقد أن توزر يطمع بمال أرييلا؟ لم يكن ليسمح بذلك. إذا ماتت أرييلا، سيرث المدّعى عليه كل أموالها البالغة اثنين وثلاثين مليون دولار».

«سأكشف أمامكم أنه كذب على الشرطة، وسأقدّم جميع الأدلّة الجنائية التي تُثبت أنه القاتل. بعد ذلك، يعود الأمر إليكم. أنتم فقط من يتمتّع بسلطة منح الضحايا العدالة التي يستحقونها. ليس بإمكانكم أن تعيدوا إليهما الحياة، لكن باستطاعتكم أن تمنحوهما السلام. ويمكنكم أن تجدوا أن روبرت سولومون هو المُذنب».

عاد بريور إلى منصّة الادعاء، وتابعه كين بنظراته أثناء عودته. رآه يسحب منديله ويمسح شفتيه كما لو أنه يمسح الغضب عنهما. ثم صفّق معظم الحاضرين فأمر القاضي بالصمت.

بانحنائه إلى الأمام قليلاً رأى كين الملاحظات التي دوّنها سبنسر على دفتره. ألقى نظرة طويلة متفحصاً الأسلوب، الحجم، السمات الأساسية لحروف معيّنة. وعندما استند مجدداً على مقعده، ألقى نظرة على منصّة هيئة المحلّفين. ترك رفاقه أعضاء الهيئة موجة المشاعر تغوص في أعماقهم. أومأ البعض منهم متأثراً دون أن يدركوا ذلك.

اللعنة، كان ذلك الرجل رائعاً، فكّر كين.

الفصل الخامس والثلاثون

كان هاري على حق، بدا بريور محترفاً حقيقياً في قاعة المحكمة. لقد استمعت إلى مرافعته الافتتاحية، وراقبت هيئة المحلّفين بعناية.

عندما انتهى، نظرت إلى بوبي فرأيته يرتعش. انحنى إليّ وقال: «هذه كلها أكاذيب. وإذا كان كارل على علاقة بأرييلا، فلم يكن لدي علم بذلك. أقسم بالله يا إيدي أن هذا مجرّد هراء».

أومأت برأسي وطلبت منه أن يهدأ. همس أرنولد: «لقد كسب بريور هيئة المحلّفين، وعليك أن تختطفها منه».

كان على حق. استخدم بريور خدعة محامين قديمة كانت تُسمّى «الحقيقة الرياضية» حيث يرتبط الأمر كله بالرقم ثلاثة. كانت كل كلمة استخدمها بريور مدروسة بعناية، ومُختبرة، وتم التمرّن عليها كثيراً. ويدور ذلك كله حول الرقم ثلاثة.

الرقم ثلاثة هو الرقم السحري فعلاً إذ لديه مكانة هامة في أذهاننا. ونراه دوماً في ثقافتنا وحياتنا اليومية. فإذا تلقيت مكالمة هاتفية من رقم خاطئ لمرة واحدة، يكون الأمر عادياً. وإذا تلقيت الرقم الخاطئ ذاته مرة أخرى، فهي صدفة. أما إذا تلقيت الرقم مرة ثالثة، ستصبح واثقاً أن ثمّة ما يحدث. يمثّل الرقم ثلاثة شكلاً من أشكال المصداقية أو الحقيقة في لاوعينا؛ إنه مقّدس بطريقة ما لأن هناك الثالوث المقدّس، وقيام يسوع في اليوم الثالث، والحظ يأتي في المرة الثالثة، وبعد ثلاثة إنذارات يتم طردك.

لقد قدّم بريور ثلاثة وعود. وقال كلمة «مذنب» ثلاث مرات. ولفظ كلمة «ثلاثة»، ورفع ثلاثة أصابع. وكان إيقاع كلامه وتناغمه كله يدور حول الرقم ثلاثة.

قال: أنا لن **أتكهّن** ولن **أنظّر**، بل سأريكم **الحقيقة**..... هذه القضية عن **الجنس والمال والانتقام**.... أخذ سكيناً طعن به زوجته **مرة تلو مرة تلو مرة**.

حتى أن تركيب خطابه كان مبنياً على الرقم ثلاثة.

أولاً، قال للهيئة إنه سيخبرهم بثلاثة أشياء. ثانياً، أخبرهم بالأشياء الثلاثة. ثالثاً، أخبرهم بما كان قد قاله للتو.

كان لديه كامل الحق بأن يبدو راضياً عن نفسه. إنه أداء مميز ومدروس بشكل جيد، ومُضلل من الناحية النفسية، ومُقنع للغاية.

قبل أن أقف وأتحدث، لمحت نظرات بوبي القلقة. كنت أعرف بماذا كان يفكّر؛ كان يتساءل ما إذا كان لديه المحامي المناسب، لقد كانت حياته على المحك. ولا يحصل الناس عادة على فرصة ثانية في محاكمات جرائم القتل.

لم أتناول الأمر بشكل شخصي، فلو كنت مكانه لراودني الشعور ذاته. وقفت وعدّلت مظهري، وتقدّمت بضع خطوات إلى منصّة هيئة المحلّفين، إلى مسافة تكفي لوجود ألفة.

بينما تحدث بريور بروح القوة والقيادة لممثل مخضرم، أبقيت صوتي عند سوية يمكن أن تسمعها هيئة المحلّفين، لكنها لا تصل إلى الجزء الخلفي من الغرفة. وبقدر ما كان بريور قوياً، كان قد كشف في الوقت ذاته عن نقطة ضعف واحدة، هي الغرور.

«أنا إيدي فلاين. وأنا الآن ممثل المدّعى عليه روبرت سولومون. وعلى العكس من السيد بريور، لستم بحاجة إلى تذكّر اسمي، لأنني لست هاماً. وما أؤمن به ليس هاماً أيضاً، ولن أقدّم لكم أي وعود. سأطلب منكم أمراً واحداً فقط. أريدكم أن تحافظوا على الوعد الذي قطعتموه بالأمس عندما أمسكتم الكتاب المقدّس بيدكم، وأقسمتم على إصدار حكم حقيقي صادق في هذه القضية.

«كما ترون، عندما تصبحون أعضاء هيئة محلّفين، يصبح لديكم مسؤولية. أنتم مسؤولون عن كل شخص في هذه القاعة، وكل شخص في هذه المدينة وهذا البلد. إن لدينا نظاماً قضائياً ينصّ على أنه من الأفضل أن يتم إطلاق سراح مائة رجل مُذنب على أن يتم إرسال رجل بريء إلى السجن. وأنتم المسؤولون عن كل رجل بريء وامرأة بريئة متهمة بجريمة. وعليكم حمايتهم».

تقدّمت خطوة إلى الأمام، فانحنت امرأتان ورجلٌ من أعضاء الهيئة نحوي. أمسكت بسور المنصّة وانحنيت.

«حتى الآن، يقول قانون بلدنا إن روبرت سولومون بريء. وعلى الادعاء أن يغيّر رأيكم؛ عليه أن يقنعكم بما لا يدع مجالاً للشكّ بأنّه ارتكب هذه الجرائم. ليبقَ هذا الأمر في أذهانكم. هل أنتم واثقون من أن كل ما سمعتموه من الادعاء صحيح؟ هل هو الحقيقة؟ هل هذا ما حدث فعلاً؟ أم أن من المحتمل أنه حدث بطريقة أخرى؟ أم يُحتمل وجود شخص آخر ارتكب جريمة قتل أرييلا بلوم وكارل توزر؟

«سيبيّن لكم الدفاع أن ثمة شخصاً آخر تجاهله الادعاء. هو شخص آخر ترك بصماته في مسرح الجريمة. شخص كان مكتب التحقيقات الفيدرالية يطارده منذ سنوات. شخصٌ مارس القتل عدة مرات سابقاً. هل يمكن أن يكون هو القاتل؟ عليكم في نهاية هذه المحاكمة أن تسألوا أنفسكم هذا السؤال. فإذا كانت الإجابة نعم، ستطلقون سراح روبرت سولومون».

كنت أمسك بالسور وأراقب كل محلّف، ثم عدت إلى منصّة الدفاع. لم أتمكن أثناء عودتي من مقاومة النظر إلى بريور.

قالت نظراته بشكل واضح وجليّ - لقد بدأت اللعبة.

للمرة الأولى في هذا اليوم رأيت شيئاً ما يُزهر في عيني بوبي. شيئاً صغيراً لكنه هام جداً.

الأمل!

التفت أرنولد إليّ وألمح أنه كان ينبغي القيام بذلك.

«عمل رائع. اقتنعت هيئة المحلّفين بذلك. كان هناك ذلك المحلّف...» قال أرنولد ذلك، لكن بريور نهض على قدميه، ورآه أرنولد يفعل ذلك.

«لا شيء، لا يهم»، تابع أرنولد.

«الادعاء يستدعي المحقق «جوزيف أندرسون»»، صاح بريور.

لم يرغب بأن يترك أي أثر لخطابي في نفوس هيئة المحلّفين، كان عليه أن يتحرّك بسرعة ليعيدهم إلى صفّه. قرأت تصريح أندرسون. كان رئيس المحققين.

تقدّم رجل ضخم يرتدي سروالاً رمادياً وقميصاً أبيض. طوله ستة أقدام ونصف، ذو شعر قصير داكن. وقف في منصة الشهود ووجهه إلى القاعة. كانت عيناه صغيرتين وقاتمتين، وشاربه كثيف، ورقبته غير ظاهرة. ثمّة جبيرة تغطي يده اليمنى وصولاً إلى مرفقه. وقد طوى كمّ القميص إلى ما فوق الجبيرة.

لم أكن أعلم ذلك حينها، لكني قابلت المحقق أندرسون الليلة الماضية. كان أحد أعضاء طاقم المحقق «مايك غرانجر». الشخص الذي حاول أن يفتح صدري بقبضته، وقمت بصدّها وكسرها.

لقد عرفني سلفاً. استطعت رؤية ذلك في عيونه الصغيرة الحادة.

للمرة الأولى منذ ثلاثة أيام، أشعر بالاسترخاء قليلاً. إذا كان أندرسون قذراً مثل غرانجر، فهذا يعني أن هناك احتمالاً كبيراً بأن يسلكوا الطريق السهل في هذه القضية. من الممكن أنهم أهملوا الأدلّة الأساسية، وكل ما يحتاجه الأمر للنيل من الفاعل.

سيكون ذلك مثيراً للاهتمام.

كارب لو

شقة رقم ٤٢١، مبنى كوندي ناست، ٤ تايمز سكوير» نيويورك.

سريٌّ للغاية، وثيقة عمل بين المحامي وموكله

مذكّرة هيئة المحلفين

الادعاء العام ضد روبرت سولومون

المحكمة الجنائية في مانهاتن

تيري آندروز

العمر: ٤٩

لاعب كرة سلة سابق. عانى من تمزّق كبير في الأربطة, واعتزل الرياضة في التاسعة عشر من عمره. مالك مطعم - أطعمة تقليدية وشواء في برونوكس، حيث يعمل «شيفاً» للمشويات. مطلّق مرتين، ووالد لطفلين. لا يتواصل مع

العائلة، وليس لديه تاريخ للتصويت أو الانتماءات السياسية. مُحب لموسيقى الجاز. يعاني من ضائقة مالية، ومهدد بإغلاق المطعم.

احتمال التصويت بغير مذنب: ٥٥٪

أرنولد نوفوسليك

الفصل السادس والثلاثون

«أيها المحقق أندرسون، إذا رفعت يدك اليسرى فقط، سيكون ذلك كافياً. أستطيع أن أرى أنك لا تستطيع أن تحمل الكتاب المقدّس بيدك. ستتلو الكاتبة القَسَم وتكرره خلفها»، قالت القاضي فورد.

راقب كين المحقق وهو يكرر القسم، ثم يأخذ موقعه على منصّة الشهود. كان خلال هذه الفترة كلها يفكّر في المرافعة الافتتاحية لمحامي الدفاع. لقد أشار لمجرم مُحتمل. قاتل كان مكتب التحقيقات الفيدرالية يتعقبه.

عاد بذاكرته إلى زمن مضى حيث خسرت والدته المزرعة، وانتقل معها إلى مكان بعيد وغيّرا اسميهما. انتقلا إلى حياة جديدة وبداية جديدة. كانت والدته سعيدة لفترة ما لأن قناع الهوية كان مريحاً بالنسبة إليها. لقد جرّبت كل وظيفة تمكنت من الحصول عليها، وفشلت فيها جميعاً - عملت نادلة، عاملة تنظيفات، عاملة في بار، موظفة متجر. ثم تزايدت الفواتير. وتناثرت المغلّفات الصغيرة ذات اللون البني في جميع أنحاء الشقة الرطبة. وعندما طفح الكيل بكل ذلك، ألقاهما المالك في الشارع.

تنقلا كثيراً حتى تمكّنت والدته من الحصول على عمل في مصنع محلي، ويرجع ذلك أساساً إلى أنه لم يرغب به أي شخص آخر. لقد نظّفت أحواضاً لا يعلم إلا الله بأي شيء تم استخدامها. وأخبرت كين بأنها مواد كيميائية، لكنها لم تكن تعرف نوعها. ويوماً بعد يوم، أصبحت تأتي إلى البيت أكثر شحوباً وضعفاً، وتعاني القليل من الوهن. حتى جاء يوم لم تتمكن فيه من الذهاب إلى العمل، ولم يكن لديها تأمين صحي، أو أية نقود تدفعها للأطباء. وتخرّج كين من المدرسة الثانوية بأعلى درجات شهدتها المدرسة منذ سنوات. فعلى الرغم من أن تعليمه كان متقطّعاً، لم يكن ثمة إنكار لقدراته الفكرية العظيمة، وحصل على منحة في جامعة «براون».

وبعد أسبوع من تخرّجه، توفيت والدته في سريرها في الشقّة الصغيرة الوضيعة. وتلقّت في اليوم ذاته رسالة من مدير المصنع يخبرها فيها بأنه طردها من العمل. كانت في الفترة الأخيرة غير قادرة على التنفّس بشكل طبيعي، وتعاني من أية حركة بسيطة. عندئذٍ أدرك كين أن عليه إنهاء الأمر. لم تكن والدته قوية بما فيه الكفاية لكنه تعلّم كيف يكون قوياً. ثمة الكثير من الطرق لإنهاء هذه المعاناة: إغلاق فمها وأنفها بيده، وضع وسادة على وجهها، أو ربما جرعة زائدة من المورفين الرخيص الموجود في السوق

السوداء. اعتقد أن المورفين سيفي بالغرض، لكنه لم يعرف الكمية التي يحتاجها للقيام بالمهمّة. يمكن لوالدته أن تعاني من أي من تلك الأساليب، وهو يحتاج إلى شيء أكثر كفاءة. شيء سريع.

استقرّ في نهاية المطاف على طريقة يعلم أنها سريعة وموثوقة.

أحضر فأسه.

قبل أن يضرب رأسها ضربة الرحمة، رأت والدته ما أصبح عليه ابنها.

وجد في محفظتها عشرين دولاراً وثلاثة وأربعين سنتاً. وبعد تفتيش بقية أغراضها، وجد ما يظن أنه ألبوم صور. صور قديمة لوالدته عندما كانت صغيرة، وقصاصات صحف؛ ثمة الكثير منها. كانت تحمل جميعها القصّة ذاتها، وتعود أيضاً إلى ست سنين خلت. حيث تم العثور على جثّة رجل مدفونة على مشارف مزرعة. وتبحث الشرطة عن مالكة المزرعة السابقة وابنها. إن رؤية اسمه في الصحيفة؛ اسمه الحقيقي، منحه دفعة لم يشعر بها من قبل. كان اسمه هناك، بالأبيض والأسود.

جوشوا كين.

احتفظ بالألبوم. وضعه في كيسٍ مع بعض الملابس.

لم يكن في نيته الذهاب إلى الجامعة، كان يعلم أنه لا يستطيع ذلك. وكان مرض أمه نعمة بطريقة ما. كانت مريضة للغاية لدرجة أنها لم تلاحظ الرائحة الآتية من غرفته. لقد تخرّج في الحادي والثلاثين من شهر مايو. وكانت حفلة تخرّجه في العشرين من الشهر ذاته - تلك الليلة التي اختفت فيها صديقته «جيني موسكي» مع طالب آخر يدعى «ريك تومسون». أصدرت الشرطة تعميماً على مستوى الولاية بأوصاف سيارة «ريك»، لكن دون جدوى. وقامت الشرطة بتفتيش شقة كين في اليوم التالي لاختفائهما، واعتذروا من والدته ولم يعثروا على أي شيء. وتحدّثوا إلى كين ثلاث مرات بعد ذلك، وأبلغ الشرطة بالقصة نفسها في كل مرة. ذهب إلى حفل التخرّج مع جيني، أو «هسكي مسكي» كما كانت معروفة في المدرسة، وبعد وصولهما بفترة وجيزة، غادرت مع ريك. ولم يرهما مرة أخرى.

لم يرهما أي شخص.

وضع كين حقيبته على ظهره، وعاد إلى غرفته. أخرج عبوة البنزين التي استولى عليها من سيارات الحي، وأغرق الأرض وسريره وغرفة أمه والمطبخ. لكنه سكب معظم البنزين على أرض غرفة نومه. لم يرغب بأن تعرف الشرطة ما فعله بجثّة جيني. ربما يجدونها عندما تتكسّر ألواح الأرضية بتأثير الحرارة.

ألقى نظرة أخيرة على المكان، وأشعل علبة الثقاب ورماها وغادر.

سرق سيارة، ولم يقاوم المرور للمرة الأخيرة قرب خزان المياه. فإذا قاموا بإخراج المياه منه، سيجدون سيارة مايك في الأسفل. وسيعثرون على جسده في صندوق السيارة، وعلى رأسه محشوراً بين لوحة القيادة ودوّاسة البنزين.

تلك كانت البداية وحسب. الدفعة التي احتاجها للخروج إلى العالم بنفسه، من أجل هدف. لقد ماتت والدته وهي تبحث عن حلم بحياة أفضل. الحلم الذي يتشاركه جميع الأمريكيين الفقراء وهو أنهم إذا عملوا بجد بما يكفي، يمكنهم تحقيق هذا الحلم. لقد عملت تلك الساعات الطويلة، في تلك الأماكن الرهيبة، من أجل أي شيء؟

ثلاثة وأربعون دولاراً. كانت والدته هي كل ما عرفه، وقد رحلت الآن.

كان يعرف أن الحلم الذي طاردته والدته كان مجرّد كذبة، كذبة رسختها الصحافة وقنوات التلفاز. والناس الذين يعملون بجد، أو حالفهم الحظ، تم التعامل معهم كأيقونات. وسوف يتأكد كين من أن هؤلاء الناس قد عانوا لبث الحياة في هذا الحلم، ولإضافة الوقود إلى نار الكذبة. يا للهول، كم سيجعلهم يعانون.

والآن، وهو يجلس في قاعة المحكمة، تذكّر ما شعر به عندما رأى اسمه في قصاصة جريدة قديمة في ألبوم والدته. لقد راوده ذلك الشعور مجدداً عندما تحدث فلاين؛ قاتلٌ ترك بصمته، رجلٌ يطارده مكتب التحقيقات الفيدرالية منذ سنوات. اجتاحته رعشة من السرور والخوف، مثل يد مرحبة باردة امتدّت ولمسته على كتفه.

أنا أعرف اسمك. أنا أعلم ما فعلت.

للحظة معيّنة، كان يعرف أن قناعه قد زال. لقد تغيّر تعبيره السلبي، وتغيّرت لغة جسده العلنية المحايدة مع دخول تلك الأفكار في ذهنه. سعل ونظر

حوله، لم يلاحظ أحد من هيئة المحلّفين ذلك. ثم نظر إلى محامي الدفاع، ولم يبدُ أن فلاين قد لاحظ ذلك أيضاً.

ثمة خطأ ما، لقد أدرك ذلك وشعر به. في هذه المرّة، لم تظهر تلك الإثارة التي تترافق مع تذكّره لأعماله السابقة، أو حتى ذلك الشعور اللذيذ اللطيف المرتبط بالحنين إلى الماضي. كان ذلك شيئاً آخر.

إنه الخوف.

شعر فجأة بالعري، شعر بأنه مكشوف. وبقدر ما أراد بشدّة أن ينظر حوله في قاعة المحكمة، لم يتجرّأ على فعل ذلك. لقد بدأ تركيزه على فلاين، وترك رؤيته المحيطية تقوم بعملها.

ها هو ذا.

أكد كين الأمر بنظرة ثانية. لم يعد هناك شكّ الآن.

كان أرنولد، مستشار هيئة المحلّفين، يحدّق به بشدّة. لقد رأى شيئاً ما، رأى وجهه الحقيقي.

الفصل السابع والثلاثون

انطلق أندرسون من خبرته التي تبلغ أربعة عشر عاماً كمحقق في جرائم القتل في شرطة نيويورك، وبهدف عدم إضاعة الوقت.

«ترى الكثير في هذا العمل. وبعد فترة، يمكنك أن تقرأ الجريمة من مسرح الجريمة. وتعلمت من خبرتي أن هذا أمر شخصي».

وأنا تعلّمت من خبرتي أن أندرسون كان كاذباً؛ فقد كان لديه الرجل الذي يمكن توريطه في هذه الجريمة، وكان سيفعل أي شيء لجعل كل شيء مناسباً لهذه القضية. ولو كان هناك دليل لا يتوافق مع كون سولومون هو القاتل - يضيع هذا الدليل، أو يعتبره غير هام.

«أيها المحقق أندرسون، بأية طريقة اعتبرت ما رأيته أمراً شخصياً؟» سأل بريور.

«إن مقتل امرأة شابة وحبيبها معها في فراشهما، يبدو أمراً شخصياً جداً بالنسبة إلي. وهي لا تحتاج إلى إشارة المحقق لتجعلك تعتقد أن الزوج مُشتبه به على الأرجح. نعم، نعتقد أننا أحضرنا رجلنا إلى هنا. المتهم، روبرت سولومون».

توقف بريور لحظة، والتفت ليلقي نظرة على بوبي، ليتأكد أن هيئة المحلّفين تبعت نظراته، ثم عاد إلى الاستجواب المباشر.

«أيها المحقق، سأقوم بعرض صورة على الشاشة. إنها لقطة علوية لأرييلا بلوم وكارل توزر في غرفة النوم. لقد التقطها مصوّر مسرح الجريمة الجنائي، وبحسب معلوماتي، يمكن قبول هذه الصور كدليل لا جدال فيه. أريد فقط أن أحذّر هيئة المحلّفين والجمهور من أن هذه الصورة توضيحية فقط»، قال بريور.

وافقت سلفاً على أننا نستطيع أن نتخطى استدعاء المصوّر. فالصور لا تكذب، وليس هناك مبرر لإضاعة الوقت في دعوته كشاهد لإثبات صحّة ما يُعرض.

لم أكن أنظر إلى الشاشة إلى جانب منصّة الشهود عندما عرض بريور الصورة. كان تركيزي على بوبي. لقد أغلق عينيه، ووجّه رأسه إلى الطاولة. وعرفت من

صيحات الحضور أنه تم عرض الصورة. وسمعت هاري يدعو إلى الصمت.

لم يتم السماح بدخول الهواتف ذات الكاميرات إلى المحكمة، لذا فإن هذه الصورة لن تصل إلى الأخبار اليومية. وقد كانت صورة توضيحية على أية حال.

نظر بوبي إلى الشاشة مرّة واحدة، ثم غطى وجهه بيديه.

استهجن أرنولد ذلك، وأومأ إلى بوبي، ثم إلى هيئة المحلفين. كنت أعرف ما الذي يحاول قوله لي. وكان لدي الفكرة ذاتها. سيكون ذلك صعباً على بوبي، لكنه سيصبّ في مصلحته.

«أريدك أن تنظر إلى الشاشة»، همست لـ بوبي.

«لا أستطيع، ولست بحاجة إلى ذلك. لقد علقت الصورة برأسي ولا يمكنني التخلّص منها».

«عليك أن تنظر. أعرف صعوبة الموقف، ولهذا أريدك أن تفعل ذلك. أعلم أنك لا تريد أن ترى ما فعله أحدهم بزوجتك. وأريد أن ترى الهيئة ذلك في عينيك».

هزّ رأسه رافضاً.

«إن إيدي يقدّم لك خياراً يا بوبي»، قال أرنولد، «هل تفضّل التحديق في سقف زنزانة السجن كل ليلة لمدّة خمس وثلاثين سنة مقبلة، أم تفضل النظر إلى هذه الصورة؟ انظر الآن».

لم أتوقّع أبداً أنني سأقول ذلك، لكنني كنت ممتناً لأن أرنولد كان هنا.

أخذ بوبي نفساً عميقاً وفعل ما قيل له.

لم أكن أعرف ما إذا كانت هيئة المحلّفين قد رأت المشهد، لكنني رأيت. ملأت الدموع عينيه وباحت بالفقد وليس بالذنب.

أومأت برأسي شاكراً أرنولد. وأجاب بنظرة جانبية وأومأ أيضاً.

«أيها المحقق أندرسون، من هذه الصورة، ومن الإصابات التي لحقت بالضحايا، هل يمكنك أن تخبر هيئة المحلّفين بما تعتقد أنه حدث في غرفة

النوم هذه؟» سأل بريور بالبساطة التي يسأل فيها أندرسون ما إذا كان الطقس بارداً في الخارج أم لا.

لم أكن أريد أن أرى الشاشة أيضاً، لكن كما هو الحال مع بوبي، لم يكن لدي خيار. أنا بحاجة إلى متابعة شهادة أندرسون.

يا إلهي! كانت قاسية جداً.

نظر أندرسون وبريور إلى الشاشة. تتضمن الصورة كائنين بشريين تم قتلهما بطريقة عنيفة، وبشكل عشوائي غالباً. وكانا يناقشان موت هذين الشابين كما لو أنهما يناقشان بعض الأعمال.

«يمكنك أن تلاحظ أن رأس السيد توزر موجّه للأسفل، وأن ساقيه ملتويتين. وبحسب تقرير الطبيب الشرعي، توفي السيد توزر نتيجة جرح كبير في الرأس. ثمة كسر في الجمجمة أدى إلى ضرر بالغ في الدماغ. وحتى لو لم تقتله تلك الضربة فوراً، كانت ستودي به إلى حالة عجز كامل. أعتقد أن السيد توزر كان يشكّل تهديداً كبيراً للقاتل. كان توزر رجل أمن متخصصاً ومدرّباً. ومن المنطقي التعامل معه أولاً. إن هكذا ضربة قوية واحدة على مؤخرة الرأس أثناء النوم تفسّر عدم وجود جروح قد يسببها الدفاع عن النفس»، قال أندرسون.

هل تمكّنت من تحديد السلاح المُستخدم في قتل السيد توزر؟»

«نعم. عثرت على مضرب بيسبول في زاوية الغرفة، وعليه دماء تتوافق مع حالة استخدامه في ضرب شخص ما. كما أثبت المختبر لاحقاً أن الدم الموجود عليه متطابق مع دم توزر. مما جعلنا نرجّح أنه كان السلاح المستخدم في عملية القتل. وقبل أن تسألني، نعم كانت بصمات المتهم على المضرب».

شعرت بالغثيان عندما رأيت بريور يبتسم ابتسامة هوليود بعد هذه الإجابة. لم يرَ أعضاء الهيئة تلك الابتسامة لأن تركيزهم كان منصبّاً على أندرسون.

أمسك بريور المضرب المغلّف بكيس من أكياس الأدلّة، ورفعه عالياً.

«هذا هو المضرب؟»

«نعم، هذا هو»، أجاب آندرسون. ثم تم تسجيل المضرب كدليل من الأدلة، وأعاده بريور للموظفة المسؤولة.

«أنت تقول إن السيد تورز تلقّى ضربة بهذا المضرب، ماذا حدث بعد ذلك؟»

«»تم طعن أرييلا بلوم خمس طعنات في الصدر والبطن. واخترقت إحداها القلب فتوفيت على الفور».

على الأقل كان لدى بريور حس سليم للتوقف قليلاً، وإفساح المجال لهيئة المحلفين لإلقاء نظرة على صورة أرييلا على الشاشة. ترك كلاً منهم يأخذ لحظة للتفكير في الطريقة التي ماتت بها، وأدرك أن أعضاء الهيئة قد أعدّوا أحكاماً بالإدانة تصل نسبتها إلى تسعة من عشرة.

«قامت الطبيبة الشرعية شارون مورغان بفحص الجثث في مسرح الجريمة، ثم في المشرحة. متى علمت بنتائج تلك التحقيقات؟»

«نعم، استدعتني الطبيبة الشرعية عنما وجدت شيئاً في مؤخرة فم كارل توزر».

«ما هو ذلك الشيء؟»

«ورقة نقدية من فئة الدولار. لقد تم تصميمها على شكل فراشة، ثم طيّها من المنتصف، وأُدخِلَت في فم كارل».

كان جوني، مساعد النائب العام، في موقع جهاز التحكم الخاص بعرض الصور. وقام بعرض صورة الدولار على الشاشة، فاندلعت الهمهمات بين الحضور. كان هذا الأمر جديداً بالنسبة إليهم لأنه لم يظهر مُسبقاً في وسائل الإعلام. تم وضع الحشرة الورقية على طاولة فولاذية، وظهرت الظلال تحت أجنحتها، وبدت بعض اللطخات في زوايا الورقة. ربما كان لعاباً أو بقايا دماء.

«معرفة أنها كانت في فم رجل قتيل خلقت شعوراً بأنها قادمة من عوالم أخرى. حشرة مروّعة، جميلة ومشؤومة، لا تفقس إلا داخل أجساد الموتى.

«هل تم فحص الفراشة أيها المحقق؟»

«نعم، لقد قام فريق الطب الشرعي التابع لشرطة نيويورك بكل ما يلزم. عثرنا على مجموعتين من الأحماض النووية على الورقة. يعود الحمض النووي

الأول إلى شخص آخر، لكن لا يبدو أنه مرتبط بالجريمة؛ حالة شاذة وغير هامة. كان الأهم في الأمر أنهم وجدوا بصمات المُدّعى عليه على الدولار. كانت بصمة إبهامه على الجزء الأمامي للورقة، بينما ظهر جزء من بصمة سبباته على الجزء الخلفي. وفي منطقة البصمة ذاتها، وجد الفريق بقايا حمض نووي ناتج عن اللمس، مصدره التعرّق أو خلايا الجلد. وتطابق الحمض النووي مع المتهم».

الجملة الأخيرة هزّت القاعة. ولم يكن ذلك عبر الهمهمات والأصوات العالية. لقد أدّت هذه الجملة إلى حالة من الصمت الكامل العميق في القاعة. لم تظهر حركة قدم أو سعال أو أي حدث آخر قد يُظهرها الحشد الكبير عادة.

كسر الصمت صوت امرأة تبكي. كانت من أفراد الأسرة من دون شك، ربما كانت والدة أرييلا. لكنني لم ألتفت إلى مصدر الصوت لأن من الأفضل ترك بعض الخصوصية في لحظات كهذه.

استغلّ بريور هذا الموقف بشكل مميز. ظل واقفاً، وأفسح المجال لصدى صوت الأم لكي يتردد في رأس كل الموجودين في القاعة. جلتُ بعيني في أرجاء القاعة فرأيت الجميع بحالة ذهول باستثناء شخص واحد؛ إنه صحفي مجلّة نيويورك ستار «بول بينيتيو». كان قد جلس مكتّف اليدين خلف منصّة الادعاء مباشرة. لم يظهر لديه أي ردّ فعل على شهادة أندرسون. أظن أنه كان على علمٍ مُسبق بها. وعندما أصبح الصمت مزعجاً، وانتظر بريور ما يكفي من الوقت، تابع استجوابه.

«حضرة القاضي، سنقوم باستدعاء خبير التحليل الجنائي في الوقت المناسب».

أومأ هاري، وتابع بريور.

«أيها المحقق، لقد تحدثتَ مع المتهم في مسرح الجريمة، أليس كذلك؟»

«نعم، كانت بقع الدم ظاهرة على قميص المتهم وسرواله ويديه. أخبرني أنه عاد إلى المنزل في منتصف الليل، وصعد إلى الطابق العلوي، فوجد زوجته ورئيس أمنه مقتولين في غرفة نومه. ثم قال إنه حاول إنقاذ أرييلا عبر طلب النجدة».

تمايل بريور في موقعه وأشار إلى أحد مساعدي النائب العام. التقط المساعد جهاز التحكم وضغط على زر.

«من فضلكم، أودّ الآن أن تُنصتوا لتسجيل طلب النجدة».

سمعت هذا التسجيل من قبل، لكنها المرة الأولى بالنسبة إلى هيئة المحلّفين. واعتقدت أن هذا التسجيل يدعم الدفاع عن بوبي. بدا التسجيل وكأن رجلاً وجد زوجته مقتولة للتو، بدا واضحاً أن هناك ذعراً وإنكاراً وخوفاً وحزناً - كان كل شيء واضحاً في ذلك الصوت. عثرت على نص التسجيل مكتوباً على شاشة اللابتوب، وقرأته برفقة الصوت.

الموظف: ٩١١ الطوارئ، هل تحتاج إلى الإطفاء, أو الشرطة, أو مساعدة طبية؟

سولومون: النجدة... يا إلهي ... أنا في المنطقة ٢٧٥، شارع ٨٨ الغربي. زوجتي ... أظن أنها ميتة. شخص ما..... يا إلهي..... شخص ما قتلهما.

الموظف: سأرسل عناصر شرطة ورجال الإسعاف. اهدأ يا سيدي, هل أنت في خطر؟

سولومون: أنا... أنا ... لا أعرف .

الموظف: هل أنت في الموقع الآن؟

سولومون: نعم، في غرفة النوم، أنا... أنا ... وجدتهما للتو. إنهما في غرفة النوم. إنهما ميتان.

(صوت بكاء).

الموظف: سيدي؟ سيدي؟ خذ نفساً عميقاً، أريدك أن تخبرني ما إذا كان هناك أحد في المنزل الآن.

(أصوات كسر زجاج وتعثر شخص ما)

سولومون: أنا هنا. آه، أنا لم أتفحص المنزل... اللعنة ... أرجوك أرسل سيارة الإسعاف الآن. إنها لا تتنفّس...

(يسقط الهاتف من يد سولومون)

الموظف: سيدي؟ أمسك الهاتف أرجوك. سيدي؟ سيدي؟

«لم تستمر المكالمة أكثر من بضع ثوان. أيها المحقق، عندما وصلت إلى مسرح الجريمة للمرة الأولى، هل كنت قد سمعت طلب النجدة هذا؟» سأل بريور.

لم يعجبني ما كان يرمي إليه.

«لا، لم أكن قد سمعته»، أجاب أندرسون.

أمسكت ذراع بوب وهمست له: «بوبي، عندما أجريت هذا الاتصال، هل سقطت، أم أن هناك شيئاً سقط أو تحطم. ماذا كان ذلك الشيء؟»

«آه، أحاول أن أتذكر. أنا لا أعرف بالتحديد. ربما أوقعتُ شيئاً عن الطاولة المجاورة. لم أكن منتبهاً»، قال ذلك وبدا صوته يضعف، كان يستعيد شعوره في تلك اللحظة، في غرفة نومه إلى جانب الجثث.

فتحت ملفّ صور مسرح الجريمة على اللابتوب وبدأت البحث عن الطاولة. وجدتها في إحدى الصور مقلوبة على الأرض ومحطمة. ربما أوقعها ولم ينتبه في تلك الظروف. راودني شعور سيئ بأن لدى بريور اقتراحاً آخر يتعلّق بمصدر هذا الصوت.

«أيها المحقق أندرسون، أخبر هيئة المحلّفين عن الصورة (EZ17)»، قال بريور ذلك بينما كان مساعد النائب العام يعرضها على الشاشة.

كانت لقطة للممر في الطابق الثاني، وثمة طاولة مقلوبة وآنية محطمة أسفل النافذة الخلفية. لم يكن لديّ أية فكرة عما يرمي إليه من تلك الأسئلة، لكن بدا وكأنه يتأهب لضربة قاضية.

«بالتأكيد، عندما وصلت إلى المنزل، رأيت الطاولة مقلوبة، والآنية محطمة».

«أين هذه الطاولة الآن؟»

«إنها في المخبر الجنائي. لقد كانت مشوّهة بطريقة ما، ربما قبل الجريمة أو بعدها. وعندما استجوبت المتهم في قسم الشرطة، سألته ما إذا كان قد قلب الطاولة، وأجاب بأنه لا يتذكر. وأكد أنه وجد الجثث على تلك الحال، وأن هناك من قتل زوجته ورئيس أمنه. في تلك اللحظة من التحقيق، كان المتهم مشتبهاً به، لكننا لم نستبعد احتمال أن يكون كلامه صحيحاً. إذا لم يكن هو

من أوقع الطاولة، فقد فعلها شخص آخر. ولهذا تم نقلها إلى المختبر الجنائي مع بعض قطع الآنية».

«وماذا وجدتم؟» قال بريور.

فتشتُ في ملف قضية سولومون، ولم أجد تقريراً جنائياً يخص الطاولة. لقد أوشكت أن أعترض، لكن أندرسون قال: «لا شيء في البداية».

«تابع»، قال بريور.

«ذهبت إلى المختبر البارحة، وتفحّصت الطاولة. انظر، الدليل الوحيد الذي لم يكن لدينا هو السكين المُستخدمة في قتل أرييلا. لقد أجرينا عمليات بحث مكثّفة في المنزل والمنطقة المحيطة به ولم نعثر على أي شيء. لكن بما أن الطاولة قديمة جداً، ظننت أنه قد يكون فيها درج خفي».

«وهل عثرت عليه؟» قال بريور.

«لا، لكنني ألقيت نظرة على البصمات مجدداً. ظهرت لدينا بعض النتائج الغريبة؛ كان المختبر يبحث عن بصمات أصابع، ولم يظهر ما هو غير طبيعي، لكنهم وجدوا نمط علامات غير عادية على الطاولة. وبعد أن طلبت التعمّق بالتحقيقات حول هذه العلامات، وصلنا التقرير الآتي هذا الصباح».

اقترب مساعد النائب العام من طاولة الدفاع ومعه تقرير مغلق. أخذت التقرير منه وفتحته لأقرأه.

من الممكن أن تسوء الأمور، لكن ليس كثيراً. سلّمت التقرير إلى بوبي. أدلّة جديدة في اللحظة الأخيرة. يمكنني أن أغضب وأصرخ وأعدّ مذكرة لاستبعادها، لكنني أدرك أنه لا فائدة من ذلك.

سيسمح هاري بقبول الأدلة.

أصبح الوضع أكثر خطورة على بوبي.

تغيرت الصورة على شاشة العرض، وكنا نشاهد ما يبدو أنه مجموعتان من ثلاثة خطوط متوازية في جزء من الطاولة. بدت كما لو أن أحدهم أمسك ثلاث فراشٍ في يده وطلى الطاولة مرّتين.

تمنيّت لو أنها كانت فراشي.

«ما هذا أيها المحقق؟»

«أثر قدم»، أجاب أندرسون. «لقد تطابق أثر القدم هذه مع حذاء «أديداس» الرياضي الذي كان يرتديه المتهم في تلك الليلة. يبدو كما لو أن المتهم وقف على الطاولة ثم انقلبت بعد أن انزلقت قدمها عنها».

«إنه يكذب، أنا لم أقف أبداً على هذه الطاولة!». قال بوبي ذلك بصوت عالٍ جعلت القاضي يرمقه بنظرة تطلب منه أن يسكت.

وتابع أندرسون: «لذلك قمت بزيارة مسرح الجريمة هذا الصباح. يوجد على مسافة قريبة من موقع الطاولة مصباح للممر. إنه مصباح معلّق بالسقف يحيط به غلاف ملون مزخرف على شكل وعاء. وقفت على سلّم فوجدت سكيناً وضعها أحدهم في غلاف المصباح.

ارتجفت يدا بوبي.

«وهذا هو السكين؟» سأل بريور مشيراً إلى الصورة الأخرى المعروضة على الشاشة.

نظرت إلى الأعلى فرأيت الصورة ذاتها التي رأيتها للتو في التقرير؛ مقبض أسود بقاعدة عاجية عليها آثار دم وغبار.

كان طوق النجاة الوحيد عدم وجود بصمات عليها.

«هل هذه هي السكين التي قُتلت بها أرييلا بلوم؟» سأل بريور.

يعرف جميع الموجودين في القاعة الإجابة على هذا السؤال. أطرق بوبي رأسه لشعوره بأن السكين قد قطعت آخر خيط للدفاع عنه.

الفصل الثامن والثلاثون

أكد «أندرسون» أن الدم الموجود على السكين يتطابق مع فصيلة دم الضحية، وأنهم يعملون على اختبار الحمض النووي لإثبات ذلك. طلبت من بوبي أن يرفع رأسه؛ لم أكن أريد أن يبدو كشخص تعرّض للضرب.

ليس لحد الآن.

طرح بريور آخر سؤال على الشرطي.

«أيها المحقق، سيبدو خارجاً عن المألوف أن يدخل متسلل من الخارج، ويطعن أحدهم بسكين ويقتله، ويخفي سلاح الجريمة في منزل الضحية، أليس كذلك؟

وقفت بسرعة، بسرعة كبيرة. شعرت بعصفة ألم في جانبي، وجاهدت لأتنفس كي أستطيع الكلام.

«أعترض يا حضرة القاضي، السيد بريور يدلي بشهادة هنا ولا يطرح سؤالاً».

«أوافق على الاعتراض»، قال هاري.

جلست ببطء. لم يكن ثمة فائدة كبيرة من الاعتراض. إذ سيعيد بريور صوغ السؤال، لكن لم يكن لدى أندرسون أي شكّ في الإجابة التي كان سيقدمها أمام هيئة المحلّفين».

«أيها المحقق، خلال سنوات خدمتك الطويلة، هل سبق أن شاهدت مشهد طعن في منزل، وأخفى الفاعل سلاحه في مسرح الجريمة؟»

«لا، لم أشهد ذلك من قبل، طوال حياتي كلها. عادة ما يأخذ الفاعل السكين معه ويحتفظ بها أو يتخلّص منها. لا فائدة من إخفائها في المنزل. إن المبرر الوحيد لإخفائها هو خلق انطباع لدى السلطات القانونية بأن القاتل قد هرب من المنزل وأخذ السلاح معه. ولدى الاستماع إلى طلب النجدة، يبدو أن المتهم كان يقف على الطاولة عندما أجرى المكالمة. ويمكنك أن تسمع وقع أقدام سريعة وثقيلة. إنها تشبه صوت شخص يتعثّر، وشيء يتحطم. يبدو لي أن الطاولة تهاوت بعد وقوف المتهم عليها، فتحطمت الآنية».

«شكراً أيها المحقق آندرسون، ليس لدي أسئلة إضافية حالياً. أعتقد الآن أن زميلي في المهنة يشتكي من عملك كمحقق، ويسعى إلى استبعاد اهتمام هيئة المحلفين به. في الواقع، أشعر بالدهشة لأنه لم يعترض على شهادة السكين»، قال بريور.

همست لأرنولد ببعض التعليمات، ثم غادر القاعة. وحينها وقفت وتقدمت نحو بريور. كان الألم محمولاً عندما أمشي ببطء. انحنى بريور على طاولة الادعاء واضعاً يده اليسرى على وركه، وبدا مسروراً بأدائه.

«ليس لدينا أي اعتراضات يا حضرة القاضي، وهذا الدليل يساعد هيئة المحلفين».

نظر هاري إلي كما لو أنني جُننت وتلاشت ملامح الغرور في وجهه بريور كما يفرغ المصعد من الحشد الموجود فيه.

ساد الصمت في القاعة. كنت في تلك المنطقة أنا وأندرسون فقط. لا يهمني أي شيء آخر، وليس هناك من يشاهد. لقد نسيت الجمهور والمدعي العام والقاضي وهيئة المحلّفين، فقط أنا وهو. تركت الترقّب يزداد، فأخذ أندرسون رشفة ماء وانتظر.

انتظرت أنا أيضاً، إذ لم أرغب بأن أبدأ الاستجواب حتى يعود أرنولد. سيعود مرة أخرى ولن يستغرق الأمر طويلاً حتى يأتي بالمعدات من المخزن.

«أيها المحقق، أريد أن أسأل أولاً كيف كسرت ذراعك».

كان فكّه السفلي أشبه بمِلزمة تتدلّى من طاولة العمل. ورأيت عضلات وجهه تتصلّب بتأثير ضغطه على أسنانه.

«تعثرت ووقعت»، أجاب.

«تعثّرت ووقعت؟» سألته.

بحالة من التردد. تحرّكت تفاحة آدم صعوداً وهبوطاً في حنجرته.

«نعم، انزلقت على الجليد. بعد أن ننتهي من عملنا هنا، سأخبرك عن هذا الأمر»، أجاب بشفتيه الجافتين. تناول رشفة أخرى من الماء. رأيت الكثير من الشهود الذين يقفون بتوتر على منصة الشهود. بعضهم يرتعش، وبعضهم

يجيب بسرعة كبيرة جداً، وهناك من يقدّم إجابات فردية بسيطة. والبعض يشعر بجفاف في الفم.

أنا لم أتوقع منه أن يقول الحقيقة. ولم أحاول الإشارة إلى ما حدث، بل أردت منه أن يفكّر بأنني قد أفعل ذلك. فقط لأثير أعصابه. وبدوره أطلق تهديده.

فُتِحَت الأبواب الخلفية للقاعة. عاد أرنولد ومعه بعض موظفي أمن المحكمة. كانوا خمسة تقريباً، ودخلوا القاعة بموكب غير متوقع؛ يحملون حقائب وصناديق وفِراش ثقيل بين اثنين منهم. توقفت عن طرح الأسئلة وانتظرت الرتل وهو يشق طريقه إلى أسفل الممر الأساسي للقاعة. أسفر موكب الأشياء الغريبة عن ظهور بعض نظرات الاستغراب لدى الحضور.

سمعت بريور يتقرّب من الجمهور بقوله: «هل هناك فرقة عسكرية ستظهر بعد هذا الموكب؟»

«انحنيت نحو منصة الادعاء وقلت: «نعم، هناك فرقة، ستعزف في مسيرة جنازتك».

قبل أن أدخل بهذه المواجهة مع بريور أخبرت هاري أنني أريد تقديم طلب رسمي للسماح لي بمشهد إعادة تمثيل لمشهد حدوث الجريمة خلال استجوابي للمحقق. فأرسل هاري الطلب إلى هيئة المحلفين واقتربت أنا وبريور من منصة القاضي.

«ما مدى أهمية إعادة التمثيل هذه؟» سأل هاري.

«أنا لست عالماً ولا قاضٍ، لكن لدينا شاهد من ذوي الخبرة، والأمور الباقية أمور فيزيائية».

«حضرة القاضي، لم يتم إبلاغ الادعاء بهذا الطلب. ليس لدينا أية فكرة عما يقترحه السيد قلاين. أطلب رفض هذا الاقتراح. إنه كمين».

«لقد وافقتُ على الطلب، وقبل أن تفكّر بإيقاف هذه الجلسة لأستأنف حكمي، عليك أن تفكر بأمر واحد. لقد رأيت خدعتك الصغيرة المتعلّقة بسلاح الجريمة. ولو طلب السيد فلاين وقتاً إضافياً لمعالجة هذا الدليل، كنت سأوافق. أعرف أنه كان لديك منذ فترة. لقد أخّرت هذه المحكمة، وعليّ الآن إطالة زمنها بسبب استجواب الخبير في مختبر شركة نيويورك بخصوص الفترة التي وجدوا فيها تلك العلامات على الطاولة».

تراجع بريور رافعاً يديه وقال: «كما ترغب يا حضرة القاضي. ليس لدي أية نيّة لتأخير هذه المحاكمة».

أومأ هاري برأيه واتجه إليّ وقال: «أعطيك مهلة صغيرة من أجل ذلك. لكن من الآن قصاعداً، إذا كان لدى أي منكما دليل يريد تقديمه، ليقم أحدكما بعرضه على الآخر».

«في الواقع، هناك بعض الصور التي أريد عرضها، لقد التقطتها من مسرح الجريمة أمس».

«قدمها الآن»، قال هاري.

أخرجت هاتفي وأحضرت الصور التي التقطتها هاربر في غرفة النوم صباح أمس، وأرسلتها عبر البريد الإلكتروني إلى مكتب المدّعي العام. ثم وقفت جانباً مع بريور، وأريته الصور فلم يعترض على استخدامها؛ ربما لأنه يجهل ما أريد فعله. ولو علمَ بما أوشكت أن أقوم به، لأثار المتاعب. دعوت الله أن يندم بريور على قراره هذا.

كارب لو

شقة رقم ٤٢١، مبنى كوندي ناست، ٤ تايمز سكوير» نيويورك.

سريٌّ للغاية، وثيقة عمل بين المحامي وموكله

مذكّرة هيئة المحلفين

الادعاء العام ضد روبرت سولومون

المحكمة الجنائية في مانهاتن

ريتا فيستا

العمر: ٣٣

طبيبة نفسية مختصة بالأطفال وتعمل في عيادة خاصة. متزوجة من رجل يعمل رئيس طهاة في مطعم «ماروني». ليس لديها أطفال . والداها متقاعدان ويعيشان في فلوريدا. ديمقراطية. لم تصوّت في الانتخابات الأخيرة. ليس

لديها وسائل تواصل اجتماعي. تعشق النبيذ الفاخر . لم تَدع أبداً كشاهدة خبيرة. وضعها المالي جيد.

احتمال التصويت بغير مذنب: ٦٥٪

أرنولد نوفوسليك

الفصل التاسع والثلاثون

أثار استجواب بريور المباشر للمحقق أندرسون إعجاب هيئة المحلّفين. فقد قدّم المحقق للمرّة الأولى أدلّة لهيئة المحلفين. وكان له العرض الافتتاحي الأول. وبدا أن تركيز أعضاء الهيئة كان منصبّاً على الشاهد.

شعر كين بالسرور بالتأكيد؛ لأن الشهادة أثبتت بأنها إعاقة مفيدة. فبينما أدلى أندرسون بشهادته، أخذ كين كامل الوقت الذي يحتاجه لتفحّص ملاحظات سبنسر التي كان يضعها على ركبته. لم يكن أيٌّ من المحلّفين الآخرين في النسق الخلفي طويلاً بما يكفي لرؤية تلك الملاحظات من فوق أكتاف زملائهم الموجودين أمامهم. باستثناء كين. لقد كتب نصف صفحة من الملاحظات. كلمات وعبارات أساسية داعمة للشهادة. ثم قلب الصفحة، وكتب كلمة واحدة.

«مذنب».

عاد ونظر إلى مفكّرة سبنسر، ثم إلى مفكّرته. نسخ كلمة «مذنب» بقوة. ثم أعاد كتابتها على ورقة جديدة، لكن في هذه المرّة جعل الحرف الأول «G» أكثر استقامة وأصغر قليلاً، كما وضع ذيلاً أطول على الحرف «Y». كان حريصاً على إخفاء ما كان يفعله عن عيون جميع زملائه. وكان حريصاً أيضاً على عدم لمس هذه الصفحة بيديه العاريتين.

لقد تدرّب طوال حياته على انتحال شخصية أشخاص آخرين. كان ينتحل الشخصية لفترة طويلة أحياناً، وخاصة عندما ينتحل شخصية رجل حقيقي. وقد ينتحل أحياناً شخصيات مزيفة لا يضطر للبقاء عليها بعد أن تخدم هدفها. ومن بين الهويات التي ظلت موجودة لفترة، كان لديه بعض التفضيلات. سرعان ما تعلّم أنه من أجل الحفاظ على هويته، يحتاج لأن يكون قادراً على توقيع بعض الوثائق؛ رخصة قيادة جديدة، شيكات، تحويل أموال ووثائق عادية. وكان يتدرّب في أوقات فراغه على التوقيع الخاص بالهوية الجديدة، وكيفية نسخه بالشكل المثالي. وعلى مرّ السنين أصبح ماهراً بتلك الأمور. وأصبحت سيطرته على القلم، ومقدرته على التنسيق بين اليد والعين، عالية جداً كأي فنان موهوب.

أخيراً، بعد أن شعر بالرضا عما كتبه، غاص في مقعده، وقلب مفكّرته إلى الصفحة الأولى، وطوى ذراعيه.

أنهى بريور استجوابه للمحقق، وراقب كين نسق الناس القادمين عبر الأبواب الخلفية حاملين معهم صناديق بالإضافة إلى فراش. كما رأى بريور يجادل فلاين.

«حضرة القاضي، أودّ أن تسمح لي بأداء مشهد رسمي خلال استجوابي لهذا الشاهد»، قال فلاين.

«دعونا نرَ، لكن قبل ذلك أودّ من هيئة المحلّفين أن تخرج من القاعة»، قال القاضي.

نهض المحلّفون من الجانبين، وتابعهم كين بعد أن وضع دفتر ملاحظاته في جيبه. ثم أخرجتهم مُراقِبة الهيئة من باب جانبي نحو غرفة المحلّفين. ثمة الكثير من الحالات التي تتطلب من أعضاء هيئة المحلّفين أن يذهبوا صعوداً ونزولاً، ذهاباً وإياباً، إلى غرفة المحلّفين، عشر أو اثنتي عشرة مرة في اليوم، بينما يتجادل المحامون بشأن القانون، لقد اعتاد كين على ذلك.

وقفت مُراقبة الهيئة خارج الغرفة فاتحة الباب أمام أعضاء الهيئة فاقترب كين منها وقال: «آسف، هل لي أن أذهب إلى الحمام؟»

«بالتأكيد، إنه في نهاية الممر الثاني من جهة اليسار».

شكر كين الموظفة واتخذ طريقه إلى المكان. كان الحمام صغيراً ومظلماً تشبه رائحته معظم حمامات الذكور. كان أحد الأضواء مطفأً، وهناك اثنان من المراحيض على البلاط الأبيض. دخل كين إلى حجرة مفردة، ثم أغلق الباب وأقفله.

بدأ يعمل بسرعة.

أولاً أخرج من جيبه علبة «لُبان». كانت مفتوحة سلفاً وتمت إزالة قطعة واحدة منها. أفرغ محتويات العلبة في راحة يده فخرجت بقية قطع «اللُبان». بالإضافة إلى مغلّف صغير بحجم قطعة «لُبان» واحدة. أزال غلاف السيلوفان عن المغلّف، وأخرج زوج قفازات رقيق جداً. ارتدى القفازات، ثم أخرج دفتر ملاحظاته من جيبه، ومزق الصفحة التي كتب عليها كلمة «مذنب». ثم ضغط الورقة بيديه وشكّل منها كرة صغيرة، لكنه حرص على بقاء الأحرف الثلاثة الأولى من الكلمة على الأقل. وضع الكرة الورقية في جيب سترته، وخلع القفازات ووضع بها بعض قطع النقود المعدنية، ثم لفّها بورق الحمام وأسقطها في الحوض وتخلّص منها.

لم يكن على المحلّفين الانتظار أكثر من عشر دقائق. وكان ذلك كافياً بالنسبة لسبنسر ليخرج من النسق.

«انظر، أعرف أن ذلك لا يبدو جيداً للمتهم، لكن القضية لم تنته بعد. وأنا لا أثق بهذا الشرطي»، قال سبنسر.

«ولا أنا. كان دليل أداة الجريمة بيد ذلك المدّعي.... منذ مدّة. هو لم يرغب بتقديمها للدفاع»، قال مانويل.

«نحن لا نعرف ذلك. كل ما يمكنني قوله إنه من المؤكد تماماً أن الأمر لم يعد في صالح سولومون الآن»، قالت كاساندرا.

لاحظ كين أن كاساندرا ترمق سبنسر بنظراتها من فترة لأخرى. كان سبنسر صغيراً ونحيلاً، وهي لم تستجمع الشجاعة بعد لتتحدث معه، لكن إعجابها به بدا واضحاً، حتى لـ كين.

«علينا أن نحافظ على أذهاننا منفتحة. من غير المسموح لنا مناقشة الأدلّة قبل نهاية المحاكمة»، قال كين.

أومأ بعض الأعضاء برؤوسهم موافقين.

«إنه على حق، لا يمكننا مناقشة الأمر»، قالت بيتسي.

«قلت الشيء نفسه للتو. لا يجب أن نعتبر الكلام مقدّساً لمجرّد أنه صدر عن شرطي. حافظوا على انفتاح أذهانكم أيها الناس»، قال سبنسر.

شغلت هيئة المحلّفين مقاعدها، وقبل أن يجلس كين، خلع سترته وطواها. ثم وضعها على ركبته اليمنى بعد أن أخذ مقعده على المنصة، خلف سبنسر تماماً. وأعلن القاضي متابعة المحاكمة.

«شكراً لكم سيداتي وسادتي. لقد سمحت للسيد فلاين أن يقدّم عرضاً عملياً. عليكم أن تتذكّروا أن للادعاء الحق في الحصول على شهادة أخرى من الشاهد إذا طرأ أي جديد في هذا العرض. لنبدأ الآن يا سيد فلاين»، قال القاضي.

ترك كين سترته تنزلق على الأرض متأكداً من الإبقاء على كمّها الأيسر من ناحيته. ثم انحنى لالتقاطها بعد أن تأكد من أن انتباه جميع زملائه منصبّ

على سؤال إيدي فلاين الافتتاحي. ركّز تيري اهتمامه على المحامي، وكذلك فعلت ريتا. وعندما أمسك كين سترته، دفع رزمة أوراق خاصة من جيبه الأيمن. يعني ذلك أن الكرة الورقية كانت على الأرض، وكانت سترته فوقها. رفع كين سترته عن الأرض مسافة إنش واحد، كانت أشبه بحركة مسح. وللحظات قليلة، لمح الكرة تتدحرج تحت المقعد الأمامي.

وبسرعة كبيرة، تفقّد وجوه أعضاء الهيئة عن يساره، وريتا عن يمينه. لم يكن أي منهم قد لاحظ ذلك.

ما إن بدأ فلاين استجوابه، لاحظ كين مقدار التوتر بين فلاين وأندرسون. وكان ذلك عندما تحدث الشرطي عن ذراعه المكسورة. حيث قال الشرطي إنه انزلق وكسر يده.

تساءل كين عما إذا كان أندرسون قد سقط فعلاً، أم أنه لكم محامي الدفاع وأخطأ في إصابته.

يعاني فلاين من الألم. كان يتحرّك ببطء أكثر مما كان عليه عندما رآه كين يوم أمس. ولاحظ أن المحامي يصارع لإخفاء التجهّم في كل مرة ينهض فيها من مكانه.

فكّر كين بأنه إذا تحتّم عليه الرهان على ما حدث، فسيراهن على أن أندرسون وفلاين قد تشاجرا بطريقة ما في الليلة السابقة. إذ إن الطريقة التي نظر بها الشرطي إلى فلاين غامضة بطريقة ما. إن الكراهية التي تتصاعد من أندرسون كما يتصاعد البخار عادة، تفوق حجم الاشمئزاز الذي يشعر به المحقق عادة نحو محامي الدفاع في جرائم قتل من هذا النوع.

لا، ثمّة شيء سيئ جداً بينهما. شيء حديث.

لم يُبالِ كين برجال الشرطة، لا يشعر بأية كراهية نحوهم.

لذلك اختار أن يعمل مع واحد منهم. إنهم مفيدون. دوّن ملاحظة ليتصل بأحدهم لاحقاً. ثمة عمل كثير ينبغي إنجازه.

الفصل الأربعون

ثمّة ثلاثة عناصر رئيسة لتقوم بعملية احتيال جيدة. ولن يختلف الأمر إذا كنت مُحتالاً من هافانا أو لندن أو بكين، لأن عليك أن تخوض في هذه المراحل الثلاث. قد يكون لها تسميات مختلفة، وقد تُستخدم لغايات مختلفة، لكن عندما تطبقها، سيكون النجاح حليفك.

الرقم السحري، مجدداً.

يحدث عادة أن يكون أمامك ثلاث مراحل لتخطي امتحان جيد. ويحدث عادة أن تكون هذه المراحل هي ذاتها التي يستخدمها المخادعون، والمحتالون ذوو المناديل الحريرية. إن فن الاحتيال وفن اجتياز الامتحان هما الشيء ذاته. وأعرف كيف أستخدم النوعين كليهما.

المرحلة الأولى. الإقناع.

«حضرة المحقق، من خلال ما شاهدناه من صور وتقارير تشريح جثث الضحايا، ومن تحرياتكم الخاصة، قد يكون مرتكب هذه الجرائم شخص آخر غير المتهم، صحيح؟»

«هو لم يفكّر بذلك إطلاقاً، وعرفت أنه لم يفكّر. عندما تُزرع فكرة ما في أذهان رجال المباحث الجنائية، يصبح من شبه المستحيل أن تتزعزع.

«لا، غير صحيح. تقول الأدلّة كلها إن المتهم هو مرتكب الجرائم»، أجاب بهدوء.

«الدفاع لا يقبل بهذا، لكن دعنا نفترض للحظة أنك على حق. وأن الأدلّة جميعها تشير إلى أن المتهم هو القاتل. هل من المعقول أن يتصرّف مرتكب الجرائم الحقيقي بطريقة يجعلك أنت وزملاءك والنائب العام تعتقدون أن **المتهم** مذنب في هذه الجرائم؟»

قال وهو يحاول أن يكتم ضحكته: «أنت تعني أن أحدهم دخل إلى البيت وخرج دون أن يراه أحد، ودسّ هذه الأدلة ضد بوبي سولومون؟ لا، آسف، هذا مجرّد هراء».

«أليس من الممكن أن تكون الجريمة قد وقعت بطريقة أخرى غير التي وصفتها لهيئة المحلّفين؟ استخدام المضرب لقتل كارل توزر، ثم السكين لقتل أرييلا بلوم، بينما هما مستلقيان في السرير؟»

«هذا هو السيناريو الوحيد الذي يتطابق مع ما وجدناه من أدلّة»، قال أندرسون.

عدت إلى اللابتوب، ودخلت إلى نظام الفيديو الخاص بالمحكمة مستخدماً كلمة السر الخاصة، وقمت بتحميل صورتين من الصور التي التقطتها هاربر البارحة صباحاً. نظرت إلى الشاشة، ورأيت بريور يرفع صورة مسرح الجريمة. كان ذلك مفيداً. أعطيت أرنولد بعض التعليمات حول كيفية عرض الصور ونقلها إلى شاشة المحكمة. أشار إلي بإبهامه، ثم نهض ونقل المعدات إلى تلك المساحة المواجهة تماماً للقاضي والمحلّفين والشهود.

نهضت بدوري، وجفلت بسبب الألم المتزايد في جنبي، وقلت في نفسي إنني سأتناول المزيد من المسكّنات لاحقاً، لكن عليّ الآن أن أصبر قليلاً بعد. وللحظة، نظرت إلى الصناديق والفراش والحقيبة الموضوعة فوق الفراش.

المرحلة الثانية. تسديد الدين.

«أيها المحقق أندرسون، في صورة الضحايا المعروضة على الشاشة، هل هذه هي بالضبط الوضعية التي وجدتهما بها عندما وصلت إلى مسرح الجريمة؟»

نظر إلى الصورة مجدداً. كارل إلى جانبه، والدم في الجهة الخلفية من رأسه. أرييلا ممددة على ظهرها، والدم على بطنها وصدرها فقط.

«نعم، هكذا وجدناهما.»

سأقرأ لكم تقرير الخبيرة الطبية من مسرح الجريمة. إنه يقدّم لنا توصيفاً دقيقاً لوضعية الجثتين وحالة إصابتهما. لقد وصلت حوالي الساعة الواحدة صباحاً، وحددت ساعة الوفاة قبل ثلاث ساعات أو أربع من وصولها.

أشرت إلى أرنولد بإصبعين اثنين، فغيّر الصورة على شاشة العرض. صورة قريبة للبطاقة التي تُظهر نوعية الفراش ومواصفاته، وهي مثبتة في القسم السفلي من الفراش، وقد تم التقاطها في مسرح الجريمة.

«حضرة المحقق، الفراش الموجود هنا من نوع «نيموسليب»، ورقم تعريف المنتج هو «55612L». هل تستطيع أن تؤكد لنا أن رقم تعريف المنتج هذا مطابق للفراش الذي يظهر في الصورة وعليه بقع دم الضحايا؟»

نظر إلى الصورة وقال: «يبدو أنه مطابق».

«تقول تقارير الخبيرة الطبية إن جذع أرييلا كان يبعد اثني عشر إنشاً عن الطرف الأيسر من السرير، وكان رأسها يبعد تسعة إنشات عن الطرف العلوي، صحيح؟»

«أعتقد ذلك، لا أتذكر تماماً دون أن أقرأ التقرير مجدداً»، أجاب أندرسون.

توقفت قليلاً ريثما يتمكن مساعد بريور من العثور على نسخة التقرير ويعطيها لأندرسون. أشرت إلى الصفحة المطلوبة معتمداً على ذاكرتي. إنها المهارة التي ساعدتني كثيراً في القانون؛ أنا لا أنسى.

«نعم، أقول إن هذا صحيح»، قال أندرسون.

وأكد أيضاً أن رأس توزر كان على بعد أربعة وعشرين إنشاً من أعلى السرير، وثمانية عشر إنشاً من الجانب الأيمن له، بحسب التقرير الطبي.

تناولت الحقيبة من فوق الفراش وأفرغت محتوياتها على الأرض.

شريط قياس. قلم تحبير. كأس زجاجي صغير. شراب الذرة، عبوة ماء. مادة ملونة. ملاءة سرير.

فتحت ملاءة السرير الجديدة، ووضعتها فوق الفراش. أخذت القياسات التي وثّقتها الخبيرة الطبية، ورسمت دوائر حولها على ملاءة السرير لتحديد المواقع. ثم أشرت بإصبعي لأرنولد - أردته أن يُظهر أول صورة عُرِضَت على الشاشة.

تغيرت الصورة على شاشة العرض، وظهرت الصورة التي تم التقاطها البارحة للفراش. كانت على الجهة التي احتلّتها أرييلا لطخة دم كبيرة وكثيفة، أما من جهة كارل، فلا يوجد إلا لطخة صغيرة بمساحة قاعدة كوب من القهوة تحت جمجمته.

«أيها المحقق، هل تتفق معي بأن العلامات التي وضعتها على هذا السرير تتوافق مع بقع الدم التي رأيناها في الصورة؟»

أخذ ما يكفي من الوقت، وهو ينقل بصره بين الشاشة والفراش الموجود على الأرض، ثم قال: «بطريقة ما».

«لديك تقرير الخبيرة الطبية أمامك. ويظهر فيه أن وزن أرييلا بلوم يبلغ مئة وعشرة باوند، وأن وزن كارل يبلغ مئتين وثلاثة وثلاثين باوناً، أليس كذلك؟»

قلب بعض الصفحات ثم قال: «نعم».

«أيها المحقق، هذا ليس اختباراً في الرياضيات، لكن وزن كارل توزر يبلغ أكثر من ضعف وزن أرييلا بلوم، أليس كذلك؟»

أومأ موافقاً. وتحرك في مقعده.

«أحتاج منك إجابة من أجل التسجيل»، قلت له.

«نعم»، قال ذلك وهو ينحني للأمام مقترباً من مكبّر الصوت.

فتحت الصندوق، وأخرجت ثقلين حديديين، وأريتهما لأندرسون. أكّد أن الأول يزن خمسة وعشرين باوناً، والثاني يزن خمسين باوناً. وضعت الأول في الدائرة الخاصة بأرييلا، والثاني في دائرة توزر. كنت أستطيع أن أخمّن قبل، أن أمضي قدماً، أن هذا العرض سينجح. لقد توصّلت إلى ذلك عندما كنت في غرفة نوم بوبي، عندما استلقيت على السرير أنا وهاربر. انغمست قطعة الحديد ذات الخمسين باوناً في الفراش بفعل الوزن. وبدت القطعة الأخرى ذات الخمسة والعشرين باوناً أعلى من الأولى بفارق إنشين على الأقل.

«مرة أخرى يا حضرة المحقق، وبحسب ما أوردته الخبيرة الطبية في تقريرها، فإن الطعنة التي تلقّتها أرييلا جعلتها تنزف الكثير من الدماء. حوالي ألف «سنتيليتر»، أي ليتراً كاملاً؟»

وجد الرقم في التقرير وقال: «نعم».

فتحت عبوة الماء، وملأت كأس الماء الموجود أمامي على طاولة الدفاع، ثم أضفت القليل من شراب الذرة، وقطرتين من الصباغ إلى العبوة الأساسية. أعدت السدادة إليها وهززتها ليختلط المزيج. ثم فتحت العبوة مجدداً وسكبت منها في الكأس الزجاجي الصغير.

«حضرة المحقق، هذا الكأس الزجاجي الصغير، الذي يمكنك التحقق منه، يحتوي على خمسين «سنتيليتر. هل تريد أن تتأكد بنفسك؟»

«سأكتفي بما قلت فقط»، أجاب.

«يستخدم مخبر شرطة نيويورك الطبي مقداراً من شراب الذرة مع أربعة مقادير من الماء، لتشكيل نسخة مطابقة عن كثافة الدم. وهي معلومة واردة في كتيّب التعليمات الخاص بخبراء معاينة الدم. هل تعلم ذلك؟»

أجاب أندرسون: «لا، لا علم لي بذلك، لكنني لن أخالفك الرأي». لقد كان حريصاً جداً على ألا يتخطى الحدود عندما يُدرك أنني أعلم شيئاً ما، وأوشك أن أثبته. لأن أي جدل حينها، أو أي اعتراض من ناحيته قد يُضعف شهادته. إن شرطة نيويورك كلها تتلقى دورة تدريب الشهود ذاتها. لقد استجوبت الكثير منهم، وأصبحت أعرفهم عن ظهر قلب.

ببطء شديد، سكبت الماء من الكأس الزجاجي الصغير فوق الثقل المعدني الموجود على الفراش من جهة أرييلا. تجمّع السائل حول الشكل الناتج عن الثقل المعدني، وبدأ ينتشر. سال على السرير واستقرّ في موضع الثقل المعدني المكافئ لموقع كارل توزر. بدأت الكتلة العضلية المنتفخة في فك أندرسون تعمل كالمضخة. وسمعت صرير أسنانه من على بعد عشر أقدام.

«حضرة المحقق، بإمكانك أن تلقي نظرة على الفراش قبل الإجابة على سؤالي إذا رغبت. أريدك أن تلقي نظرة على صورة الفراش على الشاشة، وتخبرني ما الخطأ فيها؟»

نقل أندرسون نظراته بين الشاشة والفراش الموجود أمامه. كان فاشلاً في التمثيل، فرك صدغيه ثم هزّ رأسه وكأنه يحاول جاهداً أن يتخلّص من التوتر، لكنه فشل.

«لا أستطيع أن أرى ما ترمي إليه».

عرفت أنه يريد أن يجعل الأمر صعباً علي، لكنه أعطى إجابة خاطئة فتحت الباب أمامي لأفسّر الأمر **له**، والأهم من ذلك، لأفسر الأمر **لهيئة المحلّفين**.

استبدل أرنولد الصورة الموجودة على الشاشة بصورة الضحايا في مسرح الجريمة. على الأقل، كنا أنا وأرنولد في الصفحة ذاتها. وقبل أن أنطق حرفاً واحداً، رأيت هاري يسجّل ملاحظات. كان أمامي مباشرة.

«حضرة المحقق، لا يظهر أي أثر لدماء أرييلا بلوم على جسد كارل توزر، أليس كذلك؟»

«لا، أظن أنه لا يوجد».

لقد سمع بريور ما يكفي. فقفز من ذلك المقعد ووقف إلى جانبي.

«حضرة القاضي، الادعاء يعترض على هذه..... هذه التمثيلية العبثية. في حال تدفّق الدم، أو أي شيء آخر على هذا الفراش الموجود هنا، إلى هذا الاتجاه أو ذاك، فهو لا يعني أي شيء. لم يتم فحص الفراش الموجود في منزل المتهم، إنه مختلف. ليس هناك أي دليل للقول إن ما يحدث على هذا الفراش، كان يجب أن يحدث، من حيث المبدأ، على الفراش الموجود في مسرح الجريمة».

ارتفع حاجبا هاري إلى الأعلى ونقر بالقلم على الطاولة.

«سأدعه يتابع هذه العملية، لكن السيد بريور طرح نقطة هامة يا سيد فلاين»، قال هاري.

المرحلة الثالثة. اللحظة التي تُدرك فيها أنك مغفّل.

نظرت إلى الحشد الذي كان ينتظر إجابتي بكل فضول. رأيت الكثير من الأشياء في الوجوه التي كانت تنظر إلي. بعضها كان مرتاباً، وبعضها مرتبكاً، وثمة من كان مفتوناً. مضت شهور طويلة لم يسمعوا فيها سوى رواية واحدة، رواية واحدة فقط - إن بوبي سولومون قد قتل زوجته ورئيس أمنه. لكن ربما يسمعون الآن رواية مختلفة.

يحب الجميع القصة الجيدة.

عثرت في الحشد على الوجه الذي كنت أبحث عنه.

«السيد تشيزمان، هلا وقفت من فضلك؟»

رجل في الخمسين من عمره وقف بكبرياء في النسق الثاني من مقاعد العامة. رجل ذو شعر أسود كثيف، مسرّح بعناية، وشارب بدا وكأنه تلقى من العناية ما يتلقاه حيوان أليف محبوب لدى الأسرة. رجل ضخم، يرتدي بزّة زرقاء داكنة، وقميصاً أبيض وربطة عنق بلون الزمرّد.

التفت إلى هاري.

«حضرة القاضي، أقّدّم لك السيد تشيزمان. في عام (٢٠٠٣)، قام بتصميم فراش «نيموسليب» ونال عليه براءة اختراع. إنه مصنوع من المطاط، ومغلّف بنسيج الكليفر المقاوم للماء بنسبة مئة بالمئة، وهناك كفالة أيضاً. ولهذا الفراش معدّل امتصاص يساوي معدّل امتصاص الكربون الصلب. هو أيضاً مضاد للحساسية، ومضاد للجراثيم والفطريات، ويُستخدم في الفنادق على نطاق واسع. ويمكن، في حالة الضرورة، أن يُدلي السيد تشيزمان بشهادته خارج إطار تسلسل الشهود، إذا أراد السيد بريور استجوابه».

استطاع هاري بصعوبة أن يخفي ملامح البهجة عندما نظر إلى السيد تشيزمان. وما زاد من المتعة تلك النظرة التي بدت بوضوح على وجه بريور. لم تكن كلمة «دهشة» كافية تماماً للتعبير عنها. بدأ يسير نحو جدار مكتوب على كل بقعة منه عبارة «غير مذنب».

«حضرة القاضي، أخشى أنني سأحتفظ بموقفي من السيد تشيزمان في هذا الوقت»، أجاب.

«سأسمح بمتابعة الاستجواب الآن»، قال هاري.

وضعت قدمي على حنجرة أندرسون قبل أن يصل بريور إلى منصّة الادعاء.

«أيها المحقق، كما أثبتنا للتو، ليس هناك أثر لدم أرييلا بلوم على جسد توزر. ولا قطرة واحدة. إذا كانت وضعية الضحايا، عند وقوع الجريمة، بالطريقة التي عثرت عليهما بها، فلا بدّ أن يكون هناك دم على جسد السيد توزر، هل توافق على ذلك؟»

«لا، أعتقد أن الضحيتين قتلتا حين كانا مستلقيين»، قال أندرسون.

«هل تصدق أن الدم قد سال باتجاه للأسفل؟»

«آنا.... بالطبع أعتقد ذلك».

«إنها مسألة فيزيائية بسيطة أيها المحقق. كان كارل توزر أعلى وزناً بكثير من أرييلا بلوم. ويشكّل وزنه منطقة منخفضة في الفراش، وأي دم يتدفق من جسد السيدة بلوم سوف يتخذ طريقه إلى تلك المنطقة المنخفضة، بحسب قانون الجاذبية، وسوف يصل إلى جسد السيد توزر، صحيح؟»

تردد قليلاً. تحركت شفتاه لكن ما من صوت خرج من حنجرته.

«هذا ممكن»، أجاب.

ركّزت على القتل. أظهرت الشاشة الصورة التي التقطتها هاربر للبقع الموجودة على الفراش.

«لو كان توزر في السرير عندما قُتِلَت السيدة بلوم، لكانت بقع الدم ظاهرة عليه. أيها المحقق، أليس هذا واضحاً، ألم ترَ من العرض أن كارل توزر لم يكن في هذا السرير عندما قُتِلَت الضحية الأخرى؟ لا بدّ أن الدم أخذ ما يكفي من الوقت ليجف ويستقرّ قبل أن يوضع ثقل كارل توزر فوقه؟»

«هذا ممكن»، أجاب.

«أنت تعني أن الأمر ممكن؟»

أجاب وهو يصرّ على أسنانه: «إنه ممكن».

«وفي بداية الاستجواب، قلت لهيئة المحلّفين إن من غير الممكن أن تكون الجريمة قد حدثت إلا بوجود الضحيتين مستلقيتين معاً في السرير. تشير الأدلّة الآن إلى معطيات أخرى، أليس كذلك؟»

«ربما، هذا لا يغير من حقيقة أن موكلك هو من قتلهما»، أجاب.

كنت أوشك أن أخوض نقاشاً عنيفاً مع أندرسون. ثمة الكثير من الاستفسارات حول تحقيقاته، إلا أن القاضي رفع يده وطلب مني أن أتوقف. كانت موظفة المحكمة تهمس للقاضي، فنهض وقال: «تؤجّل الجلسة عشرين دقيقة. أرجو من كلا المستشارين أن يتبعاني إلى غرفتي حالاً».

بدا منزعجاً. تحدث هاري مع موظفة المحكمة ثم اختفى في الممر المظلم قبل أن تصيح الموظفة: «وقوف».

لم يكن لدي آدنى فكرة عما كان يحدث. ولا حتى بريور.

«لكن شيئاً ما طرأ فجأة. رأيت المسؤول عن حماية هيئة المحلّفين يجمع دفاتر الملاحظات من أعضاء الهيئة. اللعنة! آخر ما كنت أحتاجه هيئة محلفين جديدة. لقد بدأت للتو أكسب هؤلاء الناس.

أياً كان ما حدث، فقد جعل هاري يستشيط غضباً.

صوت ضجيج لفت انتباهي. أصوات ترتفع. نظرت إلى مصدر الهياج وتراجعت خطوة إلى الخلف. لم يسبق أن رأيت خلال حياتي كلها شيئاً كهذا.

اندلع نقاش صاخب جداً على منصّة هيئة المحلّفين.

كارب لو

شقة رقم ٤٢١، مبنى كوندي ناست، ٤ تايمز سكوير» نيويورك.

سريٌّ للغاية، وثيقة عمل بين المحامي وموكله

مذكّرة هيئة المحلفين

الادعاء العام ضد روبرت سولومون

المحكمة الجنائية في مانهاتن

مانويل أورتيغا

العمر : ثمانية وثلاثون

عازف بيانو، وعازف ناي وغيتار. مصدر دخله الأساسي من العزف في فرقة موسيقية. ليس لديه فرقة حالياً. مطلّق، ولديه طفل وحيد، صبيّ عمره أحد عشر عاماً ويعيش مع طليقته. فقير مادياً (عدائي تجاه الدائنين). لم يسبق له التصويت بالانتخابات. انتقل من ولاية تكساس إلى ولاية نيويورك منذ عشرين سنة. أخوه سجين. تظهر مدوّناته في وسائل التواصل الاجتماعي معارضة شرسة لنظام السجن.

احتمال التصويت بغير مذنب : ٩٠٪.

آرنولد نوفوسليك

الفصل الحادي والأربعون

انتظرَ حتى تحين اللحظة المناسبة.

من الصعب عليه أن يصدر حكماً، فثمة الكثير من الناس حوله. لطالما كان القرب من الناس مصدر قلق لـ كين. لقد أمضى سنوات في التناغم مع أدقّ تفاصيل البشر الذين كان يستهدفهم: نبرة الصوت، أسلوب الكلام، وضعية الجسد، العادات، الانفعالات، طريقة التنفّس، وحتى الطريقة التي يطوون فيها أيديهم في حالة الاسترخاء.

عندما جلس بين أعضاء هيئة المحلفين، لم يكن قادراً على عزل نفسه. هذا الشعور الحاد بالآخرين، يصبح طاغياً في لحظات معينة. وأحياناً يكون مستمتعاً به.

كما هو الحال الآن.

كان بوسعه الشعور بمجريات الأمور هنا حتى من دون أن ينظر. لقد حشر فلاين الادعاء في الزاوية. وذلك الرجل السمين في النسق الثاني من منصة الحضور، تشيزمان. بدا وكأن أثاث المحكمة كان منشدّاً إليه. كانت حركة آسرة.

نفض كين ساقه اليمنى، ثم وضعها برفق فوق ركبته اليسرى. ثم طوى يده فوق ساقيه المتصالبتين وانتظر. عرف أن اللفافة الورقية كانت تتقدم إلى الأمام، إلى النسق الأمامي. لقد ترك قدمه تقوم بالعمل. ولم يسمع سوى صوت خفيف جداً لخشخشة الورقة.

التفت سبنسر إلى اليسار، باحثاً عن مصدر الصوت، ثم التفت إلى اليمين. لم ير أي شيء. كان عليه أن ينحني للأمام ليتمكن من رؤيتها.

لم يعد بوسع كين أن يرى اللُفافة الورقية مع أنه استطاع تحديد موقعها غريزياً.

وضعت بيتسي، التي كانت على يمين سبنسر، راحتيها إلى جانبها وعدّلت جلستها في مقعدها وأخذت تهزّ ساقيها، ثم تثنيهما تحت المقعد بعد أن قاطعت كاحليها.

سمعت شيئاً ما، وسمعه كين أيضاً. كان الصوت أعلى هذه المرة؛ صوت خشخشة ورقة. انحنت بيتسي لتتحرّى الأمر، وعادت بلفافة ورقية في يدها. بقيت ساكنة في مكانها للحظة، وهي تحمل الورقة في يدها وتحدّق فيها كما لو أنها كرة كريستالية.

بدت كلمة «مذنب» واضحة تماماً على الورقة. كانت ريتا إلى جانب كين، وراقبت بيتسي تلتقط شيئاً عن الأرض. انحنت ريتا إلى الأمام ووضعت يدها برفق على كتف بيتسي.

«أوه، يا إلهي، هذه تعني «مُذنب»»، همست ريتا.

«نعم، تعني ذلك»، أجابت بيتسي.

مدّت المرأتان كلتاهما عنقيهما باتجاه سبنسر.

«ما الذي تفعله يا سبنسر؟» قالت بيتسي.

نظر سبنسر مباشرة إلى بيتسي بارتباك للحظة.

«ما هذا؟» قال سبنسر.

سمعت الموظفة المسؤولة عن لجنة المحلفين الأصوات، وتجاوزت كين بينما كانت تنحني لتطلب منهم الصمت. حينها لمحت اللفافة الورقية. فأدارت بيتسي اللفافة بحيث تتمكن موظفة المحكمة من رؤية ما هو مكتوب عليها. عدّلت موظفة المحكمة وقفتها، وطلبت منهم الهدوء. ثم أخذت اللفافة الورقية واتجهت إلى القاضي.

لم يتدخّل كين بأي شيء، بل رسم ملامح الدهشة على وجهه. ولدى ابتعاد الشرطية قالت بيتسي بصوت عالٍ:

يا لك من وغد صغير متلاعب، لا بد أنك تعرف ذلك؟»

وسمع الأعضاء جميعهم ذلك.

الفصل الثاني والأربعون

في النهاية تطلّب الأمر تدخّل عناصر أمن المحكمة لتهدئة هيئة المحلّفين. خمسة منهم. وكانوا لا يزالون يتجادلون عندما تم إخراجهم من منصة الهيئة. لم يحدث في جميع المحاكمات التي شاركت فيها منذ سنوات طويلة أن خاطرت هيئة المحلّفين بازدراء المحكمة.

قام كريس بيلوس، مبرمج الشبكات شاحب البشرة، بشدّ سترة سبنسر بيده الأولى، وأشار باليد الثانية إلى مانويل أورتيغا. وانضم دانيال كلاي، عاشق أفلام الخيال العلمي، إلى العجوزين برادلي سوومرز وجيمس جونسون، المترجم، بالصياح على الحضور جميعهم. عمت الفوضى. ولم يفلح الصراخ على الناس لإعادة الهدوء.

كان مانويل، الموسيقي، في مواجهة تيري أندريو الضخم. وفي غضون ذلك، أطلقت بيتسي وريتا العنان لمواجهة سبنسر كولبيرت.

رجل واحد فقط بقي خارج تلك المعمعة، كان يجلس بهدوء ويحني رأسه - إنه أليكس وين. ثم أخرج عناصر الشرطة هيئة المحلفين من القاعة.

لم يمنع إغلاق باب الممر خلفهم من وصول أصوات احتجاجاتهم إلينا.

«يا إلهي، ما الذي يجري؟» قال بوبي.

التفت إلى موكّلي محاولاً طمأنته.

«ليس لدي أية فكرة، لكن أياً كان الأمر، ربما يكون لصالحك»، أجبته.

«كيف ذلك؟ لصالحي بأي معنى؟» قال بوبي.

«لا نزال في الأيام الأولى، لكن تبدو هيئة المحلّفين منقسمة منذ الآن، وهذا مؤشر جيد. نأمل أن تبقى الأمور على هذا النحو».

بدا وكأنه يتفهّم الأمر. أصبح أفضل حالاً؛ عاد التورّد إلى وجنته، والبريق إلى وجهه.

كان الأمر يستحق العناء. كنت مستعداً للتضحية بالكثير كي أقف إلى جانب روبرت سولومون وأمثاله. وعندما نظرت إليه الآن، أدركت كم كان قراري صائباً.

«هل أصبح لدينا فرصة الآن؟ أقصد يا إيدي أنني لم أرَ تلك السكين أبداً قبل هذا اليوم. أقسم أنني لم أشاهد هذا السكين في حياتي، ولم ألمسها أبداً»، قال بوبي.

«بوبي، ذلك المضرب الذي كان في غرفة النوم. أخبرني رودي بأنك تبقيه عادة في الممر، هل هذا صحيح؟»

«نعم، بالتأكيد. لقد عشت في مزرعة ولم يكن والدي يحب الأسلحة. وكان يحتفظ بقطعة خشبية بعرض أربعة إنشات وسماكة إنشين، قرب الباب الخارجي طوال الوقت. إنها من أجل الحماية، أنت تفهم ذلك، صحيح؟ وفي يوم من الأيام، كسر هذه العصا على رأس جابي ديون، وسُجنَ عدة أشهر بسبب ذلك. وعندما خرج من السجن، ابتاع مضرب بيسبول، واحتفظ به في المكان نفسه، في كوة صغيرة قرب الباب. قال إن المضرب لا يُكسر بسهولة. ومنذ ذلك الحين وأنا أفعل الشيء ذاته، في أي مكان أقيم فيه، ومهما كانت لدي من حراسة. ومع ذلك، لم أستخدمه مُطلقاً».

«هذا منطقي». قلت ذلك ولديّ فكرة مسبقة عن ذلك المضرب في الصالة، وكيف تم ربطه بتلك الضربة الغامضة التي تلقّاها كارل توزر على حنجرته.

جاءت الموظفة إلينا مسرعة. يريد هاري أن يرى المستشار الآن مباشرة. تبعنا الموظفة إلى غرفة هاري، وأبقى بريور فمه مغلقاً هذه المرة. لا بدّ أنه كان قلقاً بشأن هيئة المحلّفين. اثنا عشر عضواً لا يتفقون فيما بينهم، لن يجتمعوا على إصدار حكم بالإدانة. كان عليه أن يصارع ليستعيد الهيئة إلى جانبه، وهو يعرف ذلك.

جلس هاري خلف المكتب بعد أن خلع عباءته وعلّقها. كان يرتدي قميصاً أبيض وسروالاً أسود وعليه حمّالات تُمسك سرواله الأسود. وثمة لفافة ورقية على المكتب إلى جانب كومة من دفاتر الملاحظات.

جلسنا على المقاعد الفخمة مقابل هاري. وجلست الكاتبة في مكانها، ودخلت كاتبة الاختزال أيضاً. وبدأت تكتب حالما بدأ هاري كلامه. كانت المحادثة قيد التسجيل.

«أيها السادة، جلبنا لأنفسنا أعضاء هيئة محلّفين أوغاداً».

«اللعنة عليهم»، قال بريور وهو يضرب بيده على المكتب.

حككت وجنتي وطلبت كأس ماء من هاري، أخذت جرعة ثانية من المسكّنات. كنت الآن بحاجة لها أكثر من أي وقت مضى. فبالإضافة إلى ضلعي المكسور، أشعر وكأن رأسي يكاد ينفجر. بقي رأسي بخير معظم اليوم طالما لم ألمس تلك الكدمة. لكنني الآن أشعر بألم رهيب في رأسي كله. وليس لهذا علاقة بالضربة التي تلقيتها البارحة على رأسي.

كان لكلمات هاري وقع مماثلٌ لسقوط بيانو معلّق برافعة من علو شاهق.

محلّفون أوغاد.

لم ألتقِ بمثل هذه الهيئة من قبل، لكنني سمعت الكثير من القصص وقرأت عنها في الصحف. المحلّف الوغد هو المحلّف الذي يكون له أجندته الخاصة. وفي معظم الحالات، يكون على صلة بالمتهم. صديق له أو من الأقرباء البعيدين. يكون لديه هدف واحد - أن يصل إلى هيئة المحلّفين ويتلاعب بمجرى المحاكمة بأي اتجاه يناسب غايته.

«ما الأمر؟» سأل بريور.

أجاب هاري: «انظر إلى الورقة، لكن لا تلمسها. عليها ما يكفي من البصمات».

وقفت أنا وبريور لنتفحّص اللفافة الورقية على مكتب هاري. إن رؤية كلمة «مذنب» مكتوبة على تلك اللفافة وتمريرها بين أعضاء هيئة المحلّفين، أضاف موجة ألم إلى رأسي.

«هل تريد تأجيل المحاكمة؟» سألت القاضي.

«لست متأكداً حتى الآن. كنت أبحث في دفاتر الملاحظات التي وزّعتها المحكمة على أعضاء الهيئة. أعتقد أنني وجدت تطابقاً. ثمة دفتران فارغان تماماً، ولم يكن الخط حتى قريباً من هذا في باقي الدفاتر. ومع أنني لست خبيراً بالخطوط، يبدو لي أن هذا الخط مطابق»، قال هاري.

ألقى هاري نظرة على دفتر مفتوح على مكتبه. لم يبدُ الخط في ذلك الدفتر مشابهاً للخط الموجود على اللفافة، بل بدا متطابقاً.

«يبدو مطابقاً بالنسبة إلي، يا حضرة القاضي»، قال بريور.

«وبالنسبة إلي أيضاً»، قلت له.

طلب القاضي من الكاتبة أن تُحضر عضو الهيئة إلى الغرفة. لم ننتظر طويلاً. أدخلت الكاتبة سبنسر كولبيرت، وطلبت منه أن يجلس على كرسي إضافي موجود على طرف مكتب هاري. لم أكن مهتماً بالضرورة بخسارة هذا العضو. كان يبدو من الأوراق أنه من نوع الناس الذين يُعدّون لصالحنا. مُبدع، ودود، ليبرالي ارتدى الكثير من البلوزات ذات الياقة الضيقة، ودخّن التبغ. لا بدّ أنه مثالي.

جلس والقلق واضح عليه، بدا مثل طفل أحضروه إلى مكتب المدير بعد شجار في باحة المدرسة.

«سيد كولبرت، إننا نقوم بالتسجيل الآن. أريد أن أعرف ما إذا كنت قد كتبت على هذه اللفافة الورقية، ورميتها كرسالة تصل إلى باقي أعضاء الهيئة؟» قال هاري.

«ماذا؟ لا، لا علاقة لي بأي شيء من هذا القبيل».

«إنه بالتأكيد مطابق لخط يدك»، قال هاري.

حاول كولبيرت أن يقول شيئاً، لكنه فكّر بالأمر. هزّ رأسه نافياً ثم قال: «لا أعرف أي شيء عن هذه اللفافة. ليست لي يا حضرة القاضي».

«أنا خبير بهذه الأمور أيها السيد. لقد اطلعت على الملاحظة، ورأيت دفتر ملاحظاتك. هذه فرصتك الأخيرة»، قال هاري.

حدّق عضو الهيئة بالأرض، كان قد أوشك أن يقول شيئاً قبل أن يهزّ رأسه.

«انتظر الآن يا سيد كولبيرت. قبل أن تقول أي شيء، يمكنني الآن الدخول واستجواب كل عضو بدوره. أو تستطيع أنت أن تجعلني أوفّر الوقت. لأنني إذا ضيعت يومي بالحديث إلى المحلّفين الآخرين، سأحرص على أن تمضي الليل في المقبرة المجاورة لهذه الغرفة، بينما أفكّر بما ينبغي عليّ أن أفعله معك»، قال هاري.

لم يعد بحاجة إلى نطق كلمة واحدة. إن فكرة أن يمضي ليلة مع عشرين موقوفاً في الحجز جعلت الرجل الصادق يخرج عن طوره.

«أنا لم أكتب هذه الملاحظة. وأنا لا أعتقد بأنه مذنب على أية حال»، وفي اللحظة ذاتها تمنّى لو أنه لم يقل تلك الكلمة.

التفت القاضي في كرسيه إلينا وقال: «سيد كولبيرت، أنت مطرود من اللجنة. لم يكن يُفترض بك أن تكوّن أي حكم على القضية حتى الآن. على هذا الأساس وحده، أنت مطرود. عليّ أن أقول إنني لا أصدقك. أعتقد أنك كتبت الملاحظة، وأظن أنك أردت إقناع رفاقك الأعضاء بأن المتهم مُذنب. على أية حال، لا أريد منك التدخّل بهذه المحاكمة بعد الآن. أنا لم أتخذ قراراً بشأن هذه الملاحظة إلى الآن، سوف أطلب من شرطة نيويورك أن تنظر بالأمر. وآمل لمصلحتك أنك تقول الحقيقة. إذا كانت بصماتك على اللفافة، سوف أستدعيك مجدداً، مفهوم؟»

أومأ سبنسر، وخرج من المكان قبل أن يزيد الأمر سوءاً.

«يسقط أعضاء هيئة المحلّفين كما يسقط التفاح المتعفّن عن الشجرة، يا حضرة القاضي»، قال بريور.

«أتخبرني عن الأمر؟ ينبغي عليّ تعيين نصف دزينة من الأعضاء الاحتياطيين. سأطلب من أعضاء الهيئة التغاضي عن الملاحظة. هل يريد أي منكما أن يقول شيئاً؟ أود أن أخبركما أني لا أنوي تقديم أية مذكرة لتأجيل هذه القضية».

أومأت برأسي موافقاً، وكذلك بريور. لا فائدة من تأجيل هذه المحاكمة. إذا طلب هاري من أعضاء الهيئة التغاضي عن هذه الملاحظة، فليس هناك مبرر قانوني لتأجيلها. لا يمكنني فعل أي شيء آخر.

«حسناً، سأحضر عضو الهيئة الاحتياطي». كانت هنا طوال فترة المحاكمة، ولم أر أن لديها أية إشكالات. دعونا نعدْ للعمل الآن»، قال هاري.

كارب لو

شقة رقم ٤٢١، مبنى كوندي ناست، ٤ تايمز سكوير» نيويورك.

سريٌّ للغاية، وثيقة عمل بين المحامي وموكله

مذكّرة هيئة المحلفين

الادعاء العام ضد روبرت سولومون

المحكمة الجنائية في مانهاتن

جيمس جونستون

العمر : ٤٣

انتقل من العاصمة واشنطن إلى نيويورك منذ سنتين. الوالدان متوفيان. لديه أخ وحيد لا يزال يعيش في واشنطن. مترجم (عربي، فرنسي، روسي، ألماني). يعمل من منزله في ترجمة الاتصالات الفيديوية الخاصة. حالته المادية جيدة. ينتمي إلى عدة نوادٍ اجتماعية ، والغاية الأساسية من ذلك هي التعرّف على أكبر عدد من الناس. ليس لديه حياة اجتماعية. يحب السينما الفرنسية، الأفلام الواقعية، وتذوّق الجبن. لم يسبق له التصويت.

احتمال التصويت بغير مذنب : ٥٠٪

أرنولد نوفوسليك.

الفصل الثالث والأربعون

بقي رجلا أمن برفقة هيئة المحلّفين بينما كانوا ينتظرون عودتهم إلى قاعة المحكمة. لم ينطق أيٌ منهم بكلمة. طلب كين كوباً من القهوة وأخذ يراقب رفاقه المحلّفين. بدا البعض مُغتاظاً.

لدى عودتهم إلى قاعة المحكمة كانت المحلّفة الجديدة بانتظارهم. فاليري بورلينغتون، في منتصف الأربعينات من عمرها، ترتدي سروال جينز أسود باهظ الثمن، وبلوزة سوداء. كانت ترتدي الكثير من المجوهرات، كلها من الذهب، وكلها حقيقية. والسلسلة الثقيلة التي كانت تضعها في رسغها ربما كلّفت وحدها عشرين ألف دولار. وعلى الرغم من كل هذا الإنفاق، جعلتها هذه السلسلة تبدو شحيحة. جلست بعيداً عن كين، في الطرف المعاكس لمكان جلوسه.

أبلغ القاضي أعضاء الهيئة بأمر سبنسر، وبتعيين البديل عنه. وكما وعد هاري سابقاً، طلب من أعضاء الهيئة التغاضي عن تلك الملاحظة، وحذّرهم من الخوض في أي نقاش يخص القضية قبل الإدلاء بالشهادات كلها. وأوضح لهم تماماً ما يترتب على ذلك من عواقب.

بعد رحيل سبنسر، لم يبق إلا خطر واحد يُقلق راحة كين، إنه مانويل.

ولكن كان عليه أن ينتظر.

صوت محامي دفاع بوبي شتّت تركيزه. لقد قلل من شأن هذا الرجل المدعو إيدي فلاين. لن يكرر تلك الغلطة.

الفصل الرابع والأربعون

لم يبدُ المحقق أندرسون مسروراً لرؤيتي مرة ثانية. بقيت بعض الشهادات. لقد فقدت قوتي الدافعة، وأصبح لدى أندرسون الوقت الكافي ليفكّر بما كنت قد سألته من قبل. لقد فقدت عنصر المفاجأة.

«أيها المحقق، وصلنا معك إلى أنك تقبل باحتمال أن تكون هذه الجرائم قد حدثت بطريقة مختلفة عما وصفته أساساً لهيئة المحلّفين. دعني أفترض ما يأتي: انظر مرة أخرى إلى تقرير تشريح جثّة كارل توزر».

وجد أندرسون التقرير أمامه وقال: «ما زلت أعتقد أن الضحيتين قُتِلتا في ذلك التقرير يا حضرة المستشار. أنا لا أعرف لماذا لا يوجد دم على جثّة السيد توزر، لكن ذلك لن يغيّر أي شيء».

لقد تجاهلت تصريحه مؤقتاً فقط. ولديّ كامل النيّة بالعودة إليه.

«سوف ترى في الصفحة الثالثة من التقرير إشارة إلى سلسلة من الكدمات على حنجرة السيد توزر. إنها بعرض ثلاثة إنشات، وبطول ثلاثة إنشات. هل رأيت ذلك؟»

«نعم».

«كيف تتخيل أنه تلقى تلك الضربة، بحسب السيناريو الذي تعتبر به أن الضحيتين قُتِلتا في السرير، وهما نائمان؟»

فكّر بالأمر، قلب صفحة التقرير ونظر إلى مخطط الجثّة، حيث رسمت الخبيرة الطبية مخطط جسد يُظهر الإصابات.

«لا أعرف. ربما تلقى هذه الضرة قبل أن يدخل إلى السرير؟ ربما لا علاقة لها بالجريمة؟» أجاب.

«من الممكن بالتأكيد ألا يكون لها علاقة بالجريمة. أو ربما تكون الشيء الأكثر أهمية. ألقِ نظرة على هذه الصور لو سمحت».

وضع أرنولد صور الشرطة التي تُظهر بقية أنحاء المنزل. المطبخ، الممرات، غرف المعيشة. وباستثناء المطبخ، كانت جميع الغرف مغطاة بسجاد أبيض

كالثلج.

«إذا لم يكن السيد توزر قد مات في السرير، فمن المرجّح أنه لم يمت في أي مكان آخر من البيت. كما ترى، لا وجود لأية بقعة دم في أي مكان، أليس كذلك؟»

كان سريعاً بالإجابة هذه المرة.

«لا شيء من هذا القبيل؛ فآثار دم السيد توزر الوحيدة التي عثرنا عليها كانت في ذلك السرير»، قال ذلك مع شعوره بالانتصار بطريقة ما.

«أيها المحقق، إذا تدبّر الدخيلُ أمره ليستطيع الدخول إلى هذا المنزل، ويضع كيساً على رأس السيد توزر، ويشده من الخلف، فهل تتوقع أن تجد إصابة مشابهة على حنجرته، هل يصّح الأمر بهذه الطريقة؟»

تجمّد أندرسون في مكانه. هو لم يتوقّع أن هذا هو الآتي».

«ربما، لكن السيد توزر لم يمت بسبب الاختناق، لقد توفي بسبب ضربة على رأسه بمضرب بيسبول».

«يبدو الأمر كذلك. حضرة المحقق، هل تعرف أين يحتفظ المتهم بمضرب البيسبول في منزله عادة؟»

«لا، ليس لدي أية فكرة»، أجاب أندرسون.

«في الممر، قرب الباب الأمامي»، قلت له.

«هزّ أندرسون كتفيه، ثم هزّ رأسه. كما لو أنه يقول، وماذا في ذلك؟»

«متسلل تدبّر أمره ليدخل المنزل، لنقل بادعاء كاذب مثلاً، يمكنه حينها أن يضع كيساً على رأس السيد توزر من الخلف، ويجرّه ويسبب له هذه الكدمة، ثم يُمسك مضرب البيسبول الخاص بالمتهم، ويقتل به السيد توزر بضربة قوية خلف الرأس. هذا ممكن، أليس كذلك؟»

هزّ المحقق رأسه بينما كنت أطرح السؤال. لم يكن مستعداً للقبول بذلك، واعتقدَ أن لديه الإجابة على هذا السؤال. ولم يستطع بريور أن يعترض، لكن بدا سعيداً بأن يدع أندرسون يحاول أن يجيب عن الأسئلة بنفسه.

«لا يمكن. إذا كان قد فعل ذلك، فأين هي بقع الدم إذاً؟ إن قطرة دم واحدة على هذا السجاد سوف تكون بارزة. لا يمكن أن نغفل عن الدم على هذا السجاد».

«لكن إذا كان المتسلل قد وضع كيساً على رأس السيد توزر، ربما كان كيساً له رباط إغلاق، بذلك يمكنه حينها أن يسدد ضربته في أي مكان من المنزل، لأن الدم الذي ستسببه الضربة، سيبقى في الحقيبة حينها، أليس كذلك؟»

كان ذلك منطقياً. إنه يفسّر الكدمة على حنجرة كارل، وعدم وجود دمه على السجاد، ويفسّر لماذا لم يصل دم أرييلا إلى جسد توزر في السرير. عندما تم سحب توزر على الأدراج ووضعه إلى جانب جثتها، كان قلبها قد توقف عن العمل، مما يعني توقّف النزف. وأي دماء كانت موجودة مسبقاً، بقيت مجمّعة بتأثير ثقلها، وسوف تمتصها ملاءة السرير.

«أنا لم أفهم الأمر. إذا حدث ذلك، لماذا يقتل أرييلا بلوم، ثم يضع جثة توزر إلى جانبها في السرير؟» سأل المحقق أندرسون.

يا لها من غلطة فادحة. أوشك هاري أن يطلب من أندرسون ألا يطرح أسئلة على المستشار. ليس على الشهود أن يطرحوا الأسئلة - عليهم الإجابة وحسب. لكن في هذه الفرصة تحديداً، كنت سعيداً بالإجابة.

«لأنه إذا تم العثور على جثة توزر إلى جانب أرييلا، سيبدو الأمر كما لو أن أحدهم وجدهما في السرير معاً وقتلهما. يُصبح ذلك بمثابة دافع لبوبي سولومون، ويجعل اهتمام التحقيق يتجه إليه، ويبقى التحقيق بعيداً عن هوية القاتل الحقيقي، أليس كذلك؟»

«هذا رأيك»، قال أندرسون.

«دعنا نبتعد الآن عن الآراء، هل نستطيع؟ من الواضح جداً أننا لم نشاهد جروحاً دفاعية، من أي نوع كانت، على جثة السيدة بلوم، صحيح؟»

«نعم. أعتقد أنها كانت نائمة عندما تعرّضت للهجوم»، قال أندرسون.

«هل لي أن أعرض الدليل رقم ثمانية لو سمحتِ؟» قلت للموظفة.

«انحنت الموظفة إلى الجهة الجانبية وأحضرت مضرب بيسبول ملفوفاً بكيس أدلّة بلاستيكي مختوم. وقفت على الفراش ممسكاً المضرب، ثم

ضربت بخفّة الثقل المعدني الموضوع على الفراش من جهة توزر.

كان وقع الصوت مدوّياً في أرجاء الغرفة. أعدتُ المضرب مجدداً إلى الكاتبة.

«مضرب خشبي يرتطم بقوة بشيء معدني سيصدر صوتاً مدوّياً بدون شك. عندما اصطدم المضرب بجمجمة كارل توزر، لا بدّ أنه أصدر صوت تحطّم قوي، أليس كذلك؟»

«سيُصدر بعض الصوت، أوافق على ذلك».

«والسيدة بلوم، التي تقول إنها كانت نائمة على بعد إنشات من مصدر الصوت، ألن تستيقظ بفعل هذا الصوت؟»

تنفّس من أنفه. زفرة طويلة قد تريحه من إحباطه.

«لا أدري»، قال هو.

حان الوقت للتقدّم الآن، الطاولة والسكين كانتا نقاطاً هامة في القضية.

«كم عدد المرات التي ذهبت فيها إلى المنزل للبحث عن أداة الجريمة المحتملة؟» سألت المحقق.

فكّر بالأمر وقال: «ربما اثنتا عشرة مرة».

«ولم يتم العثور على السكين في أي من تلك المرات، أليس كذلك؟»

«لا، كما قلت، وجدتها البارحة».

«كان مكاناً جيداً لإخفاء أداة الجريمة، أليس كذلك؟»

أومأ برأسه، ورسم على شفتيه ابتسامة ساخرة وقال: «أفترض أنه كان مكاناً جيداً لإخفاء أداة الجريمة، لكننا وجدناه في النهاية».

«المبرر الوحيد لإخفاء السلاح في غطاء مصباح السقف هو عدم رغبة القاتل بأن يُكتشف أمره، ألا تعتقد ذلك؟»

«صحيح».

«دعنا نفترض أن المتهم استخدم الطاولة ليقف عليها وهو يحمل السكين، لماذا إذاً لم يرجع الطاولة إلى مكانها الأصلي؟»

«لا أعرف»، قال أندرسون.

«هل وجدت السكين فقط لأن الطاولة كانت مقلوبة؟»

«افترضْ أن باستطاعتك أن تقول ذلك»، قال هو.

«وأوحتْ إليك بأن من الممكن أن يكون هناك نشاط معيّن يتضمن القاتل وتلك الطاولة، صحيح؟»

«صحيح».

«لو أن القاتل أعاد الطاولة إلى وضعيتها الطبيعية، لما كنت وجدت السكين، أليس كذلك؟»

«ربما لا»، قال أندرسون.

هناك سبع دقائق تقريباً بين طلب النجدة، ووصول أول شرطي إلى مسرح الجريمة؟»

«أعتقد ذلك».

«ثمّة وقت طويل لكي يخفي القاتل حقيقة أنه كان على الطاولة، لم يكن عليه سوى أن يعيد الطاولة إلى موقعها الأصلي، ما رأيك؟»

«هذا ممكن».

«لنفترض أنك على حق، وأن المتهم هو القاتل الذي يحاول إخفاء السكين. ولا يريد أن يُعثر عليها. وهو يعاني الكثير لإخفائها في مكان لا يمكن لأحد أن ينظر إليه، غطاء المصباح السقفي. ثم يكسر الآنية، ويقلب الطاولة تحت المصباح. هل تريد أن تقول لي إن المتهم حينها ترك الطاولة مقلوبة، وترك الآنية المكسورة على الأرض؟ هذه المواد، وبكل تأكيد، ستقود الشرطة مباشرة إلى سلاح الجريمة كما اعترفت الآن. ليس من المنطقي أن يترك المتهم الطاولة في تلك الوضعية إذا كان هو القاتل، أليس كذلك؟»

«يرتكب المجرمون أنواع الأخطاء كلها. وهذا ما يجعلنا نلقي القبض عليهم».

«أظهرت صورة مسرح الجريمة في غرفة النوم، وفيه إطار صورة محطم إلى جانب طاولة السرير.

«أيها المحقق، صوت الزجاج المتكسر أثناء اتصال طلب النجدة، ألا يمكن أن يكون ناتجاً عن تكسّر هذا الإطار على طاولة السرير عندما اصطدم بها موكلي؟»

«هذا ممكن».

كان سعيداً بتلك الإجابة، وكنت أوشك أن أنتهي من أندرسون. أردت فقط أن تعرف هيئة المحلفين أننا لن نهمل ورقة الدولار التي تم العثور عليها في فم توزر.

«أيها المحقق، أنت لم تنفّذ بشكل شخصي أياً من تلك الفحوصات القضائية على ورقة الدولار تلك، أليس كذلك؟»

«لا، لم أفعل».

«لا بأس. يمكننا معالجة هذا الدليل مع شرطي المخبر الجنائي».

فكّرت بالليلة السابقة، وقررت أنني أريد أن أترك أندرسون وفي فمه نكهة مريرة لا ينساها. لقد عرف فريق رودي كارب عن أندرسون ما يريد معرفته. فقررت أن من غير اللائق أن أفوّت الفرصة.

«ليس لدينا سوى ما صرّحت به عن أنك وجدتَ سلاح الجريمة في غطاء ضوء السقف مطابقاً. كم مرّة تم التحقيق معك في قسم الشؤون الداخلية؟»

ضاقت عينا أندرسون، وقذفني بالإجابة.

«مرّتين. وتمت تبرئتي في كلتيهما - مرّتين».

نظرت إلى وجهه المتجهّم وقلت: «عندما تنتهي هذه القضية، ربما تكون محظوظاً للمرة الثالثة».

اعترض بريور. وكان على الهيئة التغاضي عن سؤالي الأخير.

«شكراً لك يا حضرة المحقق. لا شيء آخر في الوقت الحالي».

لم يطلب بريور استجواباً مباشراً للشاهد. بينما كان أرنولد يغادر منصّة الشهود، رمقني بنظرة توحي بأنه يودّ لو يقتلني. كنت أعرف أنه شخص قذر؛ كان صديق مايك غرانجر. وتثبت مجموعته الصغيرة التي كانت أمام مكتبي ليلة البارحة أنه ينتمي تماماً إلى عالم الجريمة في نيويورك. خلقت لنفسي عدواً هنا. عدواً سيئاً فعلاً.

اقتربت الساعة من الواحدة ظهراً. ورأيت هاري ينظر إلى الوقت.

«سيداتي سادتي، حان وقت ساعة الغداء. لدى هيئة المحلّفين بعض الأعمال التي يجب القيام بها خلال فترة الاستراحة. أقترح أن نلتقي مجدداً في الساعة الثالثة. رفعت الجلسة»، قال هاري.

عندما عدت إلى منصة الدفاع، زوّدني أرنولد بملخّص عن هيئة المحلّفين.

«لقد أثرت إعجابهم. لم أعتقد يوماً أنني سأقول هذا، لكن لا يمكنني أن أنكر الأمر. أعتقد أننا جذبنا أربعة محلّفين إلى صفنا: اثنتان من النساء كانتا تومئان عندما كنت تتحدث عن ترك الطاولة مقلوبة. وضرب الثقل المعدني بالمضرب سار بشكل جيد».

عندئذٍ مال بوبي إلى حديثنا وقال: «شكراً. أنا سعيد لوجودكما إلى جانبي يا رفاق».

«دعونا لا نتحمّس كثيراً. لا يزال أمامنا الكثير من شهود الادعاء الذين يمكن أن يورّطوك في مشاكل خطيرة. لديّ شعور بأن بريور يُخفي الكثير من المفاجآت».

لم تكد القاعة تخلو من الناس حتى رأيت دزينة من الرجال ذوي البزّات يستندون إلى الجدار الخلفي للقاعة. لا يزال لدى بوبي عناصر أمنه الخاصين. كانوا مستعدين لأخذ بوبي بأمان، ونقله إلى غرفة خاصة في مبنى المحكمة حيث يمكن أن يتناول وجبة «بوريتو»، ويُبقي على أسراره. يمكنني تقريباً أن أرى أسراره تُثقل كاهله. الرجل يشعر بالذنب؛ حقيقة اختار أن يخفيها. ولا مجال للشكّ بأنها ارتبطت بليلة الجريمة. **ما الذي تخفيه يا بوبي؟**

قبل أن أفكّر بذلك، خف الحشد ورأيت امرأتين تتقدّمان نحونا.

هاربر وعميلة مكتب التحقيقات الفيدرالية، ديلاني. لا أعرف ما الذي توصّلتا إليه. من الصعب التخمين من النظرات التي بدت على وجهيهما. كل ما أعرفه

أنهما اكتشفتا شيئاً هاماً. كانتا تشقان طريقهما إلينا عبر من تبقى من الحضور، عندما اقتربت هاربر من منصّة الدفاع وقالت: «علينا أن نتحدث الآن فوراً. لن تصدّق ما حدث».

كارب لو

شقة رقم ٤٢١، مبنى كوندي ناست، ٤ تايمز سكوير» نيويورك.

سريٌّ للغاية، وثيقة عمل بين المحامي وموكله

مذكّرة هيئة المحلفين

الادعاء العام ضد روبرت سولومون

المحكمة الجنائية في مانهاتن

برادلي سامرز

العمر: ٦٤

عامل بريد متقاعد. وضع مادي جيد بالإضافة إلى راتب تقاعدي. لا ديون مترتبة عليه. لا أملاك باسمه. منفصل عن ولديه (يعيش الأول في أستراليا، والثاني في كاليفورنيا). يلعب الشطرنج في المنتزه بين فترة وأخرى. يصوّت للديمقراطيين. ليس له حضور على شبكات التواصل. يقرأ جريدة نيويورك تايمز.

نسبة التصويت بغير مذنب: ٦٦٪.

آرنولد نوفوسليك

الفصل الخامس والأربعون

لم تكن المرة الأولى التي يركب فيها كين بسيارة الشرطة. حيث تم نقله هو ورفاقه عبر مدخل جانبي للمحكمة. الأضواء الزرقاء والبيضاء الخاصة بسيارات شرطة نيويورك حجبت الرصيف. لم يستطيعوا تحريك السيارات باتجاه دائري. كان على إدارة المرور أن تغلق نصف «سنتر ستريت» بسبب الازدحام أمام مبنى المحكمة.

لم يكن هناك حديث مع الشرطي الذي يقود السيارة به إلى الشقة. واستقلّ كلاهما المصعد إلى الطابق الثالث. انتظر الشرطي «لوك» بصمت في الممر الضيّق للشقة بينما دخل كين إلى غرفة النوم ليوضب أمتعته.

سروال، ملابس داخلية، جوارب، قميصان وسروالان إضافيان. إنها حقيبة خاصة تم تصنيعها خصيصاً له في فيغاس منذ سنوات. تم تفصيلها يدوياً من الجلد الإيطالي السميك. ولا تزال تبدو وكأنه اشتراها البارحة. شفرة، فرشاة أسنان، وأدويته أيضاً في الحقيبة. ومضادات التهاب. وضع مقياس الحرارة أيضاً لكن ليس قبل أن يقيس حرارته، وقد كانت طبيعية.

تحسس حقيبته، حرك يديه على طول الدرزة من الداخل. أدخل أصبعه في الثقب وسحبه. كانت فتحة مخفية مبطّنة بورق الألمنيوم لتُبطِل عمل جهاز الكشف عن المعادن. توجد هذه الفتحة على الجهة الخلفية للشعار المعدني الذي يحمل اسم العلامة التجارية للشركة المصنّعة. يفترض رجال الشرطة أن جهاز كشف المعادن التقط المعدن الموجود في الشعار.

أحضر معه بعض الأساسيات؛ الأشياء الصغيرة التي تُعتبر معدات المجرم الرئيسة. ووضع هذه الأشياء في الجيب الخفي، ثم أغلق الحقيبة وسار مع الشرطي في الممر. كان الشرطي لوك يقلّب صفحات إحدى المجلات الموجودة على الطاولة في الممر.

«أنت تصطاد السمك؟» قال الشرطي لوك.

«نعم، متى أُتيحت لي فرصة»، أجاب كين.

«أنا واثنان من أصدقائي نذهب إلى نهر «أوسويغو» مرتين في السنة. هناك موقع مميز للصيد».

«سمعت عن ذلك المكان. عندما يأتي الموسم، سأحاول ألا أفوّت الفرصة»، أجاب كين.

عادا بالسيارة إلى «سنتر ستريت» وهما يرويان عن قصص الصيد. تحدث كلاهما عن سمكة كبيرة هربت. فجميع قصص الصيد هي ذاتها. أعاد لوك كين إلى مبنى المحكمة عبر المدخل الخلفي ثم ذهب. بقي كين وحده في الغرفة، وكان أول محلّف يعود. لا ينبغي أن تكون هذه الجلسة صعبة جداً. بات يعرف أنه متفوّق على زملائه المحلّفين. تاهت أفكاره في ما بعد الجلسة. لقد تم التخطيط للخطوة القادمة على مدى أشهر. لكن الجلسة السابقة جعلته يفكّر ما إذا كان عليه أن يغيّر خططه أم لا.

وضع قطعة نقدية من فئة العشر سنتات (دايْمْ) على الطاولة.

«إذا ظهرت الصورة (الوجه) - سيلتزم بخطته.

«وإذا ظهر الوجه الآخر (القفا) - يخطط لشيء آخر.

قذف القطعة النقدية في الهواء.

الحياة والموت يتأرجحان في الهواء. القَدَر بحد ذاته يتحدد بشكل واضح بضربة حظ. سيكون حذراً أياً كان الوجه الذي تستقرّ عليه القطعة النقدية. إن هذه الريبة تُثيره. يمكنه أن يشعر بذلك في الأسفل في معدته.

تأرجحت القطعة النقدية على الطاولة ثم استقرّت.

ظهر الوجه الآخر (القفا).

رفع القطعة النقدية وأخذ شطيرة. وبينما كان يتناولها، فكّر بمسألة نجاة الرجل الذي كان ينتحل شخصيته ينجو بفضل القطعة النقدية. هو لن يعرف أبداً حجم الرعب الذي وفّره عليه. في الواقع، لن يعرف رودي كارب أبداً أنه كان في خطر.

هذا يعني طبعاً، أن ثمة آخر عليه أن يدفع الثمن.

حمل حقيبته وغادر الغرفة، ومضى إلى الممر، ووجد الحمام وتأكد من خلوّه بالكامل. ثم أقفل الباب والتقط جهاز هاتف معدّاً للاستخدام مرة واحدة من جراب خفي، واتصل. تمت الإجابة على اتصاله مباشرة تقريباً.

«غيّر الخطة نحو «رود آيلاند»»، قال كين.

«**قطعتك النقدية ستورّ طك في المشاكل يوماً ما. دعني أخمّن، كارب سوف ينجو**»، قال الصوت.

«القطعة النقدية تختار بحكمة. سيظهر فلاين في جميع الصحف ووسائل التواصل الاجتماعي في أمريكا صباح الغد؛ إنه مميز جداً. والآن، هل يمكن أن تعطيني ما أحتاجه؟» سأل كين.

«**اعتقدت بأنك قد تسلك هذا الطريق. لطالما كان فلاين يتصدر العناوين الرئيسة. أعتقد أنك ستكون مسروراً. تركت ما تحتاجه في سيارتك قرب مطار «جون كيندي» « JFK**»، قال الصوت.

«كنت تعرف سلفاً؟»

«**وجدت فرصة مناسبة، فقمت باستغلالها. يسأل فلاين أسئلة كثيرة على أية حال. أما أندرسون فقد أسقط الكرة في الملعب عدة مرات. علينا حمايته**».

«بالطبع، هذا ما يفعله الشركاء. أعتقد أن أندرسون سيسعد بذلك»، قال كين، «إنه يكره فلاين».

«**أعرف. أكاد أشعر بالأسى على فلاين، ليس لدية أدنى فكرة عما ينتظره**».

الفصل السادس والأربعون

تفوح رائحة عطر ما بعد الحلاقة الرخيص، ورائحة الجسم، من غرفة المشاورات الضيّقة الموجودة في الطابق الثاني. هذا لم يزعج ديلاني. لكن تبيّن أنه يمثّل مشكلة بالنسبة لهاربر التي احتاجت بضع دقائق لتتكيّف مع الرائحة. كان لديها حساسية لمثل هذه الروائح.

كانتا تحملان أوراقاً منفصلة وملفات، وقد وضعتاها على الطاولة في غرفة المشاورات. بدأت هاربر أولاً.

«إن ضحايا ريتشارد بينا مرتبطون بالتحقيق الخاص بورقة الدولار»، قالت هاربر.

كان حمض «بينا» النووي موجوداً على ورقة الدولار التي كانت في فم كارل توزر. بالإضافة إلى بصمات بوبي سولومون وحمضه النووي. لكن بينا ميّت منذ اثني عشر عاماً، حتى قبل طباعة الورقة النقدية. لقد صدر بحقه حكم الإعدام في كارولينا الشمالية بسبب ارتكابه أربع جرائم قتل. وعدد الضحايا المنسوبة إلى بينا جعلت منه مشتبهاً به. لكن ليست جميع الجرائم مرتبطة بهذا القاتل بالتأكيد.

«هل تم العثور على دولارات في مسرح الجريمة؟» سألتها.

«لم تجب أياً منهما فوراً. نظرت إحداهما في عيني الأخرى تتساءلان عمّن عليها أن تخبرني. وفي نهاية المطاف، فتحت ديلاني ملفّها وأخرجت بعض الصور.

أربع صور. أربع نساء. جميعهن نساء شابات بيضاوات، وقتيلات. وتستطيع أن ترى من الصور أنه تم العثور عليهن جميعاً في حديقة، أو في منطقة عشبية من نوع ما. لقد تم وضعهنّ بطريقة معيّنة، إذ كانت أطرافهنّ مفلطحة كما لو كنّ يؤدين تمارين القفز. لا، ليس تمارين القفز بل قفزة النجمة.

كانت الكدمات الرمادية بارزة على أعناقهن. ولم يكن هناك أية دلائل على العنف، لكن من الصعب معرفة ذلك من الصور فقط. كنّ يرتدين ملابس كاملة؛ بلوزات وسترات وقمصان وسراويل جينز.

«كن جميعاً طالبات في جامعة كارولينا الشمالية، في تشابل هِل. وقد ألقيت جثثهن في الحرم الجامعي، من شاحنة صغيرة على الأرجح. وكانت أكبرهن فتاة في الثالثة والعشرين من عمرها».

قطع تركيزي صوت تكسير. ودون أن أعرف مصدر الصوت، أمسكت ساق الطاولة الضعيفة لدرجة أوشكت أن أكسرها.

تركت الطاولة وحاولت تجاوز غضبي ثم نظرت إلى الصور. في البداية، لم ألاحظ أي شيء، لكن فيما بعد، رأيت شيئاً ناتئاً من بلوزة ضحيّة في إحدى الصور؛ كان دولاراً مطويّاً داخل حمّالة صدرها.

بمجرّد أن رأيتها، أخرجت ديلاني صورة أخرى، كانت تلك تضم الضحايا الأربع. وكانت أوراق الدولار مطوية ضمن حمالة صدر كل منهن.

«اللعنة»! قلت.

«لقد حجب رجال الشرطة هذا الأمر عن وسائل الإعلام. لقد وجدوا الحمض النووي على أحد هذه الدولارات. لم يتطابق الحمض النووي مع ما تحويه قاعدة البيانات. ثم قامت الشرطة وأمن الحرم الجامعي بإجراء اختبار طوعي للحمض النووي لألف وأربعمئة شخص يعيش في الحرم الجامعي أو يعمل فيه. وهكذا وجدوا أن الحمض متطابق مع ريتشارد بينا الذي كان يعمل حارساً في الحرم، لكنه قام بمواعدة إحدى الضحايا لفترة وجيزة. كانت تلك الفتاة «جينيفر اسبوزيتو» هي الأخيرة. نعم، كان هناك علامات على الدولارات»، قالت ديلاني.

رفعت أربع صور أخرى. كانت العلامات على الختم العظيم هي ذاتها في كل دولار؛ السهم نفسه وأوراق الزيتون نفسها والنجم ذاته.

«صور رجال الشرطة الدولارات من أجل الأدلة. لم يلحظوا العلامات، وإذا كانوا قد لاحظوها، فهي لم تُثر أي اهتمام في المحكمة. كان الحمض النووي، وأسلوب الخنق دليلاً دامغاً بالنسبة إليهم».

«هل أعطى بينا حمضه النووي طواعية؟».

«لم يكن لديه خيارات؛ كان الأمر إلزامياً لجميع الموظفين في الجامعة. ربما اعتقد أنه لم يبق هناك أي دليل، يكون القاتل حذراً قبل كل شيء. كان تطابق الحمض النووي كافياً لإدانته في فترة قياسية. فقبل عملية القتل، قام

مُغتصب متسلسل في الحرم الجامعي بترويع تشابل هيل كلها. ولم يتمكنوا من إثبات أن بينا هو المُغتصب، لكن مع تعمّق رجال الشرطة بالتحقيق، اعتقدوا أن بينا هو المغتصب، فتفاقمت الأمور. لقد عاشت المدينة حالة خوف لعدة أشهر، وكانوا على استعداد للحكم على أي شخص لتهدئة الوضع. استمرّت المحكمة يومين، وتناقشت هيئة المحلّفين مدة عشر دقائق. أعتقد أننا نستطيع التخمين بأن بينا لم يحظَ بالدفاع المناسب. لم يستطع أن يحتمل نفقات المحامي، وكان المحامي العام نائماً أو غير مهتم. تم رفض الاستئناف بشدّة وبسرعة لأن الجمهور أراد هذا الرجل ميتاً، والتزمت الولاية بذلك».

كان الأمر سريعاً. يستغرق تحقيق العدالة زمناً في معظم الحالات؛ لكن ليس في هذه القضية.

«هل حافظ بينا على اعتبار نفسه بريئاً؟» سألتها.

«حتى آخر نفس له»، قالت هاربر.

«الجميع يفعلون ذلك»، قالت ديلاني.

أبعدتُ الصور وقلت: «ما الذي تعنيه بقولك، **الجميع يفعلون ذلك**؟»

نهضت هاربر عن الكرسي المقابل لي، وانتقلت إلى الفسحة الصغيرة خلف ديلاني.

«وجدنا المزيد»، قالت ديلاني، «بعد ذهابك، حصلت على موافقة لإجراء عمليات بحث جديدة. لقد منحتني ورقة الدولار الخاصة بقضية سولومون دافعاً للذهاب إلى رؤسائي. وحذّرت جميع مراكز الشرطة الجنائية في الولايات الثلاث عشرة الموجودة على الساحل الشرقي، تلك الولايات التي وقّعت على إعلان الاستقلال. وأظن أنك تعرف ذلك جيداً، استغرق الأمر بعض الوقت. لقد كانت فرضية واحدة لثلاث ضحايا، وهو غير كاف لأطلب من أقسام تطبيق القانون أن يبحثوا في القضايا المنتهية ذات الإدانات الحاسمة. لكن في قضية سولومون، أعطاني المدير المباشر موافقة للقيام بالتحذيرات. كما حصلت على إذن لنشر التحذيرات على القضاة والموظفين في جميع الأقسام داخل تلك الولايات. كانت هذه المرة الأولى التي نفعل فيها شيئاً من هذا القبيل. وقد حصلنا على نتائج جيدة».

قرّبت مقعدي من الطاولة وراقبت ديلاني وهي تخرج الوثائق من ملفّها. أربع حزم منفصلة تم جمعها بأنشوطة مطاطية. وضعتْ الملفات أمامي واحداً تلو الآخر. ثمة قصاصات من الصحف، وتقارير شرطة، وملفات للنائب العام.

«هجومٌ متعمدٌ على كنيسة للسود في جورجيا. قُتِلَ شخصان. تم العثور على ورقة دولار محروقة جزئياً بجوار عبوة بنزين. استخدم المجرم ورقة الدولار لإشعال النار ثم أطفأها. لكن البصمات التي كانت على عبوة البنزين أوقعت شخصاً عنصرياً فاشلاً أبيض يُدعى «أكسل»، وهو الشخص الذي ربح جائزة اليانصيب الدولي البالغة مليوني دولار».

وضعت الحزمة الثانية.

«سفاح ولاية بنسلفانيا. قُتلتْ ثلاث نساء، وشُوهتْ جثثهنّ جزئياً، في منازلهن. عُثِرَ عليهنّ جميعاً في غضون أسبوعين من صيف عام (٢٠٠٣). وقعت الهجمات في جميع أنحاء الولاية. وتم العثور على الدولارات محشورة في سراويلهنّ. واعترف جون باركس المُصاب بالفُصام، بعمليات القتل كلها على الرغم من احتجاجات زوجته الجديدة التي قدّمت دليل براءته. لكن الوقت لم يكن كافياً لإنقاذه من السجن».

حزمة أخرى، ووجه قتيل آخر يحدّق بي. كان هذه المرة رجلٌ يجلس خلف عجلة شاحنة.

«قاتل محطات الصيانة السريعة. خمسة رجال، جميعهم سائقو شاحنات. أقلّوا معهم مسافراً عابراً من «كونيتيكت»، وانتهى الأمر بهم قتلى. لقد أطلق النار على رؤوسهم من مسافة قريبة، ثم سلبهم أموالهم وترك ورقة الدولار على لوحة القيادة. يعتقد رجال الشرطة أنه كان عبارة عن إكرامية دفعها المسافر. البصمات الموجودة على الدولار أوصلت الشرطة إلى شخص جوّال انتقل للتو إلى منزل جديد بعد أن توفي أحد أقربائه وترك له ميراثاً ضخماً. لم يكن لهذا الرجل الوقت الكافي للاستمتاع بالمال».

الحزمة الأخيرة.

«سالي باكنر البالغة من العمر ستة عشر عاماً، من ولاية ماريلاند»، قالت ديلاني، «تم اختطافها واغتصابها ثم قتلها بسكين ذي حدين. وعثر رجال الشرطة على ورقة الدولار في يدها عندما تم سحب جثّتها من تحت شرفة جارها، ألفريد جاريك، البالغ من العمر إحدى وثمانين سنة. نفى الجار أنه قام بقتلها، ولم يُعثر على حمضه النووي، لكن كان هناك أدلّة غير مباشرة. فقد

اعتادت الذهاب إلى المتجر من أجله صباح يوم السبت، وكان يدفع لها بضع دولارات لحل مشاكلها. كانت بصماته على الورقة النقدية، وتوفيّ قبل أسبوع من إدانته بالجريمة».

هزّت رأسها وقالت: «كانت العلامات موجودة على الختم العظيم في جميع الدولارات، وبالطريقة المعتادة. رأس السهم، وورقة الزيتون، والنجمة. وما زلنا ننتظر النتائج من نيوجرسي وكارولينا الشمالية وفرجينيا، وورود آيلاند. ربما لم يصل إلى تلك الولايات، وربما وصل، لكننا لم نعثر على أي شيء حتى الآن».

لم يستطع أحدنا أن يتكلّم. أسندت هاربر ظهرها إلى الحائط وحدّقت بالأرض. كنا جميعاً نشعر بذلك، ثمة شيء أسود شرير موجود في الغرفة. شيء لا تسمح لنفسك بالتفكير فيه. لقد كبرنا جميعاً على الشعور بالخوف من شيء ما، شيء كالبعبع أو وحش الخزانة، أو شيطان يختبئ تحت السرير. لقد أخبرك الأهل أنه محض خيال، ولا وجود للشياطين أو الوحوش.

لكنها موجودة فعلاً.

ارتكبتُ أشياء سيئة في حياتي. آذيت أشخاصاً وقتلت أشخاصاً. لم يكن لدي أي خيار لأنه كان دفاعاً عن النفس، ولحماية عائلتي والآخرين. فليس من السهل قتل إنسان حتى في مثل هذه الظروف. وكنت أعرف بحكم التجربة أن هاربر قد أطلقت النار من قبل، وقتلت رجلاً. ولا يمكنني أن أجزم بشكل قاطع ما إذا كانت ديلاني قد ألحقت أذية بشخص ما من قبل، لكنها لم تكن بحاجة إلى تجربة من هذا النوع لتعرف هذا النوع من الشعور. كان خطأً لا بدّ من اجتيازه في بعض الأحيان.

لكنه يترك ندبة دوماً.

لدينا هنا رجلٌ يقتل من أجل المتعة. كانت لعبة. هنا فقط هو ليس إنسان. إنه أحد الوحوش.

أعرف ما هو السؤال الذي أريد أن أطرحه لكنني لم أحظَ بالشجاعة لطرحه. كانت شفتاي جافتين. رطبتهما بلساني وابتلعت لعابي وقلت: «كم عدد الضحايا؟

كانت ديلاني تعرف الإجابة. وكذلك هاربر. كانت تلك المعرفة ثقيلة على كل منهما. أغلقت هاربر عينيها ونطقت الإجابة همساً.

«ثماني عشرة ضحية تم اكتشافها. وتصبح عشرين ضحية إذا أضفت أرييلا بلوم وكارل توزر».

«وهل سنضيف أرييلا وكارل، أيتها المحققة ديلاني؟

«أظن أننا سنضيفهما، لكننا لم نصل إلى ذلك بعد. لا يزال التحقيق جارياً. أنا أشترك معك في هذا الأمر لأنك أنت من أحضرته إلي. وأنا على استعداد لإخبار المحكمة أن مكتب التحقيقات الفيدرالي يحقق في العلاقة المحتملة بين مقتل بلوم وتوزر، وقاتل متسلسل معروف على الساحل الشرقي، أستطيع إخبارهم بذلك فقط. لا يوجد دليل ولا معلومات أخرى. وإذا أُدين سولومون بجرائم القتل هذه فقد يُغلق باب آخر في وجهي. أنت تعرف كم هو صعب فتح قضية مغلقة؟ وفيها حكم إدانة؟ إنه أمر شبه مستحيل».

ساد الصمت في الغرفة من جديد.

قلت: «هل هناك أية صلة بين الضحايا؟ بكل تأكيد، لا بدّ من وجود طريقة ما لاستهداف هؤلاء الناس. لا يمكن أن يكون الأمر عشوائياً بالمطلق».

«لم نعثر على أي رابط حتى الآن، نحن نعمل على ذلك. أعتقد أنني مفيدة لك بشكل كبير في هذه الناحية يا إيدي. لا يوجد حتى الآن أية روابط بين الضحايا في كل ولاية. أعمار مختلفة، وجنس مختلف، وأعراق وخلفيات مختلفة».

أومأتُ. لقد كانت على حق. لكن لا شيء من ذلك يأتي بأدنى فائدة لبوبي في محاكمته. ليس تماماً.

قلت لهما: «لا بدّ من وجود رابط. العلامات على الدولارات؟ أعني أن هذا الرجل يقوم بمهمة غامضة نوعاً ما. إن لديه هدفاً، ولديه خطة. لقد قتل عشرين شخصاً، ولا تقوم الشرطة، ولا مكتب التحقيقات الفيدرالي حتى بالبحث عنه. لقد تدبّر أمره ليضع اللوم في كل جريمة على شخص آخر».

تلك الكلمة، تلك الكلمة الحمراء الغريبة، كلمة «جريمة». أشعر بطريقة ما أن تلك الكلمة قد علقت على لساني. ولا يريد عقلي أن يسمح لها بالخروج.

احتجت إلى لحظات لأستوعب الأمور. كان عليّ أن أعود إلى قاعة المحكمة. أغلقت عينيّ وأطلقت العنان لذهني. كان لدي إجابة في مكان ما بين الوعي واللاوعي.

بدأ الأمر ببطء. كنبض ضعيف في الغرفة. كاهتزازات تنبثق من قلب كمان. اهتزازات ناعمة تؤديها أصابع تنقر على الأوتار قبل عزف النغمة الافتتاحية الأولى. أستطيع أن أشعر بذلك. ثم أصبح ذلك أمامي مباشرة.

«أحتاج إلى وقت لأراجع هذه القضايا. وآمل أن نحصل على أي شيء من الولايات الأخرى. فإذا أردنا استخدام هذه الأشياء، ينبغي علينا تنظيمها وإيجاد الرابط بين الضحايا. علينا وضع هذه الأدلة في وجه بريور إذا كنت ترغبين بعقد اتفاق يا ديلاني؟ سأسحب القضية لهذا اليوم، وأطلب من هاري تأجيلاً إلى الغد. لقد صرّح تقريباً أن بإمكاني الحصول على تأجيل إذا كنت بحاجة إليه. وأنا أحتاجه. جميعنا بحاجة إليه».

عندما تحدثت، تاهت عيناي في الغرفة ومعها أفكاري.

ثم حرّك المايسترو يديه. وتردد صدى النوتة الأولى في ذهني.

«أي اتفاق تتحدث عنه؟» قالت ديلاني.

«إنه اتفاق لمرة واحدة. دون مفاوضات. إما أن تقبليه أو ترفضيه. ستذهبين إلى المحكمة غداً. قد أطلب منك الإدلاء بشهادتك، لكنني لا أعتقد أن ذلك سيكون ضرورياً. كل ما أحتاجه هو موافقتك على مشاركة هذه الملفات مع النائب العام، وأن تعدي بذلك إذا كنت بحاجة إليك - ستخبرين هيئة المحلّفين بما أخبرتني به».

عقدت ذراعيها أمامها ونظرت بقلق إلى هاربر، ثم إلي.

«أخبرتك سلفاً أنني لا أستطيع. لا أستطيع أن أكشف مجريات التحقيق».

«لن تكشفي أي شيء. تعالي إلى المحكمة، ووافقي على الشهادة حتى أتمكن من إخبار النائب العام بأنك ستكونين شاهدة. لكن لن تضطري إلى الشهادة. إذا وافقت على ذلك، أقسم بأنك ستضعين رجلك في السجن خلال أربع وعشرين ساعة».

تأرجحت ديلاني في كرسيّها، تغمرها الدهشة من ادعائي الجريء.

«أخبرني بالتحديد كيف ستسلّم ورقة الدولار؟»

«هذا هو الجزء المفضّل؛ لن أسلمها. إذا سارت الأمور غداً كما ينبغي، ستذهب ورقة الدولار تلقائياً إلى مكتب التحقيقات الفيدرالي».

كارب لو

شقة رقم ٤٢١، مبنى كوندي ناست، ٤ تايمز سكوير» نيويورك.

سريٌّ للغاية، وثيقة عمل بين المحامي وموكله

مذكّرة هيئة المحلفين

الادعاء العام ضد روبرت سولومون

المحكمة الجنائية في مانهاتن

كاساندرا دونوف

العمر: ٢٣

غيرت اسمها منذ عامين. كانت تُعرف سابقاً باسم «مولي فرودنبيرغر». حصلت على قبول لدراسة التصميم المسرحي في جامعة نيويورك، وتوشك أن تتخرّج الآن . تعمل في ماكدونالد. وضعها المادي جيد بسبب دعم الوالدين. أوقفت تسجيلها في الجامعة لدورتين متتاليتين منذ سنوات. لديها علاقات عديدة ، ومتابعون كثر على موقع أنستغرام. تحب القطط. وليس لديها تاريخ في التصويت.

احتمال التصويت بغير مذنب: ٣٨٪

أرنولد نوفوسليك

الفصل السابع والأربعون

صلصلت المحلّفة الجديدة وجلجلت أثناء دخولها إلى المحكمة. لقد بدأت لتوّها تزعج كين. كانت تلبس بكاحلها الأيسر خلخالاً يرنّ مع أدنى حركة. ولاحظ بقيّة أعضاء الهيئة ذلك أيضاً. سرعان ما ستصبح فاليري برلنغتون، وكاحلها، شوكة مزعجة حتى لأكثر أعضاء الهيئة تسامحاً.

ترك كين نفسه يتخيّل كيف سيكون شعوره عندما يقطع قدمها. ألفى نفسه يحدّق مباشرة في أوردة أسفل الكاحل وهي منتفخة في السُمرة الزائفة كما تنتفخ الديدان في سهل طيني.

حرّكت فاليري قدمها وتجاهلت الاستهجان والهمسات التي بلغت أذنيها.

لحسن الحظ، لم يكن على الهيئة الانتظار طويلاً.

شعر كين بخيبة أمل عندما أمر القاضي بتأجيل القضية حتى الصباح. لكن الجانب المشرق للأمر أنه سيحظى بمزيد من الوقت مع نفسه.

عادوا إلى غرفة الهيئة، وجمعوا حقائبهم وغادروا مبنى المحكمة من الباب الخلفي. أخرجتهم حافلة المدينة الصفراء من مانهاتن. وذهب اثنان من عناصر الشرطة في الحافلة مع هيئة المحلّفين. أمضوا قرابة الساعة على الطريق السريعة، واتجهوا إلى مطار جون كيندي الدولي، لكنهم لم يكونوا ذاهبين إلى المطار. كان الشيء الوحيد المتوفّر حول المطار هو فنادق ذات أسعار معقولة. ثمة العديد منها في حي جامايكا؛ شريحة الطبقة المتوسطة من كوينز. كان مكلفاً للغاية أن تضع اثني عشر عضواً محلّفاً ونوابهم في فندق في مانهاتن.

يفضّل مكتب المحكمة ثلاثة فنادق، فندق هوليداي، فندق غاردن، وإذا كانوا عالقين فعلاً، هناك فندق غرادي. وقد تبيّن أنهم عالقون. تأكد كين من ذلك قبل أسبوع من الآن عبر استخدام عدد من بطاقات الائتمان مُسبقة الدفع، وأجرى العديد من الحجوزات الاستراتيجية في كل من الفندقين السابقين. كان الفندقان مزدحمين، لذلك لم يكن عليه سوى القيام بنصف دزينة من الحجوزات في كل فندق. تمت الحجوزات بأسماء مختلفة، بعضها عبر الإنترنت، وبعضها عبر جهاز هاتف يُستخدم لمرة واحدة. ومع كل حجز أجراه، حدد الطابق والغرفة إما عبر الهاتف أو عبر البريد الإلكتروني.

والنتيجة أنه لا يمكن لفندق هوليداي، ولا لفندق غاردن، أن يقدّم خمس عشرة غرفة في الطابق ذاته لأن الضابط المسؤول يريد أن يقوم بحجز جماعي. ولأغراض أمنية، يجب وضع حارس على الطابق لمراقبة أعضاء الهيئة المحتجزين. لم تكن مراقبة طابقين أو ثلاثة طوابق من الفندق ممكنة. ولم يكن لدى أمن المحكمة عدداً كافياً من الرجال. لا يا سيدي، طابق واحد ورجل واحد، هذه هي القوانين.

لم يبقَ سوى فندق غرادي. طابق واحد وحارس واحد.

توقفت الحافلة أمام فندق «غرادي»، ولاحظ كين نظرات الخيبة على وجوه زملائه المحلّفين عندما وقعت عيونهم على مسكنهم.

«متى أزالوا لافتة فندق «بيتس؟» قالت بيتسي، وظهرت موجة ضحك عصبي بين المحلّفين والشرطي.

دخل أعضاء الهيئة إلى قسم الاستقبال. بدت أشبه بمنطقة استقبال لجنازة. حيث تراصفت ألواح خشب البلوط على الجدران كلها مما أضعف الضوء الشحيح الذي يخترق زجاج النوافذ القذرة. تحسس كين رائحة خضار مطهوة. وأومأ البواب إلى كل فرد من أعضاء الهيئة أثناء مرورهم أمامه في المدخل. لم يحمل حقائبهم. بدا الرجل ثقيلاً نوعاً ما، وكذلك كانت رائحته. ثمّة نسق من رؤوس الغزلان خلف موظفة الاستقبال المسنّة. كانت في الثمانينات من عمرها، وصمّاء. خطرَ للشرطي أن من الأسهل له أن يتحدث إلى أحد الغزلان.

تأكد كين من وقوفه إلى جانب مانويل طيلة مدّة الانتظار في قسم الاستقبال. وكزّه كين فنظر مانويل إليه. انحنى بدوره وقال له هامساً: «أعلم أنك تعتقد أن سولومون بريء. إننا متفقان على ذلك. لا يمكننا أن نسمح له بدخول السجن بسبب جريمة لم يرتكبها. سنتحدث لاحقاً، اتفقنا؟»

أومأ كين بنوع من الحكمة. وفكّر كين بالأمر، ثم رفع إبهامه بتروٍ ليعبّر عن موافقته.

تسلّموا أربعة عشر مفتاحاً؛ مفاتيح حقيقية وليس بطاقات ممغنطة. كان فندقاً من هذا الطراز. وكان في فترة ما منزلاً ضخماً يضم ما يقارب أربعين غرفة منتشرة في خمسة طوابق من دون مصعد. لحق أعضاء الهيئة بالشرطي إلى الطابق الرابع، ثم اتخذ كلٌّ منهم غرفته. حصل كين على الغرفة

رقم واحد وأربعين، على جهة اليمين من الممر. تشاغلَ بالمفتاح بما يكفي من الوقت ريثما يصل عضو آخر إلى الغرفة المواجهة لغرفته.

كانت فاليري. أنصت إلى صوت مجوهراتها يتوقف خلفه فالتفت وقال: آسف يا فاليري، لكنني أعاني من صداع مزمن، وستضيء الشمس هذه الغرفة في الصباح الباكر، وتزيد مستوى الصداع. هل يمكن أن أتبادل الغرفة معك؟»

ابتسمت فاليري، وربّتت على يده وقالت: «لا مانع لدي طبعاً يا عزيزي. إليك غرفتي».

أخذ كين مفتاح الغرفة رقم تسعة وثلاثين، وابتسم ممتناً لفاليري وشاكراً لها. فتح باب غرفته الجديدة، ثم أغلقها وأقفل الباب خلفه. كانت غرفة صغيرة وقذرة. والنافذة الكبيرة تطل على حواف الطابق السفلي. وإلى اليسار، تنحدر إلى سقف مسطّح. وكانت الحديقة ظاهرة في الأسفل.

ألقى حقيبته على السرير، ثم استلقى ونام.

أيقظه طرق على بابه بعد ساعة. وأخبر الشرطي أنه يشعر بالإرهاق، ولن يأتي لتناول العشاء، وسوف ينام قليلاً الآن. لا، لم يكن بحاجة إلى طبيب.

استطاع أن يعود إلى النوم، وأفاق في الواحدة صباحاً. كان متيقظاً تماماً ويشعر بالراحة.

بدّل ملابسه، وقاس درجة حرارته. تناول بعض المضادات الحيوية، حزم حقيبته ووضع قناع التزلّج، ثم تسلل من النافذة وخرج.

كارب لو

شقة رقم ٤٢١، مبنى كوندي ناست، ٤ تايمز سكوير» نيويورك.

سريٌّ للغاية،

وثيقة عمل بين المحامي وموكله

مذكّرة هيئة المحلفين

الادعاء العام ضد روبرت سولومون

المحكمة الجنائية في مانهاتن

أليك وين

العمر: ٤٦

مهندس تكييف هوائي، عاطل عن العمل حالياً. غير مرتبط. جمهوري. يمرّ بظروف مالية صعبة لكنها لم تصل إلى مرحلة الخطر بعد. مُعقّد اجتماعياً، ووحيد. مهووس بالهوايات التي تُمارس في الخارج - الصيد البري، صيد الأسماك ، التجذيف. يحمل رخصة سلاح ناري من ولاية نيويورك، ومنطقة فرجينيا . يملك ثلاثة مسدسات؛ يحمل اثنين في نيويورك، وواحد في فيرجينيا . ولديه رخصة لحمل بندقيّة صيد. يتعلّق اهتمامه بالإنترنت بشبكة أخبار «بريتبارت»، ودونالد ترامب، والحزب الجمهوري، والمواد الإباحية المتطرّفة، ومواقع الويب الخاصة بالجيش الأمريكي. لم يؤدِّ الخدمة العسكرية .

احتمال التصويت بغير مذنب: ٢٠٪

أرنولد نوفوسليك

الفصل الثامن والأربعون

حصلت على التأجيل بسرعة من هاري. ولم يعترض بريور على ذلك. كان لدي من الوقت حتى صباح الغد. عندما فرغت قاعة المحكمة، بقيت أنا فقط، مع أرنولد وبوبي. قال هولتن الذي تعاقدت شركته الأمنية الخاصة مع شركة «كارب لو» أنه سيبقى لحماية بوبي. تأكدت من هولتن، وكان قد اتفق فعلاً مع كارب على أن يحصل بوبي على حراسة أمنية حتى نهاية الأسبوع على الأقل. وبعد ذلك، سيكون الأمر على حسابه الخاص. كان ذلك جيداً بالنسبة لرودي، فعلى الأقل سيبقى بوبي بأمان حتى إرساله إلى السجن ليقضي بقية حياته. كان في الممر خمسة رجال مستعدون لمرافقة بوبي إلى منزله بالإضافة إلى هولتن.

«أين تقيم الآن؟» سألته.

أجاب بوبي: «حصلت على مسكن وسط المدينة. بيت قديم في حي هادئ وجميل. يحتوي المنزل على غرفة آمنة قديمة في الطابق العلوي، لها باب فولاذي كبير. سأكون آمناً هناك. لقد استأجره رودي من أجلي، ودفع الإيجار حتى نهاية الشهر. أخبرني يا إيدي، ألا تزال تعتقد أن لدينا قرصة؟» لقد كان يوماً طويلاً، وبدأ ذلك يظهر عليه. كان بإمكاني أن أخبره الحقيقة لكن ذلك لن يساعده. لدي شعور داخلي بأننا قد نُمسك القاتل الحقيقي. كنت بحاجة لأن أشعر بالثقة من ناحية ديلاني لكنني كنت أرتاب بكل شيء في أعماقي. لا تزال هذه القضية تعتمد على الحظ.

«أعتقد أن لدينا فرصة، سأعرف المزيد غداً. أعتقد أن أرييلا وكارل علقا في لعبة قذرة نوعاً ما. وأراد القاتل توريطك. لا أعرف السبب حتى الآن، أو لا أعرف تحديداً كيف فعل ذلك. أريدك أن تذهب إلى المنزل وتفكّر. وسوف تخبرني غداً أين كنت ليلة الجريمة».

«لقد أخبرتك بالفعل، أنا لا أستطيع أن أتذكر. يا إلهي، أتمنى لو كنت أعرف ذلك!».

بينما كان يتحدث، ثبّت عينيه في الأرض.

كان يكذب, وكنت أعرف ذلك. لقد لاحظ أرنولد ذلك أيضاً.

هزّ بوبي رأسه وقال: «أخبرتك أنني لا أستطيع أن أتذكر».

«دعنا نأمل أن تتحسن ذاكرتك بحلول الصباح. تريد هيئة المحلّفين أن تعرف أين كنت، وستكون في ورطة كبيرة إذا لم تخبرهم».

رافقناه إلى المدخل، وسيأخذه رجال الأمن إلى منزله. وعد بوبي بأن ينام ويتناول أدويته. غادر المكان محاطاً بالرجال، ومتجهاً نحو حشد مسعور.

كانت المرة الأولى التي أُتيحت لي فيها فرصة حقيقية للتحدّث مع أرنولد. أطلعته على فرضية الدولار، ولم يصدقها في البداية. لكن كلما أعطيته مزيداً من التفاصيل، بدا أكثر اهتماماً.

«هل تعتقد أن هيئة المحلّفين ستصدق ذلك؟» سألته.

هرش رأسه الأصلع ثم تنهّد وقال: «يستحقّ الأمر المحاولة. بعد أن تم حجز هيئة المحلّفين، يكمن السرّ في اكتشاف القائد».

«القائد؟»

«تتحوّل هيئة المحلّفين المعزولة إلى عقلية المجموعة بسرعة كبيرة. ويؤدي الاحتجاز إلى عزلها عن حياتها الطبيعية، ويُلقى بهم جميعاً في حالة من التوتر الشديد والإرهاق. وتصبح المجموعة عبارة عن «**نحن**» و«**هم**». ويرتبط الأعضاء معاً ثم يظهر القائد. لاحظ كيف لم أقل كلمة قائد **ذكر**. في الكثير من الحالات تقود امرأة مجموعة المحلّفين. وبمجرّد معرفة القائد، لا تكون بحاجة سوى للتركيز عليه. وإذا استطعت أن تكسب القائد، سيتبع بقية أعضاء هيئة المحلّفين قائدهم.

أومأت موافقاً، الأمر منطقي. أصبحت فجأة سعيداً بوجود أرنولد معي.

«شكراً، هذا مفيد جداً»، أجبته بمودّة. بدا وكأنه يتقبّل الأمر. وكان فرحاً بالمساعدة.

قال «أرنولد» وهو يمد يده: «أعلم أننا لم نحصل على أفضل... حسناً، أنت تعلم ... أنا آسف. أعتقد أنك تقوم بعمل رائع لأجل «بوبي»».

صافحته. أنا لا أحمل ضغائن.

قال «آرنولد»: «آوه، هناك شيء أردت أن أقوله لك من قبل، إنه يتعلّق بأحد المحلفين، رأيته... حسناً، قد يبدو الأمر غريباً.....».

«تابع، ما الأمر».

«من الصعب تفسير الأمر. انظر، منذ سنوات شاهدت هذا الفيلم على قناة تلفزيونية. كان فيلم رعب عن الحياة الاجتماعية في نيويورك. ربما كان أحدهم محامياً، وربما كان شيطاناً، لا أعرف. لا أتذكّر ذلك الجزء. لكن أتذكر مشهداً واحداً على أية حال. كان هناك فتاة تبدّل ملابسها في غرفة تبديل الملابس في متجر، وابتسمت للكاميرا. للحظات فقط، تغيّر وجهها. تحولت تلك الابتسامة إلى.... ما يشبه زمجرة شيطانية. أصبح لديها أسنان حادة وعينان شيطانيتان. أما الشخصية الأخرى، الممثلة الرئيسة - هي لم تكن واثقة ما إذا كانت قد رأت هيئتها أم لا، أتفهمني؟ حسناً، هذا ما أشعر به. رأيت عضو هيئة المحلّفين هذا، وقد تغيّر وجهه. كان مخيفاً، كما لو أنه بالتعبير المصغّر.....، شيء، شيء سيئ».

كان أرنولد يتصبب عرقاً، كان لديه انتفاخات تحت عينيه يمكن أن تحمل عشرة أرطال من البطاطا. بدا مكتئباً ومتعباً، وخائفاً.

«من هو هذا المحلّف؟»

رنّ هاتفي. أخرجت هاتفي من جيب سترتي، وأنصت أرنولد. لم أتعرّف على الرقم الموجود على الشاشة.

«هل سمحت لي بلحظة؟» قلت لأرنولد.

«انظر، انسَ الأمر. آسف. حتى إنني لا أعرف ما أتحدث عنه. أنا أعمل على هذه القضية منذ ستة أشهر، وعلى مدى خمس عشرة ساعة يومياً. كان يومي طويلاً. أجب على هاتفك، وأراك في الغد».

«عد إلى منزلك، وخذ قسطاً من الراحة يا أرنولد».

راقبته وهو ذاهب. يتسبب الضغط بأشياء كثيرة. لست متأكداً تماماً لكن بدا أرنولد وكأنه يهذي. أو ربما كانت خدعة بصرية، أو شيئاً من هذا القبيل.

أجبت على الاتصال. كان الرجل صاحب الورشة، لقد قام بتركيب زجاج أمامي جديد لسيارتي الموستانغ، وأصبحت جاهزة الآن. لم تكن الفاتورة

سيئة، وانتهز الميكانيكي الفرصة لضبط أداء المحرك وتغيير زيته. شكرته. وأخبرته أنني سآتي بالسرعة الممكنة لأخذها.

أمامي ليلة طويلة. أحتاج قراءة ملفات الجريمة للضحايا الجدد، ومراجعة كل دليل من الأدلة من أجل الغد. كانت ديلاني تعدّ فريقاً للأزمة في مكتب نيويورك، وكان لديّ اجتماع على الفطور معها ومع هاربر في الساعة السادسة صباحاً. ستمرّ فترة طويلة قبل أن أحظى بفرصة لأخذ سيارتي.

أنزلني السائق في غربي الشارع «٤٦». لم يكن هناك حفلة ترحيب بي هذه المرة. عندما ارتقيتُ الدرجات نحو مكتبي فكّرت بأن أتصل بكريستين. وعندما وصلت إلى الطابق الأول، قررت أن أخبرها أنني لن أصارع من أجل الطلاق؛ سأعطيها ما تريده. أي شيء تعتبره الأفضل لها ولإيمي. وعندما وصلت إلى باب مكتبي، قررت أن أتصل بها لأخبرها بأنني أحبها. لقد أحببتها أكثر من أي شيء، وعندما أنتهي من هذه القضية، سوف أستقيل.

وبدلاً من ذلك كله، أغلقت هاتفي. كان لا يزال هناك نصف زجاجة ويسكي على مكتبي. صببتُ كأساً. أمسكته فترة طويلة بيدي قبل أن أريقه في الحوض وأبدأ العمل.

اطلعت على ملفات سولومون أولاً، وقمت بتحضير استجوابي. ثم توجهت إلى ملفات الجرائم المتعلّقة بورقة الدولار. لم أكن طبيباً نفسياً متمرّساً. ولم أكن مختصاً في علم الجريمة ولا محللاً جنائياً أو عميلاً فيدرالياً أو شرطياً. كانت مهاراتي في تلك المجالات محدودة.

لكني عرفت أمرين.

كنت أعرف كيفية الخداع. وكان يوجد نموذج هنا. احتيال التسويق التجاري. تم قتل الضحايا في ولايات مختلفة وبطرق مختلفة. وحشرتْ أوراق الدولار بطريقة ما، ولم تهتم الشرطة بالأمر. لا أستطيع لومهم على ذلك. لقد رأيت العلامات على الدولار المطوي على شكل فراشة، وأهملتها تماماً كما فعلت شرطة نيويورك. كلنا فعلنا الشيء ذاته باستثناء ديلاني. بمجرّد أن يتم تثبيت الأدلّة، سينتهي الأمر باتهام شخص بريء. وتنتقل ورقة الدولار إلى ولاية أخرى وبلدة أخرى، ويتكرر الأمر مرة أخرى.

الشيء الثاني الذي عرفته كان القتل.

لقد كبرت بين شباب أصبحوا مجرمين، عندما كنت مُحتالاً. وكان تعاملي مع الرجال القتلة يومياً تقريباً. كان بعضهم يفعل ذلك بهدف المال، ومعظمهم يفعلها كرياضة، وعرفت رجالاً يفعلونها من أجل متعة القتل. يمكن أن ألحظهم من مسافة ميل. والسبب الوحيد في أنني لا أزال على قيد الحياة هو أنني كرّست كل اهتمامي على فهم هؤلاء الرجال لكي أستطيع أن أبقى بعيداً عن مجال راداراتهم، وبعيداً عن مجال بصرهم.

عندما نظرت إلى ساعتي مرة ثانية، كانت الساعة الرابعة والنصف من صباح اليوم. أصبحت الأمور أكثر وضوحاً في ذهني. فاتصلت بهاربر.

«هل لا زلت مستيقظة؟»

«استيقظت الآن»، كان صوتها أجشَّ. تحدثت ببطء، بحنجرة جافة غاضبة، «ماذا تريد؟»

«كنت أطلع على الملفات. ليس هناك من رابط بين الضحايا».

«ألم تخبرك ديلاني بذلك البارحة؟»

«أخبرتني. لكنها كانت تنظر إلى الضحايا الخطأ»، أجبتها.

سمعتها تتأوه، وسمعت صوت ملاءات السرير. تخيّلتها تجلس باستقامة، وتُحاول الاستيقاظ رغماً عنها.

«ماذا تقصد بالضحايا الخطأ؟»

«بحثت ديلاني عن الضحايا المقتولين، ولا أعتقد أنهم كانوا الهدف الحقيقي. هذا القاتل يقتل الناس ليتمكّن من توريط آخرين بالجرائم. الأشخاص الذين تمت إدانتهم بتلك الجرائم هم الهدف الحقيقي، أنا مُقتنع بذلك».

«إنها مشكلة الضحايا المقتولين ذاتها. بعض أولئك الرجال الذين تمت إدانتهم لم يغادروا الولاية أبداً».

«ليس هناك رابط جغرافي ولا اجتماعي. لا أستطيع أن أرى أن هؤلاء الرجال قد التقوا يوماً. لم يعيشوا في الأمكنة ذاتها، وكانوا في حلقات اجتماعية مختلفة تماماً، وجامعات مختلفة، وبعضهم لم يذهب إلى الجامعة أساساً. لم أصل إلى أي شيء. لكنني لست من مكتب التحقيقات الفيدرالي. لا أستطيع

الوصول إلا إلى ما يوجد في الملفات، أو ما أجده في صفحات الإنترنت. ولهذا فهو ليس بالشيء الكثير. لقد وجدت بعض المقالات على الإنترنت. مثل «أكسل» مشعل النيران. وجدتُ أنه ربح جائزة يانصيب الولاية، وهناك مقالة عن «عمر هايتور» جامع رهانات كرة القدم ...»

«ماذا؟» صاحت هاربر.

إن قول شيء ما بصوت عالٍ أحياناً يجعله حقيقياً. على الأقل بالنسبة إلي.

«هاربر، الضحايا الحقيقيون هم الأشخاص الذين تم توريطهم بالقضايا. لقد اختارهم لأن حياتهم تغيّرت بشكل دراماتيكي. ربح «عمر» ذلك المبلغ من المال، وربح «أكسل» جائزة اليانصيب، والمتشرّد الذي أدين في جرائم قتل محطة توقف الشاحنات، كان قد ورث أملاكاً هائلة.... ذلك كله موجود في الصحف المحلية. أريد منك ومن ديلاني أن تتفحّصا ملفّ كل شخص مُدان، ومعرفة ما حدث. ثمة شيء استثنائي غيّر حياتهم. والقاتل عرف بهم، ولهذا قام باستهدافهم».

أوشكت هاربر أن تتحرك. سمعت وقع خطواتها على الأرضية الخشبية. وسمعت صوتاً آخر على الخط؛ صوتاً ضعيفاً في الخلفية، «من معك؟»

لم تجب في البداية. ذلك التردد كان كافياً ليجعلني أشعر بأنني أحمق تماماً!

«يا إلهي، هاربر. آسف، لم أكن أعرف أن لديك ضيوف. سأغلق الخط....».

«لا بأس. إنه هولتن. هو لا يمانع»، أجابت.

«لفترة طويلة، لم أكن أعرف ماذا أقول. أو كيف أشعر. وجدت نفسي ألمس بإصبعي خاتم الزواج الذي ما زلت ألبسه. لقد صقلت الجزء الخلفي من الخاتم على مدى السنوات. كنت قلقاً على معدنه.

«أوه، حسناً، رائع»، بدوت كصبي في الصف السادس.

«سأتحقق من ذلك وأتصل بديلاني. هل هناك شيء آخر؟»

لم يكن هناك أي شيء، اعتذرت مجدداً وأنهيت الاتصال. دفنت رأسي في الكتب من الحرج، أكثر مما كان من التعب.

وبينما استلقيتُ هناك، عاد ذهني مرّة أخرى إلى حديثي مع آرنولد في وقت مبكّر من بعد ظهر ذلك اليوم. كانت حالة متوازنة أخيراً، واحتجت أمرين: أرنولد بذهن صافٍ، وهيئة محلّفين عادلة ونزيهة. لا مزيد من الأعضاء الأوغاد.

كان قلق «أرنولد» حول **عضو هيئة ينظر نظرة غريبة** - يزعجني. لا يهم كم هو أمر جنوني؛ أردت أن أعرف المزيد. اعتاد أرنولد على العمل بقضايا كبيرة، ولذلك يعرف أن النوم مفهوم نسبي في محاكمات الجرائم. اتصلت به وأجاب بعد رنّات قليلة.

«مرحباً؟» أجاب على الاتصال ولم ألحظ أي أثر للنوم في صوته. بدا صاحياً تماماً.

«لم أوقظك، أليس كذلك؟»

«لم أستطع النوم».

«انظر، آسف للاتصال في وقت مبكر كهذا. كنت أعمل طوال الليل، سوف أرتاح نصف ساعة قبل أن أذهب للاجتماع بعناصر مكتب التحقيقات الفيدرالي. لكن لا يمكنني أن أذهب للنوم دون أن أعرف المزيد عما قلته اليوم، بخصوص عضو هيئة المحلّفين؟ لقد اعتقدتَ أنك رأيت شيئاً».

«عضو هيئة المحلّفين؟» استفسر أرنولد.

«ذلك الذي تحدثت عنه. الذي تغيّر... وجهه. لم تكن واثقاً مما رأيته، كان مجرّد أمر عابر. ربما يكون أمراً هاماً، وربما لا. أريد فقط أن أعرف من هو العضو الذي تتحدث عنه».

«أوه، ذلك العضو»، قال أرنولد. لقد فهم الأمر. «نعم، كما قُلت، لست متأكداً تماماً مما رأيته. لقد تغيّر وجهه للحظة».

«ومن هو ذلك العضو؟»

صمت. لا أعرف لماذا، لكنني شعرت بأن الأمر هام.

«أليك وين»، قال أرنولد.

كان «وين» مهووساً بالأسلحة. الرجل المولع بالصيد البري وصيد السمك، وبرامج «فوكس نيوز». تساءلتُ عما إذا كان أليك قد أحبّ صيد الرجال كما يصيد الغزلان.

«شكراً يا أرنولد. انظر، أعرف تماماً ما تبذله من جهد في عملك. خذ قسطاً من الراحة، أراك غداً».

شكرني أيضاً وأنهيت المكالمة. وضبطتُ هاتفي لأستيقظ بعد ثلاثين دقيقة. يمكنني أن أحصل على قيلولة، ثم أستعدّ للذهاب إلى مكتب التحقيقات الفيدرالي في السادسة.

يراودني شعور بأن اليوم سيكون يوماً طويلاً.

الخميس

الفصل التاسع والأربعون

عندما أشرقت الشمس على الجانب الآخر من فندق «غرادي»، كان كين قد استحمّ وارتدى قميصه، واستلقى في السرير، وسمح لنفسه أن يغرق في النوم. بدا الجرح على ساقه نظيفاً تماماً، ولم ينزف على الرغم من المجهود الذي بذله في الليل. وبعض الفحص الدقيق، قام بإعادة وضع الضمادات. لا يوجد أثر للعدوى. لكن من باب الحيطة فقط، أخذ المزيد من المضادات الحيوية، وفحص درجة حرارته. كل شيء على ما يرام.

قدّر الوقت فرأى أن هناك ساعة، وربما ساعة ونصف، قبل أن يأتي الحراس لإيقاظ هيئة المحلّفين من أجل تناول الإفطار. أرخى عضلاته. ثم تنفّس بعمق، وسمح لعقله أن يغرق بعالم النوم المتقطع حيث يسيطر العقل الباطن.

شعر كين بالرضا عن عمله في هذه الليلة.

قريباً سيطرق الحارس على الأبواب، ثم يبدأ الضجيج والصراخ. ثم - الصياح.

كارب لو

شقة رقم ٤٢١، مبنى كوندي ناست، ٤ تايمز سكوير» نيويورك.

سريٌّ للغاية، وثيقة عمل بين المحامي وموكله

مذكّرة هيئة المحلفين

الادعاء العام ضد روبرت سولومون

المحكمة الجنائية في مانهاتن

دانيال كلاي

العمر: ٤٩

عاطل عن العمل. يعيش على الرعاية الاجتماعية. غير مرتبط. ليس لديه أهل ولا عائلة ولا أصدقاء. لا يمكن أن يكون وضعه الاجتماعي أسوأ. يستمتع بوسائل التواصل الاجتماعي، وقراءة روايات الخيال العلمي والروايات الخيالية. لا يقرأ الصحف، ويتجنّب الأخبار الإلكترونية. معجب بـ « ألفيس». ليس لديه سجل جنائي. مهتم بالروحانيات، لكنه لم ينضم إلى الكنيسة بعد، ويرجع ذلك أساساً إلى وضعه المالي.

احتمال التصويت بغير مذنب: ٢٥٪

أرنولد نوفوسليك

الفصل الخمسون

قل ما تريد عن مكتب التحقيقات الفيدرالي. عن سياساتهم وأجنداتهم السياسية السرية، عن الفساد، عن المراقبة السريّة لكل مواطن في أمريكا، والأخطاء والأرواح التي قُتِلَت على أيديهم.

في الساعة السادسة وخمس دقائق من صباح يوم الخميس كان مكتب التحقيقات الفيدرالي مناسباً بالنسبة إلي. وطالما بقوا يقدّمون لي القهوة، بقيت على استعداد للإبقاء على هدنة مؤقتة.

السرعة التي أسسوا فيها غرفة عمليات لبحث جرائم رجل الدولار كانت في صالحهم أيضاً. كان لدي ديلاني أدلّة تكفي لإجبار المدراء على فتح أدراج نقودهم. كنت في غرفة كبيرة بلا نوافذ، مضاءة جيداً، وهناك مكاتب في كل مكان. تم بناء حائط تعقّب على لوح طويل من الزجاج قسم الغرفة إلى نصفين. صور الضحايا وسيرهم الذاتية إلى جانب الرجال الذين تمت إدانتهم بجرائم القتل. ثمة سهام مرسومة بأقلام تحديد على الزجاج كله.

«حصلنا على واحد آخر». قالت ديلاني وهي تقف خلفي.

تقدّمت إلى الأمام وعلّقت صورة لفتاة ذات شعر أسود مجعّد جميل ترتدي سترة جلدية، ذات بشرة شاحبة، وابتسامة لقائدة فريق مشجّعين. كانت في أوائل العشرينات من عمرها. وكانت الصورة التي ارتفعت إلى جانبها لرجل طويل القامة في منتصف العمر، ولديه شارب. إنها صورة المشتبه به.

«أستاذ باللغة الإنكليزية أُدين بقتل نادلة في كارولينا الجنوبية»، قالت ديلاني.

«متى؟» سألتها.

«عام (٢٠١٤). كان الأستاذ قد باع للتو روايته الأولى إلى دار نشر كبيرة في نيويورك. إلا أنهم ألغوا العقد فور إلقاء القبض عليه».

عبر الغرفة، على الجدار الخلفي، كان هناك جدول زمني لعمليات القتل والمحاكمات الجنائية التي أصدرت الحكم على الجُناة. لقد بدأت عام (١٩٩٨)

مع أول شابة قُتِلَت، وأدين «بينا» بالجريمة. وصولاً إلى آخر قضية، قضية أستاذ اللغة الإنكليزية عام (٢٠١٤).

«ستة عشر عاماً»، قلت بهدوء.

«ربما، ما زال ينقصنا بضع ولايات. نيوجرسي، فيرجينيا، ورود آيلاند. ويمكن أن تطول القائمة، لكن ليس كثيراً كما أعتقد. كان هذا الشخص مشغولاً».

وجدت صعوبة في التركيز على صور الضحايا. لقد انتهت حياة كل فرد منهم بقسوة ووحشية. رجال ونساء. كان لديهم آباء وأصدقاء، والبعض لديه أطفال. كان حجم الدماء أكثر مما يمكن تحمّله. جلست إلى طاولة مكتب فارغة. كانت الغرفة تعجّ بالعملاء الفيدراليين. مجرّد لمحة عن ذلك الألم الذي سببه هذا الرجل كان أكبر من أن تستوعبه - كان ذلك أشبه بنار مشتعلة في الأفق. بدت وجوه ضحاياه متقدة. وشعرت أنني إذا اقتربت أكثر، أو حدّقت بشدّة في وجه من الوجوه، فإن تلك النار ستجتاحني ولن تدعني أذهب.

كان لدى ديلاني ذلك الفصل العَرَضيّ في تطبيق القانون. كانت تنظر إلى وجوه الضحايا بعيون مُراقبة.

«كيف تفعلين ذلك؟» سألت ديلاني.

«عن أي شيء تتحدث؟»

«تستطيعين النظر إلى هذا كله. ولا يزعجك».

«يزعجني طبعاً. لكن من الأفضل أن تصدّقه، عندما أرى الجثث، والحجم الهائل لهذا كله - إنه هول المُعاناة الذي قد يجعلك تفقد عقلك إذا سمحت له بذلك. ولهذا أنا لا أنظر. عندما أحدّق في صورة، فأنا لا أنظر إلى الضحية - بل أبحث عن القاتل. أحاول متابعة شيء يشير إليه، أو اكتشاف توقيع، أو اقتفاء أثر من نوع ما. عليك أن تتجاهل الخراب وأن تنظر إلى ما وراء ذلك من أجل الوصول إلى الوحش».

صمتنا لبعض الوقت. وفكّرت في هؤلاء الناس.

«إذاً، هل أخبرك كيف ستقبضين على هذا المغفّل؟» قالت هاربر.

لم أنتبه لوصولها. كانت تحمل ما يعادل نصف غالون من القهوة الجاهزة. كان الكوب يُثقل كاهلها. وضعته على الطاولة، ثم جلست إلى جانبي.

«ليس إلى حد الآن»، قالت ديلاني.

في الحقيقة، لم أكن متأكدة من أن الأمر سينجح. كان احتمالاً صعباً، ولكن بعد قضاء ليلة في التفكير في ورقة الدولار، كنت على يقين من أنني سأنجح.

«يبدو لي أن الأهداف الحقيقية هي الرجال الذين ورّطهم رجل الدولار بجرائم القتل. وأما العلامات الثلاث على الدولار، من وجهة نظري، تتمثل في أن السهم يشير إلى الضحية، وغصن الزيتون إلى المجتمع، بمعنى أن يتم القبض على المجرم وإدانته بعد أن تورّط في الجريمة بسبب الدولار. وأخيراً النجوم التي التي يجب أن تشير إلى الولاية. تخيّل أنك هذا الرجل».

أخذت هاربر رشفة كبيرة من القهوة، وعقدت ديلاني ذراعيها واتكأت إلى الخلف. لم أكن متأكداً من أنها مقتنعة بذلك.

«لقد بذل هذا الرجل جهداً استثنائياً لتوريط رجل بريء بجريمة قتل ارتكبها هو. وأظن أنه يحظى بشعور جيد حيال ذلك. تخطط لجريمة قتل، وتنفّذها، ولا يقوم رجال الشرطة حتى بالبحث عنك. إنه القتل المثالي تقريباً، أليس كذلك؟ لنفرض الآن أنك تتكبد كل هذا العناء في توريط شخص ما، ألن ترغب بالبقاء في الجوار لتتأكد أن كبش الفداء سيُعاقب على جريمتك؟»

أمسكت ديلاني قلماً، وقرّبت كرسيها من الطاولة وبدأت تضع ملاحظاتها.

«ماذا تقصد بأن تبقى في الجوار؟» قالت هاربر.

«أعتقد أنه يراقب مجرى المحاكمة. إنها أكثر من لعبة بالنسبة لهذا الأحمق؛ إنها مهمّة. تخيّلي الجلوس في قاعة المحكمة، ومشاهدة رجل آخر يحكم عليه بدلاً منك، والجزء الأفضل هو أنك أنت من جعلت ذلك يحدث. تتكشّف الخطة حرفياً أمامك، وبكل وضوح. أعني أن هذا الرجل بارع حقاً في توريط الناس. وكل شخص قام باستهدافه، تمكّن من إدانته. لا أستطيع أن أصدّق أن محاميّ الدفاع لم يستطيعوا الفوز بقضية واحدة من تلك القضايا. لقد حصل على إدانة في كل مرة. وهذا يجعله يشعر بالقوة. يدفن مجرمون كثيرون أشخاصاً بسبب الألاعيب والحيل، فكيف لهذا الرجل أن يكون مختلفاً؟»

ضغط القلم بيد ديلاني بشدّة على الورقة. كان تهزّ رأسها وهي تدوّن الملاحظات.

«هل التقيت بالكثير من المجرمين يا إيدي؟» سألت ديلاني.

«سأعتمد على التعديل الخامس للإجابة على هذا السؤال، أعني قانون حماية الأفراد من تجريم أنفسهم»، أجبتها.

«التغطية التلفزيونية، صور المحاكمات في الصحف المحلية، الصحف الوطنية، المدوّنات. يمكننا أن نبدأ البحث عن هذا الرجل»، قالت هاربر.

«إذا كنت على حق، فهذا يعني أنه سيكون في المحكمة اليوم لمراقبة بوبي. يمكنك نشر نصف دزينة من العملاء الفيدراليين في قاعة المحكمة لمراقبة الحشد. وعندما أبدأ باستجواب شهود المدعي العام بشأن ورقة الدولار، سنرى ما سيحدث. إذا حالفنا الحظ يمكننا إخافته. أريده أن يعتقد أننا نعرف الكثير عنه، أكثر من القدر الذي يريحه. وإذا كان ذكياً، فسينهض ويستقلّ أول طائرة من مطار «جون كيندي». عليك فقط القبض عليه قبل أن يغادر قاعة المحكمة».

تبادلت ديلاني وهاربر نظرات الحماس. بدا الأمر أشبه بخطّة. فتّشت ديلاني ملفاً، ووجدت ما يبدو وكأنه تقرير محدد من نوع ما.

«هذا هو ملف ورقة الدولار. لقد عملنا عليه طوال الليل، لذا فهو لا يزال مسوّدة، وعليّ تنقيحه. يوجد فيه أماكنه المعروفة المتوافقة مع تواريخ جرائم القتل. سأقوم بتحديثه لإضافة الفترات الزمنية التي غطّتها المحاكمات الجنائية اللاحقة. أعتقد أنك محقّ تماماً بشأن ذلك يا إيدي، وفهمت رسالتك يا هاربر. هناك صلة بين أولئك الذين تمت إدانتهم بالجرائم المرتبطة بورقة الدولار. كنا بالفعل نعمل على ذلك، لكننا لم نتمكن من إثباته حتى راجعنا جميع الملفّات مرة أخرى. حسناً، لدينا الآن رابط».

قدّمت لنا نسخاً من الملف، وانتقلنا مباشرة إلى الجزء الذي يحمل عنوان «اختيار الضحية».

ليس ثمّة ما يمكن تمييزه بوضوح بين المجموعات المختلفة من ضحايا جرائم القتل على الصعيد الجسدي أو الجنسي أو الجغرافي. ويُحتمل أن اختيار الضحية قد تم على أساس ارتباطه بالشخص المُستهدف بالإدانة أو على أساس سهولة الوصول إليه، أو العلاقة معه. ويشترك أولئك الأشخاص

الذين يُحتمل أن ينجح المجرم بتوريطهم في الجرائم المرتكبة بسمة واحدة مشتركة وغير عادية: إذ إن خلال فترة زمنية قريبة من زمن وقوع الجريمة، مرّ جميع المدانين بما يمكن وصفه، على نحو معقول، بأنه تجارب غيرت حياتهم. وتشمل هذه التجارب التحولات الكبيرة في وضعهم المالي أو الشخصي (فوز بجائزة اليانصيب، ميراث غير متوقع، امتياز لامتلاك مطعم أو إدارته). كان التغيير في ظروف هذا الشخص دائماً ذا أهمية .

إن فحص العلامات على أوراق الدولار الموجودة في مسرح الجريمة، ثم استخدامها لاحقاً في الملاحقات القضائية، والبحث في الولايات التي حدثت فيها جرائم القتل، يكشف عن وجود بصيرة وأمراض نفسية محتملة هامة. كانت الولايات الثلاث عشرة، التي يرمز إليها ثلاثة عشر نجماً في ورقة الدولار الواحدة، أول الولايات التي وقعت على إعلان الاستقلال. ويوفر الإعلان أساساً قانونياً للطابع الطموح للحياة الأمريكية .

النموذج واضح، ويكمن المرض بتدمير الطابع الطموح للحياة الأمريكية نفسها. ومن هنا يُحتمل أن القاتل ، أو شخصاً مقرّباً منه، قد فشل في تحقيق بعض أهدافه في الحياة. إنه نمط انتقامي يسرح في مجال حيوي واسع. وهو عقاب لأولئك الذين تغيّرت حياتهم عبر تدمير تلك الحياة الجديدة بتوريطهم بجريمة قتل. يكره القاتل التغيير الطموح . ومن المحتمل أنه يشير إلى ذلك عن طريق طيّ دولار ورقي على شكل فراشة في جريمة قتل «بلوم» و «توزر» .

انتقلت إلى الصفحة الأخيرة وقرأت خاتمة الملف.

الجنس: ذكر.

السن: من المحتمل أن يتراوح عمره بين ثمانية وثلاثين، وخمسين عاما.

العرق: غير معروف.

الولاية: المنشأ غير معروف.

الوصف الجسدي: نظراً للقوة الجسدية اللازمة لتحقيق الضرر الذي حدث في بعض هذه الجرائم، فمن المرجّح أن يكون القاتل قوياً جسدياً.

الحالة النفسية: القاتل ذكي ومنظّم للغاية وماهر اجتماعياً، ومخادع . تبدو النرجسية واضحة في شخصيته. ولديه اعتلال نفسي واجتماعي، لكنه يبقى

شخصاً فاعلاً يتمتع بقدرة فكرية على إخفاء الأعراض المحتملة عن العامة، والأصدقاء، والعائلة. إن العنف الذي تعرّض له الضحايا قبل الوفاة، وبعدها في بعض الحالات، يتضمّن النمط السادي في الجرائم. وقد يكون توريط الرجال الأبرياء في الجرائم شكلاً من أشكال السادية العاطفية. وثمة احتمال ضخم بأن يكون مهووساً بالألم نفسياً وجنسياً. يرجّح أن يكون لديه اضطراب شذوذ جنسي، كاضطراب السادية الجنسية. وهو متعلّم، ربما وصل إلى المرحلة الجامعية. ولديه اطلاع واسع على الإجراءات القضائية. ونظراً لحالته المرضية، ربما يكون شخصاً فشل في المجال الذي اختاره ، أو أن شخصاً قريباً منه قد فشل في تحقيق قدراته . ومن المرجّح إلى حد ما أنه عاش حياة الفقر البائسة في مرحلة ما. تقوم مهمته الأساسية على الهجوم العنيف على القيم والتطلّعات الأمريكية - والدافع وراء ذلك هو الانتقام .

***

قلتُ بصوت عالٍ ودون أن أعي ذلك: «يظنّ أنه يقتل الحلم الأمريكي».

رفعت نظري عن الملف ووجدت كلتا المرأتين تحدقان بي.

«لا بدّ أنه بحث عن أهدافه في الصحف والتلفزة المحليّة أو شيء من هذا القبيل. هناك قصة أخبار جيدة في نهاية الأخبار المسائية. هكذا وجد أهدافه. سوف أبحث في هذا المجال»، قالت هاربر.

«سأدعكما مع اثنين من عملائي. إنهما يتصلان بوكالات الأخبار المحلية حالياً»، قالت ديلاني.

تعجّ الغرفة بالنشاط والحيوية. عرفت ديلاني أنها توشك على الإيقاع بهذا الشبح. ومع ذلك، لا يزال هناك ما يزعجني. تبدو النظرية جيدة، لكن رجل الدولار يعتمد على الحظ في كثير من ذلك. وعليه أن يكون كذلك. لقد ارتكب جرائم قتل في ثماني ولايات حتى الآن، واستطاع أن يورّط أشخاصاً بهذه الجرائم كلها. كانت نيويورك هي التاسعة. ربما كان هناك المزيد، ولم تكتشفه ديلاني بعد.

كنت أعرف أكثر من أي شخص آخر، أن أي شيء يمكن أن يحدث في المحكمة الجنائية. كان هناك الكثير من المتغيّرات حتى في حال وجود أدلّة جنائية قوية.

هل كان رجل الدولار مجرّد شخص محظوظ لينجح في إدانة أشخاص ثماني مرات من أصل ثماني؟

«عندما تبحثين في الوكالات الإخبارية المحليّة، تأكدي من الحصول على جميع الصور من المحاكمات. قد يكون هناك مقاطع فيديو، أو صور لحشود الحاضرين في المحاكمة. أعتقد أن رجلنا راقب كل لحظة في كل محاكمة. ثمّة فرصة لأن يكون أحد المصوّرين قد التقط صورة له».

أجابت ديلاني: «إنه احتمال بعيد، لكننا سنبحث في هذا الأمر، إن حضور الجلسات يتماشى مع ملفّه النفسي. يرجع الكثير من المجرمين إلى مسرح الجريمة، أو يأخذون صوراً تذكاريّة مع ضحاياهم. مما يسمح لهم باستعادة لحظة الإثارة تلك مراراً وتكراراً. إنه لن يكون ذات الإحساس بالقتل طبعاً، فهم لا يحصلون على الاندفاع ذاته لكنهم يحصلون على شيء منه».

نهضت هاربر وجمعت ملاحظاتها متلهفة للبدء بالعمل وقالت: «هل هذا كافٍ لتبرئة سولومون؟»

«لا أعرف. لدى بريور الكثير من الأدلة القوية التي سيضعها أمام هيئة المحلّفين اليوم. سيكون مفيداً لنا أن يتذكّر بوبي أين كان ليلة الجريمة».

«هل هو لا يعرف الإجابة حقاً؟» سألت هاربر.

«يقول إنه كان ثملاً ولا يتذكر».

«هناك من سيتعرّف عليه بالتأكيد إذا كان في حانة حينها؟» قالت ديلاني.

«أنت تعتقدين ذلك. لكنني شاهدت كاميرات المراقبة. كان يرتدي ملابس داكنة، وقبّعة بيسبول وسترة. يُفلت الكثير من المشاهير أثناء تجوالهم في مدينة مثل نيويورك إذا قاموا بالتخفّي.....»

علقت الكلمات في حنجرتي. لقد نقرت ديلاني على الوتر الحساس. لا بدّ أن بوبي كان مشهوراً. هذا كل ما في الأمر.

«هل لديك قائمة بالأخصائيين الجنائيين في مكتب التحقيقات الفيدرالي في هذا المبنى يا ديلاني؟»

«يمكنني الحصول عليها. لماذا؟»

«إنها تصبّ في مصلحتي ومصلحتك إذا خرج بوبي. أحتاج مساعدتك».

كانت حذرة في البداية. عقدت ديلاني ذراعيها ووقفت.

«طالما أنه لا وجود لشيء غير قانوني، ربما نكون قادرين على مدّ يد المساعدة»، قالت ديلاني.

«حسناً، ربما توجد مشكلة في الأمر».

نظرت إلي فابتسمتُ وقلت: «من الناحية العملية، لن تكون غير قانونية إلا إذا تم القبض علينا».

الفصل الحادي والخمسون

قرع شرطي المحكمة الباب لمدة عشر دقائق تقريباً. كانت الساعة السابعة والنصف. واستُبدِلت رائحة الخضار القديمة برائحة البيض المطبوخ. كان معظم أعضاء الهيئة قد نزلوا إلى الطابق السفلي، وبقي كين والشرطي وبيتسي وريتا في المدخل وطلبوا ممن في الداخل أن يفتحوا لهم الباب.

«تباً، أين ذلك البوّاب الاحتياطي؟» قال الشرطي وطرق الباب ثانية ونادى.

حينها فقط وصل بواب الفندق العجوز إلى الزاوية لاهثاً وأعطى المفتاح للشرطي.

«تأخرت كثيراً»، قال الشرطي.

امتعض البواب.

«نحن قادمون»، قالت بيتسي.

كان كين يرتدي ملابس الخروج كاملة مثل الآخرين. لقد اغتسل وبدّل ملابسه، ووضع المكياج اللازم لإخفاء الكدمات الزرقاء التي نتجت عن كسر أنفه. حاول أن يكبح حماسته بينما وضع الشرطي المفتاح في القفل وفتح الباب.

«هل أنت مستيقظ يا حارس المحكمة»، قال الشرطي بينما كان يدخل إلى الغرفة. دفع كين بيتسي بلطف أمامه وتبع الشرطي إلى الداخل.

بدت الغرفة نظيفة. كانت هناك حقيبة رياضية على السرير. وكانت الملاءات مسحوبة عن السرير عن يمين كين لكن السرير كان فارغاً. انبثق ضوء من الحمام على الجانب الآخر للغرفة خلف السرير. شق الشرطي طريقه إليه، وسُمِعَ صراخ.

«يا إلهي!» صرخت بيتسي.

استدار الشرطي، وكذلك كين. وكانت بيتسي وريتا تصرخان. كانتا تحدّقان في الفرجة الضيقة بين السرير والجدار اليساري قرب الباب. سحب الشرطي إطار السرير، وأبعده عن الجدار. كانوا جميعاً يحدّقون بجثّة مانويل أورتيغا.

كانت ملاءة السرير ملفوفة حول عنقه. كان ممدداً قريباً من الأرض. وكان الطرف الآخر للملاءة معقوداً بعمود السرير. بدا كما لو أنه خنق نفسه.

أبقى كين كلاً من بيتسي وريتا والشرطي في مرمى بصره، متراجعاً إلى الخلف ويده تغطي فمه. بسرعة كبيرة، وبينما كانوا يحدّقون برعب في جثّة مانويل، ويديرون ظهورهم إلى كين، سحب المنشفة عن كتفه وغطّى قفل النافذة. حركة سريعة واحدة وأصبحت النافذة آمنة من الداخل. لا بصمات، ولا حمض نووي. نظافة كاملة. أعاد المنشفة على كتفه وتقدّم إلى الأمام.

بدا وكأنها عملية انتحار. اتصل الشرطي باللاسلكي لطلب الدعم من شرطة نيويورك. كانت عينا مانويل مفتوحتين وجاحظتين من رأسه. وتحدّقان في السجادة.

***

في الساعات المبكرة من ذلك الصباح، طرق كين على نافذة مانويل الذي تفاجأ في البداية لكنه سمح له بالدخول بهدوء.

«ماذا تفعل يا رجل؟» قال مانويل همساً.

«إنها الطريقة الوحيدة التي نستطيع بها أن نتحدث على انفراد. أنا قلق بشأن هذه القضية. أعتقد أن الشرطة قد ورّطت سولومون. علينا أن نتأكد من تبرئته. لم أقتنع للحظة واحدة من أنه قتل أولئك الأشخاص».

«وأنا كذلك. كيف سنفعل ذلك؟» قال مانويل.

ناقشا الخطّة، وكيفية التأثير على باقي أعضاء الهيئة. وبعد عشر دقائق ذهب مانويل إلى الحمام. فتبعه كين ولبس قفازاته، وأمسكه من الخلف، وحشر قطعة قماش في فمه وثبتها. كانت ذراع كين الأخرى ملتفّة على قصبة مانويل الهوائية. لم يستغرق الأمر طويلاً للتغلّب عليه. كانت عملية هادئة وسريعة، حتى إنه لم يكن قد تعرّق عندما انتهى منه. ثم قام بنقل الجثّة إلى الفرجة بين السرير والحائط، وربط إحدى نهايات الملاءة حول عمود السرير، والأخرى حول رقبة مانويل، وأوثقها بشدة. وبعد ذلك غادر كين بالطريقة التي دخل فيها. بقي الشيء الوحيد الذي لم يستطع القيام به هو قفل النافذة من الداخل.

وقام بذلك الآن.

شرطي الأمن في الممر، وباب غرفة النوم مُقفل من الداخل، والنافذة مقفلة الآن. من شأن هذه التركيبة أن تقود شرطة نيويورك إلى اعتبار الأمر على أنه انتحار. لم يكن ثمّة طريقة أخرى لحدوث ذلك.

«ليخرج الجميع»، قال الشرطي.

خرج كين وبيتسي وريتا من الغرفة. تجمّعوا في البهو، ووضع كين يده على كتف ريتا بينما كانت تبكي. قالت بيتسي: «أريد الخروج من هنا، هذا مريع. ما الذي يجري بحق الجحيم؟»

تحدث برفق مع المرأتين، واقترح عليهما أن تنزلا إلى الطابق السفلي لتتناولا ما يهدئ أعصابهما. وهكذا، مع اقتراب صوت صفارات سيارات الشرطة من فندق غرادي، قاد كين رفيقتيه ممسكاً بذراعيهما إلى البهو ثم على الدرج وصولاً إلى البار.

لقد قام كين بتنظيف هيئة المحلّفين تماماً. أصبح قادراً الآن على إقناع باقي المحلّفين؛ حيث كان مانويل آخر فرصة لروبرت سولومون للحصول على حكم بالبراءة. لقد رحل الآن، وأصبحت هذه الهيئة في نهاية المطاف هيئة محلّفي كين.

كارب لو

شقة رقم ٤٢١، مبنى كوندي ناست، ٤ تايمز سكوير» نيويورك.

سريٌّ للغاية، وثيقة عمل بين المحامي وموكله

مذكّرة هيئة المحلفين

الادعاء العام ضد روبرت سولومون

المحكمة الجنائية في مانهاتن

كريستوفر بيلوسي

العمر: ٤٥

مصمم مواقع إلكترونية. يعمل في المنزل. غير مرتبط. مطلّق. يتناول الكحول بكميات كبيرة في عطل نهاية الأسبوع (يستهلك الكحول في المنزل). حياته

الاجتماعية سيئة . يعيش والداه في دارٍ للمسنين في ولاية بنسلفانيا. وضعه المادي ضعيف جداً، خسر معظم أمواله في استثمارات سيئة قبل تعرّضه لحادث اصطدام. يهتم بالطعام والطبخ. يتناول أدوية خفيفة لمعالجة الاكتئاب والقلق.

احتمال التصويت بغير مذنب: ٣٢٪

أرنولد نوفوسليك

الفصل الثاني والخمسون

قبل أن يسأل» بريور» سؤاله الأول في هذا اليوم، فكرت في كل ما حدث ذلك الصباح.

بعد أن غادرت مكتب التحقيقات الفيدرالية، اتصلت بـ بريور، وأخبرته أن المحقق الخاص بي يريد الدخول إلى منزل «سولومون». لم يعترض، لكنه بدا غاضباً على الهاتف.

«يبدو أنك شخصية مشهورة»، قال بريور.

«كنت أعمل، لم أشاهد الأخبار»، أجبته.

«أنت تتصدر العناوين الرئيسة على جميع القنوات. وصورتك على الصفحة الأولى في صحيفة نيويورك تايمز. كيف تشعر؟»

هذا ما كان يثير غيظه. كان يريد أن يتصدّر العناوين الرئيسة.

«كما قلت لك، لم أشاهد أي شيء. هل وصلتك رسائلي الإلكترونية؟»

أكّد أنه تلقّى اكتشافاتي الإضافية. واعتقد أنني أتعلّق بقشّة في محاولتي تعليق هذه الجريمة بقاتل متسلسل.

ربما كان على حق، لكن كان ذلك كل ما أستطيع فعله.

بدأنا يومنا في المحكمة بزيارة هاري. مات محلّف آخر، مانويل أورتيغا. وأكدت شرطة نيويورك أنه كان انتحاراً، وتم إبلاغ عائلته. لم يرَ الجثة سوى عدد قليل من المحلّفين لكنهم كانوا جميعاً بخير. وقد تحدث أحد أفراد شرطة الحماية إلى كل واحد منهم، وبدوا على أتم الاستعداد للاستمرار في العمل في الهيئة. أتى البديل الآخر، وكانت هي راشيل كوفي. وكنت أنا وبريور موافقين على تعيينها. قال هاري إنه يريد الانتهاء من هذه المحاكمة قبل أن نفقد محلّفين آخرين.

«إنها قضية لعينة»، قال هاري، «نريد الانتهاء منها بالسرعة الممكنة».

أمضى بوبي ليلة سيئة، لم ينم أبداً. قام هولتن ومجموعة من الحراس الأمنيين بإحضاره إلى المحكمة، وجلس هولتن في النسق خلفنا. كانت ذراعه حول بوبي معظم فترة الصباح. ساعده على الوقوف، وهمس في إذنه كلمات للتشجيع. وأخبره أنه حظي بأفضل فريق دفاع في العالم.

كنت ممتناً لهولتن. كان من الواضح أن هاربر تحبه، وكان ذكياً بما يكفي ليعرف أنه مهما بلغ بوبي من العصبية، فمردّه إلى أنه وصل إلى هذه المرحلة. لم يكن لديه المزيد من الطاقة.

جلست أنا وبوبي على منصّة الدفاع، وأخبرت أرنولد أن عليه أن يكون هنا لاحقاً. نظر بوبي بقلق. وابتسم هولتن له، ثم أمسك بيده وطلب منه أن يتماسك.

قلت لموكلي: «لا بأس يا بوبي. نعتقد أننا نعرف من قتل كارل وأرييلا. سأخبر هيئة المحلّفين اليوم. تماسك وحسب».

أومأ بوبي، لم يستطع أن يتكلم. كنت أراه يبتلع خوفه. لقد تناول أدويته على الأقل. وتأكد هولتن من أنه تناول جزءاً من شطيرة الإفطار الساخنة التي كانت تنتظره عندما ركب سيارة الدفع الرباعي التي أحضرته إلى المحكمة.

سكبت له كوب ماء، وتأكدت من أنه مرتاح، ثم طرحت عليه سؤالاً. كان سؤالاً قاسياً وخطيراً، لكن لم يكن من خيار آخر لدي.

«بوبي، أريد أن أعرف أين كنت ليلة الجريمة. هل أن مستعد لتخبرني الحقيقة؟»

حدّق بي محاولاً أن يستجمع بعض السخط. لكنه لم ينجح.

«كنت ثملاً. لا أتذكر»، أجاب.

«لا أصدقك. وهذا يعني أن هيئة المحلّفين لن تصدقك».

«هذه مشكلتي. لم أقتل أي شخص يا إيدي، هل تصدقني؟»

أومأت بالإيجاب. لكنني تخلّصت من المشاعر السيئة. لقد كنتُ مخطئاً بشأن الموكلين من قبل.

«إذا لم تخبرني الحقيقة، قد أتخلّى عن هذه القضية. أنت تعرف ذلك، صحيح؟»

أومأ برأسه ولم يقل أي شيء. لا أحد يمكن أن يكون غبياً لدرجة أن يخسر محامياً آخر في منتصف محاكمة جنائية. لكن بوبي لم يتكلم. كنت أودّ أن أزيد الضغط عليه للدرجة القصوى. لكنني لم أرغب برؤيته ينهار. وفي الوقت نفسه، ما زلت مقتنعاً بأنه لم يكن القاتل. وأياً كان السرّ الذي يحتفظ به لنفسه، فربما كان له علاقة بشعور شخصي بالذنب بما يخص الجريمة. لو أنه بقي في البيت حينها، ربما بقيت أرييلا وكارل على قيد الحياة؟

***

وقفنا جميعاً عندما دخل هاري إلى قاعة المحكمة. طلب إدخال هيئة المحلّفين، وراقبتهم بعناية وهم يستقرون في أماكنهم. كنت أراقب أمرين اثنين. الأول هو عضو هيئة المحلفين الرئيس.

برزت من بين النساء اثنتان على أنهما مهيمنتان على الأرجح. ريتا فيستي وبيتسي مولر. وكانت بيتسي هي الأكثر ترجيحاً بالنسبة إلي. في صباح ذلك اليوم، بدت كلتاهما جادتين. وأستطيع التأكيد أنهنّ كن يبكين. استطعت أن ألمح ذلك في وجوههن. اتخذت كلتاهما مواقف دفاعية. لفّت بيتسي ذراعها حول جسدها، وعقدت ريتا ذراعيها وصالبت ساقيها.

ربما كانتا المحلفتين اللتين وجدتا جثة «مانويل».

لم أهتم كثيراً للرجال، لكنني الآن نظرت إلى كل منهم عن كثب.

كان الشيف، «تيري أندروز»، أطول أعضاء الهيئة. لا أظن أنه القائد. بدا غير مهتم بالإجراءات. حتى إنه مشتت الذهن. يبدو وكأنه شخص يهتم بشؤونه الخاصة. أما دانيال كلاي فكان لديه شيء عالق بين أسنانه. كان يعبث بلسانه وينظر في الإجراءات بقليل من الاهتمام.

يثرثر جيمس جونسون مع كريس بيلوسي. المترجم ومصمم المواقع الإلكترونية كانا شخصيتين قويتين، ويناقس كلٌ منهما على مركز القائد الفكري. أما برادلي سومرز فكان أكبر عضو في الهيئة. لقد بلغ الثامنة والستين من عمره، وهو يقضم أظافره ويحدّق في السقف. اعتبرتها مؤشراً جيداً إذ كان يفكّر. بما لا يفكّر بالقضية لكن لديه بالحد الأدنى ذهن قادر على التحليل العقلاني.

أوصلني ذلك إلى آخر ذكر، أليك وين. رجل البراري الذي يمتلك مجموعة من الأسلحة. الرجل الذي رأى أرنولد في عينيه ملامح الكراهية التي يحاول إخفاءها. كان يجلس مستقيم الظهر ويديه في حضنه. كان يقظاً، وهو على أهبة الاستعداد للقيام بواجبه.

أعتقد أنه القائد. يجب أن أراقبه عن قرب.

استدعى بريور الطبيبة الشرعية شارون مورغان. سيدة شقراء ترتدي زياً أسود لائقاً. كانت في الخمسينات من عمرها لكنها تحتفظ بمظهر الشابات. والأهم من ذلك أنها كانت محقّة عادة فيما يخص شهادتها. لقد كانت في مسرح الجريمة، وأجرت عمليات التشريح، وعثرت على ورقة الدولار في فم كارل. لقد كسب بريور هيئة المحلّفين من خلال خبراتها. ثم الجروح وتشريح الجثث. أكّدت الطبيبة الشرعية أسباب الوفاة لكل منهما. كارل بسبب كسر في الجمجمة وإصابة في الدماغ.

«وبما يخص الضحية الأنثى، هل تستطيعين تحديد سبب الوفاة؟» سأل بريور.

«نعم. عدة طعنات في الصدر كانت السبب الرئيس للصدمة. أستطيع أن أحدد أن الطعنة في أسفل الثدي الأيسر قد قطعت شرياناً أساسياً. استمرّ القلب بالضخ وهو ما خلق حالة من الخلاء. دخل الهواء إلى الشريان، وانتقل بسرعة إلى القلب، فخلق سدادة غازية أوقفت تدفّق الدم وأدّت إلى توقف القلب. وحدثت الوفاة خلال ثوان».

«هل يفسّر ذلك عدم وجود جروح دفاعية على جثّة الضحية؟» قال بريور.

كان يقود مورغان إلى الإجابة التي تناسبه لكنني لم أعترض. إنه يحاول إصلاح بعض الضرر الذي أحدثته يوم أمس في محاولتي لإثبات أن الضحيّتين قُتِلتا في الفراش معاً.

شاهدت وين يومئ برأسه. كان فريق الادعاء يكسب من مورغان. وعرض بريور صورة لصدر أرييلا بعد الوفاة. بدا أشبه بخمس طلقات نارية لعين غير مدرّبة. ثمة تشققات بيضاوية الشكل في صدرها.

«كان لديك الوقت لفحص السكين التي عُثر عليها في منزل المتهم. ما الذي يمكن أن تخبرينا به عن هذه السكين وهذه الجروح التي تعرّضت لها أرييلا بلوم؟»

«حدثت الجروح بسكين ذات شفرة واحدة، وليست ذات شفرتين. وفي هذه الحالة، يشير الحدّ المسطح لأسفل الجرح إلى سلاح ذي حد واحد. وهذا يتماشى مع السكين التي عُثِرَ عليها. ولو كانت سكيناً ثنائية الشفرة لشكّلت فجوة تشبه الماس. وهنا أيضاً تتماشى السكين مع عمق الجرح».

جلس بريور. وكان لدي ثلاثة أسئلة.

الأول سيجعل فرضيتي بوقوع هجومين منفصلين غير قابلة للنقاش. وسيفتح السؤالان التاليان البابَ أمام مرافعتي الختامية - تورّط رجل الدولار. فعندما راجعت القضية بالأمس، رأيت مزيداً من الأدلة التي تربط جرائم القتل هذه بورقة الدولار. وحان الوقت الآن لتقديم هذه المعلومات.

جلست الطبيبة الشرعية بصبرٍ تنتظر سؤالي الأول. لن تسمح لنفسها بأن تنجذب إلى النظريات. فهي محترفة بما يخص الإدلاء بشهادتها في المحكمة. وكنت أعتمد على ذلك.

«الطبيبة مورغان، لقد شهدت فعلاً أن هناك خمس طعنات في صدر الضحيّة. وهي طعنات متفرّقة. وكما يمكن أن تشاهدي في الصورة، ثمّة جرح واحد وسط الصدر بين الثديين، وجرحان متوازيان أسفل كل ثدي، وجرحان آخران أسفل كل طعنة على جانبي الصدر. خمسة جروح تشكّل تماماً النقاط الخمس للنجم، هل هذا صحيح؟»

تفحّصت مورغان الصورة مجدداً.

«نعم، صحيح»، أجابت مورغان.

انتقلتُ إلى الصورة على الشاشة لتظهر ورقة الدولار المطوية المستخرجة من فم كارل.

«قمت بسحب ورقة الدولار من فم كارل توزر. وعندما فحصت هذه الورقة بعد تصويرها. ظهرت بعض العلامات على الختم الكبير على ظهر الورقة. سهم، وورقة زيتون، لكن ما هي العلامة الأخرى؟»

نظرت إلى الصورة المكبّرة على الشاشة.

أجابت: «النجم».

بدا أن اثنتين من هيئة المحلفين، بيتسي وريتا، مالتا إلى الأمام. سأترك خيالهما يعمل في الوقت الحالي.

«ثمة شيء آخر. كان الجرح القاتل في جمجمة كارل توزر بسبب ضربة قوية كما قلتِ. عندما حدث هذا الجرح، عند نقطة الإصابة، كان من شأنه أن يخلق صوتاً عالياً، أليس كذلك؟»

«من المؤكد تقريباً»، أجابت مورغان.

عدتُ إلى طاولة الدفاع. كنت أبحث عن صورة للضحايا وهما مستلقيان في السرير أحدهما إلى جانب الآخر. لم أكن قد خططت لسؤال آخر، لكن يبدو أن شيئاً كان يجول في مؤخرة ذهني قد تقدم إلى الأمام. تملأ الصورة شاشة جهاز اللابتوب الخاص بي. ها هو. سيكون غير منطقي لهيئة المحلّفين في الوقت الحالي. ومن شأنه أن يربكهم في الواقع، وقد يربك بريور أيضاً، لكنني قررت أن الأمر يستحق المخاطرة.

«ثمة شيء أخير أيتها الطبيبة مورغان»، قلت ذلك وأنا أعرض صور الضحايا في الفراش على الشاشة.

«لقد ذكرتِ أن الموت كان فورياً لكلتا الضحيتين. كانت أرييلا بلوم تضع يدها إلى جانبها وهي مستلقية على ظهرها. بينما كان كارل توزر نائماً على جانبه، مواجهاً لها، ومتكوّراً تقريباً على شكل بجعة. هل من الممكن أن يكون القاتل قد وضع هاتين الضحيتين على هذا الشكل بعد موتهما مباشرة؟»

حدّقت في الصور وقالت: «أعتقد أن ذلك ممكن».

«بالنظر إلى الضحايا هنا، فإن جثة «كارل توزر» تتخذ شكل البجعة، أو يمكن أن تكون على شكل الرقم اثنان؟»

«نعم».

«وأرييلا تتخذ شكل الرقم واحد؟»

«هذا ممكن»، أجابت.

كنت أعرف ذلك. لم يكن ذلك قد لفت انتباهي حتى هذه اللحظة. كان لدى رجل الدولار قضية أخرى ليكملها. أرييلا بلوم، وكارل توزر، وبوبي سولومون،

سيشكّلون نجمته الثانية عشر. لقد وضع الجثث لتبدو كالرقم اثني عشر.

اثنتا عشرة قضية. اثنا عشر بريئاً. عليّ أن أوقف هذا الرجل قبل أن يصبحوا ثلاثة عشر.

نظرت إلى الجزء الخلفي من قاعة المحكمة. وقف ستة من عملاء مكتب التحقيقات الفدرالية في الخلف. وديلاني في المنتصف. هزّت رأسها. لم يحاول أي شخص أن يخرج من القاعة. ليس إلى الآن. فُتحَت أبواب قاعة المحكمة، ودخلت هاربر مع رجل صغير في بدلة رمادية. تحدث الرجل مع ديلاني. دخلت هاربر من الجانب الأيمن للقاعة، ثم وصلت إلى منصّة الدفاع. أخرجت رزمة أوراق من حقيبتها ووضعتها أمامي وهمست: «لقد كنتَ على حق».

الفصل الثالث والخمسون

أبقى كل انتباهه منشداً إلى ردود أفعال زملائه المحلّفين. لقد انطلت عليهم الأدلّة الطبية، وتشرّبوها. البعض فقط بدا مهتماً بفلاين. لكنه تجمّد حين تحدث فلاين عن ورقة الدولار والعلامات عليها. حاول جاهداً أن يخفي انفعالاته كي لا تظهر على مُحيّاه.

هل يمكن بعد مضي هذه السنين كلها أن يعثر عليه أحدهم؟

لقد عرف فلاين ما تعنيه وضعية الضحايا، ورأى لمسته الخاصة في تلك الجرائم كلها. قاوم كين إظهار الكثير من تلك العلامات في معظم الجرائم التي ارتكبها. لكن هذه الجريمة خاصة؛ كان بوبي نجماً. ووصل كين إلى ذروة مقدرته، ويريد التحدي. شخص لا يمكن المساس به؛ نجم سينمائي.

لو أنها فقط لم تمت بتلك السرعة، فكر كين بينه وبين نفسه.

الطعنة الأولى أيقظتها، وأطفأت النور في عينيها بعد لحظة. ونجمتهُ المفضلة. بدأت سكين كين تنقش تلك النجمة على جسدها. يحتاج القتل شيئاً آخر. لقد حدث بسرعة كبيرة، وبسهولة هائلة. بدت راقدة بسلام، مستلقية على سريرها، ويداها إلى جانبها. ثم سحب الرجل إلى الطابق العلوي. الحقيبة التي تغطّي رأس كارل، والموثوقة بشدّة على عنقه، شكّلت عائقاً منَعَ نزف أية قطرة دم في المنزل، كما قال فلاين تماماً. لقد أزال تلك الحقيبة بعد أن وضعه في السرير. ثم أحضر مضرب البيسبول من الممر وغمره بالحقيبة الملوّثة بالدم، ثم وضعه في زاوية غرفة النوم.

كان رقم اثني عشر يشير إلى شيء بارز. ولذلك حرك ساقي جسده بطريقة تتخذ شكل الرقم اثنين. لم تخطر الفكرة في ذهنه طبعاً إلا بعد أن قتل أرييلا. لقد أوشك أن ينهي مهمته. ثمة جزء منه يرغب بأن يعلم أحدهم بذلك. أن يفهم ما يقوم به. شاهد كين فلاين وهو ينظر إلى المرأة في نهاية القاعة. وإلى الرجال الآخرين الواقفين حولها.

مكتب التحقيقات الفيدرالي

لعق كين شفتيه.

أخيراً بدأت المطاردة. لكنها ستكون رحلة طويلة جداً بالنسبة إليهم قبل أن يعثروا على كين. كان رجال التحقيقات الفيدرالية يراقبون الحشد، وليس لجنة المحلّفين.

نظر كين إلى ساعته. وأخذ نفساً عميقاً ليهدئ نفسه.

سوف يكتشفون الجثة الآن. تلك التي تركها لهم في الليلة الماضية بعد أن قام بزيارة مانويل.

لقد بدأت اللعبة مجدداً، وللمرة الأخيرة.

الفصل الرابع والخمسون

كانت خطوة بريور الثانية هي تقييد بوبي على لائحة النائب العام، وتقديمه على أنه كاذب. استدعى جارة، «كِنْ إيغرسون». كان إيغرسون في منتصف الأربعينات من عمره، يرتدي بزّة مع صدّارة تخفي بطنه، وقبّعة مسطحة من الجوخ لم تنجح في إخفاء صلعته. واحد من اثنين ليس سيئاً. أكد إيغرسون أنه كان يعمل في «وول ستريت» وأنه يعود إلى المنزل يوم الخميس في التاسعة مساءً. تعطي زوجته دروساً في اليوغا مساء يوم الخميس، وعليه أن يعود إلى المنزل لأن جليسة الأطفال، الآنسة كوني، يجب أن تغادر في التاسعة، لتستقلّ الحافلة إلى منزلها.

«ما الذي رأيته عندما نزلت من سيارتك؟» سأل بريور.

«رأيت روبرت سولومون. واضحاً ككل شيء آخر. كنت قد أقفلت السيارة واتجهت إلى منزلي عندما سمعت وقع خطوات من الجهة اليسرى. نظرت فرأيته هناك. أنا لم أتحدث معه من قبل، وكنت قد رأيته مرّة أو مرتين وهو ذاهب أو قادم. لوحت بيدي وقلت «مرحباً». فلوّح لي وكان هذا كل شيء. دخلت إلى المنزل، كان الأطفال نياماً، وغادرت جليسة الأطفال بعد ذلك».

«هل أنت واثق من أنه هو ذاته؟» سأل بريور.

«مئة بالمئة؛ إنه مشهور. كنت أشاهده في الأفلام».

«وكيف كنت واثقاً أنها كانت الساعة التاسعة مساءً، عندما دخلت إلى البيت»، قال بريور.

«نهضت عن طاولتي في المكتب في الثامنة والنصف. ركبت سيارتي، وعندما ركنتها نظرت إلى الساعة في لوحة القيادة، كنت متأخراً قليلاً عن الأسبوع المنصرم. دخلت المنزل متأخراً عشر دقائق. لم تكن جليسة الأطفال سعيدة بذلك، وقالت إنها لن تستطيع اللحاق بالحافلة، فأعطيتها خمسين دولاراً أجرة سيارة. تعلم كم من الصعب الحصول على جليسة أطفال جيدة! وحرصت على أن أصل فيما بعد في الموعد المحدد تماماً».

«للمرة الأخيرة يا سيد إيغرسون؛ لأن هذا هام جداً. أريدك أن تعي أهميّة ما تقوله. يقول المتهم إنه عاد إلى المنزل في منتصف الليل. إما أنه كاذب، أو

أنت كاذب. إذا كنت غير واثق من أمر ما، فهذا هو الوقت المناسب لتخبر هيئة المحلفين. سوف أطرح السؤال مجدداً: هل أنت واثق من أنك رأيت روبرت سولومون يدخل منزله في الساعة التاسعة، في ليلة وقوع الجريمة؟» قال بريور.

التفت إيغرسون إلى هيئة المحلّفين هذه المرة، وحدّق بهم مباشرة وقال بثقة كبيرة: «أنا متأكد. رأيته. الساعة التاسعة مساءً. أقسم بحياة أولادي».

«الشاهد لك»، قال بريور وهو سعيد بنفسه. والتف مبتعداً عن القاضي والشاهد، وعاد إلى منصّة الادعاء.

نهضت بسرعة، متجاهلاً الألم الفظيع في جانبي: «انتظر لحظة لو سمحت يا سيد بريور». حاول أن يلتفت وينظر إلى القاضي لكنني أمسكته من يده. توقف، ثم نظر إلي وكزّ على أسنانه. وقبل أن يعترض على الموقف أو يفلت من يدي، أطلقت العنان لسؤالي.

«سيد إيغرسون، كنت تتحدث مع السيد بريور لمدة نصف ساعة. وكان يقف على مسافة عشر أقدام منك، وكان في مرمى بصرك تماماً طوال الوقت. أخبرني ما هو لون ربطة عنق السيد بريور؟» سألته.

حاول بريور أن يتخلّص من قبضتي. لكنني لم أدعه يتحرك. كان ظهره إلى منصّة الشهود.

«أحمر، على ما أظن»، أجاب إيغرسون.

أفلتُ ذراع بريور. ضاقت عيناه بينما كان يغلق أزرار سترته فوق ربطة عنقه الزهرية، قبل أن يجلس في مكانه على منصّة الادعاء.

«يا إلهي، اعتقدت أنها حمراء، لقد أخطأت»، قال إيغرسون.

«رخيص. أحمر رخيص»، قال بريور.

التفتُ إلى المدعي وقلت: «أنا لا أسأل عن ثمن ربطة العنق، لكن في حال كنت قد دفعت أكثر من خمسين دولاراً ثمناً لها، تأكد حينها أنهم احتالوا عليك».

ملأت القاعة موجة من الضحك.

«سيد إيغرسون، ما هي المدة التي نظرت فيها إلى الرجل في الطريق؟ ثانيتين، وربما ثلاث ثوان، صحيح؟»

«نعم، تقريباً».

كم كان بعيداً عنك؟»

«عشرون قدماً، ربما أكثر بقليل»، أجاب.

«هل يمكن أن نقول ثلاثين قدماً؟

فكّر بالأمر.

«ربما ليس إلى هذا الحد. ربما خمسة وعشرون قدماً، تقريباً».

«وهل كان ذلك في ظلمة الليل؟»

«نعم»، قال إيغرسون.

«كان الرجل الذي رأيته يرتدي نظارات شمسية داكنة، وقبّعة على رأسه. أليس كذلك؟»

«نعم، لكنه كان هو».

«كان هو لأنه ارتدى النوع ذاته من الملابس التي يرتديها روبرت سولومون، وسار باتجاه منزله، أليس كذلك؟»

«كان هو»، قال إيغرسون.

«إذاً، من مسافة خمسة وعشرين قدماً، وفي ظلمة الليل، رأيت رجلاً يرتدي قبعة على رأسه، ويلبس نظارات شمسية. هذا ما رأيته في الواقع، صحيح؟»

«نعم، وكان...»

«لقد كان رجلاً يسير باتجاه المنزل الذي يعيش فيه روبرت سولومون. ولهذا ظننت أنه هو المتهم نفسه. أنا على حق، صحيح؟»

لم يجب إيغرسون. كان يبحث عن الإجابة المناسبة.

«يمكن أن يكون أي شخص آخر، ألا يمكن؟ أنت لم تر وجهه كما ينبغي؟»

«لم أر وجهه كما ينبغي، لكنني أعرف أنه هو»، قال إيغرسون بشكل حاسم.

ما إن سألت سؤالي الأخير حتى استدرت باتجاه هيئة المحلّفين.

«هل كان يرتدي ربطة عنق؟» سألته.

ضحك أعضاء الهيئة. الجميع باستثناء أليك وين.

لم يُجب إيغرسون.

«لا مزيد من الأسئلة. أرجو استدعاء الشاهد تود كيني»، قال بريور.

غادر إيغرسون المنصّة محني الرأس. ولم يبالِ بريور بالأمر، كان هذا أسلوبه. إذ إن أي محامي ادعاء آخر سيمضي فترة الصباح كلها مع شخص مثل إيغرسون. لكن ليس بريور. إنه يلقي الشهود كما لو أنه يقذف كرات البيسبول. وإذا لم يُعجب أعضاء الهيئة بأحد الشهود، سيكون هنا شاهد آخر بعده مباشرة. إن الشهادات الكثيرة المتلاحقة تُعتبر تكتيكاً خطيراً. من جهة أولى، تحافظ على بساطة القضية، ومن جهة أخرى تحرّك المحاكمة بسرعة، وتضمن بقاء أعضاء الهيئة متأهبين.

كان كيني شاباً بشكل يدعو للدهشة. ارتدى قميصاً أبيض وربطة عنق، وسروال جينز أزرق وسترة زرقاء، وبدت ملابسه كلها أصغر بمقاسين من حجمه الطبيعي. حتى ربطة عنقه لم تصل إلى خصره. كان شاباً مولعاً بالموضة. وقد ضيّع نفسه بالعمل كتقني. كان يمكن أن يكون عميلاً سرياً رائعاً.

نهض بريور على قدميه. وكانت قدمه اليمنى تنقر على الأرضية. وكنت أقترب منه عندما لاحظت أن ياقة قميصه تضغط على رقبته. قررت حينها أن أزيد توتره.

عند عودتي إلى المنصّة وقفت وهمست في إذنه.

«أعتذر بشأن ربطة العنق، كانت محاولة سخيفة».

سمعت وقع خطوات كيني وهو يقترب.

«هذا لن يحافظ على موكلك. وإذا تعرضتَ لي مرة أخرى سأحطّم وجهك»، قال بريور وهو يبتسم للقاضي.

«أعدك، لن أتعرض لك مرة أخرى»، ثم ابتعدت عن بريور لأقف مباشرة بطريق كيني. تعثّر في خطواته وكاد يسقط، فأسندته وقلت:

«يا إلهي، أنا آسف!».

لم يلفظ أية كلمة. لكنه هزّ رأسه وشق طريقه إلى منصّة الشهود. جلست في مكاني على منصّة الدفاع وتركت بريور يقوم بعمله. بعد أن أدّى الشاهد القسم، تحدث بريور عن مؤهلاته وخبرته كتقني في المخبر الجنائي، وفحص الحمض النووي. لم يستغرق الكثير من الوقت، وتركت الأمور تسير. كنت أنتظر بريور ليصل إلى لبّ القضية.

«هل فحصت ورقة الدولار التي عُثِرَ عليها في فم كارل توزر؟» قال بريور وهو يعرض صورة الدولار المطوي على شكل فراشة.

«نعم، لقد احتفظ بها الخبير الطبي. في البداية، تفحصت البصمات التي كانت عليها. كانت بصمة إبهام واضحة جداً. ثم قمت بالفحص الثاني من أجل الحمض النووي. وأخذت أيضاً عينات من المنطقة السطحية المحيطة بالبصمة، وعن باقي الورقة».

«إلى أي شيء أفضى تحليل البصمات؟»

«تمت المقارنة مع البصمات المأخوذة للمتهم. وكان بصمة الإبهام اليميني للمتهم مطابقة تماماً، كان هناك تطابق في اثني عشر جزءاً مع البصمة الموجودة على الدولار».

راقب بريور أعضاء الهيئة بينما كان كيني يجيب على السؤال. فهم البعض المعنى، والبعض لا.

«ما الذي تعنيه بالتطابق الكامل؛ باثني عشر جزءاً مطابقاً من البصمة؟» سأل بريور.

فكّر بكيفية الشرح لكنه حافظ على البساطة العلمية.

«لكل إنسان بصمة خاصة تميزه عن باقي البشر. وبصمة الإصبع هي عبارة عن نموذج تشكّله الطبقة الخارجية للجلد، ويبدو كحواف نافرة على الأصابع. إن أجهزتنا تختبر تلك الحواف، وتقسّمها إلى اثني عشر جزءاً. وبشكل عام، من المقبول كحقيقة علمية أن تطابق اثني عشر جزءاً يعني أن البصمتين متطابقتان»، قال كيني ببطء محاولاً جعل أعضاء الهيئة يفهمون ما يقوله.

«هل يمكن أن يكون التطابق في هذه البصمة خادعاً؟» سأل بريور. كان يحاول أن يقطع طرق هجومي واحداً تلو الآخر.

«أبداً، مستحيل. لقد أجريت الاختبار بنفسي. بالإضافة إلى ذلك، أثبت الحمض النووي المأخوذ من المنطقة المحيطة بالإبهام أنه يعود للمتهم»، قال كيني.

«كيف تعرف ذلك؟»

«مجدداً، لقد أجريت الاختبار بنفسي. حصلت على عيّنة حمض نووي من داخل وجنة المتهم. ثم أجرينا الاختبار عليها وحصلنا على صورة كاملة عن الحمض النووي للمتهم. كانت هذه الصورة، والاحتمال الرياضي للخطأ هو واحد في كل مليار، مطابقة لصورة الحمض النووي المأخوذ عن ورقة الدولار».

كان كيني خبيراً جيداً. لكنه كان ساذجاً في الشرح لهيئة المحلّفين.

«ما الذي تعنيه بالاحتمال الرياضي للخطأ هو واحد في كل مليار؟»

«أعني أن الحمض النووي الموجود على الدولار كان مطابقاً للحمض النووي للمتهم، وإذا أجرينا هذا الفحص على مليار شخص في الكون، ربما نحصل على تطابق واحد آخر».

«إذاً من المرجّح أن الحمض النووي على الدولار عائد للمتهم؟»

أستطيع القول، وبدرجة عالية من التأكيد، أن الحمض النووي الموجود على الورقة يعود للمتهم».

«شكراً لك، وابق في مكانك من فضلك. ربما يريد السيد فلاين أن يطرح بعض الأسئلة»، قال بريور.

لم يكن لديّ أسئلة، بل كان لدي الكثير من الأسئلة. ومع ذلك، ليست أسئلة كثيرة تلك التي يمكن أن أطرحها على كيني. نظرت إلى بوبي، بدا كمن دهسته شاحنة. لقد أخبره رودي عن هذا الدليل، لكن سماعه في قاعة المحكمة، وأمام اثني عشر شخصاً موجودين ليحكموا عليك أمر مدمّر تماماً. سكبت له القليل من الماء. ارتعشت يده عندما قرّب الكأس من فمه. كان يعرف قوة شهادة كيني. لقد كان ممثلاً، وقد شعر بالتحوّل الحاصل لدى الحشد.

لم يكن الأمر يحتمل وجهاً آخر. شهادة كيني أصابت بوبي في الصميم. لقد قبلتُ بهذه القضية لأمزّق أمثال كيني. كنت أعرف منذ البداية أنه ليس لدينا ما يكفي من الأدلّة لمواجهة ذلك. تنهار القضية كلها أمام شهادة كهذه.

في المحاكمات الجنائية، يُعتبر دليل الطب الشرعي أمراً إلهياً.

لكنني محامي دفاع. جلبت الشيطان إلى جانبي، وهو لا يلعب بعدل.

فعلت ما بوسعي لأبدو واثقاً عندما خطوت باتجاه منصّة الشهود. واستطعت أن أشعر بعيون أعضاء الهيئة متجهة نحوي. ومن زاوية عيني، رأيت أليك وين يعقد ذراعيه. لقد انتهى الأمر، ولن يهتم بأي سؤال أسأله، لقد اتخذ قراره.

قلت: «سيد كيني، قبل أن تدلي بشهادتك، أقسمت أن تقول الحقيقة. هل تسمح بأن تمسك الكتاب المقدّس الذي أمامك للحظة».

سمعت صوت احتكاك كرسيّ بريور على الأرضية بينما كان يدفعها إلى الخلف بعنف. تخيّلته يعقد ذراعيه بينما تعلو محياه ابتسامة توحي باعتداده بنفسه. كان يعلم أن الطريقة الوحيدة للهجوم على كيني هي بالتشكيك. إذا أثبتُّ أنه كاذب، أحققُ هدفاً. لكن بريور قد أعدّه لمثل هذه المواجهة.

التزم بما يقوله العلم- النتائج لا تكذب.

تناول الكتاب المقدّس بيده اليمنى ونظر إلى بريور بقلق. نعم، لقد تم إعداد كيني لهذا النوع من الهجوم؛ كان مستعداً. وعرفت ذلك أيضاً، وخططت له. لم أسأله ما إذا كان مخادعاً، ولم أذكّره بقسمه أو أتهمه بالكذب، بل صلّيت لأن يقول الحقيقة.

«سيد كيني، ضع الكتاب المقدّس من يدك لو سمحت»، قلت.

قطّب كيني جبينه. وهدرت كرسي بريور مجدداً، وعرفت أنه كان يعدّل جلسته ويقترب من الطاولة ليدوّن بعض الملاحظات. لم يكن قد خطط لذلك.

التقطت الكتاب المقدّس، وقرّبته من صدري بيدي كلتيهما، ووجهته إلى هيئة المحلّفين. لا بدّ أن يروا ذلك.

«سيد كيني، أدلى العديد من الشهود بقسمهم اليوم بعد أن أمسكوا الكتاب المقدّس هذا. وأقسمت أنت أيضاً. وهو الآن بيدي. أخبرني الآن، إذا كان عليك أن تجري فحصاً على هذا الكتاب المقدّس الآن، فمن المرجّح أن تجد البصمات والأحماض النووية لجميع الشهود الذين مرّوا على هذه المحكمة اليوم، صحيح؟»

«صحيح. سيكون عليه بعض البصمات، وربما توجد أجزاء بصمات من شهود سابقين إذا لم تمحوها بصماتنا. وسوف نحصل على الحمض النووي لكل منهم. وبصماتك وحمضك النووي أيضاً يا سيد فلاين»، أجاب كيني.

«أوافقك الرأي. ومن الكاتبة أيضاً، ومن شهود البارحة، ومن أي شخص لمس هذا الكتاب، صحيح؟»

«نعم»

كان لدى كيني معرفة محدودة بالهدف الذي أريد أن أصل إليه. بدأ يتحدث بهدوء، ويعطي إجابات قصيرة مختصرة.

«إذا قمت بفحص هذا الكتاب ورأيت حمضي النووي فقط، فسيبدو الأمر غير طبيعي، أليس كذلك؟»

بدا الاهتمام واضحاً على بعض أعضاء الهيئة. ريتا فيست، أخصائية علم نفس الأطفال، بيتسي مولر مدرّبة الكاراتيه في عطل نهاية الأسبوع، وبرادلي سومرز العجوز اللطيف، والشيف تيري أندروز، كانوا جميعاً يُصغون باهتمام لما يدور بيني وبين كيني. باستثناء أليك وين الذي بقي عاقداً ذراعيه، ومقتنعاً بنتائج الطب الشرعي فقط. لكن كان لدي العديد من الأسئلة التي قد تغيّر قناعته.

فكّر كيني كثيراً بهذا السؤال. وأخيراً أجاب.

«ربما».

دخلت مرحلة الهجوم الكامل. لم يعد هناك مجال للتراجع الآن.

«أحد المبررات التي قد تجعلك لا تجد أي حمض نووي آخر على الكتاب المقدّس، غير الحمض النووي الخاص بي، هو أن يقوم أحدهم بتنظيف غلافه، أليس صحيحاً؟»

«نعم».

أعدت الكتاب المقدّس إلى مكانه على منصّة الشهود وركّزت على كيني. حان الوقت للمعركة.

«سيد كيني، ورقة دولار تم تداولها في الولايات المتحدة عدة سنوات، يرجّح أنها تحمل مئات، إذا لم نقل ألاف، البصمات والأحماض النووية. موظفو بنوك، محاسبو متاجر، مواطنون عاديون، أو أي شخص آخر يعيش هنا ويتعامل بالمال. ألا توافقني الرأي؟»

«هذا ممكن بالتأكيد، نعم»، أجاب.

«بالله عليك يا سيد كيني، إنه أكثر ترجيحاً منه، أليس كذلك؟»

«على الأرجح، نعم»، قال ذلك والتردد واضح في كل مقطع يلفظه.

«الدولار الذي كان في فم كارل توزر يحمل الحمض النووي له وللمتهم ولشخص آخر، أليس كذلك؟»

«نعم».

«الحمض النووي الثالث يتطابق مع رجل يُدعى ريتشارد بينا، وهو شخص حُكِمَ عليه بالإعدام في ولاية أخرى قبل أن تتم طباعة هذه الورقة، صحيح؟»

هذا ما كان ينتظره.

«أنا مقتنع تماماً أن هذا الحمض غير طبيعي. هو لم يكن موجوداً بالقوة التي وجد فيها حمض المتهم، ويمكن أن يكون قد أتى من أحد أقرباء السيد بينا. لقد تفحّصت سجلات المختبر، وبقدر ما استطعت أن أرى، فإن حمض بينا النووي لم يغادر ولايته. ولم يكن في مختبرنا أبداً، وبالتالي فمن غير الممكن

وجود وسيلة للاتصال. لا بدّ أن يكون الحمض النووي عائداً إلى دم أحد أقربائه».

هذا ممكن. هل تعرف أن ريتشارد بينا كان مُداناً بجرائم متعددة، وتم العثور على كل ضحية من ضحاياه مع ورقة دولار محشوّة في حمالات صدر الضحية، وكان حمضه النووي على تلك الدولارات؟»

سمعت أعضاء الهيئة يتمتمون، ثم انتشر الضجيج ببطء بين الحشد. لا أريد الآن سوى أن أغرس بذرة، سأجعل الشجرة تنمو لاحقاً.

«لا، لم أكن على علم بذلك»، قال كيني.

بالعودة إلى هذه القضية. ما زلنا إلى الآن لا نعلم لماذا لا يوجد أي أثر لحمض نووي آخر على ذلك الدولار الذي عُثِر عليه في فم كارل توزر. لكننا نعلم أن السيد بينا لم يلمسه، ونعلم أن هذا الدولار قد خضع للتداول عدة سنوات. والحقيقة أن أحدهم مسح الحمض النووي كله عنه قبل أن يمسّه المتهم. هذا هو التفسير الوحيد، أليس كذلك؟»

«لا أوافق على هذا التفسير».

«السبب الذي قام من أجله بمسح أي أثر لحمض نووي آخر على الدولار هو الإبقاء على بصمات المتهم وحدها عليه، وليتم رفعها لاحقاً، وتتوصل المحكمة إلى إدانة السيد سولومون بارتكاب الجريمة».

هزّ كيني رأسه نافياً.

«لكن هذا لا يفسّر لنا كيف وصلت بصمات المتهم إلى الدولار»، قال كيني بعجرفة.

«أستطيع مساعدتك بذلك. يمكن لأحدهم أن يتمكّن من جعله يلمس ذلك الدولار دون أن يدرك أهمية ذلك التصرّف. ثم يستعيده منه ويضعه في فم كارل توزر».

هزّ كيني رأسه هازئاً من الفكرة. «لا يمكن لهذا أن يحدث».

التفتُّ إلى هيئة المحلّفين وقلت: «سيد كيني، هلا بحثت في الجيب اليساري لسترتك».

زفر الهواء من أنفه مستغرباً، ودسّ يده في جيبه. التقط منها ورقة دولار ورفعها ونظرة ذعر كبير تعلو محياه.

«لم أكن أملك ورقة دولار في جيب سترتي هذا الصباح»، قال كيني.

«هذا صحيح بالطبع، أنا وضعتها لك. والآن أصبح حمضك النووي عليها». أخذت منديلاً من جيبي، واقتربت منه وأخذت الدولار من يده بالمنديل.

«الأمر أسهل مما تتصوّر، أليس كذلك؟» قلت له.

عدت إلى مكاني وصوت بريور يرنّ في أذني. كان يشتكي لهاري، ووافقه على اعتراضه.

لا يهم. لقد رأى أعضاء الهيئة ذلك. يفكّر بعضهم الآن بالأمر، ويستفسرون عن أهمية دليل الحمض النووي. إذا أصبح بعضهم غير واثق بالأدلة، فقد كانت ضربة موفّقة.

الفصل الخامس والخمسون

عاد فلاين إلى مكان، ونزل تودي كيني عن منصّة الشهود. أعلن القاضي وقت استراحة الغداء، وكان كين بحاجة ماسة لها؛ فقد شعر أن وجهه يوشك أن يتشقق إذا استمرّت الجلسة فترة أطول. أخلى هو ورفاقه القاعة، وكان فكّه يؤلمه بسبب الضغط المستمرّ على أسنانه، وقد شعر بطعم الدم في فمه. ليس هناك الكثير من الدم لكنه استطاع أن يشعر بمذاقه. مسح فمه بمنديل فوجد أثر اللون الأحمر. لا بدّ أنه عضّ فمه من الداخل في سورة غضبه، وهو لم يشعر به طبعاً.

«هو لم يتصرّف بدافع الكراهية حتى في أقصى لحظات شغفه. فعندما يستخدم السكين ببراعة، أو يشعر بحنجرة تُغلق تحت ضغط أصابعه، ويظهر الخوف والألم على وجوه ضحاياه، هذا ما يمنحه اللذة. لم تكن الكراهية بارزة في عمله.

كان كله من أجل المتعة.

بإنصاته إلى فلاين، بدأت تجيش بداخله تلك المشاعر القديمة المعروفة. لقد كره أشياء كثيرة: الأكاذيب الصادرة عن وسائل الإعلام، فكرة أن بمقدور البشر أن يطوّروا أنفسهم، والأكثر من ذلك أولئك الذين ابتسم لهم الحظّ وأصبحوا قادرين على تغيير حياتهم. لم يكن محظوظاً أبداً، ولم تكن والدته محظوظة أيضاً. الكراهية كانت جزءاً من ذلك. والانتقام ربما. غالباً ما كان يشعر بالشفقة؛ الشفقة على تلك الأرواح المسكينة التي اعتقدت أن بإمكان المال أو العائلة، أو الفرص، أو حتى الحبّ يمكن أن يغير أي شيء. كان ذلك كله كذباً. وبالنسبة لكين، كان ذلك الكذبة الأمريكية الكبرى.

هو يعرف الحقيقة. لا وجود للحلم، ولا وجود للتغيير. هناك الألم وحسب. هو لم يشعر بلسعته، لكن عرفه مع ذلك. لقد شاهده في كثير من الوجوه.

جلس أعضاء الهيئة حول الطاولة الكبيرة في غرفة المحلّفين، ودخل الشرطي ومعه كميات من الشطائر والمشروبات. فتح كين غطاء علبة الكولا، وراقب أحد أفراد الشرطة وهو يعدّ النقود ويضعها مع الفاتورة. لقد خرج ليشتري الوجبات لأعضاء الهيئة من النقود التي أعطاها له الموظف المسؤول. كان قد شاهد ذلك من قبل. أقسم الشرطي وقال: «أكون وغداً إذا كنت سأدفع

البقشيش». وضع الشرطي ملاحظة على الفاتورة، ووضع فيها دولاراً وبعض الفكّة، ثم لفّها.

أخذ كين يستعيد مشهداً صادفه منذ سنة. كان مستلقياً على الرصيف البارد، مرتدياً ملابس رثّة قذرة، وقبّعة عثر عليها في القمامة. كان ذلك شكله كمتشرّد. وكان ذلك مُجدياً لأن قلّة من سكان نيويورك يعطون انتباهاً للمشرّدين. سار خلف رجل والقذارة تعلو وجهه، وكان عدم وجود المال والطعام جزءاً من الحياة اليومية في نيويورك. يلقي البعض بقطع النقود المعدنية، والبعض لا. وكانت تلك طريقة مثالية لتراقب أحدهم. وعلى العكس من مراقبة نظام بريد المحكمة، يحتاج التنكّر بهيئة شخص مشرّد إلى بضعة أيام فقط. وكان ذلك في حيّ راقٍ. لقد اختار موقعاً في ناصية غربي شارع «٨٨». على بعد خمسمئة ياردة من منزل روبرت سولومون. وفي اليوم الثالث، مرّ سولومون بجانبه حاملاً كمبيوتراً لوحياً وسماعات أذن. فجرجر كين ساقيه وسار خلفه.

«أعطني دولاراً واحداً يا صديقي؟» قال كين.

دسّ سولومون يده في جيبه وأخرج قطعتين من فئة الدولار وأعطاهما لكين. وقبل أن يأخذهما من يده خزّن في ذاكرته موقع أصابع سولومون على الدولار. الدولار العلوي منهما يحتفظ ببصمة جيدة من إصبعه على وجه جورج واشنطن. مدّ كوب قهوة فارغ، فوضع سولومون الدولارين في الكوب. سوف ينظّف الدولار لاحقاً بسائل مضاد للبكتريا، ويحافظ على بصمة سولومون عليه.

أمر بسيط جداً، وسهل جداً. حالما ابتعد سولومون، أغلق كين غطاء الكوب ومضى في طريقه.

كانت تلك بداية مهمته الخاصة.

تناول كين قضمة من شطيرته وراقب رفاقه وهم يتناولون شطائرهم. نظر إلى ساعته.

قريباً سيحدث ذلك، كان واثقاً تماماً. هو لا يستطيع إتمام المهمة من دون مساعدة. لذا يحتاج مساعدة من صديق؛ إنه شخص غامض أيضاً سمحَ له بالاشتراك بقضيته. وقد أثبت جدارته.

ما كان باستطاعة كين أن يصل إلى هذا الحد دون أن يكون هذا الرجل إلى جانبه.

الفصل السادس والخمسون

«سيجدون أنني مذنب، أليس كذلك؟» قال بوبي.

«لم نهزم بعد يا بوبي. مازال لدينا بعض المفاجآت،» قلت له.

«أنت بريء يا بوبي. لا بد أن ترى هيئة المحلفين ذلك»، قال هولتن.

جلس بوبي في غرفة المداولات دون أن يمسّ طعامه. كان هولتن قد خرج لإحضار بعض الشطائر. لم تكن لدي رغبة بتناول الطعام أيضاً. لقد سدد كيني ضربة قوية لقضية بوبي. ولن ينجو إذا تلقّى ضربة أخرى. كان لدى بريور شاهدان آخران: خبير الكاميرات الذي عاين كاميرا المراقبة في منزل بوبي، والمراسل الصحفي بول بينيتيو. شكراً لهاربر، إذ لدي نقطة قوية ضد شهادة خبير الكاميرات، أما من جهة المراسل الصحفي، فلم يكن هناك ما يستدعي القلق. كل ما ذكره أن بوبي وأرييلا لم يكونا على وفاق.

كانا متزوّجين. وهذا لا يعني أنه قتلها.

«كنت قد تحدثت مع العميل الذي أحضرته هاربر، الشاب ذو البزّة الرمادية. كان خبير اتصالات رقمية في مكتب التحقيقات الفيدرالية، وكان صارماً جداً كالبزّة التي يرتديها. شاب، لكن لديه خبرة كبيرة، وقد قدّمته هاربر باسم «أنجل توريس». لقد أخبرني عما وجده خلال زيارته لمنزل بوبي هذا اليوم. صحيح أن ذلك لم يشكل ضربة ثقيلة لقضية الادعاء، لكنه سيساعد بالتأكيد.

«وهل رآكما الشرطي وأنتما تعملان في مسرح الجريمة؟» سألت الخبير.

«كلا»، أجابت هاربر، «كان من مشجّعي فريق نيكس، وهكذا بقيت أحدثه في غرفة المعيشة. لم يهتم بما كنا نفعله. كان جل اهتمامه منصباً على النقاط المسجّلة في المباراة. أظهر توريس بطاقته الفيدرالية، وبدا الشرطي مرتاحاً».

«لم يأخذ الكثير من الوقت على أية حال. دخلنا إلى المكان وخرجنا خلال خمس دقائق»، قال توريس.

«رائع»، قلت له.

وقف كلٌ من هولتن وتوريس وهاربر أثناء تناولهم الشطائر. وتناولت أنا المزيد من المسكّنات مع القليل من الصودا.

دخلت ديلاني إلى غرفة المداولات ومعها مجموعة من الملفات.

«كيف تسير الأمور مع هيئة المحلّفين؟» قالت ديلاني.

نظر بوبي إلي منتظراً إجابة أكثر إيجابية.

«تقرير الحمض النووي أضرّ بنا، لكننا كنا نتوقع ذلك. ربما استطعت تخفيف الضربة. علينا أن ننتظر ونرى. اصمد يا بوبي. لم ينتهِ الأمر بعد».

«هل أخبرت إيدي عن أعضاء هيئة المحلفين؟» قالت ديلاني.

«كنت أوشك أن أخبره»، قالت هاربر. بعد أن غادرت منزل بوبي أنا وتوريس، عدنا إلى مبنى مكتب التحقيقات الفيدرالية. وعندما كنت أقلّب مجموعة من المقالات الصحفية التي جمعها الفيدراليون من الصحف المحلية. وقعت عيني على قصّتين؛ الأولى أكثر أهمية من الثانية. فعلى ما يبدو أن تلك السيدة أصيبت بطلقات نارية خلال عملية سطو مسلّح. كانت ضمن هيئة المحلّفين في قضيّة بينا».

أظهرت لي المقال على هاتفها.

كانت السيدة في أوائل الستينات، وتدعى روزياني واغباش. وتعمل في متجر أدوات مستعملة في تشابل هيل، ولاية نورث كارولينا. اقتحم المتجر لصوص مسلحّون، وأطلقوا النار في وجهها. لم يُسرق الكثير من المتجر، لكن اللصوص المسلحين سرقوا محتويات صندوق النقود، وإناء جمع التبرّعات. وزعم صاحب المتجر أنهم خرجوا بمبلغ لا يزيد عن مئة دولار. وقد ركّز المقال على فكرة محددة هي ارتكاب العنف وسلب أحدهم حياته كان من أجل ماذا؟ مئة دولار وبعض الفكّة!.

«هل تستطيع أن تقول لي ما الغريب في الأمر؟ انظر إلى الصورة»، قالت هاربر.

«ثمة صورة للشارع والمتجر مُقفل. وشريط مسرح الجريمة أمام الواجهة».

عرفت تماماً ما هو الغريب؛ إذ يوجد بجوار متجر المعدّات المستعملة متجر يحمل لافتة «سفن إيليفن». وجاره من الناحية الأخرى هو متجر للخمور. وبعده تماماً يوجد بنك «سمول تاون» المحلي.

«لم تكن تلك عملية سرقة. كان اعتداء»، قلت لها.

«هذا ما ظننته، فمتجر المعدات المستعملة لا يحوي الكثير من المال. ولا قيمة تذكر لمحتوياته كلها. وإذا كنت أنوي سرقة متجر ما في هذا الشارع، فسوف أختار متجر «سفن إيليفن». إذ يكون صاحب متجر الخمور مسلّحاً على الأرجح، وتكون للبنك حراسة مشددة، لكن حراسة متجر «سفن إيليفن» بسيطة جداً. ربما مضرب بيسبول فقط. ليس من المرجّح أن يعمل موظّف في هذا المتجر، ويكون قوياً. من سيقوم بمغامرة كهذه لسرقة القليل من المال؟ سوف يحملون من هذا المتجر كمية من المال أكبر بكثير مما يأخذونه من متجر مواد مستعملة».

«ماذا عن القضية الثانية»، سألت هاربر.

«لم أحضر المقال معي. كانت إعلاناً في صحيفة «ويلمينغتون ستاندرد». بعد أن تمت إدانة «بيت تيمسون» في قضية «ديريك هاس»، فُقد أحد أعضاء الهيئة. ليس لديه عائلة، لكن لديه عمل. لم يأتِ إلى العمل بعد المحاكمة، وقلق المدير بشأنه. اتصل بالشرطة ثم قام بنشر إعلان. ومنذ أن غادر قاعة المحلّفين، لم يظهر هذا الشاب أبداً».

هدأ الألم الذي كنت أشعر به في أضلاعي، وحلّت محله وحشة غريبة في صدري، وحرقة في حلقي. لقد كانت نظرية ديلاني عن الدولار صحيحة تماماً. نحن لم نرَ سوى نصفها فقط. استرخيت قليلاً على مقعدي، وأغلقت عيني وأخذت أدلّك الكدمة في مؤخرة رأسي. كنت بحاجة إلى صدمة ألم.

منذ بداية هذه القضية، كانت هذه المرة الأولى التي شعرت فيها بالخوف. كان رجل الدولار أكثر تعقيداً بكثير مما تخيّلنا يوماً.

«كنا نبحث بالاتجاه الخاطئ طوال هذه المدة. إن جميع من ورّطهم بجرائمه تمت إدانتهم، كل واحد منهم دون استثناء. يمكن للمحاكمة أن تسير دوماً بالاتجاه الآخر، حتى مع الطب الشرعي. كيف استطاع الوثوق من تحقيق إداناته؟ التخطيط للأدلة ليس كافياً بالنسبة لهذا الرجل. رجل الدولار هذا لا يراقب هذه المحاكمات من مكان آمن بين الجمهور وحسب، بل كان في هيئة المحلّفين. يبدو الأمر كما قال هاري - لدينا هيئة محلّفين أوغاد».

«ماذا؟» قالت هاربر وديلاني في اللحظة ذاتها.

نظر بوبي وهولتن أحدهما إلى الآخر فاغرا الفم.

«تدبّر أمره بطريقة ما ليكون في هيئة المحلفين. المحلّف في جريمة قتل «ديريك هاس» - أعتقد أنه لم يظهر في العمل بعد المحاكمة لأنه كان ميتاً سلفاً، وربما منذ فترة طويلة. قبل المحاكمة بأسبوع على الأقل؛ لقد أخذ مكانه. دهس بريندا كوالسكي في الطريق، وبطريقة ما، خنق مانويل أورتيغا، وأطلق النار على عضو الهيئة العجوز في قضية بينا. لقد تخلّص منهم لأنهم لن يصوّتوا كما يريد».

«إنه يقتل عضو الهيئة قبل انتقاء الأعضاء وينتحل شخصيته، لا يوجد سوى هذا التفسير. لهذا السبب، اختفى عضو الهيئة بعد انتهاء المحاكمة»، قالت ديلاني ببرود. كان إدراكها للأمر بمثابة ريح باردة لسعت وجهها.

«كيف يعرف من هم الأعضاء المرشّحون؟» قالت هاربر.

«ربما تعقّب بريد المحكمة؟ أو مكاتب المحامين؟ أو مكتب النائب العام، أو دخل إلى غرفة البريد بطريقة ما؟» قال هولتن.

«هذا جنون»، قالت هاربر.

«لا، هذا رجل الدولار»، قالت ديلاني، «لقد أخبرتكما سلفاً. هذا الرجل ذكي جداً؛ ربما كان أذكى شخص قابلناه يوماً. نحتاج إلى قائمة بكل محلّف دخل إلى تلك القضايا كلها. نستطيع أن نتحرّى عن هوياتهم من قاعدة بيانات رخص قيادة السيارات، أو جوازات السفر، وكل قاعدة بيانات يمكننا الوصول إليها. هو يستطيع تغيير مظهره بشكل كبير وحسب. لنبدأ مع عضو الهيئة الذي فُقِدَ بعد قضية هاس. سوف نقبض على هذا الرجل. سوف أشهد يا إيدي، سأفعل كل ما هو ضروري»، قالت ديلاني.

وضعنا خطة. سنراقب أعضاء الهيئة هذه المرة. لكن ثمّة مخاطرة.

«بوبي، إذا سارت الأمور كما ينبغي، سيكون بمقدورنا أن نعيد المحاكمة، هذا ما نهدف إليه الآن. وهذا يعني أن يوضع كل شيء قيد الانتظار. تستطيع ديلاني أن تراقب المحلّفين، وتتعقبهم حتى يتسنى لنا معرفة هوية القاتل. علينا إيقاف هذه المحاكمة؛ لا أستطيع أن أترك هذه القضية بين أيدي هيئة المحلّفين، وخاصة إذا كان القاتل جالساً بينهم. لكن عليك أن تعرف أنني ربما

لا أنجح. لدينا نظرية. وليس لدينا دليل. إذا رفض القاضي أن يؤجل القضية، ستكون هناك فرصة لبريور ليقلب الطاولة علينا».

«ما الذي تعنيه؟» قال بوبي.

«في حال ادعينا أن هناك قاتلاً متسلسلاً يجلس بين أعضاء الهيئة، ونحن لا نعرفه حتى الآن، سيعتبر أعضاء الهيئة أننا اتهمناهم بهذه الجريمة، وسيعتبر كلٌ منهم الأمر شخصياً. وبالتالي سيحكمون بأنك مذنب. إذا حاولنا بهذه الطريقة ولم ننجح، ولم نقبض على هذا الرجل، قد ينتهي الأمر بك في السجن لبقية حياتك».

أحببت بوبي. مع كل المال والشهرة، لم يتغير كثيراً عن ذلك الشاب الريفي الذي ترك منزله، آخذاً معه ما أعطاه والده من مدخرات. إن لديه عيوبه بالتأكيد، مثلنا جميعاً. لكنه لم يأتِ إلينا بسيارة البنتلي الفارهة، وليس لديه عشرة خدم يجرون خلفه كالأذناب ليُظهر لنا مدى أهميته وانشغاله. لقد عرف في سنّ مبكرة ماذا يريد أن يصبح عليه. وتبع أحلامه، ووقع في الحب، ثم جعل الحلم حقيقة. أما الآن، فهو الشاب الحزين على حبّه الضائع. ولا يمكن للشهرة أو أي مبلغ من المال أن يغيّر ذلك.

«قتل هذا الرجل أرييلا وكارل، وكل أولئك الناس الآخرين. أريدك أن تقبض عليه، افعل ما عليك فعله ولا تقلق بشأني. أنا واثق من نجاحك»، قال بوبي.

«لا بدّ أن هناك طريقة أخرى»، قال هولتن.

لا أريد أن أضع بوبي في مخاطرة أيضاً. حتى ذلك الحين، لم أستطع التفكير بخطة أخرى. كنت أعرف أنني فقدت شيئاً ما، إن الحمض النووي قد أزعجني منذ البداية. بحق الجحيم، كيف يمكن أن يصل الحمض النووي لشخص ميت إلى ورقة دولار؟

هذا مستحيل!

ما إن ومضت تلك الفكرة بذهني حتى فهمت تماماً كيف وصل حمض بينا النووي إلى ورقة الدولار التي كانت في فم كارل. أعطيت ديلاني قائمة قصيرة بالأشياء التي ستتحرّى عنها. كان رجل الدولار ذكياً بشكل لا يوصف.

لكن ما من شخص كامل.

الفصل السابع والخمسون

شبك كين أصابعه فوق بطنه، وتنفّس ببطء، واستعدّ لمشاهدة بريور وهو يُمسك بزمام الأمور. لقد تحدث أعضاء الهيئة أثناء استراحة الغداء، همسات هنا وأخرى هناك. إذا كان على أعضاء الهيئة أن يصوّتوا الآن فسوف يصوّت ثلثان على أنه مّذنب. خمّن أن الباقين لم يقرروا بعد لكنهم يميلون للتصويت بمذنب. لقد واجه كين حالات أكثر سوءاً في غرفة المحلّفين.

استدعى بريور شاهده الأول لفترة بعد الظهر. خبير يدعى ويليام، وهو من أجرى الفحص على كاميرا المراقبة التي تتحسس الحركة، والموجودة في منزل سولومون. وأكّد الخبير أنه أخذ الجهاز للفحص، ووجد فيه مقطع فيديو ذا صلة بالجريمة.

بثّت شاشة العرض في المحكمة صورة بالأبيض والأسود للشارع، من كاميرا مثبّته في أعلى باب المدخل الأمامي لمنزل روبرت سولومون. وتظهر في الزاوية السفلية من جهة اليسار ساعة رقمية تشير إلى التاسعة ودقيقة واحدة، وهو الوقت الذي ظهر فيه شخص يرتدي قبّعة، ثم بدا أقرب في المشهد. لم يستطع كين تمييز الوجه. بانت لمحة من ذقن الرجل عندما رفع يده، وأبقى يده مرفوعة.

«ما الذي يفعله هذا الرجل في مقطع الفيديو؟» سأل بريور عندما أوقف المشهد.

«ربما يضع مفتاحه في الباب. هذا ما يبدو عليه من وجهة نظري»، قال ويليام.

«يستمر العرض. ويبقي الرجل ذو القبعة رأسه منخفضاً، كان ينظر إلى شاشة كمبيوتر لوحي. يخرج منه سلك أبيض وتختفي نهايته تحت القبّعة: سماعات أذن. فتح الباب وانتشر الضوء، دخل الرجل إلى المنزل ثم ينتهي المقطع.

«سيد ويليام، ما هي آلية عمل كاميرا المراقبة؟» سأل بريور.

«إنها تعمل بآلية الاستشعار عن بعد. تعمل الكاميرا آلياً عندما تتحسس أية حركة أمامها. لقد فحصت العدسات في المختبر، وتأكدت من أنها تعمل بشكل

ممتاز، كما هو واضح هنا يعمل الحساس على مسافة عشر أقدام. وأية حركة ضمن هذا المجال تؤدي إلى تشغيل الكاميرا».

«يقول المتهم في هذه القضية إنه عاد إلى منزله في منتصف الليل. وأنه لم يلتقِ بجاره في الساعة التاسعة مساءً. ما رأيك بهذا الادعاء؟»

«غير ممكن. لقد صوّرته الكاميرا في تمام الساعة التاسعة ودقيقة واحدة مساءً. يبدو مشابهاً لبوبي سولومون، ويستخدم مفتاح الباب الأمامي ليدخل إلى منزله. لقد بحثت في النظام، وليس هناك أي مقطع فيديو آخر بعد هذا».

جلس بريور، بينما راقب كين المحامي فلاين وهو ينهض على قدميه. وقبل أن يبدأ فلاين، تشتت انتباه كين. نظر إلى اليسار باتجاه مصدر الصوت فرأى أبواب قاعة المحكمة تُفتح، ثم يدخل محققان من شرطة نيويورك. كان أحدهما مايك أندرسون، ولا تزال الجبيرة بيده. والآخر كان رجلاً أكبر سناً ذا شعر أسود رمادي أملس، توقّع كين أن يكون شريك أندرسون. وقف كلاهما في القسم الخلفي من القاعة.

حوّل كين نظره نحو فلاين مجدداً وأخذ يفكّر بسكاكينه. تخيّل فلاين وهو مقيّد في مكان منعزل هادئ بعيد من هنا، مكان يستطيع فيه أن يجعله يصرخ. تخيّل نفسه وهو يختار نوع السكين تاركاً فلاين يراقبه وهو يفعل ذلك. ثم يسير ببطء باتجاه المحامي المقيّد. بوسعه أن يترك عليه جرحاً يدوم مدى الحياة. كان الغرس البطيء للمعدن داخل اللحم لذيذاً جداً بالنسبة إليه.

هزّ رأسه محاولاً أن يتخلّص من خيالاته. لم ينته عمله هنا بعد، وليست المسافة بعيدة. وقف فلاين في مواجهة بريور وسلّمه ملفاً مغلقاً فبدأ بريور بتقليب صفحاته. حتى من منصّة هيئة المحلّفين، استطاع كين أن يسمع النائب العام يقول بوضوح: «كيف حصلت على هذا؟»

«بإذن من شرطة نيويورك، لا أحد يمكن أن يوقفه. وتوريس هو عميل فيدرالي. لقد كان لديه سبب وجيه. لا داعي للحصول على مذكرة إذا لم يكن هناك اعتراض»، قال فلاين.

حاول كين أن يسمع إجابة بريور لكنه لم يستطع. اقترب الرجلان من القاضي، ورآهم يتناقشون. وبعد بضع دقائق، قال القاضي فورد: «ترفع الجلسة. إذا لم يكن هناك اعتراض من شرطة نيويورك، ولديهم الإذن بالدخول، أنا أسمح بذلك».

الفصل الثامن والخمسون

شعرتُ بالنفور تجاه الشرطي في منزل سولومون. لو كان يعلم أن مكتب التحقيقات الفيدرالية يجري تحليلاً، فربما كان قد اعترض. وربما قام باعتقال هاربر وتوريس أيضاً، لكنه لم يلحظ ذلك. ولم يعترض. ولم تظهر أية مشكلة. وقَبِلَ هاري التقرير الذي قدّمته كدليل.

يا رجل، أنا في حاجة إليه.

وبوبي بحاجة إليه. إذا لم أتمكن من إلغاء المحاكمة، فسأحتاج على الأقل إلى تصويت بعض أعضاء الهيئة لصالحنا.

أمسكتُ نسخة من التقرير وشعرت وكأنني أتشبثُ بطوق نجاة.

«أيها الشرطي وليام، أنت لا تستطيع أن ترى وجه روبرت سولومون في هذا الفيديو، صحيح؟»

«ليس وجهه بالكامل. يمكن رؤية جزء من نظاراته، وجزء من فمه وذقنه. إن القبّعة تغطي معظم الوجه. لكنني أستطيع القول بأنه هو».

عندما انتهى بريور من استجوابه الرئيسي، أعاد مقطع الفيديو، وأوقفه لحظة وقوف الشخصية المرتدية قبّعة عند المدخل.

«يحمل الشخص الموجود في هذا الفيديو جهازاً إلكترونياً، هل يمكن أن تعرف ما هو؟»

«إنه جهاز كمبيوتر لوحي»، أجاب وليامز.

«أخبر الهيئة بالوقت الذي تم فيه تسجيل هذا الفيديو؟»

«بعد التاسعة مساءً بقليل، في الليلة التي حدثت فيها عمليات القتل».

استخدمتُ جهاز التحكم بالشاشة لعرض إحدى صور مسرح الجريمة. صورة المدخل. حيث الدَرَج في الأمام، وإلى اليسار طاولة عليها هاتف و»راوتر» خاص بالإنترنت، ومزهرية. قدّمتُ التقرير الذي أعدّه توريس إلى ويليامز وأطلعته عليه.

«سيد ويليامز، إن التقرير الموجود أمامك قد أعدّه اليوم عميل خاص في مكتب التحقيقات الفيدرالية، السيد توريس. وهو يتضمن الفحص الدقيق «للراوتر» الخاص بالإنترنت، الذي يظهر في هذه الصورة. هل قمت بفحص هذا الجهاز؟»

«لا، لم أفعل».

«تمكّن العميل توريس من الحصول على البيانات من ذاكرة جهاز «الراوتر» باستخدام نظام «interface». يمكنك أن ترى التفاصيل في الصفحة الرابعة. ألقِ نظرة من فضلك».

قلب ويليام الصفحات وبدأ القراءة. منحته ثلاثين ثانية، ثم انتهى من القراءة وجلس بينما علت وجهه نظرة خالية من أي تعبير.

«قال المتهم للشرطة إنه عاد إلى المنزل في منتصف الليل تقريباً. انظر إلى لحظة الدخول على الراوتر في منتصف الصفحة الرابعة - الفقرة رقم ثمانية عشر قربها. اقرأها لو سمحت».

«يقول التقرير إن اتصال كمبيوتر بوبي اللوحي كان في تمام الساعة «٠٠.٠٣»»، قال وليام.

«انظر إلى الدخول الذي سبقه في ذلك المساء، الفقرة رقم سبعة عشر».

«مكتوب، جهاز غير متصل - اتصال غير مصرّح به الساعة ٢١:٠٢.»

أمسكت جهاز التحكم، وعرضت صورة الشخصية التي ترتدي القبّعة أمام مدخل المنزل.

«هل يُعقل، يا سيد ويليام، أن نفترض أن الجهاز الذي نراه في هذه الصورة هو ذاته الذي حاول الاتصال بالراوتر في منزل المتهم؟»

«لا أستطيع تأكيد ذلك»، أجاب وليام.

«بالطبع لا تستطيع. لكنها ستبدو مصادفة غريبة إذا لم يكن الجهاز ذاته، أليس هذا منطقياً؟»

ابتلع ويليام لعابه وقال: «هذا منطقي».

«لأنه إذا حاول أحدهم أن يرتدي ملابس ليبدو مثل بوبي سولومون، لكي يصل إلى منزله، فهو يعرف أن بوبي يتجوّل حاملاً جهازه اللوحي. وهو ما يمنحه مبرراً جيداً لإخفاء وجهه عن الكاميرا؟»

«لا أعرف، ربما»، أجاب وليام.

«ربما! بالتأكيد. وإذا استطاع هذا الرجل أن يصل إلى المنزل، يستطيع ببساطة أن يفصل الكهرباء عن الكاميرا، أليس كذلك؟ وبالتالي لن تلتقط الكاميرا مشهداً لأي شخص آخر يقترب من المنزل».

«يستطيع أن يفعل ذلك، لكن ليس لدي أي دليل على أن الوضع كان على هذا النحو».

«حقاً؟» أجبته.

صمت قليلاً، وفكّر بالأمر وأجاب: «حقاً».

«حسناً، أودّ منك يا سيد ويليام، أن تعرض أمام هيئة المحلّفين مقطع الفيديو الذي يُظهِر وصول الشرطة، ودخولهم إلى المنزل من الباب الأمامي».

همس ويليام كلمة: «تباً».

«ليس هناك مقطع فيديو من هذا النوع. إن المقطع الذي يُظهرُ دخول المتهم إلى المنزل هو آخر مقطع تم تسجيله على هذه الكاميرا».

«لكننا نعرف فعلاً أن الشرطة قد وصلت إلى مسرح الجريمة. إن المبرر الوحيد لعدم ظهور مقطع فيديو يُثبت دخولهم، أو مقطع يُظهر دخول موكلي إلى المنزل في منتصف الليل، هو قيام أحدهم بإيقاف الكاميرا في وقت مبكّر من المساء - صحيح؟»

تحرّك في مقعده، وسعى ليحصل على إجابة لأنه وجد نفسه في مأزق.

«هذا ممكن. أعني، نعم، قد يكون هذا ما حدث».

أستطيع أن أضغط عليه أكثر، لكنني لم أكن على أرض صلبة. أردت في الوقت الحالي أن تتقبّل الهيئة، على الأقل، فكرة أنه كان شخصاً آخر. لقد منحنا توريس الأمل. تباً، كان عليّ أن أنتبه إلى الراوتر مُسبقاً.

قام بريور بإعادة توجيه سريع للاستجواب.

«سيد ويليام، ليس لدينا معلومات عن مدى هذا الراوتر، صحيح؟» قال بريور.

«لا، لا، ليس لدينا. يمكن للراوتر أن يلتقط جهازاً من سيارة عابرة»، قال ويليام.

هذا جيد. عدّل بريور ربطة عنقه وجلس.

قلت وأنا أنظر إلى هاري: «ثمة نقطة واحدة فقط تنتج من ذلك».

«سؤال واحد يا سيد فلاين، هذا كل شيء»، قال هاري.

قمت بتشغيل الشاشة. شاهدنا مقطع الفيديو الذي يستمرّ خمسة وأربعين ثانية مرة أخرى. ثم أوقفته وعرفت أن ويليام قد أدرك تماماً ما أوشك أن أسأله، لكنه لم يجد إجابة.

«سيد وليام، يُظهر التسجيل ذلك الشارع أمام المنزل، وليس هناك سيارات عابرة أو أشخاص عابرون».

تنهّد ويليام وقال: «هذا صحيح».

انتهيت من هذا الرجل.

الفصل التاسع والخمسون

شعر كين بعدم الارتياح للمرة الأولى بينما كان يتحرّك في مقعده. لعن نفسه بصمت لأنه لم يفكّر بجهاز الراوتر. كان هذا المحامي أشبه بلعنة، كان قد اعتاد على حالات المدّ والجزر أثناء المحاكمات. وشاهد أشياء من هذا النوع. لكنه لم ير أي شيء مشابه لذلك. فمن بين جميع محامي الدفاع الذين عرفهم أثناء عمله، لم ير محامياً مثل فلاين، لقد كان الأفضل بينهم. ثم تساءل ما إذا كان رودي كارب يرقى إلى مستوى فلاين. لكن لا أهمية لهذا الأمر الآن.

سمع كين استدعاء بريور لشاهده الأخير. لقد تقدّم هذا الادعاء في المحاكمة بخطا سريعة وشرسة مقارنة بالمحاكمات الأخرى، وكان ذلك مفيداً. ففي إحدى المحاكمات السابقة، قبل عدة سنوات، كان عليه أن يُذكّر معظم المحلّفين بالأدلّة التي وردت قبل أسابيع، إذ كانوا قد نسوا معظم الأدلّة. لكن لن يحصل ذلك مع بريور.

صعد المراسل إلى منصة الشهود ورفع الكتاب المقدّس وأدّى القسم. تساءل كين عمّا سيدلي به هذا المراسل. شيء قليل جداً. لكن بريور كان لعوباً - ليس مثل فلاين، لكن إلى مستوى قريب منه. الشيء الوحيد الذي تعلّم كين أن يعتمد عليه كان فهم وسائل محامي الادعاء.

يراوده شعور بأن بريور يوشك أن يلعب ورقة كان يخفيها طوال فترة المحاكمة.

قبل كل شيء، قدّم بريور سبب استدعاء بينيتيو. كان المراسل على علاقة وثيقة بمجتمع هوليود. وكان يعيش في الداخل.

«ما الذي يمكن أن تقوله لهيئة المحلّفين عن العلاقة بين المتهم والضحية الثانية، أرييلا بلوم؟» سأل بريور.

«تزوجا مؤخراً بعد أن التقيا في موقع تصوير، ثم وقعا في الحب. وأسفر زواجهما عن تحالف قوي؛ إذ كان اتحادهما هو ما جعلهما مركز قوة في هوليود. أنت تعرف قوة زوجين من المشاهير. مثل براد بيت وأنجيلينا جولي. بعد فترة وجيزة، بدأت حلقات برنامجهما «تلفزيون الواقع». وكان لهما أدوارٌ رئيسة في قصص الخيال العلمي التي تم عرضها مؤخراً. كانت شركات الإنتاج تعرض عليهما الكثير من الأموال. وذلك لأنهما كانا زوجين».

«وماذا عن العلاقة بينهما؟»

«كما تعرف، هناك شائعات دوماً في هوليود. إنها طبيعة هذا المكان. وهناك دوماً من يشكك في سلامة العلاقات، وأنا واحد من أولئك المشككين. في هذه الحال، سأتصرّف بطريقة تتنافى مع موثوقيتي كصحفي. كان لدي مصدر معلومات مطلع على عمق العلاقة بينهما. لقد أخبرني أن الزواج كان عبارة عن تسوية مريحة. ومن المؤكد أنهما كانا منسجمين. لكنهما كانا أشبه بأخ وأخت، وذلك بسبب شذوذ روبرت سولومون الجنسي.

الفصل الستون

أنا أحب أمريكا، وأحب نيويورك، وأحب الناس جميعاً، لكنهم يخلقون لدي شعوراً بالكآبة أحياناً. ليس الأفراد، بل وسائل الإعلام غالباً؛ إن جميع الصحف والقنوات الأخبارية والمواقع الصحفية الإلكترونية، لا تخدم الأمريكيين.
كانت المحكمة تغصّ بالإعلاميين من كافة الأنواع، وقد سُمِعَت شهقاتهم عبر القاعة كلها عندما قال بينيتيو إن روبرت سولومون كان مِثلي الجنس.

لم يرفّ جفنٌ لأولئك المراسلين عندما وضع بريور صورة عالية الدقّة لجثّة أرييلا، وجراحها العميقة، وحياتها التي دُمِّرت. لكن الكشف عن شذوذ أحد المشاهير جعلهم يتصرّفون بجنون.

هزّ بوبي رأسه، وهمست له بأنه سيكون بخير. أومأ موافقاً، وقال إنه سيكون على ما يرام.

سأل بريور: «هذه ادعاءات استثنائية إلى حد ما يا سيد بينيتيو، ولم تظهر في شهادتك أو إفادتك سابقاً، لماذا؟»

«أردتُ حماية مصدر معلوماتي. لكن بعد أن وصلت القضية إلى هذا المستوى، أشعر بأنني مضطر للكشف عن الحقيقة».

«ما هو مصدر معلوماتك؟»

«علمت ذلك من كارل توزر، أخبرني كيف تجري الأمور فعلاً في زواجهم. كانت أرييلا تشكك دوماً بذلك، وأقامت علاقة مع كارل. كانت حياة أرييلا وروبرت منفصلة تماماً. كانا معاً أمام الكاميرات فقط، وهذا كل شيء. أعتقد أن....»

«أعترض يا حضرة القاضي»، وقفت مُقاطعاً، لكن قبل أن يتمكن هاري من إسكاته، تابع بينيتيو، حتى إنه رفع صوته فوق القاضي.

قال بينيتيو: «أنا على قناعة تامة بأن روبرت سولومون اكتشف أن كارل يتواصل معي، وهو ما جعله يرتكب جريمة القتل بحقه وحق أرييلا. لقد عاش روبرت في كذبة، ولم يستطع مواجهة الحقيقة. كان ظهوره كشخص

مثليّ في هوليود سيُنهي حياته المهنية. كان يعرف ذلك تماماً، وقتلهما كي يخفي الحقيقة!» ص٣٠٤

اعترضت مرّة أخرى، مستنداً على أنها شُبهات. ودعم هاري اعتراضي وطلب من هيئة المحلّفين أن يتجاهلوا ما قاله الشاهد. لكن الوقت قد فات. حتى عندما اعترضت أمام هاري، تابع بينيتيو حديثه. وسمع أعضاء الهيئة ذلك. كان الضرر قد وقع.

«لا مزيد من الأسئلة»، قال بريور

عرفت أنني إذا استجوبت بينيتيو، فسوف يعيد ما قاله مجدداً. لا جدوى من ذلك، وكان القاضي قد أبلغ هيئة المحلّفين بتجاهل أقواله. لم يكن ثمّة فائدة من تحويل مسار المحاكمة نحو سلوك بوبي الجنسي. أخبرت هاري أنه ليس لدي أية أسئلة.

«انتهى الادعاء»، قال بريور.

وقت اتخاذ القرار. أخبرني بريور سلفاً أنه لا يريد استجواب صانع الفراش «غاري تشيزمان». وكان تقرير توريس حول جهاز الراوتر ضمن الأدلّة فعلاً، ولم يستطع بريور إلغاء ذلك.

بقي لديّ شاهدان حقيقيان. ديلاني وبوبي.

قلت: «يستدعي الدفاع العميلة الخاصة «بايج ديلاني»».

شرحت ديلاني الأمر لهيئة المحلّفين على مدى أكثر من ساعة. كانت ورقة الدولار موجودة في كل مجده الفاسد. لقد أمضينا وقتاً ونحن نتحدث عن كل قضية، وكل ضحية، وأوراق الدولار والأدلة التي تؤدي إلى توريط شخص بريء بجريمة رجل الدولار، والعلامات على كل ورقة، والحالة النفسية للقاتل.

أبقيت عيني على هيئة المحلّفين على مدار الوقت، والرجال منهم بشكل خاص. الجميع كان مذهولاً بشهادة ديلاني. دانيال كلاي، مهووس الخيال العلمي العاطل عن العمل، تقبّل الفكرة. كان في السن المناسب، لكنني لم أعتقد أنه هو. ثمة شيء ما في عينيه، بدا مشمئزّاً من كل جريمة قتل شرحتها ديلاني. لم يكن هو. على الرغم من أن من السهل جداً انتحال شخصيته.

المترجم، جيمس جونسون يفي بجميع الشروط. لقد كان السن المناسب، ولن يلاحظ معظم الناس غيابه بضعة أيام، إنه يعمل في المنزل. ومع ذلك، كان يحدّق بديلاني بافتتان مطلق. أستطيع القول، من لغة جسده، والطريقة التي يحرّك بها شفتيه، إنه يصدّق ديلاني. وقد جعله يشعر بالخوف. لا، لم يكن جيمس.

تيري أندروز، رجل مطعم الشواء، وكريس بيلوسي مصمم المواقع، كانا من المرشحين المحتملين لشخصية رجل الدولار. إنهما من الرجال الذين يمكن انتحال شخصياتهم بسهولة. لكن أندروز كان طويلاً جداً. ورأيت أن القاتل سيعاني كثيراً لينتحل شخصية رجل بهذا الطول. كان بيلوسي محتملاً.

أما برادلي سامرز، المتقاعد البالغ ثمانية وستين عاماً، فهو من فئة عمرية غير صالحة. كما بدا مشهوراً بين الأعضاء الآخرين، كانوا يحترمونه لكبر سنه على الأغلب.

بقي «أليك وين»؛ أستاذ جامعي عاطل عن العمل. رجل البراري الذي يمتلك بنادق ويبقى وحيداً معظم الوقت. الرجل الذي انتبه إليه أرنولد، الرجل الذي بدا أن وجهه تغيّر.

لم يحضر أرنولد إلى المحكمة، وخزّنت في ذهني ملاحظة تجعلني أتذكّر أن أتصل به. قررت أن أقوم بشيء ما دون أن تكون لدي المهارة الضرورية أو الخبرة، كنت في الحقيقة معتاداً على تجربة حالات بمفردي، ولم ألحظ على الفور أنه لم يظهر في المحكمة. لكنني كنت بحاجة إليه هنا، أردت تعليقه على أليك وين.

وقفت أمام هيئة المحلفين، وسألت «ديلاني» سؤالي الأخير. كنا قد تدرّبنا عليه.

«السيدة ديلاني، كيف يمكن لرجل الدولار أن يتأكد من إدانة رجال آخرين بجرائمه؟ من المؤكد أن المحاكم الجنائية قد تتخذ قراراً لصالح المتهم حتى في حال وجود أدلّة قوية ضده».

لم تكن تنظر إلي، بل كانت تقوم بمراجعتها النهائية. وكان هناك عملاء في الجزء الخلفي من القاعة. وكانت هاربر على منصّة الدفاع، وتعمل على القضية وتستمع. كان لديها اللابتوب الخاص بها، وكانت تتلقّى مقالات طوال فترة الظهيرة. وهي قصاصات وأشرطة فيديو قصيرة من محاكمات الرجال

الذين أدينوا بجرائم رجل الدولار. لا بدّ أنها سمعت سؤالي، أغلقَتْ جهاز اللابتوب، وحدقت في هيئة المحلفين.

رمقتني ديلاني بنظرة واحدة، ثم نظرنا إلى هيئة المحلّفين بينما كانت تتحدث. كنت أركّز على رجل واحد فقط، أليك وين، حيث جلس واضعاً يداً واحدة على حضنه، مقاطعاً ساقيه، مداعبه ذقنه باليد الأخرى. كان يستمع باهتمام لكل كلمة تقولها «ديلاني».

هذا هو. لقد ناقشنا الأمر، وناقشنا الإيجابيات والسلبيات. وقررنا فيما بيننا أنه ما من احتمال آخر.

«يعتقد مكتب التحقيقات الفيدرالي أن القاتل المتسلسل، رجل الدولار، قد اخترق هيئات المحلّفين الذين كانوا في تلك القضايا، وتلاعب بهم ليحصل على الإدانة».

كان لا بدّ من ظهور نوع من ردّ الفعل لدى الحشد. تسارع في التنفّس، نوبات شك لا إرادية وأشياء من هذا القبيل. كنت واثقاً من ذلك. وإذا كانت قد ظهرت، فأنا لم أسمع أي شيء. كان كل ما سمعته هو نبضات قلبي في أذني. كان تركيزي كاملاً. لقد عرفت كل جزء من وجه أليك وين. استطعت أن أرى حركات صدره ويديه، وحتى الميلان الخفيف لساقه وهو يضعها فوق الأخرى.

ما إن انتهت ديلاني من الإجابة حتى تغيّرت ملامحه. لقد اتسعت عيناه وتباعدت شفتاه.

ظننت أنني سأعرف. إن شهادة من هذا النوع مساوية لإزالة قناع رجل الدولار في غرفة مزدحمة. لا بدّ أنها كانت أشبه بقطعة خشبية تضربه على رأسه.

لم أكن متأكداً.

عدتُ إلى وعيي ببطء. الصوت والرائحة والنكهة، والألم في ضلوعي، جاء كله بلحظة واحدة، كما لو أنني أطفو على السطح بعد أن غصت في مياه عميقة.

كان لدى بقية أعضاء الهيئة ردود أفعال مشابهة. بعضهم لم يصدّق الأمر، وبدا بعضهم في حالة صدمة وخوف حقيقي لشعورهم أن مثل هذا الرجل يمكن

أن يتجوّل بحرية كطائر.

أياً كان رجل الدولار هذا، فقد لعب لعبته بشكل رائع. هو لم يفضح نفسه. ألقيت نظرة طويلة وأخيرة على أليك وين.

لا أستطيع التأكيد.

كان هناك سؤال آخر. سؤال انبثق بالتأكيد من إجابة ديلاني الأخيرة. كان بإمكاني أن أطرح السؤال هنا، في هذه اللحظة لكنني لم أفعل. لأنني إذا طرحت هذا السؤال، فقد يبدو الأمر وكأنني كنت ألعب لعبة لإلغاء المحاكمة. وقد يبدو وكأنني أوجّه إصبع الاتهام إلى أعضاء الهيئة. لذا كان من الأفضل أن يصدر ذلك السؤال عن بريور.

سمحت له بذلك.

«لا مزيد من الأسئلة»، قلت.

كان بريور قد أطلق قذيفته الأولى حتى قبل أن أجلس. كان أشبه بكلب صيد خرج من الباب للتو.

«السيدة ديلاني، أنت تعتبرين أن أرييلا بلوم وكارل توزر ربما كانا ضحيّة هذا القاتل المتسلسل، رجل الدولار، صحيح؟»

«نعم»، أجابت ديلاني.

«وتدلّ شهادتك على أن رجل الدولار يختار ضحاياه ويقتلهم، ثم يدسّ دليلاً يريد منه توريط شخص آخر بريء؟»

«هذا صحيح»، أجابت ديلاني.

«لكن استناداً إلى السؤال الأخير الذي طرحه السيد فلاين، أنت تعتقدين أنه يفعل ما هو أكثر من ذلك بكثير. أنت تعتقدين أنه يتسلل إلى هيئة المحلّفين التي تحاكم الشخص البريء بتهمة القتل، ليتأكد من إدانته بارتكاب الجريمة؟»

«هذا ما أعتقده».

اقترب بريور من أعضاء الهيئة، ووضع يده على حاجز المنصّة. اتخذ موقعاً يبدو فيه وكأنه يساند هيئة المحلّفين في هذا الشأن؛ إنهم جميعاً على الجهة ذاتها.

«إذاً يتضمن ذلك أنك تعتقدين أن هذا القاتل المتسلسل هو في هذه الغرفة الآن. ويجلس بين أعضاء الهيئة خلفي؟»

حبست أنفاسي.

قال هاري: «قبل أن تجيبي على هذا السؤال يا سيدة ديلاني، أودّ أن أرى المُستشارين كليهما في غرفتي فوراً».

الفصل الحادي والستون

بغض النظر عن عدد المحاكمات التي شهدها كين، فقد كان هناك شيء جديد دوماً في كل محاكمة. وفي هذه المحاكمة كانت هناك عدد من التجارب الأولى.

شعر في هذه المحاكمة وكأنه أصبح فعلاً جزءاً منها. ليس مجرّد عضو في هيئة المحلّفين بل مشاركاً. كان مكتب التحقيقات الفيدرالي قد أوقع به أخيراً. بدت العميلة الفيدرالية، ديلاني، ماكرة جداً. كانت عيناها صارمتين، ويمكن له أن يشعر بالذكاء الحاد فيهما. ربما كانت خصماً جديراً بالتقدير! قال في نفسه.

إنه أمر حتمي كما يعتقد. فبعد كل هذه السنوات، وكل تلك الجثث والمحاكمات، لا بدّ أن يُدرك أحدهم الأمر في نهاية المطاف. هو لم يجعل الأمر بسيطاً بالنسبة إليهم، بالطبع لا. لكنه كان يتخيّل دوماً، وربما في يوم ما بعد وفاته بوقت طويل، أن يأتي شخص ذكي بما يكفي ليكتشف الحقيقة.

وبطريقة ما، عند حدوث ذلك، سيربط ذلك الشخص القضايا به. وسوف يرى ما فعله، ويقدّره أيضاً، باعتباره شيئاً لم يفعله أي شخص آخر من قبل. ويتم كشف مهماته وأعماله أمام العالم.

لم يكن يتوقّع ذلك في فترة قريبة. ليس قبل إتمام تحفته الفنيّة على الأقل.

حدثت سابقة أخرى من قِبَلِ القاضي.

قبل أن يطلب من المحامين أن يوافوه في غرفته الخاصة، أعطى القاضي تعليمات إلى موظفي مراقبة أعضاء الهيئة؛ على المحلّفين أن يبقوا منفصلين. ولحسن الحظ لم تكن هناك محاكمات في القاعات المجاورة، وتم إخلاء مكاتب القُضاة والكتاب وقاعات المحاكم ذاتها، وكانت كافية للفصل بين المحلّفين. استدعى مراقب الهيئة المزيد من الشرطة للمساعدة في مرافقة المحلّفين إلى غرفهم المنفصلة.

لم ير كين شيئاً كهذا من قبل. لم يرغب القاضي أن تنهار هيئة المحلّفين، وأن يبدأ أحدهم الشكّ في الآخر، وأن يبدأ الشكّ، مجرّد الشكّ، بأن أحدهم هو القاتل.

احتاج الأمر بعض الوقت لجمع مراقبي هيئة المحلّفين، ثم قام كل مراقب منهم بأخذ عضو من أعضاء الهيئة من قاعة المحكمة. والشرطي الذي رافق كين كان شاباً ذا شعر جميل وبشرة شاحبة، ولم يكن قد بلغ من العمر أكثر من خمسة وعشرين عاماً. لقد اصطحب كين من القاعة، وأدخله إلى مكتب صغير في الممر الرئيس. فجلس كين إلى مكتب أمام شاشة كمبيوتر مطفأة، وأغلق المراقب الباب.

سابقة أخرى. أدركها مؤخراً، كان ينبغي أن تحدث في وقت ما. ومع ذلك، كانت بمثابة مفاجأة لكين.

أراد أن يهرب. كان عناصر مكتب التحقيقات الفيدرالي قريبين منه. كان قناعه ينزاح عن وجهه. نظر كين حوله في المكتب الصغير. ثمة مكتبان، كلاهما باتجاه جدار عليه تقويم. لا يمكن وصف أي منهما بأنه أنيق. كانت الدبابيس وأوراق الملاحظات والأقلام مبعثرة حول لوحات مفاتيح أجهزة الكمبيوترات، وثمّة ركام من الملفات على حواف المكاتب، أو على الأرض إلى جانبها. حشر كين رأسه بين يديه.

كان بوسعه الانتظار، أوشكت القضية أن تذهب إلى أعضاء الهيئة. يمكنه أن يطرق الباب ويطلب من المراقب أن يدخل. لا يحتاج الأمر أكثر من لحظات ليغلق الباب ويحطّم عنق المراقب. كان زي الموظّف مناسباً جداً له لكنه اعتقد أنه يستطيع أن ينجو فقط إذا غيّر ملابسه بسرعة وخرج مباشرة من الباب إلى الممر السفلي. عليه أن يبقي رأسه منخفضاً، أو يدير رأسه إلى الجدار عندما يلمح كاميرا مراقبة.

كان يكره ألا يكون على اطلاع بما يحدث. بغضّ النظر عن الخيارات التي اتخذها، عرف أنه قد يندم على ذلك. إما البقاء في السجن لما تبقى من حياته، وملامة نفسه لأنه لم يهرب، أو العيش خارج نيويورك، جالساً في مقهى، ويحلم بما يمكن أن يحدث لو بقي لفترة أطول.

اتخذ قراره فوراً، ثم نهض وطرق الباب. فتح الموظّف الباب وحدّق في الداخل. كان وجهه كوجه طفل.

«هل لي بكوب ماء لو سمحت؟» قال كين.

«بالتأكيد» أجاب المراقب.

ثم باشر بإغلاق الباب، لكن كين أمسكه بيده وقال: «انتظر، اترك الباب مفتوحاً قليلاً. أنا أعاني من رهاب الأماكن المغلقة، وأختنق في مكان كهذا».

أومأ الحارس برأسه وغادر. وجلس كين وهو يتنفّس بصعوبة. شعر بحرارة دمه تحت بشرته. إنه شعور الترقّب لما سيأتي. يمكنه أن يرى الأمر بوضوح في ذهنه. سيضع المراقب كوب الماء على المكتب، فيمسكه من معصمه ويلويه، ويضع أصابعه فوق حنجرته. ما سيحدث بعدها عبارة عن مسائل لوجستية. إذا سقط المراقب، يُصبح كين فوقه، فيقلبه إلى الأمام ويمسك ذقنه، ويرفعه بقوة. أما إذا تمكّن المراقب من البقاء على قدميه، فعلى كين أن يقف خلفه ويأخذ سلاحه قبل أن يضع ذراعه حول عنقه ويدفعه للأمام، ثم إلى اليسار والخلف.

بإمكانه تقريباً أن يسمع صوت فقراته تتحطم.

عاد المراقب بكوب الماء.

«ضعه على المكتب من فضلك، شكراً لك»، قال كين.

سهّل حذاء المراقب على كين مسألة تعقّبه لهدفه. حدّق بانعكاس صورته في شاشة الكمبيوتر بينما كان يضع كوب الماء على المكتب.

مدّ كين يده بسرعة وأمسك معصم المراقب.

الفصل الثاني والستون

«ما الذي يجري هنا بحق الله؟» قال هاري.

لم يكن قد وصل إلى مكتبه بعد، وقفنا نحن الثلاثة في غرفته. كان غاضباً جداً لكنه كان قلقاً أيضاً. ودخل بريور في الموضوع مباشرة قبل أن أقول أي شيء. انفجر ممتعضاً، واعتمد على أحقيته في كونه ممثل الادعاء.

«الدفاع متعثّر يا حضرة القاضي، هذا ما يحدث. إنه يعرف أن الأدلة في هذه القضية قوية جداً ولا يمكن الإفلات منها. ولهذا يحاولون إلغاء المحاكمة. أنت تعلم ذلك، وأنا أعلم أيضاً. لن يحصلوا على هذا الاتهام الجنوني لأحد أعضاء الهيئة دون تقديم أي دليل، لا يا سيدي».

«إذا حصلنا على دليل، سنأتي به إليك يا حضرة القاضي. انظر، إن مكتب التحقيقات الفيدرالية لا يقوم بالإدلاء بشهادة للدفاع عن جريمة قتل استناداً إلى حدث بسيط، وأنت تعلم ذلك جيداً. إذا كانت العميلة ديلاني على حق، وكان القاتل ضمن أعضاء الهيئة، فإن استمرار هذه المحاكمة ظلم واضح لموكلي. لا رغبة لي بوضع إصبع الاتهام على هيئة يقف عليها مصير سولومون، لكن ثمة الكثير مما يجري في هذه المحاكمة. لقد مات اثنان من الأعضاء، وطُرِدَ آخر بتهمة التلاعب بآراء الهيئة. لا بدّ أن نرى الصورة الشاملة للقضية هنا».

«وما الذي تقوله؟ عضو هيئة متسلل هو القاتل الحقيقي في هذه القضية؟ هذا لا يُصدّق»، قال هاري.

«هذا ممكن»، أجبته.

«هذه سخافة»، قال بريور.

«يكفي!» صاح هاري. التفت باتجاه مكتبه وأخرج زجاجة معتقة منذ عشر سنوات، وثلاثة أكواب.

«لا أريد يا سيادة القاضي»، قال بريور.

تأرجحت الزجاجة فوق الكأس، وثبّت هاري نظراته على محامي الادعاء. لم تُسمِع كلمة واحدة. وظل وجه هاري محتفظاً بملامح رفض صارمة.

«كأس صغير إذاً»، قال بريور.

سكب ثلاثة أكواب، وقدّم أحدها لي وآخر لبريور. شربنا جميعاً باللحظة ذاتها. سعل بريور واحمر وجهه. لم يكن معتاداً على هذه الأنواع الجيدة من الويسكي.

«عندما كنت محامي دفاع شاباً، أتذكر أنني كنت في هذه الغرفة ذاتها، مع القاضي العجوز فولر. كان ذا شخصية قوية، ويحتفظ دوماً بمسدس عيار «٤٥» في درج مكتبه. واعتاد أن يقول إنه لا ينبغي على أي محامٍ أن يلقي خطاباً ختامياً في محاكمة جريمة قتل ما لم يتناول، على الأقل، مقدار ثلاثة أصابع من الويسكي»، قال هاري.

وضعت كأسي الفارغ على مكتب هاري. لقد اتخذ قراره.

«كنت قلقاً بشأن هذه القضية، وبشأن لجنة المحلّفين هذه أيضاً. ربما لا ينبغي أن أخبر أياً منكما بمدى صعوبة هذا القرار بالنسبة إلي. لكن لا بد لي في نهاية المطاف من الاعتماد على الأدلّة. ثمّة شك بأحد الأعضاء في هيئة المحلّفين. وأنا لست في موقع يخولني تقييم هذا الشك، إذ لا يوجد أي دليل يقنعني بأن هناك اختراقاً للهيئة. عليّ أن أخبرك يا سيد بريور أنني لست سعيداً بهذا. لكن عليّ أن أتبع القانون. آسف يا إيدي. أنا ألغي طلبك يا سيد بريور. هل لديك أية أسئلة أخرى للعميلة ديلاني؟»

«لا، ليس لدي أي سؤال».

«هل للدفاع أي شهود آخرين؟» قال هاري.

«لا، نحن لن نستدعي المتهم»، أجبته.

أنا لن أستدعي موكلي للإدلاء بشهادته. إذا وصل الأمر إلى مرحلة تعتمد فيها على موكلك لإثبات براءته تكون قد خسرت بالفعل. من المفترض الفوز بالقضية أو خسارتها عن طريق أدلّة الادعاء. أنا لن أعمد إلى تقييم فرص بوبي مع هيئة المحلّفين. وأترك بريور يمزّقه في مكانه مما يقلّل من فرصه.

كانت فرصته الأخيرة هي خطاب ختامي مميز. لقد فاز «كلارنس دارو»، أحدد أفضل المحامين الذين فتحوا زجاجة ويسكي، فاز بمعظم قضاياه من خلال خطابه الختامي. إنه آخر شيء يسمعه أعضاء الهيئة قبل أن يدخلوا

غرفهم الخاصة ويقررون مصير المتهم. لقد أنقذ كلارنس دارو أكثر من حياة عبر خطاباته القوية.

أحياناً لا يكون لدى محامي الدفاع غير ذلك، إنه صوته. والمشكلة هي أنه الصوت ذاته الذي يعبّد الطريق أمام أحدهم، والصوت ذاته الذي يُنهي زواجه، والصوت ذاته الذي يُفسد كل شيء. لكنه الصوت الذي يحفظ حياته الآن.

لا يترك الكلام ذلك الأثر الكبير الذي يتركه عندما تقوله لشخص محدد. شعرت بأثره الآن، جاثماً على صدري. إذا تم الحكم بأنه مذنب، فلن يزول هذا الأثر أبداً.

«يمكننا أن ننهي هذه القضية اليوم، لكن أريد شيئاً واحداً فقط».

«ما هو»، سأل هاري.

«أريدك أن تعطي ديلاني اسم الشرطي الذي يحتفظ بدفاتر الملاحظات التي أخذتها من أعضاء الهيئة».

الفصل الثالث والستون

«هل أنت بخير؟» قال المراقب الشاب.

أحكم كين قبضته للحظات. تمددت أصبع يده الأخرى وتصلّبت، أصبحت أشبه بنصل من لحم وعصب وعظم. وكانت على استعداد لاختراق حنجرة المراقب.

تردد.

بضع ساعات وحسب.

أفلتت قبضته عن معصم الموظّف وقال: «آسف، لقد جعلتني أجفل، شكراً على الماء».

أفرغ كوب الماء البلاستيكي في جوفه، وشاهد المراقب وهو يغادر ويغلق الباب خلفه. تنفّس الصعداء، وحدّق في شاشة جهاز الكمبيوتر السوداء أمامه. سرحت أفكاره نحو غاتسبي - مدّ يديه إلى المياه السوداء المضطربة، نحو الضوء الأخضر الباهت في البعيد. إذا استسلم الآن، إذا فشل في إتمام عمله، فسيستنزف آخرون حياتهم بحثاً عن الضوء الأخضر، ويهدرون أرواحهم في الأمل بما هو أفضل.

ليس هناك أي أمل. كانت أحلامه قاتمة دوماً ومليئة بالوحوش والأولاد الذين يحفرون الأرض بحثاً عن عظام.

لم يكن عليه الانتظار طويلاً. أعاد الشرطي كين إلى قاعة المحكمة حيث انضمّ إلى باقي أعضاء الهيئة. وأخبرهم القاضي بأن الدفاع يستريح. كانت الساعة تقترب من الخامسة، لكن شعر كلٌّ من محامي الادعاء والدفاع أن بإمكانهما إلقاء خطابهما الختامي قبل السادسة. يمكن لأعضاء الهيئة أن يعودوا إلى أماكن إقامتهم للتفكير بالقضية، ثم العودة صباحاً لاتخاذ القرار.

أسعدته سرعة هذه المحاكمة، كان سعيداً لأنه أبقى على حياة المراقب. لم يكن عليه أن يهرب، ليس حتى هذه اللحظة. ليس قبل أن ينتهي كل شيء.

نهض بريور من مكانه ليخاطب أعضاء الهيئة، وخيّم السكون على القاعة. يستطيع كين أن يشعر بذلك. كسر محام الادعاء الصمت بتقديم تعهّد.

«أعدكم، أعد كل فرد منكم، بأن القرار الذي ستتخذونه في هذه القضية سيصبح جزءاً من حياتكم. أعلم تماماً أنه سيكون كذلك، عليكم اتخاذ القرار الصحيح. إذا أخطأتم، سيصبح شوكة تسري مسافة قصيرة في عروقكم كل يوم، حتى تصل إلى قلبكم. أنتم تحملون حياة رجل بين أيديكم، هذا ما سيقوله لكم الدفاع. سيذكركم السيد فلاين بهذا الأمر كثيراً على الأرجح. لكنكم تحملون ما هو أكثر بكثير في الواقع؛ أنتم تحملون بين أيديكم مصير كل مواطن في هذا المدينة. إننا نعتمد على القانون لحماية أنفسنا، لمعاقبة أولئك الذين يريدون سلب أرواحنا. إننا ننتقص من طبيعتنا إذا لم نحترم هذه المسؤولية، وننسى الضحايا إذا لم نقم بواجبنا. لنكن واضحين حيال ذلك - إن واجبكم في هذه القضية، إذا كنتم قد أصغيتم بعناية إلى جميع الأدلة، هو الحكم على هذا المتهم بأنه مُذنب».

الفصل الرابع والستون

شاهدت بوبي ينكمش على نفسه أمام عيني. بدا وكأنه يتقلّص ويضعف مع كل كلمة قالها بريور، بدا وكأن حياته كانت تتبخّر مع كل دقيقة تمضي.

ذكّر بريور أعضاء الهيئة بالنقاط الرئيسة، ولم يُخبر بوبي أي شخص أين كان ليلة الجريمة. كانت بصماته على مضرب البيسبول. وكذب بشأن الوقت الذي وصل فيه إلى المنزل. وكانت بصماته وحمضه النووي على ورقة الدولار التي كانت في فم كارل. كان لديه الدافع، ولديه الفرصة، وكان دم أرييلا ظاهراً عليه، ولم تخرج السكين المُستخدمة بقتلها من المنزل. أما النظرية عن وجود قاتل آخر؟ فكانت حيلة دفاعية وحسب.

عندما جلس بريور في مكانه، كان العرق بتصبب من وجهه. لقد قدّم كل ما لديه خلال ثلاثين دقيقة.

جاء دوري.

ذكّرت الهيئة أن جهاز الراوتر في منزل سولومون سجّل وجود جهاز مجهول الهوية في الوقت ذاته الذي وصل فيه شخص يرتدي ملابس، كملابس بوبي، إلى المنزل. وذكّرتهم بأنه أياً كان من دخل المنزل حينها، فقد أوقف عمل كاميرا المراقبة. بدا وكأن بعض الأعضاء، ولا سيما ريتا وبيتسي، كانوا يستوعبون منطقي.

جلس «أليك وين» مكتّفاً يديه طوال الوقت.

لا يمكن للجرائم أن تحدث بالطريقة التي وصفها الادعاء. لقد تم الانقضاض على كارل من الخلف بوضع كيس فوق رأسه، وتم ضربه لاحقاً بمضرب البيسبول الذي يحتفظ به بوبي في الصالة. لذلك كانت أرييلا لا تزال نائمة عندما تسلل القاتل إلى غرفة نومها. وتم تنظيف ورقة الدولار من كل الأحماض النووية التي عليها باستثناء حمض بوبي وشخص آخر ميت منذ زمن.

«السادة أعضاء هيئة المحلّفين، لقد ذكّركم السيد بريور بواجباتكم. لكن اسمحوا لي أن أوضح ملاحظاته. إن واجبكم الوحيد هو تجاه أنفسكم، والسؤال الوحيد الذي عليكم أن تطرحوه على أنفسكم هو: هل أنتم واثقون

من أن روبرت سولومون قد قتل آرييلا بلوم وكارل توزر؟ هل أنتم متأكدون من ذلك؟ ذكرت أن السيد إيغرسون لم يكن واثقاً من أنه رأى المتهم في تلك الليلة. وأننا لا نستطيع أن نتأكد من أن ورقة الدولار التي عُثر عليها في فم كارل، لم يتم التدخّل بها، بطريقة أو بأخرى، من قِبَلِ مخبر الطب الشرعي. لكن ما أقوله لا يهم، ما تعرفونه أنتم هو الهام. أنتم تعرفون في أعماق قلوبكم، أنه من غير الممكن أن تكونوا واثقين من أن روبرت سولومون قد قتل أولئك الناس. والآن ما عليكم فعله هو التصريح بذلك».

مرّت اللحظات التي تلت من حياتي بحالة ضبابية. بدا لي وكأنني تحدثت إلى الهيئة مدة دقيقة واحدة، وفيما تبقّى من وقت، كنت أحزم حقيبتي لأودّع بوبي. كان يغادر ليلاً مع هولتن وطاقمه الأمني. ربما سنحصل على الحكم في الصباح. خرجت هيئة المحلّفين، وبدأت قاعة المحكمة تفرغ من الحضور. اتكأ هاري على المنصّة وتحدث مع الكاتبة. لم يكن هناك سوى بعض المتخاصمين في القاعة. كانت ديلاني وهاربر بانتظاري، وبدا أنهما تشعران بحاجتي إلى القليل من الوقت لأستجمع أفكاري. لقد قدّمت كل شيء في خطابي الأخير، وكان عقلي مشتتاً.

وضعت حقيبة اللابتوب على كتفي، وفتحت البوابة التي تفصل منطقة الحضور عن بقية قاعة المحكمة، كانت ديلاني وهاربر أمامي. شعرت بالإرهاق، بالألم، لقد انتهيت. ومع ذلك كنت أعلم أن هناك عملاً ليلياً ينتظرني. كان لا يزال ثمّة فرصة علينا أن نستغلّها في قضية رجل الدولار. ويراودني شعور سيئ بأن هذه هي فرصة بوبي الأخيرة.

ثمة شيء ما يتحرك عن يساري بسرعة، وبشكل منخفض. لم ألمحه إلا من خلال رؤيتي المحيطية العامة. شخص ما كان يركع في نسق المقاعد الموجود على يساري. التفتُ لأرى ما كان يحدث، لكن ليس بالسرعة الكافية.

أمسكت قبضة قويّة بفكي. وسمعت ديلاني تصرخ. وهاربر أيضاً. كنت أهوي فعلاً، وارتطمت بالأرض بسرعة. وضعت يدي وتمكنت من حماية رأسي من الصدمة، لكن تأثير اصطدام أضلعي بالأرضية جعلني أبكي، لم أستطع التنفس. ومن خلال دفقات الألم العنيفة بدأت أشعر بما كان يحدث حولي. سقطت هاربر على الأرض أمامي، ووقعت على ظهرها. سمعت وقع خطا خلفي؛ كان هاري يركض أيضاً ليعرف ما يجري.

«شعرت بقبضة قوية على معصمي، أعقبها ثني لذراعي إلى الخلف. أدركت على الفور ما كان يحدث؛ لقد تم توقيفي مرات عديدة جعلتني أعرف كيف

يعمل رجال الشرطة. وما إن فكّرت بذلك حتى شعرت بلسعة برودة الأصفاد تلتف حول معصمي الأيسر، ثم الأيمن. تم تثبيت ذراعيّ خلفي. وسحبتني أيدٍ من تحت ذراعي وأنهضتني لأقف على قدمي. حاولت أن أتكلم لكن فكي نطق كلاماً غير مفهوم. كان قد خُلع من مكانه من الضربة الأولى.

تدبرت أمري لأرفع عنقي وأحركه إلى اليسار.

المحقق غرانجر، وخلفه المحقق أندرسون.

«إيدي فلاين، أنت قيد الاعتقال. لك الحق بالتزام الصمت.....» قال غرانجر. تابع إخباري بحقوقي بينما كان يدفعني أمامه. وفي الأمام، كان هناك شرطي بملابسه الرسمية، ينتظر عند باب القاعة ويضع يده على حزام مسدسه.

صرخ هاري: «لا يمكنك أن تفعل ذلك، توقف الآن، توقف».

«يمكننا أن نفعل ذلك. ونحن نفعل ذلك الآن»، قال أندرسون.

نهضت هاربر، وساعدتها ديلاني على الوقوف.

«أنا عميلة فيدرالية، ما الذي تفعله بحق الجحيم؟ ما هي التهمة؟» قالت ديلاني.

«هذه ليست قضية فيدرالية. لا سلطة لديك هنا. سنأخذ هذا الرجل إلى شرطة «رود أيلاند» للاستجواب». قال غرانجر.

لم أستطع أن أتنفّس. أشعر بموجات من الألم الآن، وكل موجة تسحق رئتي. نظرت إلى الأعلى ورأيت الشرطي الذي كان في نهاية الممر، ويرتدي زياً مختلفاً بعض الشيء. إنه من شرطة «رود أيلاند». يرافق غرانجر وأندرسون ضابط ارتباط. إنهم يقومون باعتقالي ليتم نقلي إلى خارج الولاية.

«ما هي التهمة، ما هي التهمة؟» تدبّرت أمري لأقول ذلك. كان عليهم إخباري إذا سألت، وكان لي الحق بأن أعرف. إن الجهد الكبير الذي بذلته لإخراج هذه الكلمات كاد يفقدني الوعي تقريباً. جذبني غرانجر من ذراعي، وأطلق ضربة قوية جديدة في أضلعي. استطعت أن أشعر بزيادة الثقل في قدمي. وأوشكت أن أخرج من الباب عندما سمعت الإجابة من أندرسون.

«أنت معتقل بتهمة قتل «أرنولد نوفوسليك».

يا إلهي! آرنولد! قبل يومين من الآن لم أكن لأحزن لو سمعت أن آرنولد اشترى البطاقة الكبيرة. لكن الشعور مختلف الآن. لقد تحدثت معه في وقت مبكّر من هذا الصباح. وقد شتّت خبر موته تركيزي على حقيقة أنني قيد الاعتقال الآن.

«لماذا يقتل إيدي مستشاره الخاص بهيئة المحلّفين؟» قالت ديلاني وهي تتبعني وترمي بالأسئلة على أندرسون.

«ربما عليك أن تسألي فلاين»، أجاب أندرسون، «اسأليه لماذا لم يرتدِ قفّازات عندما حشر ثلاث عشرة ورقة نقدية من فئة الدولار في حنجرة نوفوسليك».

الفصل الخامس والستون

خرجت الحافلة من الساحة الخلفية لمبنى المحكمة. كان المحلّفون صامتين. كلٌ منهم يفكّر في الحجج النهائية لهذه القضية. يبدو أن معظمهم كان سعيداً لأنها انتهت تقريباً. نظر كين من نافذة الحافلة بينما كانت الحافلة تمر من أمام المحكمة، في الوقت نفسه الذي اعتقلت فيه الشرطة السيد فلاين، وأخرجته من المحكمة وألقت به في سيارة «سيدان» عادية.

سمح كين لنفسه بالابتسام. إنها فوائد الصداقة.

لقد وصل من جامايكا، نيويورك، إلى شقّة أرنولد في ولاية رود أيلاند بوقت قياسي. في البداية، لم يسمح له مستشار هيئة المحلّفين بالدخول. كان كين قد وعده بمفاجأة مذهلة؛ معلومات سريّة عن عضو محتال في هيئة المحلّفين، ويجلس الآن بين أعضاء الهيئة. وكان من الصعب على أرنولد أن يقاوم ذلك. دخل إلى الشقة الفاخرة، وطلب كوباً من الماء، ثم وقف خلفه وخنقه ووضعه على أرضية المطبخ. ثم أخذ نقوداً من فئة الدولار من صندوق قفازات يعود لسيارة أخفاها في مرآب مطار «جون كيندي». عليه أن يعمل بسرعة، واستخدم ملعقة لحشر بعض الأوراق النقدية في حلق أرنولد. ومع ذلك حرص كين على ترك ورقة واحدة بارزة من فمه. ووضع علامات على هذه الأوراق بقلم أحمر - وقام بتلوين جميع النجوم والأسهم وأوراق الزيتون والختم العظيم. إنها الورقة النقدية النهائية.

الورقة التي تحمل بصمات إيدي فلاين وحمضه النووي. وهي من ستضع إيدي فلاين خلف القضبان بعد أن أوشكت حياته المهنية أن تنتقل إلى مستوى أعلى؛ لقد أصبحت صورته في جميع الأخبار والصحف. وأصبح أهم محامٍ في مدينة نيويورك. وكان كين قد توقّع حدوث ذلك.

انتهى الحلم الأمريكي بالنسبة إلى إيدي فلاين.

الفصل السادس والستون

نزع غرانجر الأصفاد عني وطلب مني أن أستدير، ثم قيّد يدي أمامي. كان تصرّفاً صغيراً فيه بعض الرحمة. إن الجلوس في سيارة شرطة، ويداي مكبّلتان خلف ظهري من شأنه أن يؤدي إلى مزيد من الضغط على أضلعي. كنت سأفقد وعيي قبل أن نجتاز شارعين. لقد دفع رأسي إلى الأسفل وأدخلني في المقعد الخلفي لسيارة شرطة لا تحمل إشارات. سيارة مُخبر من المجموعة. كانت تعبق برائحة طعام فاسد، ومقاعدها ممزّقة.

إن التفكير بأرنولد والجريمة، والخنق بالأوراق المالية جعلني أشعر بالقشعريرة. لقد أوقع بي رجل الدولار مثلما أوقع بالآخرين.

فعلت ما بوسعي لتهدئة نفسي. كان عليّ أن أتجاهل الألم والتفكير.

فُتِح باب السيارة من جهة السائق ودخل غرانجر. ثم دخل شرطي رود أيلاند إلى المقعد المجاور للسائق أمامي. وشعرت أن السيارة قد انخفضت عندما دخل أندرسون إلى جانبي في المقعد الخلفي. كانت الجبيرة لا تزال على يده، فنظرت إلى وجهه ورأيت ما أخافني.

كان وجهه يتعرّق، ويرتعش أيضاً. دخل غرانجر بالسيارة في زحمة المرور وانطلق. لم أستطع أن أبعد عيني عن أندرسون. لقد كنت قاسياً عليه في المحكمة، وكسرت يده ببراعة أيضاً. كان لا بدّ له أن يشمت بي الآن، أن يحدّق بي ويستمتع بنصره. كان لا بدّ له ولشريكه أن يلقيا النكات ويتبوّلا على دفاعي، ويخيفاني، ويقولا لي إن كل شيء قد انتهى، أي إنني سأقضي بقية حياتي في السجن.

بدا الهواء داخل السيارة ثقيلاً جداً في هذا الجو. لقد ذكّرني بالأوقات التي كنت أقضيها في مؤخرات العربات، أو الجلوس في السيارة، منتظراً بدء عملية احتيال.

«شكراً لسماحك لنا بالقبض على هذا الرجل»، قال غرانجر ذلك عندما قام بتشغيل المحرك، والدخول في زحمة المرور.

«على الرحب والسعة. مساء الخير يا سيد فلاين، اسمي الشرطي فالاسكيز»، قال شرطي رود أيلاند قبل أن يحوّل انتباهه مرة أخرى إلى غرانجر.

«يسعدني أن قسم شرطتكم قد سمح لي بالتواصل معكم، هذا يعفيني من المشاحنات التي يخلقها القضاء. أستطيع القول إن السيد فلاين يمرّ بفترة قاسية جداً بينما نحن نتحدث».

«نعم، صحيح، لدينا تاريخ»، قال غرانجر ذلك ونظر في المرآة. وبدلاً من نظرة الرضا والاعتداد بالنفس رأيت شيئاً آخر؛ إنها الإثارة. إذا جلست باستقامة، أستطيع أن أرى عيني غرانجر في مرآة الرؤية الخلفية. كانت حدقتاه تدوران بشكل مسعور؛ كان يتفحّص الطريق والرصيف، ويختلس النظر إلى أندرسون في الخلف، ويُبقي عينه على شرطي رود أيلاند، المدعو فالاسكيز.

عرفت أن ثمة أمراً خطيراً يحدث. والشيء الوحيد الذي لم أعرفه هو ما إذا كان فالاسكيز متورّطاً أم لا. خمّنت أنه لم يكن متورطاً.

عندما سرنا على طريق «سنتر ستريت»، انحنيت إلى الخلف وشعرت بوجود هاتفي في جيب سترتي؛ إذ لم يقم أحد بتفتيشي. فكّرت بهم هم الثلاثة، آخذاً بعين الاعتبار أعمارهم، والطريقة التي يسيطرون بها على أنفسهم، ربما كان لديهم فترة خمس عشرة سنة من العمل المشترك فيما بينهم.

من غير الطبيعي بالنسبة لشرطي يمارس العمل منذ عشر سنوات أن ينسى تفتيش المشتبه به. جعلني هذا متوتراً. انعطف غرانجر عدة مرات، ثم اتجهنا شمالاً، ولم يخفف ذلك من قلقي. كان من المفترض أن نتجه إلى رود أيلاند. وكان الطريق الأسرع باتجاه الجنوب، مباشرة إلى شارع «فرانكلين روزفلت» المحاذي للنهر، وصولاً إلى الطريق السريع «أي - ٩٥». ليس هناك من شرطي جنائي في نيويورك كلها يمكن أن يذهب من طريق آخر. إنهم يعرفون المدينة أكثر من أي شخص آخر.

«إلى أين نحن ذاهبون؟» قلت ذلك وأنزلت يديّ ببطء إلى أسفل سترتي، ثم زلقت ذراعيّ إلى اليمين، باتجاه مقبض الباب.

«اخرس»، قال غرانجر.

«قلت: «blow me».

«افعل ما يقوله لك، وأغلق فمك اللعين»، قال أندرسون.

لم أفعل.

«إذا كنا ذاهبين إلى رود آيلاند، فلماذا لا نستخدم طريق فرانكلين روزفلت؟»

التفت الشرطي الموجود أمامي في المقعد المجاور للسائق، ونظر إلى غرانجر.

«بقدر ما يؤلمني أن أصرّح بذلك، لكن المحامي على حق»، قال فالاسكيز ذلك وهو يتفحّص ساعته.

«حركة المرور كثيفة على ذاك الطريق. سوف نعلق في الزحام في هذا الوقت»، قال غرانجر.

كانت الأشعة الأخيرة لضوء النهار تذوي بسرعة. وأضاءت جميع السيارات التي مررنا بها مصابيحها الأمامية. وبقيت سيارة المجموعة مظلمة بينما كان غرانجر ينعطف يساراً. أصبحنا الآن باتجاه الغرب. ثم جعلتنا سلسلة من الانعطافات السريعة إلى اليمين واليسار نتخذ ذاك الاتجاه.

نظرت من النافذة وقلت: «الشارع ثلاثة عشر الغربي، الجادة التاسعة؟ ما الذي نفعله في «ميت باكينغ ديستريكت؟»

«إنه طريق مُختصر»، قال غرانجر.

انحرفت السيارة إلى اليسار نحو طريق جانبي. كان البخار يتصاعد من المجاري، ويتوهّج بتأثير مصابيح الشارع، حتى بدا أشبه بجحيم كامن تحت مانهاتن.

«يجب أن أتوقّف للحظة»، قال غرانجر.

وهذا ما كان. لم يكن غرانجر يريد التوقف للحظة، ولم أكن في طريقي إلى رود أيلاند.

انحنى أندرسون نحوي. كان يريد أن يخرج شيئاً من سترته بيده اليسرى. وبسبب الجبيرة الموجودة على اليد اليمنى كان أندرسون بيد واحدة أساساً. انحنى إلى الخلف إلى جهة السائق فرأيت شيئاً يلمع في يده اليسرى. ثم ألقاه عند قدميّ، وأعاد يده ذاتها إلى جيب سترته. لم يسمح لي الوقت سوى بلمحة واحدة، وكان ذلك كل ما أحتاجه. كان بين قدميّ مسدس صغير.

«مسدس»، صرخ أندرسون. ثم أخرج يده من جيبه مشهراً مسدسه، كان يريد أن يقتلني مدعياً الدفاع عن النفس. هذا هو سبب عدم إجراء تفتيش لي قبل إدخالي إلى السيارة.

صرخ «أندرسون»: «مسدس»! ثم أخرج ذراعه وأخذ سلاحه. خطرت هذه الأفكار كلها في ذهني فجأة وأنا أتجه نحو أندرسون. ضربت أنفه برأسي، ثم اندفعت وأمسكت ذراعه اليسرى بيدي كلتيهما. واشتدّت الأصفاد على معصمي بينما كنت أنزل ذراعه اليسرى إلى الأسفل.

كان يقاوم بعنف. ثم نهضت من المقعد واستطعت أن أطوّق رأس غرانجر بمرفقي. انحرف إلى الجانب فامتدّت ساقه وضغطت دواسة الوقود، اندفعت السيارة إلى الأمام واندفعت بالاتجاه المعاكس لأستلقي في مقعدي.

كنت أتألّم بشدّة لكن الأدرينالين جعلني أقاوم.

رمى أندرسون مسدسه أيضاً. كان ينحني إلى الأمام ليصل إليه لكنه كان قد سقط تحت مقعد غرانجر. كنت أستطيع أن أرى ذراعه وهي تفتّش عنه. اهتزّت السيارة ورأيت شرارات نارية خارج نافذة أندرسون. لا بدّ أننا كنا نحتكّ بسيارة متوقفة. جلس أندرسون ووجّه المسدس إلى وجهي.

عندئذٍ اصطدم رأسه بسقف السيارة. فسقط المسدس وتطاير الزجاج على وجهي؛ لقد أطلق النار على زجاج نافذتي. كنت قد ترنّحت للأمام والخلف ثم سقطت على ظهري على مقعد السيارة الخلفي. وعندما جلست رأيت فالاسكيز يمسك رأسه؛ لم يكن يضع حزام الأمان. كان عمود الإضاءة قد دخل في الجزء الأمامي من سيارة المجموعة.

قبل أن يتمكن أندرسون من إعادة المحاولة، ثنيت ركبتي إلى صدري، وثبّتُ ذراعي على الباب خلف رأسي ورفست وجه أندرسون بكعب قدمي. اعتمدت في العزم على ظهري، واستخدمت ذراعي وعضلات صدري وبطني وساقي. كان جسدي أشبه بقوس مشدود لإطلاق سهم. لقد ركلته بكل ما أستطيع من قوة، لكنني أخطأت؛ لقد أصبته في جسده. وأدّت ركلتي إلى خروج أندرسون من باب السيارة إلى الشارع.

استهلكت الركلة الأخيرة كامل قوتي. حاولت أن أنهض لكن الألم كان شديداً، استلقيت وحاولت أن أصرخ بكل قوتي. أردت أن أتحرك، كان علي الخروج من هذه السيارة، لكنني لم أستطع حتى أن أجلس. كانت أنفاسي تخرج على شكل دفقات متقطعة تسبب لي آلاماً مبرّحة.

«سوف تموت يابن العاهرة»، قال غرانجر. نظرت إلى الأعلى فرأيته يخرج من مقعد السائق. كان الباب نفسه مفتوحاً بتأثير الاصطدام، وأخرج نصف جسده من السيارة. سمعت وقع أقدامه على الزجاج المحطم في الشارع. لم أستطع أن أراه إلا من خلال النوافذ الجانبية، لكنني رأيته يُخرج سلاحه من الجيب الجلدي المثبّت على كتفه. قفز فوق أندرسون، وصرخ، «إنه مسلّح»، ثم أطلق رصاصة.

غطيت رأسي.

لم أشعر بالرصاصة، ولا بالألم. لم أشعر سوى برذاذ شيء دافئ يرتطم بوجهي.

كان فالاسكيز يضع يده على كتفه ويصرخ.

لقد أطلق غرانجر النار عليه. سمعت صوت مسدّس غرانجر مرة أخرى عندما انفجر رأس فالاسكيز.

قال غرانجر: «لقد قتلتُ شرطياً للتو. هذا ما يحدث عندما تهدد أحداً منا بإدارة الشؤون الداخلية. إذا عبثت معنا، سأضع رصاصة في رأسك». عندئذٍ رأيت وجه غرانجر. انحنى على ركبتيه. وأمسك المسدس بيديه الاثنتين. كانت نظراته موجّهة إلى رأسي. كان أندرسون مستلقياً على الرصيف تحته، لم أكن أستطيع أن أرى سوى ذراعه وهي ترتفع في الهواء خلف غرانجر.

أردت أن أبكي، أن أصرخ، لكن ما من صوت. لو صدر مني أي صوت، لكنت سمعته على أية حال. كان كل ما استطعت أن أسمعه هو تدفّق الدم في أذني وكأنه محيط. وتصل نبضات قلبي إلى رأسي كأمواج صوتية.

أصبح غضبي أشد عندما فكّرت بابنتي. كان هذا الرجل يسلبها أباها. أبُ تافه لكنه في النهاية أب. وضعت يدي تحت جسدي على مقعد السيارة الجلدي، وضغطت على أسناني ووضعت كل ما تبقى لدي من قوة في محاولة للنهوض. كان المسدس الصغير الذي ألقاه أندرسون في الأرضية على بعد إنشات قليلة من أصابعي. لكن بدا بالنسبة إلي وكأنه في النهاية الأخرى لملعب كرة قدم.

انزلقت يدي وانهرتُ تماماً. وانزاح رأسي نحو غرانجر.

كان ابن العاهرة يبتسم في وجهي. مدّ ذراعه، ولقّم السلاح، ثم اختفى في عاصفة من الوميض وأزيز المعدن.

هززت رأسي وأغمضت عيني، ثم فتحتهما. كنت أرى الجهة الجانبية لسيارة؛ سيارة زرقاء، وسيارة أخرى تساندها بسرعة. ثم سمعت الهدير المألوف لسيارة الدفع الرباعي. ابتعدت السيارة عن مرمى بصري. فُتِح الباب خلفي ورأيت وجه هاربر فوقي تماماً. كانت عيناها فارغتين، وكانت تلهث، وفي يدها جهاز هاتفها، كان اسمي بارزاً على الشاشة. ضغطتُ زر الردّ على هاتفي فنطق الاسم الذي احتفظ به لهاربر.

«أنت مدين إلي بسيارة جديدة»، قالت هاربر وعيناها تدمعان. ثم وضعت يدها على صدري برفق.

قلت: «blow me».

سمعت صوت هاري، كان إلى جانب هاربر.

«هل هو بخير؟» سأل هاري.

سمعت صفارات سيارة الإسعاف وهي تدنو.

«أنا بخير يا هاري».

«الحمد الله. دعني أتذكر دوماً ألا أركب سيارة تقودها هاربر. كُنت سأُصاب بنوبة قلبية»، قال هاري.

«قالت ديلاني إنها ستتصل بشرطة رود أيلاند، لقد ورّطك رجل الدولار. سوف نخرجك من هذه الأزمة»، قالت هاربر.

عرفت أن ديلاني ستكون مُقنعة.

«أندرسون وغرانجر، هل هما...؟»

«لن يفعلاها ثانية»، قالت هاربر.

أومأت، وأغلق عيني، بدا طعم الدم واضحاً في فمي فابتلعته. ستكون هذه الليلة طويلة.

الجمعة

الفصل السابع والستون

الساعة الثانية وسبع عشرة دقيقة صباحاً.

كان كين مستلقياً في سريره ويحدّق بالسقف. كان يشعر بإثارة شديدة لا تجعله يفكّر بالنوم أبداً. لم ينفّذ يوماً مهمتين في فترة قصيرة جداً كهذه المرّة. كانت المخاطرة كبيرة، لكن بما أن نهاية حلمه كانت تلوح في الأفق، قرر أن ينتهز الفرصة. كان طوال حياته كلها يشعر بحصانة معيّنة.

إنه مميز، تماماً كما كانت والدته تخبره دوماً.

في مكان ما على الأرض، لا بدّ من وجود ساعة قديمة. كان كين يسمع صوت عقاربها تتكتك بنعومة. وفي غرفة ساكنة مظلمة، في منتصف الليل، تتضخّم تلك الأصوات بطريقة مصطنعة. يلتفت إلى الجانب ويتفحّص الساعة الرقمية على الطاولة الجانبية.

الثانية وسبع عشرة دقيقة صباحاً.

تنهّد، لا جدوى من محاولة النوم. أزاح الغطاء، وأنزل قدميه على الأرض. أصبح جرح ساقه بحالة جيدة الآن. وكان قد غيّر الضماد قبل ذهابه إلى النوم. لا وجود لإنتان ولا رائحة عفنة، ولا تورّم قاس حول الجرح.

مطّ جسده تاركاً أصابعه تلامس السقف وتثاءب.

كان ذلك عندما سمع ذاك الصوت. تجمّد في مكانه. لا تزال تكتكة الساعة في مكان ما في المدخل، لكنه يسمع الآن صوتاً آخر.

حركة، وقع أقدام على الدرج، الكثير منها. نهض كين بصمت، ولبس ملابسه الداخلية والسروال والجوارب.

عندما كان يحاول أن يربط حذاءه سمع الأرضية الخشبية تهتز. مرة، مرتين، ثلاث مرات. كان النسق الثاني أو الثالث من ألواح الأرضية الخشبية في الردهة يتضمن لوحاً غير ثابت. لقد لاحظه بالأمس.

لم يكن لديه ما يكفي من الوقت حتى ليرتدي قميصه، وضع سكينه في جيب سرواله وزحف باتجاه الباب. وضع أذنه على الأرضية الخشبية، أمسك أنفاسه وأصغى. شخص ما يقف في الممر. نهض كين ببطء ووضع عينه على ثقب الباب.

خارج غرفته، كان هناك أربعة رجال بالمعدات الكاملة للقوات الخاصة. درعٌ واقٍ أسود، سترات وقفازات وخوذات مزوّدة بكاميرات على جانبها، وكلٌ منهم مزوّد ببندقية هجومية. انسلّ بعيداً عن الباب وأسند ظهره إلى الحائط، وكافح كي يتحكّم بإيقاع تنفّسه. لقد وجدوه. بعد هذه السنوات كلها، لقد عثروا عليه أخيراً. شعر كين بطريقة ما بشيء من الفخر. لقد أدرك مكتب التحقيقات الفيدرالي أخيراً ما كان يفعله. كان يأمل على الأقل أن يستطيع أحدهم معرفة طرقة ويفهم عمله.

أشارت الساعة الرقمية على الطاولة الجانبية إلى الثانية وثلاث وعشرين دقيقة صباحاً.

أخذ نفساً عميقاً وزفره، وبدأ يركض عندما سمع صوت تشقق الخشب الناتج عن خلع الباب، وصراخ فريق القوات الخاصة عليه لينبطح على الأرض.

الفصل الثامن والستون

نظرت إلى ساعتي.

الساعة الثانية صباحاً.

كنت أتجمد من البرد في مؤخرة عربة قيادة مغلقة تابعة لمكتب التحقيقات الفيدرالية، وكانت أكبر بقليل من شاحنات «الفان» العادية ذات الأرضية المعدنية، وكانت مزوّدة بشاشات كمبيوتر من جهة واحدة.

جلست في الجهة المقابلة، أنفخ البخار من فنجان القهوة. كنت أحيط الكوب بكفيّ طلباً للدفء. لم يدخل أي شيء في معدتي منذ خمس عشرة ساعة إذا ما استثنينا القهوة والمورفين المسكّن. كان كلاهما جيداً، لكن المورفين أفضل قليلاً في هذه اللحظة. شعرت بالوهن العام، لكن الألم قد استقر. كانت الليلة الماضية سيئة بقدر ما كنت أخشاها. تم إطلاق سراحي بعد أربع ساعات من مركز الشرطة. ولو لم يقف إلى جانبي في هذه الحادثة قاضٍ في المحكمة العليا في نيويورك، ومُخبر سابق في مكتب التحقيقات الفيدرالي، وأحد كبار المحللين في المكتب، لكنت بقيت في الزنزانة يومين على الأقل. قامت هاربر بتسوية الأمر في نهاية المطاف. وهي لم تتلقّ مكالمتي في نهاية المطاف بل سجّلتها أيضاً.

خلال ساعة واحدة فقط، انضمّ قسم الشؤون الداخلية إلى التحقيق، وكان ملفّ أندرسون وغرانجر لديهم طويلاً جداً. ولم يتطلّب الأمر الكثير من وقتهم حتى وصلوا إلى سجلات الهواتف المحمولة، ورسائل البريد الصوتي، والرسائل النصية، ورسائلهما على «الواتس آب». كان كل شيء بيد الشرطة وقسم الشؤون الداخلية. كانا مذعورين لأنهما سيواجهان عقوبة السجن مدى الحياة بجريمة قتل أرنولد، سأحاول رشوة النائب العام في قضيتهما لتخفيف العقوبة. في عالم رجال الشرطة الفاسدين، والعصابات، وأي عملية إجرام منظّمة، لا شيء يقتلك أسرع من الاعتقال.

لقد شهدتُ ذلك من قبل.

كانت الخطة تقوم على قتلي، ثم يحمل أندرسون المسدس الصغير ويضع الرصاصة الثانية في مؤخرة رأس فالاسكيز. سوف يلومان الشرطي القادم من منطقة ثانية لأنه لم يفتشني. كان كل ذلك واضحاً في رسائلهما وبريدهما

الصوتي. لم يحظيا بالوقت الكافي للتخلّص من الهواتف المحمولة التي كانا يستخدمانها. ص٣٣٠

لقد استغلّا الفرصة عندما علما أن لدى شرطة رود أيلاند أدلّة ضدي. وتساءلت عما إذا كان رجل الدولار قد توقّع محاولة قتلي على يد أندرسون وغرانجر. هذا لا يتوافق مع أسلوبه. إنه يريد محاكمة فوضوية علنية عادة. ولم يكن يريد أن أتلقّى رصاصة في مؤخرة سيارة شرطي.

وصل التقرير البدائي للطب الشرعي بعد ثلاث ساعات، وأكّد أن فالاسكيز أُصيب برصاص شخص كان خارج السيارة، مُستخدماً سلاح غرانجر. وجاء اختبار فحص رواسب إطلاق الرصاص إيجابياً بالنسبة لغرانجر، وسلبياً بالنسبة إلي.

كان عليّ أن أعود لإجراء استجواب كامل في قسم الشؤون الداخلية كي يتمكنوا من الدخول إلى بقية قسم جرائم القتل كالإعصار، وقد سمحوا لي بالعودة إلى البيت في الوقت الحالي بعد أن فحصني الطبيب وأعطاني مسكناً للألم.

عندما خرجت أنا وهاربر، ظهرت لدينا سلسلة مكالمات هاتفية فائتة من ديلاني. اتصلت بها هاربر، واتجهنا مباشرة إلى مبنى التحقيقات الفيدرالية. وسألتها ما إذا كان هاري سيأتي أيضاً. لقد حقق مكتب التحقيقات الفيدرالية تقدماً كبيراً، وسوف يحتاجون إلى تفويض تفتيش فيدرالي، ويريدون مساعدة هاري في ذلك.

كان ذلك قبل ساعات مضت. وأنا أتجمّد الآن في الجزء الخلفي من عربة متوقفة على الطريق الوحيد الذي يؤدي إلى فندق غرادي. فُتِح الباب الخلفي ودخل هاري ومعه «جين» كاتبة العدل. كانت سيدة في الخمسينات من عمرها، ترتدي بلوزة لؤلؤية وتنورة ثقيلة ومعطفاً من الصوف السميك. لقد أحضرت معها آلة كاتبة صغيرة في حقيبة محمولة، ويمكن الحكم من ملامحها أنها كانت مستاءة جداً لإخراجها من سريرها إلى هنا في الساعة الثانية صباحاً.

«بريور هنا. رأيته يركن سيارته»، قال هاري.

أومأت برأسي وأخذت رشفة قهوة. أخرج هاري عبوة ويسكي معدنية مسطحة صغيرة واستمتع بالمشروب. لدى كل منا طريقته ليحافظ على

الدفء. جلست جين إلى جانب هاري، وفتحت حقيبتها ووضعت الآلة الكاتبة في حضنها.

دخل بريور إلى العربة وتبعته ديلاني. جلسنا على المقاعد المنسدلة على جانب واحد. لقد كانت عربة كبيرة، وفيها أماكن لأربعة أشخاص أو خمسة آخرين. لكن عليك أن تتذكّر أن تحني رأسك عندما تدخل. جلست ديلاني في كرسيّ دوار بمواجهة شاشات الكمبيوتر. ووضعت السماعات الرأسية وقالت: «فريق فوكس، استعد لتلقي الأوامر».

«هلا سمحتم وأخبرتموني ما الذي أفعله هنا بالضبط»، قال بريور.

«هل نحن نقوم بالتسجيل يا جين؟» قال هاري.

زمّت شفتيها، لكن الطريقة التي طرقت بها أصابعها على لوحة مفاتيح آلتها الكاتبة أجابت على سؤال هاري.

«سيد بريور، نحن نقوم بتسجيل قضية النيابة العام ضد روبرت سولومون. أردتك أن تكون هنا لأنني أوشك أن أمنح تفويض تطبيق القانون ضد أحد أعضاء هيئة المحلّفين في هذه القضية. والآن، من الناحية القانونية، وبموجب قواعد الاحتجاز، تكون هيئة المحلّفين تحت رعايتي وسلطتي حتى يتم إصدار الحكم. وبما أنه لم يصدر الحكم حتى الآن، فإذا رغب أي مسؤول في قسم إنفاذ القانون، أو أية هيئة حكومية، بالتحدّث مع أحد المحلّفين، فإنهم بحاجة إلى تفويض شخصي مني. ومن هنا أردت حضورك أنت والسيد فلاين حتى تتمكنا من إبداء أية اعتراضات، ومتابعة هذا التدخّل في حال حدوثه. إننا في هذا الموقع الآن بناءً على طلب مكتب التحقيقات الفيدرالي، ومن أجل سلامة هيئة المحلّفين. لم تستقرّ الحالة بعد، ولا يستطيع مكتب التحقيقات الفيدرالي توفير الوقت للدخول إلى مبنى المحكمة. يجب أن يتم التفويض لهذه العملية في الموقع. واضح؟»

«لا، ما الذي يجري؟» قال بريور.

«إنه رجل الدولار، إنه فعلاً بين أعضاء الهيئة»، أجبته.

تردد صدى صوت مدوٍّ في العربة بسبب ارتطام رأس بريور بسقفها. لقد كان محامياً بالفطرة، يقدّم المحامون حججهم وهم واقفون على أقدامهم. جلس في مكانه ووضع يده أعلى رأسه.

«هذا كله تزييف للحقائق. من خلال إعطاء الصلاحية بهذا التدخّل في هيئة المحلّفين، فإنك تمنح المصداقية الكاملة لحجج المتهم كلها. أنت تعترف بشكل أساسي أن الدفاع صحيح. لا يمكنك أن تفعل ذلك يا حضرة القاضي»، قال بريور.

«أستطيع يا سيد بريور. هل تطلب إلغاء المحاكمة؟»

هذا الكلام أخرسه. إنه يعرف أن موقفه قوي في القضية. وعليه أن يقدّر ما إذا كان هذا يرجّح كفة الميزان لصالحي.

«سأحتفظ بموقفي من إيقاف المحاكمة حتى الصباح يا حضرة القاضي، إذا كان هذا يُرضي المحكمة؟» أجاب بريور بحذر.

«حسناً، الآن، واستناداً إلى المعلومات التي وصلتنا من العميلة ديلاني، أصرّح باعتقال عضو الهيئة، أليك وين. لدينا سبب للاعتقاد بأن أليك هو القاتل المتسلسل المعروف باسم رجل الدولار، والذي يقوم أسلوبه على توريط أشخاص أبرياء بجرائمه، عن طريق زرع أوراق نقدية من فئة الدولار في مسرح الجريمة، وهو ما يربط أولئك المتهمين بجرائم الجاني. ثم يقوم رجل الدولار بقتل محلّف محتمل في تلك المحاكمة، وانتحال شخصيته، من أجل ضمان حكم الإدانة. أما الأدلّة المقنعة التي قدّمتها ديلاني هذا المساء فهي كالآتي....»

كنت أعرف الأدلّة مُسبقاً. كانت ديلاني قد راجعتها معي ومع هاربر في مبنى التحقيقات الفيدرالية.

تابع هاري من أجل التسجيل. «لقد سمحت بإجراء فحص في المخبر الجنائي لكل دفاتر الملاحظات الخاصة بأعضاء الهيئة بعد طرد المحلّف سبنسر كولبيرت. وقد أخذ مكتب التحقيقات الدفاتر بإذن مني، ووفقاً لإفادة العملية ديلاني، فإن أول دفتر ملاحظات خضع للاختبار كان دفتر أليك وين. وتؤكد العميلة أن هذا الدفتر خضع للفحص استناداً إلى أدلّة قدّمها محامي الدفاع إيدي فلاين».

نظر بريور إلي، ثم التفت إلى هاري. كان مغتاظاً جداً.

«من أجل التسجيل يا سيد فلاين، ما هي الأدلّة التي قدّمتها للعميلة ديلاني؟»

«اعتمدت على مكالمة هاتفية أجريتها مع آرنولد نوفوسليك، مستشار الهيئة المعتمد لدى الدفاع. كان قد لاحظ نشاطاً مشبوهاً لهذا العضو....»

«أعترض، نشاط مشبوه؟» صاح بريور.

«لاحظ أرنولد تغيّراً في مظهر هذا العضو، وتبدّلاً في تعابير وجهه. كان أرنولد خبيراً بلغة الجسد بالإضافة إلى أشياء أخرى، ورأى أن هذا السلوك غير عادي بما يكفي لإبلاغي».

«هذا هو الأمر؟ ستفوّض الأمر باعتقال عضو في هيئة المحلّفين بسبب تغيير في ملامح الوجه؟» قال بريور. كان يوجّه لكماته في وقت مبكّر، أراد أن يُظهر اعتراضه في التسجيل في حال فشلت هذه العملية.

«لا»، قالت ديلاني، «إن دليل البصمات الذي تم الحصول عليه من دفتر ملاحظات أليك وين هو المُقنع. تتطابق بصمات الأصابع الموجودة على دفتر ملاحظاته مع مشتبه به في قاعدة البيانات الوطنية يُدعى جوشوا كين. المعلومات عن هذا الشخص نادرة جداً. لا مكان ولادة، ولا تاريخ ميلاد، وليس له عنوان حالي. إننا نعرف أنه مطلوب لتورّطه بجريمة قتل ثلاثية وحريق. ليس لدينا المزيد من التفاصيل حول تلك الجرائم سوى أنها وقعت في ولاية فيرجينيا. لقد طلبنا ملفّ الجريمة، ونحن بانتظار استلامه من شرطة «وليامسبيرغ». قدّمنا الطلب قبل ساعتين، وقمنا باستعجاله عدة مرات. نتوقّع الحصول على الملفّ مرفقاً بصورة كين في أقرب وقت ممكن».

أومأ هاري موافقاً.

«بناءً على بصمات الأصابع، والارتباط المحتمل بمجرم الدولار، أسمح بتوقيف العضو أليك وين. هل هناك أي اعتراض أيها المحامون؟»

قلت: «لا».

«أريد تدوين اعتراضي. يضرب هذا الإجراء صميم الإجراءات القانونية»، قال بريور.

«تم التسجيل. يمكنك متابعة العمل أيتها العميلة ديلاني»، قال هاري.

قالت ديلاني وهي تدور في كرسيها باتجاه الشاشات: «فريق فوكس، نفّذ العملية».

ثمة خمس شاشات موزّعة على نصف طول العربة. أربعة منها تُظهر الكاميرات الموجودة على خوذات فريق القوات الخاصة، بينما تُظهر الأخيرة بريد ديلاني الإلكتروني. كانت تفعّل بريدها كل بضع ثوان. كلما زادت معلوماتها عن كين، كان أفضل. تحرّكت كاميرات الفريق صعوداً وهبوطاً. كان بإمكاننا سماع أصوات أحذيتهم على الأرض، وعندما انعطفوا، ظهر فندق غرادي. كان مكاناً قديماً، قديماً حقاً. يبدو أشبه بفندق يرتاده السياح عندما يريدون الموت.

عرض أول رجال القوات الخاصة هويته أما البواب الذي بدا وكأنه يفوق الفندق سناً. تحدث بهدوء إلى الحارس الليلي في مكتب الاستقبال، وتحققوا من رقم غرفة أليك وين، وأخبروه ألا يُجري أي اتصال. صعدوا السلالم ببطء. راقبت كاميرا العميل في وسط المجموعة، واستطعت أن أرى العميل أمامه وقد أشهر بطاقته أمام شرطي المحكمة الذي كان يحرس الممر. طلب من الحارس أن يقف خلفهم بعد أن عرض أمامه مذكرة من القاضي بالقبض على أليك وين. أكّد شرطي المحكمة أن هذه هي الغرفة المطلوبة. وبحذر شديد، تقدّم فريق القوات الخاصة.

توقفوا أمام الباب. شغّلوا المصابيح الكاشفة التي كانت تحت فوّهات بنادقهم الهجومية.

قام قائد القوة الخاصة بالعدّ التنازلي بدءاً من ثلاثة.

تشير ساعة الكاميرات إلى الثانية وثلاث وعشرين دقيقة صباحاً.

ثلاثة.

اثنان.

صوت رنين ناعم. عرضت شاشة البريد الإلكتروني الخاص بديلاني وصول رسالة إلكترونية عليها رمز «عاجل».

واحد.

فُتِحَ الباب وسلّطت المصابيح الكاشفة ضوءها الساطع على وجه كين الذي كان واقفاً عند طرف سريره جاحظ العينين، عاري الصدر. ثم رفع يديه بشكل عفوي.

«الشرطة الفيدرالية! انبطح، انبطح على الأرض الآن!»

ركع، ارتجفت يداه وفتح ذراعيه على الأرض. وفي غضون ثوان قليلة تم تفتيشه وتقييده.

قال بريور: «لقد اكتفيت من كل ذلك». ثم نهض ولفّ معطفه على جسده وخرج من العربة، ثم أغلق الباب بقوة.

أعدت انتباهي إلى مجموعة الشاشات. سحب أحد رجال القوات الخاصة أليك وين من قدميه، ونظر الآخر إليه. كنا نحظى برؤية كاملة على الشاشة.

«يا إلهي، لا تؤذِني يا إلهي! أنا لم أفعل أي شيء»، قال أليك وين. كان وجهه مغطى بالدموع والإفرازات الأنفية، وكان جسده كله يرتجف من الخوف.

اصطفّ أعضاء القوة الخاصة التي تواجه كين، ورأيناه يرفع يده إلى وجهه. وتمتم بضع كلمات حالما رأينا ما كان ينظر إليه.

ثمة بقعة داكنة تنتشر بين رجليه. وكبرت عندما انحدرت على ساق واحدة. لقد فقد وين السيطرة على وظائفه الفيزيائية. كان يرتجف من الهلع، ولا يكاد يقدر على الكلام.

شتمت ديلاني، وتفقّدت بريدها الإلكتروني. كانت رسالة من شرطة «وليامسبيرغ» تتضمن موجزاً عن ملف جوشوا كين. قمت أنا وهارير من مقعدنا وانحنينا فوق كتف ديلاني. بدا أن كين مطلوب بقضية تتعلّق بقتل واغتصاب طالبة في المدرسة الثانوية تُدعى جنيفر موسيك، وطالب مدرسة ثانوية آخر يدعى ريك طومسون. كانت آخر مرة ظهرا فيها هي ليلة حفل تخرجهما من المدرسة الثانوية. أما الضحية الثالثة فهي «راشيل كين»، والدته. تتهمه الشرطة بأنه اختطف جنيفر واغتصبها وعذّبها وقتلها، ثم أخفى جثّتها في شقة والدته. كما تم عمد إلى قتل والدته وإضرام النار في البيت كله.

يتابع الملف بأنه تم العثور على جثة ريك طومسون محشوراً في سيارته في خزان للمياه.

ثمة صورة بالأبيض والأسود للمدعو كين - تم مسحها ضوئياً بشكل سيئ، وكان من الصعب تحديد تفاصيل دقيقة لملامحه، لكن لم يبدُ مثل وين.

نظرت إلى الشاشة مرة أخرى فوجدت وين منهاراً تماماً. كان يبكي ويتوسّل الرحمة. لم يكن تمثيلاً أبداً. لا بدّ أن لدى جوشوا كين خصيتين فولاذيتين لكي يتمكّن من ارتكاب تلك الجرائم كلها، وينتحل شخصيات للدخول إلى هيئات المحلّفين. لم يبدُ أن أليك وين قادر على العثور على خصيتيه بأي من يديه.

قلت: «اللعنة». أخرجت هاتفي وفتحت سجلّ مكالماتي. بحثت فيها حتى وصلت إلى مكالماتي مع أرنولد الليلة الماضية. لقد أجريت المكالمة في الساعة الرابعة والنصف صباحاً. ولم تكن مكالمة طويلة. أفكّر الآن بأن أرنولد كان في المنزل، في شقته في ولاية رود أيلاند. ومع التغاضي الكامل عن حدود السرعة، ووجود حركة مرور قليلة أو معدومة، سيحتاج كين إلى ما يقارب الساعتين من رود أيلاند إلى مطار جون كيندي.

«ديلاني، اطلبي من القوة الخاصة أن يسأل شرطي المحكمة متى أيقظ المحلّفين لتناول الإفطار أمس».

نقلت ديلاني الطلب، وذهب أحد رجال القوات الخاصة إلى القاعة، ورأيناه يتحدث مع الشرطي.

«يقول إنه أيقظهم حوالي الساعة السادسة وخمس وأربعين دقيقة صباحاً على أقصى تقدير».

بعد مكالمتي القصيرة مع أرنولد، لم يكن بوسعه قتله والعودة إلى نيويورك، وإخفاء سيارته، والعودة إلى فندق غرادي، والتسلل إلى غرفته، خلال فترة قصيرة كهذه.

«قبضنا على الرجل الخطأ»، قلت لديلاني.

لم تقل ديلاني أي شيء. كانت لا تزال تقرأ البريد الإلكتروني الذي وصلها عن كين.

بدأ هاري يحكّ رأسه، ثم أخذ جرعة ويسكي أخرى من عبوته المعدنية.

«أخبرني أرنولد الليلة الماضية على الهاتف أن أليك وين يخفي ملامح وجهه الحقيقية. لكنني أعتقد الآن أنني عندما تحدثت مع أرنولد في ذلك الوقت، كان أرنولد ميتاً. لم أكن أتحدث حينها مع أرنولد بل مع كين».

«مع كين؟» قالت ديلاني.

«بالتفكير في الأمر الآن، لم يكن لديه الوقت للعودة من ولاية رود أيلاند إلى الفندق. هذا غير ممكن ما لم يكن قد قتل أرنولد مُسبقاً. لقد أبعدنا رجل الدولار عنه، وقادنا نحو أليك وين»، قلت لديلاني.

«يا إلهي!» صرخت ديلاني. ثم أمسكت هاتفها وأجرت اتصالاً، وأجاب الطرف الآخر على الاتصال.

«دفتر الملاحظات الذي أجرينا الاختبار عليه. الذي كان عليه اسم أليك وين. أريد أن تختبر كل دفاتر الملاحظات وتخبرني ما إذا كان ثمة دفتر ملاحظات يحمل الاسم ذاته»، قالت ديلاني.

بينما كنا ننتظر النتيجة، استمرّت بتقليب صفحات الملف الأصلي الذي أرسلته شرطة ويليامسبيرغ إلى ديلاني.

رأيتها تنتفض لقد اكتشفت شيئاً.

«ليس أليك وين بالتأكيد»، قالت وهي تحدق في الشاشة. جاء صوت من الطرف الآخر للخط مؤكداً أن هناك دفتري ملاحظات يحملان اسم أليك وين. لقد وضع كين اسم وين على دفتر ملاحظاته.

اقتربت أكثر لأرى ما كانت تبحث عنه ديلاني.

تم قتل كل من جنيفر موسكي وراشيل كين عام (١٩٦٩). في تلك اللحظة، عرفت تماماً من هو جوشوا كين فعلاً. وكذلك ديلاني. كان عليها أن تتصرّف بسرعة وتدفع عنها الشكوك وتعمل بشكل لحظي.

أصدرت ديلاني أمراً لفريق القوات الخاصة، فأبعدتهم عن أليك وين ووجّهتهم نحو هدف آخر.

رنّ الهاتف وكانت هاربر على الخط. كانت في طريقها إلي هنا بعد أن عثرت على صورة لمجرم الدولار في قصاصات الصحف القديمة. وتابعت كلامها حيث ذكرت اسم عضو هيئة المحلّفين.

كان العضو نفسه الذي كنت أفكّر فيه.

ابن العاهرة.

الفصل التاسع والستون

بينما كان فريق القوات الخاصة يقترب من باب الغرفة المجاورة لغرفة كين، فتح مصاريع النافذة بسرعة وصعد إلى السطح. لا وقت لديه للتدافع على البلاط وصولاً إلى الطابق السفلي، بوجود الدرابزين الموجود على الحواف الخارجية للنوافذ.

كل ثانية هامّة الآن. انزلق من السقف ساحباً ذراعيه فوقه. لم يكن يرتدي قميصاً، وكان يشعر بالجدار المائل يكشط جلده. لم يشعر بالألم، مجرّد شعور بأن الجدار ينهش من جلده. ترك ساقيه تنزلقان إلى نهاية السقف، وبعدها جزعه. أمسك بالمزاريب بيديه كلتيهما ليخفف من حدة السقوط، وليسمح بتوجيه حركته نحو ضفّة ثلجية تبلغ اثنتي عشرة قدماً من الثلج.

تدحرج على الثلج خلف الفندق، وانطلق نحو الأشجار بعيداً عن الأضواء التي كان بإمكانه رؤيتها أمامه. أضواء حمراء وبيضاء وزرقاء كاشفة. يقف الفريق الأمني على المدخل الخاص المؤدي إلى فندق غراي مباشرة. لم يتردد أبداً، بدأ يركض إلى يسار الأضواء. كان يتنفس بصعوبة، يستنشق رطوبة الضباب في هواء الليل البارد. ومع أنه كان عاري الصدر تماماً، إلا أنه لم يشعر بأي ألم. إنه لا يشعر بالبرودة والحرارة كالأشخاص العاديين. كانت هذه الحواس صامتة، لكن الهواء البارد جعله يرتعش.

على حافة الأشجار رأى مصابيح سيارة تغادر الفندق. سيارة «أستون مارتن» بيضاء. وقف كين في الطريق ولوح بيديه في الهواء. توقّفت السيارة وخرج آرت بريور من باب السائق.

«السيد سامرز؟ هل أنت بخير؟ ما الذي تفعله هنا في هذا الطقس؟ أنت عجوز، وقد يقتلك هذا البرد»، قال بريور.

عقد كين ذراعيه أمام صدره وهو يرتجف.

«أعط... أعطني معطفك من فضلك»، قال كين.

خلع بريور معطفه ووضعه على كفي كين.

«سمعت صوت إطلاق نار وصراخ، شعرت بالخوف وهربت»، قال كين.

«تعال معي إلى السيارة، سأنقلك إلى مكان آمن».

أدخل كين ذراعيه في أكمام المعطف، واتجه إلى الباب المجاور للسائق، وركب السيارة. صعد بريور من جهة السائق وأغلق الباب، وعندما التفت عضو الهيئة المعروف باسم برادلي سامرز، والبالغ من العمر ثلاثة وستين عاماً، حدّق برعب في صدر الرجل. كان قد أبقى المعطف مفتوحاً ليرى بريور عمله.

صرخ بريور: «يا إلهي!».

قلّة من الرجال شاهدوا صدر كين، وألقى بريور نظره على مجده الكامل عبر الأضواء الداخلية للسيارة. كان صدره عبارة عن كتلة من أنسجة الندب البيضاء. خيوط متشابكة من الندوب الممتدّة لتشكيل صورة الختم العظيم. نسر يمسك السهام بقدم، وأغصان الزيتون بالقدم الأخرى. وتنتشر مخالبه على جانبي بطن كين. واجتمع الدرع والنجوم فوق رأس النسر، على عظام صدره.

أخرج السكين من جيب سرواله ووضعه في حضنه وقال: «أخرجني من هنا، يقع فندق هوليداي على بعد ميل. اركن السيارة هناك ولن تُصاب بأذى».

شغّل بريور المحرك، وبدت قدمه ثقيلة جداً على دواسة السرعة بينما كان يحدّق بالسكين. طلب منه كين أن يهدأ. انطلقا بالسيارة مدة بضع دقائق، حتى وصلا إلى فندق هوليداي. كان بريور يلهث كل حين ويتوّسل إليه أن يُبقي على حياته.

ركنا السيارة في زاوية مظلمة من الساحة الخلفية المهجورة. كان فندق هوليداي على بعد ألف متر.

«أريد ملابسك وسيارتك، سأدعك تأخذ محفظتك. إن المسافة قصيرة إلى فندق هوليداي في الشارع المقابل. وإذا رفضت، سأضطر إلى أخذها بالقوة».

لم يكن بحاجة إلى الطلب مرتين. خلع بريور ملابسه كلّها باستثناء الداخلية، وقذفها إلى المقعد الخلفي كما طلب كين.

«اخرج من السيارة الآن»، قال كين.

فتح بريور الباب واستطاع كين أن يرى البرودة تضربه على الفور. لقد وقف بحذائه وجواربه محاولاً أن يقي نفسه من البرد في موقف السيارات الخالي

المظلم.

«محفظتي»، قال بريور.

ركب كين في مقعد السائق وأغلق الباب، ثم أنزل النافذة وألقى المحفظة على الإسفلت.

اقترب بريور، انحنى ليلتقط المحفظة. وعندما انتصب واقفاً، التقى وجهاً لوجه مع كين وهو يحدّق فيه.

تجمّد في مكانه. ثم ارتعشت ساقاه واهتزّتا، غرس كين نصل سكينه في محجر عينه اليسرى وترك جسده يتهاوى.

وبسرعة كبيرة، ارتدى كين ملابس بريور. كانت كبيرة للغاية لكن لم يكن ذلك ذا أهمية الآن. وخلال بضع دقائق، كان يتجه نحو مانهاتن بسيارة «أستون مارتن». لا يمكنه أن يسمح لمكتب التحقيقات الفيدرالي أن يقف في وجه مثاله الأعلى. ثمة رجل آخر يجب أن يُقتل.

لا يمكن لأي شيء أن يوقفه.

الفصل السبعون

وجدت القوات الخاصة غرفة «برادلي سامرز» فارغة. بقيت النافذة مفتوحة فتسلّق قائد المجموعة إلى السطح، ونظر حوله، ورأى آثار الأقدام في الممر الثلجي. للتأكيد فقط، أمرت ديلاني بالتفتيش في طوب المبنى والإسمنت والأرضيات. استغرق الأمر نصف ساعة، وعندما انتهى مكتب التحقيقات من التفتيش، كانوا مُقتنعين بأنهم أزعجوا جميع المقيمين في الفندق، وأن آثار الأقدام تشير إلى مغادرة الفندق، ولا يوجد أية إشارة على أن رجل الدولار عاد إليه.

كان جوشوا كين حراً طليقاً.

كانت السرعة التي عمل بها مكتب التحقيقات الفيدرالية رائعة ومخيفة. ففي غضون دقائق بعد استكمال البحث، تم إبلاغ جميع وكالات تطبيق القانون بالأمر. ثم وصلت هاربر ولديها صورتان من قصاصات الصحف. وثمة شخص، يشبه الشخص ذاته، وفي أواخر الخمسينات، موجود في الصورتين كلتيهما. إحداهما وهو يخرج من قاعة المحكمة، والأخرى وهو يدخلها. كان الرجل في خلفية الصورة في الحالتين. رجل بلون شعر مختلف، وملابس مختلفة، لكن ملامح الوجه ذاتها تقريباً. باستثناء أنف «سامرز» المكسور، كان الرجل هو ذاته. جلستُ مع ديلاني في عربة القيادة وتفحّصنا الصور، كان هاري لا يزال ينتظر أن يجيب بريور على اتصالاته. وكان بوبي في الطريق إلى إلغاء المحاكمة. ما من شك في ذلك.

قالت ديلاني وهي تتفحّص الصور: «إلى أين سيهرب؟»

«هل يمكن أن يعود إلى شقّة برادلي سامرز؟»

«لديّ عميل متجه إلى هناك الآن، لكنه احتمال بعيد. لم ينجُ هذا الرجل كل هذه المدّة من الاعتقال وهو يرتكب أخطاء مبتدئين».

«لا أصدّق كيف يفلت من كل ذلك! أعني أنه يفعل ذلك منذ عقود»، قالت هاربر يزعجني كثيراً كيف تسمح سلطات تطبيق القانون بحدوث ذلك. ربما كانت الأمور تسير بهذه الطريقة. كان قسم جرائم القتل في كل مدينة وكل ولاية، يعمل فوق طاقته. لقد تابعوا الأدلة كلها. ولم يكن لديهم الوقت الكافي للتشكيك بها. بطريقة ما لم يكن ذلك خطأهم. لقد تلاعب بهم قاتل متوحش

شديد الذكاء، ولم يكن لديهم الوقت للنظر في البدائل. ومع ذلك، ربما ساعد الحظ رجل الدولار للوصول إلى هذا الحد. الكثير من الضحايا. وكل ذلك لدعم رؤية غبيّة خاصة به.

فكّرت بكل ما أعرف عن كين، وعن الجرائم والمحاكم والضحايا، ونموذج الختم العظيم.

لا يمكن لهذا الرجل أن يترك مشروعه يتهاوى. يريد حتماً إتمام المهمّة.

«هاربر، اتصلي بهولتن الآن مباشرة. هذا الأحمق المجنون مندفع ولديه وساوسه، سوف يحاول إنهاء القضية بشروطه. أعتقد أن كين يتعقّب بوبي».

بعد ثلاث دقائق كنت إلى جانب هاربر في سيارتها المستأجرة، ووضعت يدي على لوحة القيادة بينما كانت تتبع عربة القوات الخاصة، وتدخل ضمن زحمة السيارات وتخرج، وتتعقّب صفير سيارات الشرطة.

«حاولي الاتصال بهولتن مرة أخرى»

استخدمت الأوامر الصوتية لهاتفها فاهتزّ على لوحة القيادة. رأيت شاشته تضيء وتنعكس على الزجاج الأمامي، ترددت نغمة الرنين عبر نظام البلوتوث داخل السيارة.

لا إجابة.

قلت لها: «سأحاول الاتصال بـ «بوبي» مرةً أخرى».

اتصلت به. لا بدّ أن جهازه مغلق. على الأقل لم يكن هاتف هولتن مغلقاً. كل ما نحتاجه هو أن يردّ على ذلك الهاتف اللعين.

«رجال الشرطة في طريقهم إلى هناك على أية حال»، قالت هاربر.

قبل مغادرتنا، كانت ديلاني قد وجّهت نداءً عاجلاً إلى شرطة نيويورك للحضور إلى منزل بوبي والتحقق من سلامته. سيصلون في أية لحظة. كما طلبت أن يذهب أحد العملاء الفيدراليين إلى هناك والتأكد من إغلاق المكان.

عادة ما تستغرق المسافة من جامايكا إلى وسط مانهاتن مدّة ساعة بالسيارة. عبرنا طريق «كوينز ميدتاون» السريع في أقل من عشر دقائق، وكان مشهد

الأفق المألوف يلوح أمامنا؛ مبنى الأمم المتحدة المضاء كبطاقة بريدية خلف نفق «ميدتاون».

صوت هاتف هاربر. إنها ديلاني.

«تلقيت اتصالاً من شرطة نيويورك، لقد اتصلوا بعناصر أمن سولومون؛ كل شيء بخير. لقد طلبت من الشرطة إرسال سيارة شرطة خاصة، وطلبت من عميل الشرطة الفيدرالية أن ينسحب. سنقوم بتشغيل صفارات الإنذار عبر النفق، ثم نتابع بصمت. سأنتقل إلى سيارة بدون إشارات، وأمسح المنطقة. لم يصل كين إلى منزل سولومون بعد، وإذا كان يراقب المنزل عن بعد، فلا أريد أن أخيفه».

«فهمت، لكن لن يكون ثمة ضرر في أن نقوم أنا وإيدي بزيارة للموقع، أليس كذلك؟» قالت هاربر.

«دعيني أمسح الموقع أولاً ثم أخبرك. بالمناسبة، سمعت للتو خبراً من مختبر الطب الشرعي حول تحليل الحمض النووي الذي حصلنا عليه من دفتر ملاحظات أليك وين، مع وجود بصمات كين عليه. لم يكتمل تحليل الحمض، ولن يكتمل قبل عشر ساعات أخرى. لكن النتائج الأولية تتطابق مع ريتشارد بينا، رجلنا الميت الذي كان حمضه النووي على ورقة الدولار الخاصة بكارل توزر. وبمجرّد اكتمال التحليل، سنعرف على وجه اليقين. أريد منك يا هاربر أن توافيني بما وصلت إليه عن ريتشارد بينا. ثمّة علاقة في موضع ما بين ريتشارد بينا، وكين»، قالت ديلاني.

فقدنا جميع إشارات الهاتف عندما دخلنا في النفق. لا يهم. ما كنت قادراً على رفع يدي عن لوحة القيادة على أية حال، ليس بالطريقة التي تقود بها هاربر على الأقل؛ كانت تلتصق بمؤخرة سيارة القوات الخاصة وهي بسرعة خمسة وسبعين ميلاً في الساعة، بوجود سيارات أخرى وجدار على بعد أمتار من كلا الجانبين. أردت أن أسأل هاربر عن حمض ريتشارد بينا النووي، وما تم اكتشافه، لكنني لم أكن أودّ أن أشتت انتباهها خوفاً من أن نصطدم بجدار.

بمجرّد خروجنا من النفق، انتهت حالة الذعر. دخلنا في الشارع الثامن والثلاثين، على بعد مبنى واحد من المنزل الذي استأجره بوبي، وانتظرنا هناك. كان هذا الجزء من «ميدتاون» هادئاً جداً. كان معظم قاطنيه من أطباء الأسنان والأطباء البشريين. وتصطف على اليمين واليسار سيارات دفع رباعي راقية، أو سيارات رياضية لأطباء الأسنان الذين يمرّون بأزمات منتصف العمر.

«هل أحرزت تقدماً بما يخص حمض ريتشارد بينا النووي؟» سألت هاربر.

«نعم. كان ريتشارد بينا معروفاً، من خلال حمضه النووي، بلقب سفاح تشابل هيل، وتوافق حمضه النووي مع ما كان موجوداً على ورقة الدولار. لقد تطوّع ألف وأربعمئة شخص لفحص الحمض النووي. وكان ريتشارد بينا واحداً منهم. قال الشرطي في تشابل هيل إنه نظراً للعدد الكبير من المتطوّعين، لم يستطيعوا التعامل مع جميع العيّنات. كان عليهم تدريب رجال أمن الحرم الجامعي لأخذ عيّنات من أعضاء هيئة التدريس والموظفين والطلاب في الجامعة. وأدلى عنصر أمن يُدعى «راسل ماكبارتلاند» بشهادته التي تقول إنه أخذ عيّنة من ريتشارد بينا، وأغلقها وأعطاها للشرطة. وتوصّلت إلى عنصر من شرطة تشابل هيل ليدقق في ملفّات موظفي الجامعة».

«كيف يمكنك التوصّل إلى رجال الشرطة وجعلهم ينفّذون كل هذه الطلبات من أجلك؟» سألتُ هاربر.

ابتسمت وأجابت: «لدي طرقي في الإقناع».

ما كنت لأشك في ذلك. اعتقدت أن راسل ماكبارتلاند هو اسم مستعار لجوشوا كين. لا يمكن أن يرتكب كل هذه الجرائم بهذه الدقة، دون أن يترك خلفه دليلاً واحداً. عاجلاً أم آجلاً كان سيترك وراءه حمضه النووي. أعتقد أنه حصل على وظيفة في أمن الحرم الجامعي تحت اسم مزيف. إن وظيفة من هذا النوع من شأنها أن تضمن له ثقة غير محدودة من الطالبات. حين يكون هناك قاتل طليق، يرجّح أن تثق الشابات المعرّضات للاعتداء بأي رجل أمن يقترب منهن، أو يعرض عليهنّ مرافقتهن إلى المنزل. وحينها يمكن أن يُسيء التصرف. لا بدّ أن كين قد ترك حمضه النووي على أحد الدولارات التي تم العثور عليها مع إحدى الضحايا. وعرف أن الأمر سيُكتشف حالما تطلب الشرطة عينات الحمض النووي للذكور الموجودين في المنطقة. لقد استخدم كين هذا الأمر لصالحه. أخذ عيّنة من البوّاب ريتشارد بينا. من السهل عليه أن يمرر «عوداً عليه قطن» على وجنة ريتشارد، ويحتفظ بها في زجاجة. ولا يبقى عليه بعد ذلك سوى أن يستبدل عيّنة ريتشارد بالعيّنة التي تحمل اسمه. كان تحليل الحمض النووي لريتشارد بينا هو في الواقع تحليل كين. لم يكن «بينا» قادراً على تحمل نفقات محامي الدفاع - ولن يمثّل أحد سفاح تشابل هيل دون مقابل. كما لن يتمكّن مكتب الدفاع العام في تلك الأيام من هدر ميزانيته لإعادة اختبار حمض ريتشارد بينا النووي. هذا هو السبب في أن العيّنة الموجودة على الدولار الذي عُثر عليه في فم كارل توزر تعود لريتشارد بينا. ليس من المنطقي أن يكون ريتشارد هو من لمس الورقة النقدية لأنه

كان قد مات مُسبقاً. لقد كان حمض كين النووي طوال الوقت، لكنه كان مصنّفاً في قاعدة البيانات على أنه حمض ريتشارد بينا.

إنه ذكي جداً.

ظننت أن جميع موظفي الأمن سيكون لديهم صورة بطاقة شخصية في سجلات الموظفين. وكنت أنتظر أن تتصل هاربر لتقوم بسحب صورة كين عن بطاقة راسل مكبارتلاند الشخصية.

ليس هناك من تفسير آخر.

رن هاتف هاربر والتقطته. كان صوت ديلاني على مكبرات الصوت داخل السيارة.

«مسحنا الشارع والمنطقة، لا أثر له. ثمة عدد قليل من الناس المتجولين في المنطقة، لكن لا شيء خارج المألوف. الناس في طريقهم إلى المنزل من النوادي الليلية والحانات، وثمة اثنان من المدمنين متدثرين ببطانيات في نهاية الشارع، وهناك شخص أمام حانة أوبراين، ينام من التخمة في مقعد سيارته من نوع «أوستن مارتن». نحن نراقب الآن، لكن ليس هناك ما يشير إلى كين حتى الآن».

«هل يمكننا الدخول لرؤية بوبي؟» سألتها.

«بالتأكيد، لكن ليس لوقت طويل»، قالت ديلاني وأنهت الاتصال.

«ستذهب أنت. سأقلّك إلى الموقع وأركن السيارة في الشارع»، قالت هاربر.

توجهنا إلى الشارع التاسع والثلاثين، كان منزل بوبي في منتصف الطريق.

فكرت ببوبي وكيف سيكون ردّ فعله على ما سأقوله. كنت واثقاً تماماً أنني أستطيع إنهاء القضية المرفوعة ضدّه في المحكمة صباحاً إذا قبض الفيدراليون على رجل الدولار هذه الليلة. لقد حدث الكثير، ومات أرنولد ولم يكن لدي الوقت الكافي للتعامل مع الأمر. بطريقة ما، استطاع كين أن يورطني بجريمة قتل أرنولد بدولار آخر.

«أوقفي السيارة»، قلت.

«ما الأمر؟» قالت هاربر.

«توقفي الآن. أريدك أن تتصلي بشرطي تشابل هيل. لم يكن كين يعتمد على حظه فقط خلال هذه السنوات كلها»، قلت لهابر.

اتصلت هاربر بالشرطي، وانتظرنا. أجاب وقال إنه وجد ملف حارس أمن الحرم الجامعي الذي يُدعى ماكبارتلاند. كان سيرسله صباحاً لكنها أقنعته بإرساله كصور عبر الهاتف، وفعل الشرطي ذلك. اتصلتُ بديلاني، وأطلعتها على كل شيء.

أصبحت أجزاء الأحجية كلها مجمعة الآن. تحدثنا عنها مدة عشر دقائق، ثم أقلّتني هاربر إلى أمام منزل بوبي. كان مبنياً من حجر وردي يصعب وصفه. إنه حي مثالي للاحتماء من عاصفة وسائل الإعلام.

تسلقت الدرجات الأولى وطرقت الباب الأمامي لمنزل بوبي. لسعَ البرد وجنتي، ونفخت في يدي. فتح هولتن الباب، وبدأت أشعر بالحرارة تتدفق من المنزل.

كان لا يزال مرتدياً بنطال بزّته السوداء، وربطة عنقه. لقد خلع السترة فقط. وشعرت بالاطمئنان لأنه لا يزال حاملاً سلاحه الشخصي، وهو مسدس صغير من نوع «غلوك» في جيب جلدي على شكل فطيرة تتدلّى من حزامه.

«هل أنت بخير؟» سأل هولتن.

«أنا بأسوأ حال. هل بوبي بخير؟»

«تفضّل، إنه في الطابق العلوي. هل من أخبار جديدة؟»

دخلت إلى المنزل أمام هولتن، وشعرت بالامتنان عندما أغلق الباب خلفي فوراً. لم أكن أرتدي معطفي، وتلك المسافة القصيرة من السيارة إلى الباب جعلتني أرتجف من البرد. لحسن الحظ، كان المورفين لا يزال يقوم بعمله، ولولاه لما كنت قادراً على الحركة بسبب أضلاعي المكسورة.

كان الممر مظلماً، لكن هناك ضوء يتسلل إلى زوايا غرفة المعيشة. سمعت صوت تعليق على مباراة بيسبول على التلفاز. ثم تنحّيت لأفسح المجال لهولتن بالمرور.

«اصعد لتراه. إنه في الطابق الثاني. لقد قمت بتسجيل المباراة، سنحقق التعادل وحسب، هذا أفضل ما لدينا. لا أشعر بأننا معرّضون للخطر بوجود كل

هؤلاء العملاء الفيدراليين في الخارج. أستطيع الاسترخاء قليلاً، أليس كذلك؟» قال هولتن.

أومأت برأسي، «بالتأكيد. لقد مرّت أيام عصيبة. لكن أعتقد أن النتيجة الآن تميل لصالح بوبي. نأمل أن تنتهي المحنة قريباً».

مضى هولتن إلى غرفة المعيشة. رأيته يستلقي على أريكة كبيرة أمام شاشة مسطحة كبيرة عندما قال: «هل عرفت الرجل؟ أعني رجل الدولار؟»

«ربما، أعتقد أن لدينا ما يكفي من المعلومات لإلغاء المحاكمة على الأقل. إذا قبضنا عليه، أظن أننا سنصل إلى حكم بالبراءة».

رأيت هولتن يفتح زجاجة بيرة ويقدّمها لي.

«أتريد واحدة؟ يبدو وكأنك لا تستطيع أن تمسكها»، قال هولتن.

كان على حق. لا أستطيع أن أمسكها. وأصعب من ذلك بعشرين مرة.

«لا، شكراً»، أجبته.

صعدت الأدراج ووصلت إلى الطابق الأول، وتبعت الممر وصولاً إلى الدرج المؤدي إلى الطابق العلوي وأنا أنادي باسم بوبي.

لا إجابة. عندما وصلت إلى أعلى الدرج، شعرت بالبرد مرة أخرى. كانت الأضواء مطفأة، وظننت أن بوبي قد يكون في سريره. لسع نسيم جليدي وجنتي. كانت النافذة المطلّة على الشارع مفتوحة. اتجهت نحوها بصمت، حدقت في الخارج. كانت النافذة مفتوحة بمسافة قدم أو ما شابه، وكانت تؤدي إلى سلّم الطوارئ. أخرجت رأسي، ونظرت حولي. ما من أحد في الأعلى، ولا في الأسفل، على سلّم الطوارئ.

أعدت رأسي إلى الداخل فإذا بيد تطبق على فمي، وتجبرني على التراجع. في اللحظة الأولى، لم أتحرك. لقد سكنت أنفاسي تماماً. كانت ردّة فعلي الغريزية هي أن ألتقط معصم يد المهاجم، وأستدير نحوه، وأثبّت معصمه خلف ظهره.

هذا عندما شعرت بشيء حاد في ظهري. نصل سكين.

نظرت إلى النافذة، رأيت حينها انعكاس صورة عضو هيئة المحلّفين، برادلي سامرز. كان يقف خلفي، لكنني استطعت أن أرى وجهه. كان يحدّق في الصورة المنعكسة أيضاً، لملاقاة نظراتي. كان لا يزال بإمكاني الاستماع إلى الأصوات البعيدة للمعلّقين الرياضيين في التلفاز في الطابق السفلي.

لم أجرؤ أن آتي بحركة واحدة. ولو فعلت ذلك، ما من شكّ في النتيجة. سيغرس كين هذا السكين في ظهري.

كان هاتفي لا يزال في سترتي. إذا تمكنت من الوصول إليه، فقد أستطيع الاتصال بهاربر، كما فعلت في مؤخرة سيارة الشرطة قبل ساعات فقط.

خطرت هذه الأفكار كلها في ذهني خلال ثانية. ثم أدركت أن لدى كين الأفكار ذاتها على الأرجح. كان يتفحّصني في الزجاج، ويتحقق من ردود أفعالي. دنا برأسه، وتحسست أنفاسه بينما كان يهمس في أذني.

«لا تتحرّك، ولا تفكّر حتى في الحركة أو طلب المساعدة. سوف تموت هذه الليلة يا فلاين. والسؤال الوحيد هو كم سيكون موتك بطيئاً، وما إذا كنت سأقتل محققتك الجميلة. إذا أردت موتاً سريعاً وغير مؤلم، أستطيع أن أفعل ذلك. عليك فقط أن تنفّذ ما أقول».

الفصل الحادي والسبعون

يستطيع كين أن يشعر بنبضات قلب فلاين. فمع ضغط يده اليسرى بإحكام على فمه، كان ساعده يضغط أيضاً على رقبته. ذلك الاندفاع عاد مجدداً. ذلك النبض الجليل الحيّ الذي ينقر على دفّ الخوف وتدفّق الأدرينالين.

«سأبعد يدي، وستفعل ما أقوله تماماً. لا تصرخ، أي كلمة أو همسة واحدة ستودي بحياتك. ثم سأقتلها، تلك المحققة. حينها فقط سأفعلها ببطء، سأسلخ جلدها حتى تتوسل الموت. إذا كنت تفهم ما أقول، أومئ برأسك».

أومأ فلاين برأسه مرة واحدة.

خفف كين من عزم قبضته، وأبعد يده عن فم فلاين. وأخذ المحامي نفساً عميقاً إذ أوشك الذعر أن يخنقه.

«بيد واحدة، أريدك أن تسحب هاتفك وترميه على الأرض»، قال كين.

دسّ يده في جيب سترته، وأمسك هاتفه الخلوي، وأسقطه. وثب الهاتف مرتين على الأرضية المغطاة بسجاد سميك دون أن يصدر أي صوت تقريباً.

تراجع كين خطوة إلى الخلف وقال: «الباب على يمينك، افتح وادخل».

استدار وفتح الباب، ثم دخل إلى غرفة نوم مظلمة. لم تكن الستائر مسدلة تماماً مما أفسح المجال لمصابيح الشارع في إلقاء بعض الضوء على الغرفة في وهج أصفر قاتم. ثمّة سرير من جهة اليمين، وباب حديدي كبير وثقيل في الأمام.

كان ذلك الباب مغلقاً. وهناك كاميرا مراقبة معلّقة فوق الباب وعليها نقطة حمراء. كانت موجّهة إلى الأسفل لتغطية المنطقة أمام الباب الحديدي.

اتجه كين نحو الباب، وانتظر على عتبة غرفة النوم.

«تمكّن سولومون من الوصول إلى غرفة الطوارئ قبل أن أتمكن من الوصول إليه، وأريد منك أن تقنعه بالخروج. إنه يراقبك على الكاميرا، أخبره أنني رحلت. أخبره أن الشرطة هنا وأنه بأمان. أخرجه من مخبئه الآن من فضلك»، قال كين.

لم يتحرك المحامي. رآه كين يتفحّص الطاولة القريبة من الباب. كان عليها مصباح وهاتف، ويميل كابل الهاتف إلى الأسفل، ثم إلى الجهة الخلفية من الطاولة، ثم إلى مقبس في الجدار. وبجانب باب غرفة الطوارئ، ثمة غطاء كابل يؤدي إلى المقبس ذاته. تم نزع ذلك الغطاء من الجدار، وقطع الكابل الذي يصل إلى الخط. لقد كانت غرفة طوارئ قديمة، وربما بُنيت قبل وجود الاتصالات الهاتفية. حيث لم تكن هناك طريقة للحفر في الإسمنت من أجل توصيل الخط، وكان لا بد من وصول الخط إلى المقبس. كان كين ممتناً لذلك. لقد تمكّن من قطع الأسلاك قبل أن يتمكن بوبي من إجراء اتصال من داخل غرفة الطوارئ.

«أنت تهدر الوقت، أخبره أنه بأمان، وأخرجه». قال كين.

تقدّم المحامي، ووقف أمام الباب.

«أخبره بذلك»، قال كين.

رفع المحامي رأسه، ونظر إلى الكاميرا وقال: «بوبي، هذا أنا، إيدي».

أعاد كين قبضته على السكين ودخل الغرفة ببطء، محافظاً على المسافة التي تبقيه بعيداً عن مجال الكاميرا.

قال فلاين: «بوبي، اسمعني جيداً. أنت آمن، أنت بأمان تام. أريدك الآن أن تفعل شيئاً واحداً فقط....».

انسل لسان طويل من فم كين، ودار حول شفتيه. كان يشعر بالنبض السريع في قلبه التواق للقتل.

قال فلاين: «بوبي، مهما حدث، لا تفتح هذا الباب».

غبي، قال كين في نفسه.

سوف يصل إلى سولومون. ربما ليس في هذه الليلة، لكن عاجلاً. إلا أنه على المحامي الآن أن يدفع الثمن. قبض على السكين الخزفية وشعر بأول دفق للحرارة في دمه. شاهد المحامي يُمسك ربطة عنقه ويغطي فمه وأنفه.

كان ذلك عندما تحطّمت النافذة إلى يساره، وامتلأت الغرفة بالغاز المسيل للدموع.

الفصل الثاني والسبعون

ما إن انفجرت العبوة الأولى في زاوية غرفة النوم، حتى سمعتُ صوت زجاج حولي. اندفع اثنان من العملاء الفيدراليين بلباس القوات الخاصة وأقنعة الغاز عبر نافذة غرفة النوم. سمعت صوت تحطم زجاج في الممر، ورأيت عضواً آخر من فريق القوات الخاصة يقف على أقدامه خلف كين. أعطاني العميل الأقرب إلي قناعاً فتمكنت من الركوع على ركبتي، والزحف إلى زاوية قبل أن أضعه على وجهي. كنت أشعر بلسعة في عينيّ في اللحظة التي ألصقت فيها شريطة القناع في مؤخرة رأسي.

سمعت تصريح العملاء الفيدراليين عن أنفسهم، وتحذير كين برمي السكين والاستلقاء على الأرض. لم أتمكن من رؤيتهم. ومع فتح النوافذ في غرفة النوم والممر، والريح الشتوية في الخارج، سرعان ما أصبح في الغرفة سحابة دخان أبيض لا يمكن اختراقها. كانت السحابة تندفع من النوافذ، لكنني في اللحظات القليلة الأولى لم أتمكن من رؤية أي شيء.

رشقة طلقات نارية من سلاح آلي. صوت طلقات فارغة ترتطم بالأرض. ثم توقف كل شيء. سمعت صوت تأوه، وصوت شيء ثقيل يسقط على الأرض. ثم بدأ إطلاق النار فعلاً، بدا صوت طلقتين ناريتين يصمّ الآذان. ورأيت وميض البنادق عبر الدخان، لكنني لم أتمكن من معرفة اتجاه إطلاق النار.

تحرك الشخص بسرعة عبر الدخان، واستطعت أن أرى الهيئة فقط. انحنى الشخص في زاوية الغرفة ثم نهض، ثم سمعت صوت زجاج يتكسّر، ورأيت قوس دخان من النافذة. وسمعت وقع خطوات على الدرج. كانت خطوات ثقيلة وسريعة.

انقشع الدخان، فوقفت وتعثّرت بجثّة عميل فيدرالي على الأرض، كان هو من أعطاني القناع الواقي من الغاز. كان مذبوحاً من الحنجرة، وسلاحه مفقود. خلفه تماماً كان هناك عميل ثانٍ مستلقٍ على وجهه. وهناك في الردهة، رأيت كين، كان يقف فوق جسد العميل الأخير الذي اخترق النافذة في الطابق الثاني. كان مستلقياً على السجاد، ويرتعش. أفرغ كين ما تبقى من الذخيرة في جسده، فتوقف العميل عن الحركة. عندئذٍ رمى كين سلاحه والتقط السكين وتوجّه إلي.

كانت عيناه حمراوين، وتذرفان الدمع، لكنه لم يكن يكترث بذلك. رأيت بقعة داكنة على قميصه، على البطن تماماً. لقد أُصيب قبل أن يتمكن من قتل العميل الأول والاستيلاء على سلاحه. وهنا أيضاً لم يبدُ أن ذلك يبطئه أو يسبب له أي إزعاج.

ولا حتى القليل منه.

من أي شيء صُنِعَ هذا الرجل؟

ثمة عشر أقدام بيني وبينه. تصاعدت الخطا على الدرج وأصبح الصوت أعلى. تراجعت حتى اصطدمت ساقاي بالباب الفولاذي لغرفة الطوارئ. تقدم كين إلى الأمام والابتسامة تعلو وجهه.

أخذت مسدس هولتن من جيب معطفي وأطلقت النار على صدر كين. لقد سرقت السلاح منه عندما أولى ظهره لي ليغلق الباب الأمامي. دفعت الطلقة كين بضع خطوات إلى الخلف لكنه بقي واقفاً على قدميه بشكل يُثير الدهشة. نظر إلى الأسفل ورأى الجرح، فرفع رأسه وفغر فاه. خرج الدم من شفتيه وتقدّم نحوي مرة أخرى.

طلقة أخرى أصابته في الكتف. لم يتوقف هذه المرّة أيضاً.

ثماني خطوات تفصله عني. ولا تزال السكين في يده القذرة.

ضغطت على الزناد مراراً وتكراراً. أخطأته مرة، ثم أصبته في المعدة والصدر ولا يزال يتقدم.

خمس أقدام. أصبح وقع الخطوات في الممر الآن.

وجّهت المسدس إلى الأسفل وأطلقت النار مرتين. أخطأت في الأولى، وأصابت الثانية ركبته فسقط. لكنه بدأ يزحف وينزف الدم مع لهاثه.

ثلاث أقدام، ثم غرس السكين في فخذي. تغيرت عيناه في تلك اللحظة الأخيرة؛ تراخت وهدأت. تماماً كما لو أنه أزاح عبئاً عن صدره بينما كان يحدّق بفوهة المسدس.

ضغطت الزناد مرة أخيرة وفجّرت مؤخرة رأسه.

خارت ركبتي بينما انسلّ الألم إلى جسدي. ثمّة جرح طويل في فخذي، وكنت أشعر بالدم يغمر سروالي. تشتت تفكيري، وتمايلت الغرفة. لا بدّ أنني سقطت على الأرض. رأيت مسدس هولتن أمامي، لا بدّ أنني أسقطه. نظرت إلى الأعلى ورأيت هولتن يقف فوقي، ويلهث. انحنى، والتقط مسدسه.

حدّقت فيه، وعرفت أنه اتخذ قراره. أخرج مخزن الذخيرة ونظر إليه. كان هناك طلقتان على الأقل. لم أستطع التنفس في ذلك القناع اللعين فمزّقته.

«الثلاثاء، في مطعم «داينر». التقينا لتناول الإفطار قبل أن نذهب إلى مسرح الجريمة»، قلت له.

ركع هولتن وحدّق في جثّة كين.

«لم أعتقد أبداً أنني سأشهد هذا اليوم»، قال هولتن.

هزّ رأسه غير مصدّق فوق جثة كين.

«لم يكن هناك مثيل له. لا يمكن أن يُصاب بأذى، ولا يشعر بالألم. ظننت أنه ليس من البشر»، قال هولتن.

«في مطعم «داينر». أخذت النقود التي أخرجتها لدفع الحساب، وأعدتها لي، وقلت إنك ستدفع. لقد أخذت أحد هذه الدولارات، وأعطيتها لكين. لقد ساعدته على الإيقاع بي. كنت تساعده على مدار الوقت»، قلت لهولتن.

نهض، ثم التفت إلي ولاحت ابتسامة على وجهه.

كانت ابتسامة ملتوية شريرة. كنت قد رأيت الصورة التي أرسلها شرطي تشابل هيل إلى هاربر. لم يتغير هولتن إطلاقاً. أردته أن يعرف أن أمره قد انكشف، ولم يعد بإمكانه التخفي خلف اسم مستعار. كان صوتي يتقطّع، والألم لا يُحتمل. لكنني تابعت بطريقة ما: «لقد استبدلت عيّنة حمض ريتشارد بينا النووي، بعيّنة كين في تشابل هيل. أليس كذلك أيها الشرطي راسل ماكبارتلاند؟»

أعاد تلقيم المسدس ووجّهه إلى رأسي.

ضغطت على أسناني. والتقت عيني بعينيه.

بدأ جسده يرتعش، وتحوّل الزجاج المحطم الذي كان لا يزال عالقاً بإطار النافذة إلى ظل شديد الاحمرار قبل أن تسقط جثّته من النافذة.

وقفت ديلاني إلى جانب هاربر في الردهة وخفضتا أسلحتهما. سمعت ديلاني تستدعي المسعف الطبي، وساد الظلام مرة أخرى. حاولت أن أفتح عيني لكنني لم أستطع. شعرت بثقل في رأسي، وغمرني العرق. كان ظهري ينزلق على الباب ولم أتمكن من وضع قدمي لأوقف انزلاقي. كنت أنزلق إلى الأسفل بسرعة.

قبل أن أهوي تماماً، شعرت بيد على وجنتي. لم أستطع تحديد ما يُقال. كان أحدهم ينقر على الباب المعدني. سأل بوبي ما إذا كان الوضع آمناً للخروج. حاولت أن أقول له إنه ليس بحاجة لأن يذهب إلى المحكمة هذا الصباح، وأن القضية المرفوعة ضده قد انتهت. لكنني لم أستطع العثور على الكلمات.

الفصل الثالث والسبعون

في الأسابيع الثمانية التي مرت منذ تبادل إطلاق النار في الشارع التاسع والثلاثين، ظهرت الصورة الكاملة لرجل الدولار. كنت ضعيفاً جداً ولا أستطيع أن ألتقي بديلاني، لكنها اتصلت بهاري وأخبرته. كنت أقيم في منزله ريثما أتماثل للشفاء، وروى لي القصة كلها.

كان كين قاتلًا شهيراً، وتم العثور على حمضه النووي في ثلاث مسارح جرائم أخرى. وقد اختفى رجل يدعى والي كوك ضمن أسبوع المحاكمة، وعُثر على حمض كين النووي على إطار سيارة كوك المثقوب، التي كانت متوقفة أمام منزله، وتم التعرّف على جثته لاحقاً من خلال فحص سجلات الأسنان. كان هذا الرجل على قائمة هيئة المحلّفين لمحاكمة سولومون. كما تم العثور على جثّة بريور خلف مقود سيارته «أستون مارتن» المركونة في شارع بوبي.

غادر كين فندق جرادي، والتقى بريور، أخذ ملابسه، وقتله، ووضع معطفاً عليه، وقبعة على وجهه لتغطية الثقب المفتوح في محجر عينه.

وعلى الرغم من عدم إمكانية الإثبات بشكل قاطع، يُعتقد أيضاً أن كين قد قتل عضوين في الهيئة هما مانويل أورتيغا وبريندا كولسكي.

حصلت ديلاني على المزيد من المعلومات عن هولتن، الذي كان اسمه الحقيقي راسل ماكبارتلاند. فقد تم تسريحه من الخدمة العسكرية بعد سلسلة ادعاءات تحرّش جنسي. ومع عدم إمكانية إثبات أيٍّ منها، قدّم ذلك للإدارة دافعاً كافياً لطرده بسبب سلسلة مخالفات بسيطة دبّرها له زملاء آخرون في الخدمة. حصل بعد ذلك على وظيفة رجل أمن في جامعة تشابل هيل، قبل فترة وجيزة من بدء سلسلة عمليات الاغتصاب الوحشية التي حدثت في الحرم الجامعي. من الناحية العملية، كان شرطياً، وكانت الشابات يضعن ثقتهن به عندما يرونه قادماً نحوهن. وعندما تم العثور على الضحية الأولى لسفاح تشابل هيل، ساد اعتقاد بأن المغتصب قد رفع مستوى التحديات، لكن مكتب التحقيقات الفيدرالية فكّر بشكل مختلف. كانت ديلاني مقتنعة بأن كين سعى خلف ماكبارتلاند، وهدد بفضحه ما لم يساعده على إخفاء جرائمه.

عمل الاثنان معاً بطريقة جيدة. كان لدى ماكبارتلاند خلفية أمنية ومعارف من الشرطة. وجميع الموارد التي يمكن أن يحتاجها كين. وكان يعرف طبعاً

الأشخاص المناسبين عندما يتعلّق الأمر بتغير بطاقات الهوية. لم يكن كين محظوظاً خلال تلك السنوات - كان لديه من يساعده.

ثم بدأت حالات التبرئة. بعضها بعد الوفاة، ومعظمها قبل. كما تم إطلاق سراح الأشخاص الذين استطاع رجل الدولار إدانتهم، وبدؤوا طريقاً طويلاً للحصول على تعويضات عن الإدانات الخاطئة. وبغضّ النظر عما حصلوا عليه، فإن هذا لن يعيد إليهم حياتهم.

استلقيت على أريكة هاري، أشاهد إعادة مسلسل «كاجني ولاسي». وكان بوبي يتصل بي يومياً تعبيراً عن شكره لي لإنقاذ حياته. ومرّة أخرى، كان هاري لطيفاً بما يكفي ليتحدّث معه من أجلي. شاهدت مقابلة بوبي على قناة «سي إن إن». تحدّث عن محنة محاكمته على جريمة لم يرتكبها. كما تحدث عن إصابته بالصرع، وكيف أخفاها في حياته المهنية. وتحدّث عن مثليته الجنسية. أخبر المراسل أنه كان مع رجل آخر في الليلة التي قُتِلت فيها أرييلا وكارل. كان الشخص الآخر ممثلاً عالمياً مشهوراً يعيش في كذبة. وكيف لا يزال هذا الألم يلاحقه، وكيف أخفى ذلك العار عن الجميع - حتى عن محاميه.

لقد غفرت أمريكا لبوبي حتى لو لم تغفر له هوليود. سمعت طرقاً على الباب الأمامي، فدخل هاري ومعه كيس ورقي أسمر على شكل زجاجة.

وضع المغلّف على الطاولة إلى جانب كومة رسائل، ثم جلب كأسين وسكب كأساً لكل منا.

«ما الذي تشاهده؟» قال هاري.

«كاجني ولاسي»، أجبته.

«لطالما أحببت هذا البرنامج»، قال هاري.

احتسى جرعة مشروبه ووضع كأسه وقال: «يريد بوبي سولومون تعيينك لديه».

«من أجل ماذا؟»

إنه يعمل على تجربة في شركة «نيتفليكس»، حول محتال أصبح محامياً»، قال ذلك وهو يبتسم.

«هذا لن ينجح»، أجبته.

رآني هاري وأنا أحدّق في الرسائل، فأخذها كلها وأبعدها.

«هل من بين هذه الرسائل ما هو لي؟» سألته.

لم يجب على سؤالي. كنت قد رأيت مغلّفاً كبيراً أسمر مألوف الشكل.

«أعطني إياه يا هاري»، قلت له.

تنهّد، ثم التقط المغلّف الأسمر وقدّمه لي.

«لست بحاجة إلى فعل ذلك الآن»، قال هاري.

فتحت المغلّف وأخرجت الأوراق وجلست. كانت ساقي لا تزال تؤلمني بشدة، لكنني كنت أتماثل للشفاء. وقد أخبرني الطبيب بأنني سأتخلّص من عكازي في غضون أسابيع قليلة. شعرت الآن بوخز بسيط فقط. كانت الأوراق الموجودة على الطاولة أشد ألماً. التقطت قلماً من العلبة التي يحتفظ بها هاري على الطاولة، وقمت بتقليب بعض الصفحات، ثم وقّعت على أوراق الطلاق والحضانة.

تجرّعت كأسي وشعرت للمرة الأولى، منذ فترة طويلة، بطعم الكحول. ملأ هاري الكأس مجدداً.

«أستطيع أن أتحدث مع كريستين»، قال هاري.

«لا تفعل، هذا أفضل لهما. كلما ابتعدتا عني كلما كانتا بأمان أكثر، هذا هو الواقع. عندما كنت في منزل بوبي في ميدتاون، وهددني كين أنا وهاربر، كنت مسروراً جداً. فلو كنت مع كريستين وإيمي، لكان قد هدد حياتهما، أو حدث ما هو أسوأ من ذلك. من الأفضل لهما أن تكونا بعيدتين عني».

«لقد أعطاك بوبي الكثير، تستطيع الآن أن تخرج من هذه اللعبة يا إيدي. افعل أي شيء آخر».

«ماذا يمكنني أن أفعل؟ لست في حال أفضل للعودة إلى ألعاب الاحتيال».

«لم أقصد ذلك. اتخذ أية مهنة أخرى، أي شيء قانوني».

بدأت الإعلانات التجارية، وكان الإعلان الأول مقطعاً ترويجياً لفيلم وثائقي عن بوبي سولومون وأرييلا بلوم. كانت وسائل الإعلام تستغّل بوبي في كلّ شيء طالما أنه لا يزال مثيراً.

بعده مباشرة، رأيت إعلاناً آخر لمقابلة مع رودي كارب. كان رودي يظهر على جميع البرامج الحوارية والقنوات الإخبارية مدّعياً نصره في قضية سولومون. لم أكن أهتم بذلك، تركت ذلك له. لا جدوى من الصراع من أجل المجد مع محامٍ من هذا النوع. أنا لم أقبل القضية بهدف الشهرة؛ كان ذلك آخر شيء أفكر فيه.

«أعتقد أنني سأبقى في عملي كمحامي دفاع».

«لماذا؟ ألا ترى كم كانت تكلفة ذلك كبيرة يا إيدي، لماذا تفعل ذلك؟»

لم أكن حتى أنظر إلى هاري، لكنني شعرت بأنه عرف الإجابة مُسبقاً.

«لأنني أستطيع. لأنه ينبغي علي ذلك، لأنه سيكون هناك دوماً أشخاص مثل آرت بريور ورودي كارب في هذا العمل. وعلى شخص مثلي أن يفعل ما هو صحيح».

«لكن لا ينبغي دائماً أن يكون هذا الشخص هو أنت».

«ماذا لو قال الجميع ذلك؟ ماذا لو لم يدافع أي شخص عن شخص آخر لأنه يتوقّع من آخر أن يفعل ذلك؟ لا بدّ أن يقف شخص آخر على الجانب الآخر من الخط. وإذا سقطت، سيضطر أحدهم أن يأخذ مكاني. كل ما عليّ فعله هو أن أبقى ثابتاً أطول مدة ممكنة».

«أنت لم تبقَ ثابتاً في الآونة الأخيرة. تريد هاربر أن تراك».

تركت المجال للصمت.

جمعت الأوراق التي أعدّها محامي «كريستين»، وأعدتها إلى المغلّف. عاد ذهني إلى غرفة النوم تلك، في «ميدتاون». أخرجت خاتم زواجي ووضعته في المغلّف. كان من الأفضل لهما إذا لم يكن لدي عائلة. كانتا رائعتين بالنسبة إلي، وقد أحببتهما كثيراً.

أبقيت خاتم كريستين في محفظتي، لم أكن أعرف حينها ماذا أفعل به. كنت سأستمر بالطلاق طبعاً، وأوافق على كل ما تريده مني. كان ذلك أفضل لهما.

أفرغت كأسي وسكبت كأساً آخر. واستلقيت مجدداً على الأريكة.

قال هاري: «ما الذي ستفعله الآن؟»

أمسكت هاتفي وفكّرت أن أتصل بكريستين. كنت أرغب بالتحدث معها لكن لم يكن لدي أيّة فكرة عما أودّ أن أقوله لها. ومن جهة أخرى، أدركت أن لدي الكثير مما أودّ قوله لهاربر، لكنني فكرت أنه ربما من الأفضل لتلك الأشياء ألا تُقال.

حدقت في الهاتف طويلاً قبل أن أختار الاسم وأضغط على زر الاتصال.

***

هوامش

(1) التجارة العادلة هي تجارة يتم فيها دفع أسعار منطقية للمنتجين من البلدان النامية. والقهوة العضوية هي نوع من القهوة التي تتم زراعتها وإنتاجها دون استخدام مواد كيميائية صناعية كمبيدات الحشرات ومبيدات الأعشاب. أما «الكومبوتشا» فهو مشروب يتم تصنيعه بالتخمير، يحتوي نسبة خفيفة من الكحول، وفيه حلاوة كالشاي الأسود أو الأخضر. المترجم.

(2) عصابة من راكبي الدراجات النارية نشطت في أميركا في العقود الماضية. (المترجم)

مؤلّفات «ستيف كافاناغ» الأخرى

The Defence

The Cross (novella)

The Plea

The Liar